

دولة قطر
جامعة قطر

حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الأول

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الأول

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

مريود

أو هموم المثقفين للطيب صالح

دكتور ماهر حسن فهمي

استاذ وعميد كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية

مقدمة :

دراسة رواية أو مجموعة روايات تملي على الناقد — في كثير من الأحيان — أن يختار المنهج النقدي الملائم . فهو أحياناً يختار المنهج المعتمد على السيرة أو المنهج النفسي ، وأحياناً يختار منهجاً فنياً يعتمد على تشريح الرواية إلى شخوص تتحرك في الزمان والمكان لتحقيق أهداف معينة ، وأحياناً أخرى يختار منهجاً أكثر ملاءمة للعمل الذى أمامه . على أن الاتجاه التكاملى الذى يعطى حرية الحركة والاستفادة من أكثر المناهج في حدود النص ، هو أقربها إلى روح البحث . فنحن نستفيد من علم الاجتماع الأدبي أحياناً ، بل ومن علم الجمال في بعض الأحيان . ورواية الطيب صالح « مريود » تعتبر الجزء الثاني من « ضو البيت » ، بل لا يمكن فهم الجزأين إلا في إطار من بقية أعماله ولذلك كان لابد من خلفية توضح أهم الجوانب المشتركة بين روايات الطيب صالح . أما « مريود » نفسها فهي عدة لوحات تتناول حياة الإنسان السوداني في القرية ، ولكنها في الوقت نفسه تستغل الأسطورة استغلالاً فنياً ، وهنا تحتاج القصة إلى دراسة تحليلية تحاول الكشف عن الرؤية التي يصدر عنها الكاتب وأبعاد القصة ، إنها باختصار تمثل صراع الإنسان العربي المعاصر ، وسط حضارتين ، بل هي على وجه الخصوص تصور أزمة المثقفين في وطننا العربي .

* * *

لم تكن « دومة ود حامد » سوى البداية ، بداية تفكير عربي سوداني عاش نصف عمره في الشرق ونصفه الآخر في الغرب ، ثم عاد بمنظار جديد يرى به الأشياء والحياة . وهكذا صنع كثير من المفكرين والرواد منذ أواخر القرن الماضى ، منذ رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وقاسم أمين إلى طـــه حسين وزكي نجيب محمود وإبراهيم سلامة وغيرهم . وتناول كتاب

القصة فكرة الاحتكاك بين الشرق والغرب والعودة برؤية جديدة من زوايا مختلفة منذ « حديث عيسى بن هشام » للمويلحي إلى « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم و « الحي اللاتيني » لسهيل ادريس إلى الطيب صالح في أكثر من قصة . ولكن الطيب صالح يختلف عنهم جميعاً ، فقد استغرقت هذه الرؤية كل قصصه من « ودومة ود حامد » إلى « مريود » ثم هو قد التفت إلى عنصر واحد من عناصر التناول وهو الأسطورة . وعلى الرغم من إمكانية تناول الموقف النقدي لقصصه من زوايا عديدة ، فسوف نحاول تجميع هذه الخيوط من خلال تحليل هذا العنصر وكشف أبعاده في الحدود التي تسمح بها طبيعة القصة .

« ها هي ذى دومة ود حامد ... قررت الحكومة مرة قطعها عندما أرادوا أن ينظموا مشروعاً زراعياً ، وقالوا إن موضع الدومة هذا هو خير موضع لإقامة مكنة المـــاء . أهل بلدنا كما تراهم منصرفون كل إلى هم يومه ولا أذكر أنهم ثاروا على شئ قط . ولكنهم لما سمعوا بأمر قطع الدومة هبوا عن آخرهم هبة رجل واحد وسدوا على مفتش المركز السبل ... وسمعناه يصيح : خلاص فيه دومة ... مافيش مشروع » (١) .

إن دومة ود حامد صورة لقرية الطيب صالح التي نشأ بها وهي قرية بالمديرية الشمالية تؤمن – كما تؤمن كل قرى السودان – بأولياء الله الصالحين وتعتقد في شيوخ الصوفية وكراماتهم وأضرحتهم (٢) ، بل إن اســم « الطيب صالح » نفسه يرجع إلى الشيخ « الطيب» الولى الصالح في قريتهم . والدومة هنا رمز للعقائد التي يتمسك بها أهل القرية في إصرار برغم تخلفها ، بل هم يحاربون التطور ويسدون السبيل أمامه من أجل مجموعة أساطير قدسوها وأحالوها محور حياتهم وفكرهم ، وعاشوا حياة بدائية لا صحف ولا سينما ولا مستشفى ولا مدرسة ولا كهرباء ولا وسائل مواصلات سوى الحمير ، ولكنهم يتبركون بالدومة ويقدمون القرابين لود حامد تحت الدومة التي تشغل يومهم وتملأ حتى أحلامهم في صحتهم ومرضهم وأفراحهم ومآسيهم . وربما كان قطع الدومة أشبه بمحق لمقدساتهم ، ولكن القرية لم تكن على استعداد لإقامة محطة تقف عندها الباخرة وتغنيهم عن عناء السفر على الدواب لمجرد أن الباخرة سوف تقف عند القرية عصر يوم الأربعاء وهو الوقت المحدد

---

(١) دومة ود حامد ص ٣٨

(٢) تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٧١ .

في القرية لزيارة ضريح ود حامد عند الدومة ، يأخذون نسائهم وأطفالهم ويذبحون نذورهم . وأهل القرية يروون قصتها أبداً عن جد وتفعل الأساطير بألبابهم الأفاعيل . « كان ود حامد في الزمن السالف مملوكاً لرجل فاسق ، وكان من أولياء الله الصالحين ، يتكتم إيمانه ولا يجروءُ على الصلاة جهاراً حتى لا يفتك به سيده الفاسق . ولما ضاق ذرعاً بحياته مع ذلك الكافر ، دعا الله أن ينقذه منه . فهتف به هاتف أن افرش مصلاتك على الماء فإذا وقفت بك على الشاطئ فانزل » . وهكذا وقفت به المصلاة عند موضع الدومة ، وتستمر الأسطورة تحكى عن قيام البلدة دفعة واحدة وعن ود حامد صاحب الكرامات . ويستغل الساسة سذاجة الناس فيمكن أن تسقط وزارة وتقوم وزارة لأن معتقدات الناس قد مست ، هكذا وقف زعيم المعارضة ذات يوم يقول وصوته يتهدج بالعاطفة : « اسألوا رئيس وزرائنا الموقر عن دومة ود حامد ، أسألوه كيف أباح لنفسه أن يرسل جنده وأعوانه فيدنسوا ذلك المكان الطاهر المقدس ؟ » وحمل الناس الصيحة لأن لكل بلدة ولياً مثل ود حامد لا ينبغي أن يمس ، وهكذا سقطت الحكومة . ولكن الطيب صالح يبشر بالأمل ، فهذه الأساطير الضاربة بجذورها العميقة في الأرض يمكن أن تبقى ولكن يمكن أن يبقى أثرها محدوداً مادام التطور يسير ، مهما كان سيره بطيئاً . « حين يتخرج ابن ابنى من المدرسة ويكثر بيننا الفتيان الغرباء الروح ، فلعلنا حينئذ نقيم مكنة الماء والمشروع الزراعى ، لعل الباخرة تقف عندنا تحت دومة ود حامد » . إن دومة ود حامد مليئة بالحياة الصاخبة ولكن ابن القرية الذى شرب من الكأس حتى النخاع وعاش حياته لا يرى إلا التقاليد ولا يفكر إلا من خلالها ولا يحلم إلا بصورها ولا يتحرك إلا في إطارها ، يصدر في القصة عن هذه المشاعر التي اختزنها طويلا ، بعد أن تطورت رؤيته للحياة ، ومن هنا كانت هذه القصة القصيرة في إطار الذكريات .

وتأتي رواية « عرس الزين » لنرى فن رسم الشخصية وتحليلها وأثر ذلك كله في طرح أفكار جديدة تدور في فلك الأسطورة وتنبع منها . و « الزين » الشخصية الرئيسية في القصة من الدراويش أو من يطلق عليهم لفظ « المبروكين » ، فهو شخصية غريبة الملامح غريبة الأطوار ، مشوه لم تكن له حواجب ولا أجفان والذراعان طويلتان كذراعى قرد والظهر محدوب قليلاً إذا ضحك كان ضحكه أشبه بنهيق الحمار فهو باختصار أشبه « بأحدب

نوتردام » وهو إلى جانب هذا أبله يضحك الثكلى ، ولكنه طيب القلب يصادق الشواذ مثل الطرشاء والأعرج والمشلول ويعطف عليهم ، ولكل هذا « روجت أم الزين أن ابنها ولي من أولياء الله ، وقوى هذا الاعتقاد صداقة « الزين » مع « الحنين » وقد كان رجلاً صالحاً منقطعاً للعبادة يقيم في البلد ستة أشهر في صلاة وصوم ، ثم يحمل أبريقه ومصلاته ويضرب مصعداً في الصحراء ويغيب ستة أشهر ثم يعود ولا يدرى أحد أين يذهب ، ولكن الناس يتناقلون قصصاً غريبة . يحلف أحدهم أنه رآه في مروى في وقت معين ، بينما يقسم آخر أنه شاهده في كرمه في ذلك الوقت نفسه وبين البلدين مسيرة ستة أيام . . . ويرى أهل البلد هذه الأعمال من الزين فيزداد عجبهم ، لعله نبي الله الخضر ، لعـله ملاك أنزله الله في هيكل آدمي زرى ليذكر عبادة أن القلب الكبير قد يخفق حتى في الصدر المجوف والسمت المضحك » . مرة أخرى نلتقى مع الأساطير التي تملأ حياة هؤلاء البسطاء فالبلهاء من المجاذيب ، والشيخ الحنين يتواجد في مكانين بينهما مسيرة ستة أيام فهو إذن ولي من أولياء الله تطوى له الأرض ، هكذا تعلموا واعتقدوا ولا مجال لمناقشة الأمر من الوجهة العقلية ، وقد يرتفع الزين نفسه فيصبح نبي الله الخضر أو ملاكاً أنزله الله في هيكل آدمي ، أليس غريباً في ملامحه غريباً في أطواره ؟ مثل هذه الأوهـام تنسج أوكارها في المجتمعات العربية كلها بدرجات متفاوته وقد سمعنا أشباهها في قرانا عندما كنا صبية ولعلها ما تزال في القرى إلى الآن على الرغم من التطور الكبير الذى حدث في أعقاب الحرب العالمية الثانية وانتشار وسائل الأعلام وعلى الأخص أجهزة « الترانزستور » في أعماق القرى ، ولكن المشكلة أن الأُمية التي تخيم على القاعدة العريضة في مجتمعاتنا العربية تعوق حركة التطور . على أن القصة ليست وثيقة إجتماعية تناقش قضايا مجتمعنا ، ولكنها تشير اشارات وتوحى وترمز وسط أحداث تتطور وشخصيات تلتقى وإن كانت لا تنمو وعناصر تشويق لعل منها اللغة العربية نفسها بعطرها السوداني أو هذه اللهجة السودانية التي تنطق العربية نطقاً خاصاً « يمين قروشك حاضرات . اقعد انحكيلك حكاية عرس الزين » .

هكذا أصبح عرس الزين حديث المدينة ، خاصة إذا كانت التي قبلته زوجاً لها أجمل فتيات القرية « نعمة » . « كانت تحلم بتضحية عظيمة لا تدرى نوعها » و « تحس أن الزواج سيجيئها من حيث لا تحتسب » ولكن أهم من كل هذا أن الشيخ الحنين قال للزين (باكر

تعرس أحسن بنت في البلد دى) . إذن تأصل في نفس نعمة إيمـــان غيبي عميق تبعه إحساس خفي بالتضحية رأتها في الزواج بالزين ، فهو ليس زواجاً عادياً يجمع رجلاً وامرأة وإنما هو زواج تدفع إليه أسرار غيبية ويبشر به صوفي من رجال الله ، وهو زواج جرى جاء بقضاء الله . ومن الغريب أن يتفق في هذا الرأى أحد الباحثين ، ولكنه في الوقت نفسه يرى أن الكاتب يؤمن بتلك المعتقدات ويبدو كأنه يريد أن يقنع القارئ بصحتها وسلامتها (١) .

صحيح أن الشيخ الحنين قد دعا للرجال ، وكان الوقت قبيل صلاة العشاء بقليل وهو وقت يستجاب فيه الدعاء خاصة من أولياء الله أمثال الحنين كما يقول المؤلف . ثم توالت المعجزة تلو المعجزة فارتفعت أسعار القطن وبنت الحكومة معسكراً كبيراً للجيش والجنود يأكلون ويشربون فانتعشت البلد وبنت مستشفى كبيراً ومدرسة ثانوية وأخرى زراعية ، كيف تفسر هذا ؟ إن « حمد ود الريس » يقول إن نجماً له ذنب سطع تلك الليلة في الأفق الغربي ويبدو أن الناس تتفاءل بالنجم المذنب و « عبد الحفيظ » يعلم السر فهو يقول لمحجوب (معجزة يـــا زول ، ما في أدني شك) (٢) .

أليس في هذه المواقف الحياتية ما يذكرنا بكاهنة دلفى ؟ لقد كانت تقيم بمعبد أبولو الواقع (بمكان) دلفى ، وهي تتلقى النبوءات من أبولو فيما تزعم الأساطير ، ولذلك سعى الناس إليها ، بل إن حكومات المدن اليونانية كانت ترسل إليها الرسل لتسأل عن حرب معتزمة أو تحالف يراد إبرامه . تلك كانت الوسائل التي لجأ إليها الناس على مر العصور القديمة ، كلما أرادوا أن يستطلعوا الخبر عن أمر مقبل لا يزال مضمراً في ظلام الغيب ، فلم يكن الأمر عندهم حساباً يحسب بالأرقام ، بل كانت نبوءات تأتيهم من السماء على ألسنة المقربين إليها ، أو ما شابه ذلك مما رأيناه في قصتي الطيب صالح . ثم دار الزمن دورته وتبدل معبد دلفى ليصبح معامل العلماء وتبدلت راعية دلفى لتصبح الحاسب الالكتروني ، فلم تعد صورة المستقبل المجهول لتنكشف بوسائل العراف أو العرافة . الكمبيوتر هو كاهن اليوم ، وغرفة البحث العلمي هي معبده ، فإذا تذكرنا أن القرار الذى نتخذه اليوم في شأن من شئون حياتنا ، إنما هو الطريق الذى سنمشى عليه بأقدامنا غداً ، عرفنا مدى خطورته

---

(١) دراسات في القصة العربية الحديثة ، د. محمد زغلول سلام ، الاسكندرية ١٩٧٣ ، ص ٤١٤ ، ٤٢٤ .

(٢) عرس الزين ص ٨٣ .

على حياتنا . لم تعد الكاهنة والكهانة بجميع صورها وأشكالها هي وسيلة الناس إلى رؤية المستقبل قبل وقوعه ، بل إن التنكر لهذه الكهانة في الأمور الخطيرة هو جزء من تراثنا الملئ بالمواقف العقلية التي تصلح أن تكون نماذج نهتدى بها نحن الخلف ، فمنه ما قاله أبو تمام في قصيدته المشهورة : « السيف أصدق إنباء من الكتب» فلقد هم الخليفة المعتصم برد الجيوش المعتدية ، وأراد الروم أن يثبطوا عزيمته ، فأرسلوا إليه من ينبئه أن مدينة « عمورية » لا تفتح إلا في موسم التين والعنب. ولما كان هذا الموسم لايزال بعيداً فأى أمل له في الغزو . لكن المعتصم أصم أذنيه عن مثل هذا الهراء واستطاع اقتحامها . وأما نحن الأحفاد الذين ورثنا أمثال هذه المبادئ القوية ، والتي تأبي على رجل مسئول أمام عقله أن ينصت إلى الكهانة بالمستقبل بكل صورها وفروعها ، فعلينا أن نحافظ في حياتنا على هذه الوقفة العقلية في ذاتها ثم نحور مضمونها ، فلا نجعل الأمر مقصوراً على السيف في رفض الكهانة ، بل نضيف إليه أجهزة العمران الحديثة كما يقول زكي نجيب محمود (١) .

القصة التالية من قصص الطيب صالح هي « موسم الهجرة إلى الشمال » ، وهو يخطو فيها خطوة كبيرة إلى الأمام لا في فن القصة وحدها ولكن في صراعه مع التقاليد ، فقد كان من قبل يعرض الموقف كأنه قطاع مدهش من الحياة ، أما الآن فهو يدخل في صراع معها ، لأن المرحاة الأولى تكاد تصور حياته في القرية ، أما المرحلة الجديدة فتصور حياته الجديدة ، فقد عاد إلى أهله — كما يقول في السطور الأولى من القصة — بعد غيبة طويلة ، كان خلالها بأوربا ، فهو هنا يريد أن يصور الصراع العنيف الذى يجتاح الشرقي حين يذهب إلى أوربا ليتعلم وحين يعود إلى وطنه بعقلية جديدة ونظرة للأمور مختلفة .

إن بداية الموقف مرسومة بعناية في القرى السكسونية القائمة على حوافي التلال وسقوف البيوت حمراء وسط الخضرة الداكنة ، « هذا عالم منظم بيوته وحقوله وأشجاره مرسومة وفقاً لخطة » . مصطفى سعيد بطل القصة « استوعب عقله حضارة الغرب ، لكنها حطمت قلبه » . والراوية الذى عاد هو الآخر من أوربا يلتقى بمصطفى سعيد بطل القصة ويبدأ صراع خفى بينهما « لقد عشت خمسة وعشرين عاماً وأنا لم أسمع به ولم أره ، وإذا بمصطفى سعيد ،

---

(١) كاهنة دلفي (الأهرام ٢٨ أبريل ١٩٧٨) .

رغم إرادتي ، جزء من عالمي ، فكرة في ذهني ، طيف لا يريد أن يمضي في حال سبيله (١) . ولكنه مضى واختفى فجأة كما ظهر فجأة ، اختفى مع الفيضان ولم يعثر له على أثر حتى قال محجوب أنه نبي الله الخضر يظهر فجأة ويغيب فجأة . مصطفى سعيد في الواقع هو الراوية الذى ذهب إلى الغرب ولكنه عاد فوجد نفسه ذا طبيعتين إحداهما تصارع الأخرى ، إحداهما تمثل الفكر الغربي والأخرى تمثل الفكر الشرقي ، وكان لابد من انتصار واحدة منهما وهكذا اختفى مصطفى سعيد . « أحيانا تخطر لى فجأة تلك الفكرة المزعجة أن مصطفى سعيد لم يحدث إطلاقاً وأنه فعلاً أكذوبة ، أو طيف أو حلم أو كابوس ألم بأهل القرية تلك ، ذات ليلة داكنة خانقة ، ولما فتحوا أعينهم مع ضوء الشمس لم يروه . » إن موسم الهجرة إلى الشمال تعنى أنه قد آن الآوان لنهاجر بعقولنا إلى العلم الغربي ، واختفاء مصطفى سعيد تعنى أن محاولة نسيان الأثر الغربي تماما كما فعل مصطفى سعيد مقضى عليها بالفشل ، لأن الإنسان لا يمكن أن يتعامل مع الأحداث والحياة بطبيعتين .

ويسعفه تيـــار الوعى وتداخل الأزمنة وتداعى الأحداث ليقدم بطلة من الداخل والخارج في لحظة واحدة (٢) ، أو يهبط به إلى قرار التجربة ليعود في النهاية وقـــد تطهر من الزيف والتناقض ، يعود إنساناً ذا طبيعة واحدة مهما كانت هذه الطبيعة . « لا جدوى من خداع النفس ، ذلك النداء البعيد لا يزال يتردد في أذني ، وقد ظننت أن حياتي وزواجى هنا (يعنى في القرية) سيسكتانه . ولكن لعلى خلقت هكذا ، أو أن مصيرى هكذا ، مهما يكن معنى ذلك . إننى أعرف بعقلى ما يجب فعله ، الأمر الذي جربته في هذه القرية ، مع هؤلاء القوم السعداء ، ولكن أشياء مبهمة في روحى وفي دمى تدفعنى إلى مناطق بعيدة » .

وما يزال الكاتب يدور حول نفس المحور ولكنه فنان يعالجه من زوايا متعددة ، كانت نعمة في « عرس الزين » رمزاً للدنيا بفتنتها وكان الحنين رمزاً للدين بنقائه والزين رمزاً لسذاجة العـــامة .

وتبقى شخصيات تتكرر بأسمائها وسماتها من قصة إلى أخرى مثل « محجوب » ثم « ود الريس » وهي تمثل البيئة بملامحها ولهجتها ونيلها وتفكيرها الذى يدور حول الأساطير

---

(١) موسم الهجرة ص ٥٤ .

(٢) تيـار الوعـي ص ٦٤ .

والجنس ولكنه لا يخلو من تطلعات إلى المستقبل ، « الدنيا لم تتغير بالقدر الذى تظنه ، تغيرت أشياء ، لكن كل شيء كما كان » كما يقول محجوب .

وتعقد الشخصيات في « موسم الهجرة » تؤكد نضج الكاتب بالقياس إلى المحاولات الأولى التي كانت فيها الشخصيات بسيطة غير مركبة ولا أقصد مصطفى سعيد وحده فهو نموذج للشخصية الغامضة التي تظهر فجأة وتختفى فجأة على مدى القصة ولكنها تظل تشغلنا إلى النهاية بمحاولة فهمها وتفسيرها في براءتها الظاهرة وفي سراديب نفسيتها وأسرارها الدفينة التي تتكشف حينا بعد حين ولكنها تظل مغلفة بشيء من الضبابية إلى النهاية ، وإنما أقصد أيضاً الراوية وحسنة زوجة مصطفى سعيد .

وإذا كان من الطبيعي أن تتأثر القصة بالتاريخ الشخصى لكاتبها ، بمعنى أن بعض شخصيات القصة أو شيئاً من أحداثها شاهدها كاتب القصة حقيقة ، وإذا لم يكن هذا أو ذاك فأفكار الكاتب تطفو من حين إلى حين ، لأنه صانع الشخصيات في القصة ، مهما حاول أن يمنحها استقلالها الخاص . فكل قصة في الواقع تلتبس بشيء من تاريخ حياة كاتبها ، ولكن هذا غير ما نريده بل عكسه تماماً ، فقد يحاول الكاتب أن يقص شيئاً من سيرته الذاتية ، ولكنه في نفس الوقت يرفض الاعتراف أمام الجمهور ، وهنا يجد الكاتب نفسه في حيرة لا حل لها إلا أن يجد رموزاً أو بدائل تكفل له السلامة ، فيتخير أسماء وأحداثاً ترمز إلى هذه التجارب ، وهنا تكون السيرة الذاتية قد امتزجت في القصة امتزاجاً خاصاً لتؤلف شيئاً جديداً ، كما تختلف الخواص النوعية في المركب من المواد التي يتألف منهـا في الأصل (١) . وهذا ما حدث في « موسم الهجرة إلى الشمال » فالطيب صالح هو الراوية ، وهو يحكى جزء من تجاربه بمعنى من المعـاني ، ومصطفى سعيد الشخص الثالث الذى كان ينبغى أن يختفى ليعود السلام ويهدأ الصراع .

مصطفى سعيد كانت له حياة عريضة في الغرب كلها مغامرات ، كأنما يكتشف المجهول في عـالم الاقتصاد وفي عـالم النساء أيضاً ، مكتبته ضخمة تضم دراسات في كل فروع المعرفة كالتاريخ والأدب وعلم الحيوان والجيولوجيا والرياضيات والفلك وعلم الاجتماع

---

(١) راجع فصل التخفى (السيرة تاريخ وفن : ماهر حسن فهمي) .

وعلم النفس وغيرها ، إنسان نهم ، في ركن آخر مجموعة صور لمصطفى سعيد وهو يضحك وهو يسبح وفي الريف وهو في الزى الجامعي وعلى رأسه تاج ، وهو يتوسط رجلاً وامرأة ، ثم وهو مع النساء ثم النهاية التعيسة للمرأة التي انتحرت من أجله ، وربما كان الجنس هنا رمزاً للحقيقة العـــارية في الغرب .

إن حب مصطفى سعيد لأبي نواس يعادل حب الطيب صالح لأبي نواس واستشهاده به في مقدمة قصصه وفيوسطها أيضاً . مصطفى سعيد يرسم بالقلم الرصاص وبمهارة فائقة سكتشات لبكرى ومحجوب وود الريس وحسنة وغيرهم والطيب صالح يرسمهم بالكلمات وفي كلا الرسمين نلمح عطفاً يقرب من الحب . مصطفى سعيد أديب وشاعر كتب أشتاتاً من تاريخ حياته ، والطيب صالح أديب وقصاص عرض أشتاتاً من حياته . مصطفى سعيد عاش في الغرب ثم عاد إلى بلدته يحاول أن يتأقلم ولكنه لم يلبث أن اختفى ، إن مشكلته تتلخص في الكلمات التي قدم بها قصة حياته : « إلى الذين يرون بعين واحدة ، ويتكلمون بلسان واحد ويرون الأشياء إما سوداء أو بيضاء ، إما شرقية أو غربية . » المشكلة إذن كما قال مصطفى سعيد أن الشرق مازال يعيش مرحلة تخلف كأنه يحيا في بخور ألف ليلة وليلة ، والغرب كما وجده مصطفى سعيد ليس غارقاً في أبحاثه العلمية وحسب ولا حتى مكتفياً بتطبيق نتائج الأبحاث في المصانع ، إن حياته كلها قد طبعها العلم تفكير وسلوكاً ، ولكنه لم ينج من قلق على أية حال ، بدليل أن بخور الشرق كان له سحره المدمر الذى استغله مصطفى سعيد مع المرأة الغربية ، ولكن صيحة نيتشة التي سمعها مصطفى سعيد في الغرب زلزلت كيانه أيضاً ففقد أصالته الشرقية ، إن دخوله السجن يعنى عذاباً للضمير ، وعذاب الضمير قد يصل إلى الحكم بالاعدام ، وهو الانتحار .

إن فكرة التخفى هنا تذكرنا بثلاثية نجيب محفوظ ، والباحث يقف أمام « كمال عبد الحواد » بعد أن ينتهى من الثلاثية متسائلاً : أتراه المؤلف نفسه ؟ إن كثيراً من أوجه الشبه واضحة ، ولكن كثيراً من أوجه الخلاف واضحة أيضاً ، ومواطن الشك والالتباس أكثر . ولا يلبث نجيب محفوظ أن يزيح جزء من الستار حين يقول : « إن كمال عبد الجواد يعكس أزمتى الفكرية وكانت أزمة جيل فيما أعتقد » . إن انقسام الشخصية هو محور بطولة كمال التراجيدية ، فليست الشخصيات الرئيسية إلا وجوهاً متعددة لشخصية واحدة

هي كمال عبد الجواد . وهكذا نجد تطابقاً في الاتجاهات الفكرية عند نجيب محفوظ و كمال عبد الجواد أو امتداداته ، ولكن لا يمكن أن نتوقع تطابقاً كتطابق المثلثات ، وإنما هو التقاء الأصل بالرمز ، فمن السخف أن نفسر الشجار بين كمال وحسن حول عايدة على أنه شجار بين نجيب محفوظ وبين صديق عزيز ، فما حسن هنا إلا التجسيد الحي لخيبة نجيب محفوظ في تحقيق أمله .

إن عملية الابداع الفني على الرغم من وضوحها إلى حد ما في الفنون التخطيطية كالقصة والمسرحية تقطع بأن جانباً منها ما يزال غامضاً ، وكثير ما اعترف الكاتب بأن الرواية قد حادت عن خطها المرسوم (١) ، وقد اعترف الطيب صالح في حديثه لرجاء النقاش في أحد أعداد مجلة الدوحة أنه يشعر أحياناً أن هناك من يملي عليه (٢) . وهو ما نسميه بالعقل الباطن ، وقد أحس غيره من الأدباء وعلى الأخص الشعراء بنفس الإحساس ، ومن هنا يمكننا القول إن كثيراً من الجزئيات التي مر الكاتب بها في حياته تشكل جانباً من المركب الذى يبدعه ، أو بعبارة أخرى ، إن جانباً من حياته يلاحظ في الشخصيات التي يرسمها ، خاصة إذا كان يكتب القصة الرومانسية أو الواقعية ، ولكن الصعوبة هنا تجئ من أن الطيب صالح لا يمكن تصنيفه في أحد هذين القسمين فهو يمتح من بئر ثالثة هي الأسطورة وإن كان يندرج بمعنى من المعاني تحت الاتجاه الرمزى الذى يحتاج من الناقد إلى جهد مضاعف ليكشف بعض أبعاده .

في حضرة من أهوى عبثت بي الأشواق
حدقت بلا وجه ورقصت بلا ساق

أترى البيتين — في المقدمة — مفتاحاً للقصة التالية « ضو البيت — بندر شاه » ؟ إنهما أشبه بشعر التصوف ، فالتحديق بلا وجه يعني الذهول عن كل شيء والرقص بلا ساق رقص القلب

« كان محجوب مثل نمر هرم جالساً جلسته القديمة رغم السنين والعلة ، أبدا كأنه يتحفز للوثوب ، معتمداً بيديه على عصاه ، وذقنه على يديه ، متلفعاً ثوبه على رأسه فوق

(١) عالم القصة ص ٨٢ .
(٢) مجلة الدوحة ابريل ١٩٧٨ ص ٨٣ .

العمامة . عمقت الأخاديد التي على خديه عند الفم ، والتجاعيد على الجبهة ، وفي العينين تحولت تلك الحدة مع مرور الأيـــام وذكريات المعارك والهزائم ولا شك ، إلى حمرة عليلة . لم يعد في العينين إلا الغضب . كنا أمام دكان سعيد ، والليل يزحف حثيثاً على ود حامد (١) .

نفس الأسماء ونفس القرية ، ولكن الزمان يمتد قليلاً فيشيخ محجوب برغم توثبه الدائم . إن مقدرة الكاتب على الوصف والرسم كبيرة ولكنه لا يستغلهما إلا نادراً ، لأن طبيعة قصصه لا تحتاج إلى المناظر خلف الشخصيات ، بل لا تحتاج إلى الشخصيات إلا في ضوء أهدافها باعتبارها رموزاً أكثر الأحيان ، وإن كانت القرية تموج بالحركة وبالحياة دائماً ما دام الزين وسيف الدين وهذه الصحبة التي تجتمع لتسامر ، ومن خلال سمرها ندرك ما يشغل القرية كلها وما حدث أو يحدث من تطور في الفكر وفي الحيـــاة .

وأضاف ود الروّاس : « وحتى خطبة الجمعة إياها الكلمتين ، اللهم انصر المسلمين واحفظ أمير المؤمنين » . ويستدرك سعيد قائلاً : شيخنا الحنين اللهم ارض عنه ، لابس عبايته وشاله فوق كتفه وإبريقه في إيده ، قال لى قم ، قلت : على وين يا شيخنا ؟ قال لى : امش القلعة تلقى قصر بندر شاه قلت : بندر شاه يبقى منو ؟ قال لى واحد من سلاطين الدنيا الزايلة ، زمان كان عنده أملاك ماليها أول ولا آخر ، كان عنده ولد واحد وحداشر عبد . امش القصر فوق القلعة تلقى باب مفتوح إدخله وامش لحد ما تدخل ديوان ، تلقى بندر شاه وولده ينتظروك . . . . مشيت القلعة إني آمنت بالله منور وحس غناء ورقيص وضحك . لقيتهم الاثنين جالسين كأنه ملك رمعاه وزير ، شفت بعينى سكة النجـــاة وسكة الهلاك ، اتعوذت في سرى من الشيطان الرجيم وقلت يا منجى . . . . صحيت من النوم وأنا أبكى الدموع الغزار . » ويتكرر الموقف بصورة أوضح وأكثر تفصيلاً مع « محيميد » (ص ٤٦ — ٥٦) ، ثم يختفى « ضو البيت » في نهاية القصة ، بعد أن علم الناس الكثير ، علمهم الزراعة ، علمهم التجارة ، علمهم الصناعة ، ولذلك بكى الناس حتى كادوا أن يفقدوا نعمة البصر . محمود قال : « إنه يذكر أنه لمح ضو البيت كأنه معلق بين السماء والأرض يحيط به وهيج أخضر ، . . . وقال حسب الرسول : إنه يذكر أنه رأى ضو البيت وكأنه في قلب الشفق الأحمر يبتعد ويبتعد . « صحيح أن الشياطين أخذت تمشى في الساحات

---

(١) ضـــو البيت ص ٩ .

والشوارع عيانا في وضح النهار ، ولكن صوتاً قوياً بدأ يتحدث عن عصر التكنولوجيا ، وعن التغير الذى حدث والذى ينبغي أن يستمر لانتشال البلد من التخلف ، ومسايرة ركب الحضـــارة .

هذان الموقفان يمثلان تفكيرين في القرية ، أحدهما جيل عمر طويلاً ، والآخر جيل جديد ، لا يريد أن يستمر على التقاليد الموروثة ، ولكنه يحكم العلم ويسعى للتغيير من أجل حياة يراها من وجهة نظره أفضل ، إنهما بعبارة موجزة يمثلان الصدام الذى يحدث بين بعض رجال العلم الذين يتصورون أنهم قادرون على كل شيء وبين بعض رجال الدين الذين يتصورون أن القدماء قد أدركوا كل شيء ولا سبيل إلى تغيير شيء مما قاله السلف الصالح مع أن الحياة تتسع « للباخرة وللدومة » كما قال الكاتب في قصته الأولى ، أو بمعنى أدق الحياة لابد لهـــا من الدعامتين ولا تناقض بينهما في الحقيقة ، لأن العلم إذا حاول تدمير الدين دمّر نفسه .

وعلى الرغم من الطابع الرمزى الذى يطبع القصة ، فإن البناء نفسه بناء القصة الاجتماعية ومن هنا تختلف عن القصة أو المسرحية الرمزية التي يلتف الرمز حولهـــا التفاف الشرنقة ، مثل « جبهة الغيب » لبشر فارس على سبيل المثال ، فكلا الكاتبين يقصد إلى نوع من الصراع الفكري ولكن بشر فارس صراعه في إطار المطلق بينما صراع الطيب صالح في إطار الواقع الاجتماعي والعادات والتقاليد . و « جبهة الغيب » تخلو من أى تحـــديد للزمان والمكان سوى الجبل الشاهق — العالية — والسفح الأخضر دونه . والحديث مهوم كذلك حول أسطورة صعود ملحمى حتى نقرة في أعلى الجبل ، فيها البيت المفقود في أعلى القمة ، وقد نبت فيه عشب أبيض قصير الورق من أكل منه وهو ند ظفر بالحياة الأبدية ، ويتطلع إلى هذه المغامرة بطل المسرحية « فـــدا » . وقصة الطيب صالح تخاو أيضاً من تحديد واضح للزمان لأن الحاضر والماضى يتداخلان تداخلا يرجع إلى قرون بعيدة والمكان برغم تحديده بدومة ود حامد إلا أن كثيراً من المواقف تجرى خارج هذا المكان ، بل ربما خارج مفهوم المكان . وفي « جبهة الغيب » يحرص الإمام على أن يصب الناس في قالب واحد ، قالب الخضوع ، بحيث يتحول الفلاحون إلى صدى ضئيل له ، ، وفي « بندر شاه » يظهر « الحنين » ، بل يظهر الإمام باعتباره ممثلاً للدين عند العـــامة وإن بدأ الناس في نقد خطبه ، بل في تغييره ،

وفي « جبهة الغيب » يقبل الناس الظلم والاستسلام للمصير بأسماء مختلفة باسم القضاء والقدر ، أو باسم العرف ، وهكذا الشأن في ناس ود حامد وإن بدوا أكثر إيجابية في ثورتهم من أجل الاستيلاء على رئاسة الجمعية . وتنتهى « جبهة الغيب » بالناس يحدقون في العالية دون خوف بعد صعود « فدا » على الرغم من اخفاقه في هذا الصعود ولكنه علم الناس طريق الإفلات من أسطورة الزمن . وتنتهى قصة بندر شاه باختفاء « ضو البيت » بعد أن علم الناس زراعة كثير من المحاصيل والتجارة في كثير من العروض ، « كأن المولي جل وعلا أرسله إلينا ليحرك حياتنا ويمضى في حـــال سبيله » .

إلا أن الطيب صالح ينهل من معين آخر أغنى القرية السودانية ، فعندما يقول عبد الحفيظ « محله وين ؟ محله هنا ، إن طال وإن قصّر » يعبر تعبير ابن القرية ، المزارع الذى يرى الإنسان ابن البيئة التي زرع فيها ، مهما امتد فجذوره عميقة ، إن انخلع من التربة مات. والحرص على أركان الدين في القرية حرص نابع من نفس صادقة فصلاة الجماعة لها قدسيتها ولفظ الجلالة يرد في معرض الخوف « يا جماعة خافوا الله » يا فلان « استغفر الله » وفي معرض القسم «كانوا والله زينة الرجال » والله بقينا يا « ساتر استر » . ومازالت القرية تعيش على طب العطارين « زمان قلنا لكم عليكم بالحلبة والجنزبيل .. شربنا مية القرض والحرجل » . وتتعالى أصوات القرية « ثغاء شياه وبقرة أو ثور يخور ، وأصوات شجار ، وصوت غناء في مذياع . فوج من صراخات تلتقى وتفترق ، في مكان ما ، في جهة ما ، ضوء سيارة تقترب ويتضح ويعلو ويفوت ، مكنات المـــاء على الشاطئ ووشوشة هواء الليل الرطب في جديد النخيل » . الطيب صالح مغرم بالأصوات والأضواء والعطور ولكنه يستخدمها خلفيات للوحاته ، وهو حريص على لقطات من القرية يركز عليها مثل العرس « عرس الزين» و « عرس سعيد » الذى استغرق سبع صفحات . وجمعية القرية التي استغرقت صفحات . وهو حريص على أن ينقل لنا أحاديث الفلاحين حين يتسامرون ، ما يشغلهم من صغائر الأمور التي يقضون فيها أكثر حياتهم ، لاهين ضاحكين ، حياة بسيطة لا تعرف التعقيد ولا قسوة الصراع ، ولا تأليه المادة ، حياة على الفطرة يفوح منها عبق الود ، ورائحة الأرض الخيرة ، وعرق المزارعين ، وروح التعاون بين أهل القرية . إنها في هذه الناحية تذكرنا بقصة الأرض لعبد الرحمن الشرقاوى ، ولكنها تتجاوزها إلى مضمون آخر لا يقتصر على

مشكلة الريف ولا صراع الطبقات ، ولكن الطيب صالح يرسم القرية السودانية ببساطتها التي تصل إلى حد السذاجة لينطلق منها إلى حياة أخرى قائمة على العلم ، فإذا بالتناقض الشديد يحدث الصدمة أو الشرارة الكهربية التي يبغيها .

غير أني قـائل مـا أتـاني ... من ظنوني مـكذب للعيـان
آخـذ نفسـي بتأليـف شيء ... واحـد في اللفـظ شتى المعـاني

الذى يقرأ الطيب صالح يحس حقيقة أن كلماته تنوء بحمل شتى المعاني وهو يعالج موضوعاً شديد الحساسية معالجة فنية ، موقف العـامة وموقف المثقفين على اختلاف ثقافاتهم ، موقف الأساطير والاسرائيليات من جوهر الدين ، فهم الدين بين رجال الدين وبين الفلاسفة وبين الصوفية ، موقف العلماء من العلم ومن الدين على اختلاف مشاربهم ، إن « مريود » هي الامتداد الطبيعي لقصص الطيب صالح بصورة عامة ، وهي بصورة خاصة الجزء الثاني من بندرشاه ، ولكنها في الوقت نفسه تستقل بإفادتها وبفنيتها حتى لتكون كيانا قائماً بذاته ، له مقدمته الحائرة من كليلة ودمنه ، والتي تصور الإنسان كرجل نجا من خوف فيل هائج إلى بئر فتدلى فيها وتعلق بغصنين كانا على سمائها ، فوقعت رجلاه على شيء في طى البئر ، فإذا حيات أربع قد أخرجن رؤوسهن من أجحارهن ، هذه الحيرة التي يحياها ابن النصف الثاني من القرن العشرين في الشرق العربي بين الموروث والعصرى في الحياة كلها ، زلزلت كيانه ، وأدارت عقله ، وعصرت فؤاده . والفنان يتناول هذا الإنسان الممزق ، وهو في تناوله يمشى على الأشواك .

« ملأ صدره بالهواء ، وترك وجهه يغتسل بنسيم الفجر ، لكن روحه لم تنتعش » بل إن وجهه متوتر كأنه يقاوم رغبة جارفة للبكاء ، هذا التوتر ينعكس على المنظر من حوله ، أين غابة الطلح الكثة التي كانوا يلعبون فيها أيام الطفولة ؟ الميكنة الحديثة قطعت الاشجار فهاجرت الطيور ، أيهما أفضل ؟ من الصعب الحكم ، القلب في ناحية والعقل في ناحية أخرى . « ذلك المـاء كان له طعم آخر ، بلا غطاء ذلك السبيل ، يشرب منه الغادى والرائح ، من أقامه ؟ لا أحد يذكر ، ولكنه لم يعدم أحداً يملؤه صباح مساء » ذلك عبق الحياة الماضية بخيرها ، ولكن المثقف الجديد يأبى – في أغلب الظن – أن يشرب من نفس الوعاء ومن سبيل لا غطاء له .

« يسمع ضحكة جده ، يرى وجهه واضحاً ، العينان الصغيرتان الغائرتان ، الحنك الناتيء قليلاً ، الجبهة البارزة ، الخدّان الممصوصان ، الفم الصغير ، الشفتان الرقيقتان . وجه أسود ، ناعم السواد مثل القطيفة ، وعينان تزرقان وتخضران وتحمران وتسودان » إن هذا الجد يرمز إلى أزلية الدين أما الحفيد فهو رمز للعلم ، فالمعرفة قديمة قدم الإنسان المفكر ، الذى اهتدى للدين « فلا هو يصغر جده ولا الجد يصغر الحفيد .... وترقص الفتاة بين الجد وحفيده » إنها الدنيا نرمز إليها بالمرأة عادة بين الشرق والغرب ، أو بين مجتمع يغلب الدين ومجتمع آخر يغلب العلم وكأن بينهما صراعاً ، مع أن هدفهما الإنسان ، « كانت الفكرة تخطر لجده ، فإذا هي قد خطرت له في عين اللحظة ، ويقول أحدهما الجملة فيكملها الآخر . » كان هناك سلام ووئام وتوارد خواطر ، ولكن « أخذ صوت الدوامة الكونية يعلو حتّى طغى على الأصوات كلها . لا يذكر أين كان جده حينئذ . انقطع الحبل الذى كان يربط ما بينهما ، وأصبح وحده إزاء قدر يخصه هو ، ثم حملته موجة إلى مركز الفوضى ، كأن ألف برق برق ، وألف رعد رعد ، ثم ساد صمت ليس كالصمت ، أحس كأنه يجلس فوق عرش الفوضى مثل شعاع باهر مدمر ، وكان يريد أن يقتل ويدمر ويشعل حريقاً في الكون كله ، ويقف وسط النار ويرقص ويتراقص اللهب حوله ، لم يعد مسيطراً على قوى جسم وحسب ، ولا على قوى النهر وحسب ، بل على كل احتمالات المستقبل . » (١) هل انقطع الحبل حقيقة ؟ لا ، وإلا لدمر وقتل وأشعل حريقاً في الكون كله لا في روما وحدها كما فعل نيرون . والسيطرة على احتمالات المستقبل عن طريق العلم مقبولة ، ولكن السيطرة على الإنسان نفسه غير أكيدة ، وهذا هو سر مأساة الإنسان في العصر الحديث . وكان من الممكن أن تندمج اللوحتان الأولى والثانية فليس هناك فاصل بينهما ولا وقفات تستدعى تطور الموقف ، أعني ليس هناك فاصل في بينهما ، ولأن « مريود » قصة في صورة لوحات ، فلا يضيرها أن تنقص لوحة . « عبد الحفيظ المسكين من يوم بته مانت اتغير ، زمان كان صاحي وعيونه مفتحه ، وحين الله أعلم ، إذا كان لقى اليقين في الصلاة برضه زين » . إن اليقين في الصلاة وفي الإيمان ، راحة وسكينة ، يبحث عنهما الإنسان كي يجد لحياته معنى ، إذ بدونهما يصيبه مرض العصر ، القلق ، وتصبح الحياة

---

(١) مريود ص ٢٢ .

عبثاً . « الحياة يا محيميد ما فيها غير الصداقة والمحبة ، ما تقولي لا حسب ولا نسب ، لا جاه ولا مـــال ، وأنا المولي عز وجل أنعم عليّ بدل النعمة نعمتين . » إن القيم التي يعيش بها منحته الطمأنينة الكاملة ، لأنها صادرة من الفطرة السليمة .

« أصل الزمن دا بقى زمن كلام ، إذاعات وسنمات وجرانين ومدارس واتحادات وهوسه . يومتها اسمع الإ ذاعة تلملع ، العمال الفلاحين الاشتراكية العدالة الاجتماعية زيادة الإ نتاج حماية مكاسب الثورة الانتهازية الرجعية .... بعدين حاج سعيد ضحك وقال لى انت ما تمشى تسأل الطريفى ولد بكرى يفسر لك الكلام دا كله ، كل يوم جامع ناس يديهم في الدروس والمحاضرات . » إن الأُمية والعلم يلتقيان هنا ، فهل سار العلم في طريقه الصحيح ؟ الإ ذاعة والصحافة والسينما وكل وسائل الأعلام اختراعات رائعة ألغت المسافات والأزمان أيضاً ، ولكنها استغلت استغلالا سيئاً ، ففقدت أكبر قيمة لهـــا ، ولذلك كان بناء الإ نسان أخطر من بناء المدن ومن إنشاء المصانع أو من العلم التطبيقى الذى انطلق كالمارد وهو بغير توجيه سليم من الإ نسان لابد أن يدمر كل شىء .

ولكننا نعود مرة أخرى إلى المهدى والشيخ نصر الله إلى التاريخ والأسطورة وقد اختلطا حتى استحال الفصل بينهما في كثير من الأحيان ، فالشيخ نصر الله ود حبيب كان قطب زمانه وكان الناس يقصدونه من أطراف الأرض ، تبركاً بصحبته ، حتى أن الخليفة التعايشى أراد أن يسيرّ إليه من جنده من يحملونه صاغراً إليه ، ولكنه أحبط فلم يستطع أن يفعل شيئاً .

ويتداخل الموقف أكثر فأكثر حتى تختلط الأمور وتصبح في « قمة الدوامة » قال الشيخ نصر الله ود حبيب لبلال المؤذن « والله إن صوتك ليس من هذه الدُنيا ولكنه نزل من السماء ، أنا أجرى جرى الإ بل العطاش يا بلال ، أنت سمعت ورأيت أنت عبرت وعديت ، ولما ناداك الصوت قلت : نعم » نحن الآن أمام مشهد صوفي كامل ولكن أين الحقيقة العلمية فيه ؟ إن الحقيقة هنا نسبية فقد كان الجامع يمتلئ كل صباح بالمصلين ، وكل صباح يحضر الصلاة فوج من المصلين غرباء لم يرهم الناس من قبل ، كانت أبواب السماء مفتوحة في ذلك الزمان ولما ماتا انحسرت ظلال الرحمة وأغلقت أبواب الملكُوت إلى يومنا هذا ، ويذكر الناس أن أخر ما قرأه بلال كانت سورة الضحى . وسورة الضحى تتكرر مرة ومرات

في أكثر من قصة من قصص الطيب صالح ، أكبر الظن أنها ترمز إلى شيء معين ، إنها تقول : « وللآخرة خير لك من الأولى » ولكن العلم اللاديني يقول بالأولى وحسب . الدين يقول بالحياتين ودعاء بلالى كان دعاء إلى الحياة من عهد آدم ودعاء الموت منذ كان جبريل واسرائيل وميكائيل وعزرائيل ، والدنيا معبر للآخرة ، أما العلم اللاديني فلا يعرف إلا الدنيا.

وندخل في قمة الدوامة من جديد فبندرشاه تضاربت فيه الأقاويل ففي رواية أنه كان ملكاً وثنياً ، وفي رواية أخرى كان ملكاً نصرانياً ، وفي رواية ثالثة أنه أمير حبشي وفي رواية رابعة أنه لم يكن هذا ولا ذاك بل كان رجلاً أبيض اللون ، سخر عبيده في الزراعة وبنى القصر العجيب على قمة الربوة ، وذات ليلة ثار عبيده وقطعوه قطعاً . إنه يذكرنا « بأوزوريس » الأسطورة الذى علم الناس الزراعة ثم قطعه أعداؤه ، ولكنه عاد إلى الحياة من جديد .

على أن هناك موقفاً يستحق الوقوف عنده قليلا وهو موقف يتصل ببندر شاه . ففى قصره العجيب كان الحراس الأشداء والأضواء وقنوات المـــاء ، وكان يجلس ثم يأمر بعبيده فيساقون إليه في الأغلال ، وأحيانا تدخل القاعة الجوارى يغنين . إنه نفس المنظر الذى وصفه من قبل في ضو البيت . فقد كان « محيميد يجرجر الخطو نحو داره أواخر الليل ، إنه يعرف مغزى تلك القصة ، لأنه قد رآها تحدث من قبل في زمان بعيد سحيق ، ولعله كان طرفاً من أطرافها ، في تلك القصة أيضاً كانت الحرب ضارية بين ما كان وما سيكون .... لمع الأضواء المهمومة في تلك الحلكة ، وصوت الحياة الضعيف في كل ذلك العدم . وفجأة ذلك النداء وسط الظلام : « يا محيميد » نداء قريب منه ، كحبل الوريد .... سرت وراء الصوت في جوف الظلام وأنا لا أدرى هل أنا أسير إلى وراء أم إلى أمام ، كانت قدماى تغوصان في الرمل ، ثم أحسست كأنى أسير في الهواء ، سابحاً دون مشقة .... وكان في صدر القاعة قبالة الباب منصة مرتفعة عليها عرش ، وعلى الجانبين وقف أناس طأطأوا رءوسهم ، كان المكان صامتاً ، لا كما تنعدم الضجة ، ولكن كأن النطق لم يخلق بعد .... وأشار بندر شاه إلى الكرسى الخالى عن شماله فجلست عليه ، ثم صفق بيديه ، فأدخل الجند أحد عشر رجلاً يرسفون في الأغلال ، وقفوا أمامه بذل ورفعوا عيونهم بضراعة وقالوا بصوت واحد (يا أبانا اغفر لنا وارحمنا) .... تمنيت أن يفسر لى بندر شاه مغزى ما حدث ،

ولكنه لم يقل ، وأدركت أخيراً أن الصوت دعاني لأكون شاهداً وحسب . »

الموقف يذكرنا بحديث الإسراء والمعراج المنسوب لابن عباس والذى كان — هو وغيره — ذا أثر كبير في رسالة الغفران وفي الكوميديا الإلهية ، خصوصاً وأن النداء كان في جوف الظلام وأن المنادى أحس كأنه يسير في الهواء . الصوت الذى ناداه صوت جده والوجه وجه بندر شاه ، حاول أن يفهم سر الحياة والكون ولكنها ضاعت ولم يعد يذكر شيئاً . « لكن ما إن يستقر بك اليقين ، حتى تغرق في بحر من الضلال » حدود اليقين معروفة ، أما التفاصيل الكثيرة التي كتبها البشر فكلها تطرب العــامة فيروونها ويقنعون بها ويزيدون فيها أيضاً ويخلقون منها ألوانا من رسائل الغفران ، ولكنها تغرق المفكر في بحار من الحيرة ، وهو يستبعد الزائف ويستجلى الحقيقة ، أما الدرجات التي صورها ، وصور التعساء وصور السعداء ، فهى صور رسمها الفنان والأديب . صورة الجند ينزعون ثياب الرجال ويقف مريود ومعه أسواط غليظة طويلة من عروق السنط ، وهو يستمر في الضرب حتى تسيل الدماء ، جلدهم حتى أغمى عليهم، وأما الصورة الأُخرى فهى صور السعداء حين يأتي الخدم بأباريق الشراب ، وتدخل القاعة فتيات بيض وسود وصفر وسمر ولكن وجوههن خالية من الشهوة والحس .

إن بقية من الكوميديا الإلهية لدانتى تتضح هنا وهناك داخل البناء الفني للقصة، ولكن من الممكن الاشارة إليها ، « أحسست في تلك اللحظة أننى أشاهد معجزة ، ولو أن أحداً قد قال لى يومها إن الأقدار قد اختارت مريود ليعقد صلحاً بين الماضى والمستقبل لصدقت »... ثم يتمعن في الرجل الجالس تحت النافذة ، ولكنه يختفى ، وقد يكون الجالس تحت النافذة وهماً وقد يكون حقيقة ، ولكن له دوراً فنياً فهو يحرك بعض الأحداث . المهم أن الناس تأتي بدرجات متفاوتة فيحتويهم فلك منتظم ، يجيئون ضعفاء فيعودون أقوياء ومساكين فيعودون أغنياء وضالين فيجدون الهدى . إنها حياة جديدة فيها التعويض الكامل عن الحياة الأولى ، حتى الضالين يجدون الهدى ، إنه الإحساس بالغفران ، الإحساس بالانسجام بين الدين والدُنيا . هذا ما يمكن أن نصل إليه ونحن نحاول تحليل الصورة في « ضو البيت » ، وهو ما نصل إليه أيضاً من نفس الصورة في « مريود » فالصورة فيها الكرامات والخرافات والقسوة في الحكم عليها ، ولكن اللوحة تنتهى بموقف يصور الانسجام بين الدين والدنيا

« أنا ماشي في دروب أهل الحضرة ، وأنت تأمرني بأفعال أهل الدنيا فقال له الشيخ : يا بلال. إن دروب الوصول مثل الصعود في مسالك الجبال الوعرة ، مشيئة الحق غامضة ، يا بلال ، إن حب بعض العباد من حب الله ، وهذه المسكينة تحبك حباً لا أجده من جنس حب أهل الدُنيا .... وبعد أن سرحها بلال ، أبت أن تدخل على رجل آخر ، وانصرفت لتربية ابنها فكان شأنها في ذلك شأن المتصوفين العاكفين . يقول الطاهر ود الرّواس : ويوم الحساب ، يوم يقف الخلق بين يدى ذى العزة والجلال ، شايلين صلاتّهم وزكاتّهم وحجهم وصيامهم سوف أقول : يا صاحب الجلال والجبروت ، عبدك المسكين يقف بين يديك خالى الجراب مقطع الأسباب ، ما عنده شيء يضعه في ميزان عدلك سوى المحبة » .

إلى أى شيء ينتهى هذا الصراع ؟ هذا ما تجيب عنه اللوحة الأخيرة فكلها تدور حول موقف واحد من بدايتها إلى نهايتها إنها « مريود » ، « وكانت هبوب أمشير تردد نداء مريم : يا مريود أنت لا أحد ، أنت لا شيء يا مريود ، » هل اتضح مريود الآن ؟ إنه الإ نساد المتمرد ظن نفسه إلهاً صغيراً ففرت منه الدُنيا « مريم »، وفقد نعمة الدين وكتب عليه القلق الأبدى ، برغم جبروته ، وبرغم العالم الذى بين يديه ، وهنا تقول له مريم أو روحها : « إنك لن تستطيع معى صبراً ، فوراء هذه البيداء جبال ووراء الجبال بحر ، ووراء البحر لاذا ولا ذا هل استطاع العلم أن يطرق معضلة الموت الأبدية ؟ « وا حسرتا عليك يا محبوبي . خير الزاد أنا ، وإنني مفارقتك من هنا ، لا شبع لك من بعدى ولا رى ولا شفيع ولا نجى ، فاضرب حيث شئت ، وتزود إن استطعت واطلب النجـــاء » .

ولكن مريم لم تعش طويلاً مع هذا ولا ذاك ، فالتوازن المطلوب مفقود كأننا لا نستطيع أن نعيش إلا مفَرّطين أو مفْرطين . ومن هنا كان طريق العودة أشق ولكنه واجب، وهو يبدأ بالخطوة الأولى ، فمن يبدأ طريق المحبة ؟

إن محاولة إثبات الحقائق الدينية بالفرضيات والنظريات العلمية القائمة حالياً لا تخدم الدين ، لأن الحقائق العلمية نسبية قابلة للنقد والتغيير – على الرغم من ثبوت القوانين – وهي تفسيرات لظواهر طبيعية ، إلى أن يظهر مزيد من الظواهر تعجز عن تفسيره وعندها تعدل أو تنقص . أما الحقائق الدينية فهي مطلقة تعتمد على الإ يمـــان ولا تخضع للتعديل ، فما هو من عند الله يمكن إثباته برأى المفكرين أو تجارب الباحثين ، ولا تعارض بين أن يؤمن

الإ نسان وأن ينعكس إيمانه على أخلاقه وسلوكه الاجتماعى وبين أن يفكر علمياً في أمور الحياة وأن يبحث بأسلوب علمي ويطبق نتائج الأبحاث تطبيقات تكنولوجية وطبية وزراعية وغير ذلك لخير الإ نسانية ، فأساس العلم التشكيك وأساس الدين الإ يمـــان (١) .

إن الإ نسان مهما بلغ به العلم ينظر فإذا هو أمام غموض يلفه كأنه الإ نسان البدائي ، إنه ذرة في هذا الكون اللامتناهى ، بل هو لم يكتشف بعد إمكانات السيطرة على مخاوفه ، ولم يكتشف عقله بعدالحلول لكثير من معضلات الفكر ، وهذه الحيرة الحزينة أو هذا الحزن الحـــائر يمثلان – ضعف الخائف من صديق – وهو العلم – يمكن أن يغدر به . فسيطرة الغرب – العلم – على الدُنيا زادت مأساة الإنسان فصولا ، وسيطرة الشرق – الدين – على الدُنيا هل تحل المشكلة ؟ لا ، فإننا لم نحلها في بيئتنا ، والهوة تتسع وتتسع وتفغر فاها ولكن ماذا ختام الرواية ؟ هكذا طرح الطبيب صالح المشكلة في قصصه ونركها علامة استفهام كبيرة ، أشبه ما تكون بإدانته للعصر ، وكانت « مريود » قمة المأساة التي يعيشها الإ نسان في الشرق ، وربما في الغرب أيضاً . الإ نسان المثقف والمفكر .

---

(١) العلم ومشكلات الانسان المعاصر ص ١٧٤ .

المصـــادر :

١ – دومة ود حـامد	للطيب صالح	بيروت – الطبعة الثالثة – ١٩٧٠
٢ – عـرس الـزين	للطيب صالح	بيروت – الطبعة الثالثة – ١٩٧٠
٣ – موسم الهجرة إلى الشمال	للطيب صالح	بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٧٢
٤ – ضو البيت	للطيب صالح	بيروت – ١٩٧١
٥ – مريـود	للطيب صالح	بيروت – ١٩٧٧

المراجـــع :

١ – تـاريخ الثقـافة العربية في السودان — عبد المجيـد عـابدين
(بيروت – الطبعة الثـانية – ١٩٦٧)

٢ – دراسات في القصة العربية الحديثـة — محمـد زغـلول سـلام
(الإسـكندرية – ١٩٧٣)

٣ – السـيرة تـاريخ وفـن — مـاهر حسن فهمى
(القـاهرة – ١٩٧٠)

٤ – العـلم ومشكلات الإنسان المعـاصر — زهـير الـكرمى
(الكويت – عـالم المعرفة – ١٩٧٨)

٥ – تيـار الوعـى — محمـود الربيعـى
(القـاهرة – دار المعـارف – ١٩٧٥)

٦ – عـالم القصة — برناردى فوتو — ترجمة / محمد مصطفى هدارة
(القـاهرة – ١٩٦٩)

الدوريات :

١ – مجلة الدوحة (مريود لرجاء النقاش) أبريل ١٩٧٨ .

٢ – الأهـرام (كاهنة دلفى لزكى نجيب محمود) ٢٨ أبريل ١٩٧٨ .

دراسة حول

مشكلة التصحر في الوطن العربي

عرض ، تحليل ، حلول

دكتور سعيد محمد الحفار

استاذ وخبير اليونسكو فى جامعة قطر
للعلوم البيئية والتربية البيئية

* دواعي التصحر بوجه عام .
* العوامل المرتبطة بالتصحر ، ودور الإنسان العربي في تفاقم المشكلة في وطنه .
* مفهوم التصحر عند علماء البيئة ، ومفهوم التصحر دولياً .
* خطورة ظاهرة التصحر دولياً .
* التصحر والسمات الرئيسية للمجتمع المعاصر .
* نقص الإنتاجية الحياتية وخطورته على النظم البيئية في المناطق الجافة وشبه الجافة .
* ما مدى خطورة ظاهرة التصحر على مستوى الوطن العربي ؟
* ما هي أسباب التصحر في الوطن العربي ؟ والتأكد على سوء استغلال الإنسان العربي للبيئة .
* التدابير اللازم إعتبارها للحد من التصحر ولأعمار ما تصحر « ١١ بنداً رئيسياً » .
* الأهداف والأُسس اللازم إعتبارها عند التخطيط لحل مشكلة التصحر .
* الحلول القريبة والعاجلة .
* الأُسس الراشدة في عملية مكافحة التصحر .
* خلاصة .

تتميز منطقتنا بانفجار سكاني مقلق ، وبتعمير مكثف، وتنمية اقتصادية لا يكون من السهل دوما الانسجام معها ، وقد تثير مشكلات تزداد خطورة مع المستقبل إذا لم تتخذ بشأنها حلول جريئة تساير شخصيتنا الخــاصة على مستوى الحكومات .

ولا شك أن اللقاءات والمناقشات في إطار العالم العربي التي تهدف لمعالجة مشكلة من أهم مشكلاته ، والسعي لإيجاد حلول لها ، قد تؤدى إلى بلورة نتائج عن الحوار العلمي والنقاش المكثف الذى نأمل دوماً أن يسود كافة المؤتمرات في الوطن العربي ، لأنها تعتبر بحق دلالة على بروز الوعي على أعلى مستوى ، واشارة للشعور بالمسؤولية إزاء المسائل التي ترتبط بمصيرنا وأجيالنا من بعدنا .

ومؤتمر التصحر الذى تم في الاجتماع العربي في بلودان بين ٢٥ و ٢٩ حزيران ١٩٧٧ كان بالفعل هادفاً إلى إيجاد نقاط تقارب التقت بها آراء ممثلي الدول العربية خلال مناقشاتها للموضوع بإعتبار أن الخطوط العريضة لمشكلة التصحر تكاد تكون واحدة .

إن نقاط اللقاء هذه التي نتجت عن هذا المؤتمر هي التي جمعت كلمة الدول العربية في مؤتمر نيروبي الدولي الذى انعقد بين ٢٩ آب إلى ٩ أيلول سنة ١٩٧٧ حيال هذه المشكلة الدوليــة الهــامة .

ومن هنا ~~أيها المواطن~~ ، أضحى من الضروري دمج الجهود التي يتعين على البلدان العربية متابعتها من أجل التعاون والتقارب وتوحيد الكلمة ، من أجل المصير الواحد ، وليس من العسير على الأمة العربية التي يساهم علماؤها وباحثوها بدراساتهم وبحوثهم في خلق حلول لمشكلة هي مشكلتهم .

إننا ~~أيها الاخوان~~ نعيش في عصر أصبحت فيه كل دولة ملزمة بالتضامن مع الدول الأخرى ، لذا لم يعد علينا أن نبنى مستقبلنا مشتركين فحسب ، بل علينا أن نبني مجتمعنا إنسانياً ليستخدم العلم والتكنولوجيا لا لهدم الاتزان في الطبيعة ، بل للحفاظ عليه بغية تأمين مستوى عيش أفضل .

إن منتصف القرن العشرين يعتبر نقطة انطلاق لشرح النظرة الاجتماعية إلى العلاقة بين

الإ نسان والبيئة ، بعد الاعتقاد الذى ساد بأن أى نوع من التغيير في البيئة له ما يبرره إذا ما جلب معه فوائد اقتصادية حتّى ولو أدى إلى تدني أحوال الإ نسان الحياتية ونوعية البيئة .

صحيح ، أنّ العلم يكتشف ، والصناعة تطبق ، والإنسان يلتزم ، ولكن التزامه يجب أن يكون حيال صيانة الطبيعة أو البيئة ، وصحيح أن التكنولوجيا العلمية في عام ١٩٧٨ أكثر خلقاً وابداعاً منها في عام ١٩٣٣ ، وأن أحداً لا يجروْ القول ، إنه يجب على الإنسانية أن تعدل سيرها ، وتتمشى مع حتميات التكنولوجيا والعلوم ، ذلك أن الصناعة قد تطورت لأنها تمشت مع طبيعة الإ نسان ، وعملت ضمن قيود بيئية صارمة إلى حدّ ما ، ولكنه لم يكن كافياً ، مما أدى إلى تزايد القلق من النتائج الطويلة المدى عن تدخل الإ نسان في الطبيعة .

إن تدخل الإ نسان المستمر منذ فجر التاريخ قد أعطى نتائج إيجابية تجاه البيئة أحيانا ، ونتائج سلبية تجاهها أحيانا أخرى ، ولكن الرجحان كان إلى جانب الثانية أكثر من الأولى وفق تقديرات الأخصائيين .

جدير بالإ نسان أن يفخر في أي جزء من العـــالم بأراضي استصلحت وبقيت خصبة مدة طويلة من الزمن وتأسست فيها حضارات على مجموعات متنوعة من الحمل البيئية ، أو النظم البيئية التي عمل فيها الإنسان تغييراً عميقاً ، فكان أن خلق نظماً بيئية اصطناعية حتّى في مناطق تنعم بالشئ الكثير من نعم الطبيعة ، ولكنه لم يلتفت في معظم حالاته إلى سير الطبيعة حيال نظمها ، فهو لم يراع العناية بالنظم الطبيعية السائدة التي تكيفت وفق بيئاتها على مر السنين ، كما أنه لم يلتفت إلى النتائج السلبية لتطوره في كافة المجالات وما تمخض عنه من أمور أفسدت نظم تلك البيئة ، فقلبت جناتها إلى صحارى ، فزاد معدل تلك الأراضي القاحلة ، وشبه القاحلة في العالم وخاصة في المناطق التي تتصف بضآلة منسوب الأمطار فيها كما هي الحال في مساحات كبيرة في الوطن العربي مشرقاً ومغرباً ، ولكن الموضوع ليس مرتبطاً بقلة المياه فحسب ، بل بأمور أخرى سأعمل على ذكرها بتصريح دون تلميح منها :

• عـــدم إعتبارنا لقضية الماء قضية مصيرية إلا في فترة متأخرة مما أدى إلى تأخرنا في مجالات عديدة في مشكلة المياه إذ أن الأمر كان يتطلب منا نحن العرب التفكير بذهنية حديثة أهم عناصرها :

١ ـ التسليم بأن كل قطرة ماء هي شئ ثمين يجب ادخاره لحين الحاجة واستعماله بحكمة حين الحـاجة .

٢ ـ عدم توفر سياسة مائية جيدة وشاملة يسودها التخطيط طويل الأجل ، ترشدنا إلى أين يجب أن نتجـه ، وكيف نحقق وصولنـا .

٣ ـ عدم توفر دراسات بيئية متناسقة متكاملة عميقة لكافة مشاريع الرى والسدود وما أشبه ، مما أدى إلى بروز مشكلات هـامة في مجـال النظم البيئية ، أدت بدورها إلى اضطراب في البيئة سيؤدى إلى عدم صلاحية أراض كانت جيدة للزراعة ، نتيجة لذلك الاضطرا ب .

٤ ـ عدم إيماننا بأن كل عملية لتوفير الماء تعنى تأمين الماء أو سحبه من أماكن وجوده ، لأننا في تناسينا أن كمية الماء في العالم لا تنقص ولا تزيد، وهي حقيقة علمية لامراءاة فيها

٥ ـ عدم توفر إدارات صالحة قادرة ذات إدارة حكيمة في كثير من مناطق الوطن العربي تعمل على دراسة مشكلات المياه وتكييفها بالشكل الملائم .

٦ ـ التبذير المفرط في استخدام المياه حالياً سواء في البيئات الريفية أو الصناعية التي تتصرف بالماء دون اقتصاد . ولا شك أخي المواطن أن مشكلة الماء في حادثة التصحر في الوطن العربي هي عامل واحد من أهم العوامل ، ولكن عوامل أخرى لا تقل عنها مسؤولية في زحف الصحارى بمعدل ٥٠ ـ ٦٠ ألف هكتار سنوياً في الوطن العربي ، رغم المشاريع الرائدة في الرى التي تقام في مختلف أرجائه، نذكر فيما يلي أهمها وأبرزها:

أولاً : ضعف الدراسات العلمية للمشكلات البيئية للمناطق الجافة وشبه الجافة في الوطن العربي .

ثانياً : الرعي أزمة في الأراضي الجافة ونصف الجافة ، وضعف الدراسات المحلية حول النظم البيئية عـامة والرعوية خـاصة .

ثالثاً : عدم إجراء جرد كامل لنباتات هذه المناطق ، اللهم إلا ما تم نتيجة جهود مبادرات فردية لبعض المتحمسين للموضوع .

رابعاً : تدهور الغـابة عـامل من عوامل التصحر في الوطن العربي .

خامساً : الري مشكلة أضحت في كثير من الحالات عاملاً من عوامل التصحر .

سادساً: عدم الاطلاع على ما يجرى في العالم في زيادة الخضرة واستغلال الرطوبة الجوية في ضوء الحوار في المؤتمرات المتخصصة كالتي نحن في مجالها الآن ، فليس أجدى لنا من أن ندرس تلك الأمثلة ، ونحاول تطويعها للإفادة منها في تحويل جزء من صحارينا إلى جنات كما كانت في القديم في معظم بقاعها ، وكنت قد تعرضت إلى عرض هذه التجارب في الحلقات الدراسية المتعمقة التي أصدرتها في المجلس الأعلى للعلوم تحت عنوان (الإنسان والكرة الحية ــ في حلقات) ، فمشكلة التصحر إذن جديرة بالاهتمام والرعاية في كافة أجزاء الوطن العربي ، وسأحاول فيما يلي التعرض لمعظم أوجه هذه المشكلة الهامة عسى أن يكون فيها فائدة نرجوها للقيام بما يجب إتخاذه حيال هذه المشكلة الهامة .

ما معنى التصحر ؟

~~تعرضت في القسم الأول من هذه الدراسة إلى بعض نواحي مشكلة التصحر (زحف الصحارى) وسأحاول فيما يلي التعرض إلى نقاط أخرى في هذا الموضوع الهام ، مبتدئاً بإعطاء القارىء الكريم فكرة عن مفهوم هذه الكلمة من الوجهة العلمية وفق التعاريف الدولية ثم أنتقل إلى تقليب بقية وجوه المشكلة~~

التصحر في نظر علماء البيئة هو أحد أشكال التدهور الشامل الذى يصيب البيئة ، بفعل جملة من العوامل التي تداخل بعضها ببعض ، كالعوامل المناخية غير الملائمة وسوء استغلال الغابات والمراعي الطبيعية والأراضي الزراعية وباختصار سوء استخدام الأرض ، والاضطرابات (الديمغرافية) أي السكانية والحاق الأذى بالغطاء النباتي ، والافتقار إلى الهيئات والاجراءات المناسبة لصيانة الطبيعة والتوسع المفرط في زراعة الأراضي الجافة ، والاستثمار غير الرشيد للموارد الطبيعية ، وعدم إعتبار مشاريع التنمية بشتى أنواعها للقضايا البيئية ، والاستخدام غير المعقول وغير المتوازن للأسمدة وتلوث المياه بفضلات الصناعة .

ولكن مفهوم التصحر حالياً وفق ما تم الاتفاق عليه من خلال أربعة مؤتمرات تحضيرية عقدت هذا العام تمهيداً للمؤتمر الدولي للتصحر الذى انعقد في نيروبي بين ٢٩ آب ــ ٩ أيلول سنة ١٩٧٧ ، قد اختلف اختلافاً جوهرياً ، واتفق دولياً أن يفهم من عمليات التصحر ثلاثة أمور هي :

١ - التصحر الناشئ عن زيادة الجفاف ونقص الرطوبة ، والتعرية ، وتحرك الكثبان الرملية.

٢ - التصحر بمعنى تدهور خصوبة التربة نتيجة لتشبعها بالماء (الغدق) أو زيادة ملوحتها وارتفاع قلويتها .

٣ - زيادة البرودة وزحف الجليد في المناطق الجبلية الشمالية والجنوبية في القطب ، وبالفعل فقد أعدت الدراسات للمؤتمر اعتماداً على الفكرتين ١ و ٢ بشكل خاص . فالتصحر في أجلى صورة إذن : يتجلى بازدياد الجفاف وبانخفاض إنتاجية التربة ، ويؤدي إلى ظهور نباتات زيروفيتية (تتحمل الجفاف) تتبعثر مكان النباتات الأصلية، فتكتسب البيئة جملة من الصفات الجديدة ، تشبه صفات المناطق الصحراوية بكل ما في الكلمة من معنى ، ويظهر التصحر عادة في الأجزاء الأكثر حساسية من الأرض، ثم يتسع تدريجياً حتى يزحف على منطقة بكاملها ، فيجعلها متصحرة .

خطورة ظاهرة التصحر :

لما كان التصحر عبارة عن تناقص قدرة الإنتاج البيولوجي للأرض أو تدهوره وهو أمر يفضي في نهايته إلى شروط وسمات تشبه الصحراء فهو إذن وجه من أوجه التدهور الشائع الذى تتعرض له النظم البيئية تحت وطأة الظروف المناخية الصعبة والمتقلبة والاستغلال الزائد . إن هذا الاستغلال الزائد يسبب نقص القدرة البيولوجية أو يدمرها أى أن نتاج النبات والحيوان الذى يصلح للأغراض المتعددة ينقص في زمان تشتد فيه الحاجة إلى زيادة الإنتاج لمقابلة متطلبات البشر الذين تتزايد أعدادهم ، وتشتد نزعهتم إلى المزيد من التنمية .

وجدير بالذكر أن من السمات الرئيسية للمجتمع المعاصر :

الجهاد من أجل التنمية .

النمو السكاني والتغيرات الديموغرافية (السكانية) .

السعي لزيادة إنتاج الطعام .

التكنولوجيا الحديثة التي لم يتم تطويعها للشروط البيئية المحلية .

كل هذه العوامل تتداخل في إطار شبكة من علاقات الأفعال وتأثيراتها ، ومن هنا

ينبغي أن تستكمل حلقات التكامل بين تقدم التنمية وتخطيط النمو السكاني وتحسين أنماط الإ نتاج البيولوجي وتطويع التكنولوجيات المناسبة وتدهور إنتاجية النظم البيئية تهديد واضح وخطير للتقدم البشرى ، على أن السعي نحو زيادة مطردة في الإ نتاجية والمحصول قد سبب زيادة في معدل الاستغلال ودفع الاضطراب الذى يحدثه الإ نسان وفعله إلى مناطق ذات أراضي قليلة الإنتاجية ، تتمثل فيها البيئات الهشة أى التي تتعرض للتدهور .

الاستغلال الشديد يؤدى إلى تدهور الغطاء النباتي والتربة والماء ، ولا يخفى مالتدهور الغطاء النباتي من أثر على بقية السلسلة من آكلات الحشائش فآكلات اللحوم فالإ نسان بالذات ، فالغطاء النباتي والتربة والماء ركيزات ثلاثة أساسية لبقاء الإ نسان .

ومن المهم أن نذكر أن نقص الإ نتاجية البيولوجية بسبب تدهور الغطاء النباتي والحياة الحيوانية هو ما سيطرأ على النظم البيئية الهشة مثل الأراضي الواقعة عند حواف الصحارى ، وكثيرة هي الحالات التي يؤدى فيها التدهور إلى فقدان لموارد المياه ولخصائص الأرض مما يجعل المنطقة غير قابلة للاسترجاع والردة إلى إنتاجيتها ، فتنشأ أثر ذلك مشكلة عجز قدرة الأرض عن مسايرة احتياجات الإ نسان بشكل دائم يزداد تدريجياً بشكل خطير طالما أن الانفجار السكاني يزداد ، وإنتاجية الأرض تتناقص . ومن هنا فإن الأخصائيين في المؤتمرات قد وصفوا التصحر بأنه عملية تتفاقم ذاتياً ، وكأنما تغذى نفسها ، وكأنها أشبه بسرطان يحاول بدءاً من بقعة ظهوره الانتشار إلى المناطق الأخرى السليمة في البدن ولذلك فقد اصطلح على تسمية هذا الزحف الذاتي للتصحر بالتغول الصحراوى ، ولما كان إصلاح الحال يسير إلى حد ما في بدء العملية عند ظهور أعراض نقص الإ نتاجية على الأراضي وكانت كلفته غير باهظة ، كان من الضرورى إعمار القسم المتصحر قبل أن يتجاوز عامل التكلفة الباهظة للإعمار حدود الامكانات العملية أو قبل أن تذهب فرصة الاصلاح والإعمار إلى الأبد ، وتصبح استعادته إنتاجية الأرض مستحيلة .

وجدير بالاهتمام الالتفات إلى أن الأراضي القابلة للتصحر أكثر من غيرها هي الأراضي الجـافة في المناطق الحـارة والدافئة والمعتدلة ، لأنها تكون هشة وأكثر حساسية فهي أشبه بالأجسام الضعيفة البنية يتربص بها الداء ، ويستولي عليها أسرع من غيرها . فقد اتضح للباحثين أن المناطق الجـافة وشبه الجافة وشبه الرطبة هي أكثر مناطق العـالم تأثراً بظاهرة

التصحر ، ومن هنا كان تدعيم الجهود في سبيل مقاومة التصحر للمستقبل من جهة وتدعيم الجهود لإعمار المناطق المتصحرة من جهة أخرى من الأُمور التي تتطلب جهداً تعاونياً منسقاً يجب أن يدعم المستوى على الوطني وأن يتكامل مع العمل الإ قليمي والــدولي .

خطورة مشــكلة التصحر على المستوى العربى :

أشرت في إحدى الحلقات الدراسية المتعمقة التي أصدرها المجلس الأعلى للعلوم هذا العام تحت عنوان (الإنسان والكرة الحية) إلى أن مساحة الوطن العربي تقع في حدود (١٢ — ١٣ مليون كم٢) تشغل الصحارى والبوادى الشاسعة منها بين ٧٨ — ٨٠ ٪ يتصحر منها سنوياً وفق تقرير الخبراء حوالي (٦٠ ألف هكتار سنوياً) تضاف إلى الأراضي ضعيفة الإنتاجية ومعروف أن ما يقارب نصف مساحة صحارى العالم تقع في وطننا العربي إذ تقارب مساحة الصحارى العربية مساحة أوربا بكاملها أو ما يزيد عن ٨٣ ٪ من المساحة الإ جمالية .

فالمناطق التي تنال فيه أمطاراً تزيد عن ٢٥٠مم ، وهي الحد الأدني لقيام زراعة مستقرة ، لا تتجاوز مقدار (٧٥٠٠٠٠ كم ٢) أو مساحة تركيا ، مع العلم أن هذه المناطق التي تنال الأمطار الكافية تضم أيضاً الكثير من الأراضي الجبلية الجرداء والغابات أو المستنقعات وخاصة في جنوبي السودان . وهكذا نجد أن الصحارى القاحلة تؤلف ٩٧ ٪ من مساحة جمهورية مصر العربية والجماهيرية الشعبية الليبية ، و ٩٨ ٪ من مساحة المملكة العربية السعودية ، ولا نكاد نجد قطراً عربياً يخلو من الصحارى سوى لبنـــان .

ولكن يجب أن نضيف إلى هذه المساحة المعمورة المناطق التي تنال أمطاراً تتراوح بين (٢٥٠مم و ١٥٠مم) وهي عبارة عن سهول تؤلف سرطانا ينحصر بين الصحارى الجرداء وبين المناطق المعمورة ، وتصلح لتربية الماشية إلى حد كبير وتعادل مساحتها مساحة الأراضي المطـــيرة تقريباً .

وقد نتج عن وقوع هذه الصحارى في أواسط العالم العربي أن اضطرت الأقطار العربية إلى الالتفاف نحو البحار الملامسة لهـــا وبالتالي نحو الأقطار الأجنبية المقابلة لسواحلها لأن الصحارى تعتبر عامل فصل بشرى ، بينما تلعب البحار دور عامل وصل وارتباط .

وإذا ما علمنا انالرقعة الزراعية الصالحة للزراعة أصلاً لا تتجاوز فيه أكثر من ٣٠٪

من مساحة الوطن العربي أى حوالى ٥٥ مليون هكتار ، يروى منها ١٦ مليون هكتار فقط ، فإن ضخامة المشكلة تتضح لنا عندما نتصور منعكساتها السلبية الخطيرة على مستوى الحياة في أقطار العروبة وما يمكن أن ينشأ عنه من أضطرابات في البيئة المحيطة إذ أن كل ذلك سيشكل بالفعل عقبة تعرقل جهود التنمية بوجه عام وإذا ما علمنا أن ٩٠ ٪ من المساحة الكلية للدول في شبه الجزيرة العربية تحصل على أقل من ٤٠٠ ميلمتر من الأمطار السنوية وبشكل غير منتظم ، وعلمنا أيضاً أن الوطن العربي يتصف بتزايد سكاني تقدر نسبته (ب ٧ر٣ ٪) سنوياً وبصورة أدق (٥ر٢ — ٧ر٣٪) بحيث يقدر الخبراء الدوليون أن عدد سكان الوطن العربي سيصبح ٢٠٠ مليون نسمة عام ٢٠٢٥ إذا ما استمر التزايد السكاني على حاله .

فالخطر إذن كبير جداً نتيجة تغول الصحارى في كل قطر من أقطار الوطن العربي حيث تنشأ عن ذلك إنخفاضات تدريجية قد تتسارع أحياناً في الامكانيات الإ نتاجية للأراضي بالمراعي والغابات الطبيعية في الوقت الذى تزداد الحاجة في هذه الدول إلى زيادة الإ نتاجية لتلبية حاجات السكان المتزايدة ، وهناك من الأرقام ما يشخص بالفعل خطر التصحر على الوطن العربي : أذكرها استناد إلى تصريحات أعضاء الدول العربية في مؤتمر التصحر الذى عقد في بلودان بين ٢٥ و ٢٩ حزيران الماضي وكان لي الشرف أن تسند إلى رئاسته فقد أوضح مندوب الأردن أن الأغوار الجنوبية قد خسرت بفعل السيول والفياضانات أكثر من ١١٠٠ هكتار من الأراضي الزراعية ما بين ١٩٥٨ — ١٩٦٥ من أصل ٥٤٠٠ هكتار إضافة إلى خسارة الأردن من الشجيرات التي تقطع سنوياً بالملايين ، وكذا الحال بالنسبة لسورية حيث كانت نسبة الغابات في الماضي حوالي ٤٧ * من مساحتها وأضحت اليوم ٥ر٢ * فقط نظرياً ولكن الرقم الصحيح أنها لا تتجاوز ٥ر١٪ فقط وفي العراق لوحظ إنخفاض مساحة الأراضي الزراعية من ٥ر٦ مليون هكتار عام ١٩٥٦ إلى ٨ر٤ مليون هكتار ١٩٦٥ وتبين التقديرات خسارة ثلث مساحة المراعي الطبيعية الجيدة في غربي آسيا ، بسبب زراعة الحبوب في المناطق التي تقل أمطارها عن ٢٠٠ ملمتر ولقد كان إنخفاض إنتاجية الأرض من أهم الأسباب التي شجعت هجرة البدو والفلاحين إلى المدن وخاصة الشباب منهم ،ولا يخفى ما كان لهذه الهجرة من أثر كبير على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للريف وللمدينة على السواء .

كما تخسر المملكة المغربية من ٥ر١ — ٢ ٪ من الأراضي الزراعية نتيجة الانجراف

ولا ننس أن ٨٠ ٪ من أراضي الرافدين تعاني من الملوحة بدرجات متفاوتة ، وحوالى ٥٠ ٪ من أراضي منطقة الفرات في سورية كذلك ولذلك لابد من إعتبار هذا المؤشر والسعي لاتخاذ التدابير اللازمة منذ الآن .

أما السودان فيخسر سنوياً ما لا يقل عن ٥٤٠ مليون شجرة تقطع لأغراض شتّى ، ويخسر الأردن ١٨٢ مليون شجرة سنوياً بالاحتطاب ، أى ما يعادل ٢ مليون م ٣ من الشجيرات سنوياً .

وبعد هذا العرض العلمي البسيط الذى اكتفيت فيه بذكر بعض الخسائر بالأرقام في الوطن العربي يحق لنا أن نتسائل عن أسباب التصحر في الوطن العربي دون شك .

ما هي أسباب التصحر في الوطن العربي ؟

لاشك أن ما عرضته من جوانب موضوع التصحر في الفقرة السابقة قديكفي لحث الدول العربية لإعداد المشاريع التي تعمل على تحسين الزراعة وتطورها في المناطق البعلية وفق أسس علمية واستخدام رشيد للأرض حتى لا تكون مشاريعها سبباً من أسباب التصحر ، ومع ذلك فإن من المعتقد أن يكون للتصحر عاملان رئيسيان هما المناخ والإنسان ، ولكن على الرغم من ذلك وبناءً على المداولات التي تمت خلال مؤتمر بلودان للتصحر ، فإن الفرضية القائلة . (بأن عمليات التصحر تعود إلى تغيرات المناخ يجب أن تستبعد كلياً) ، فقد أوضحت الدراسات أن التغيرات المناخية غير الاعتيادية ليست بذات أهمية منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد ، وبالتالي سوف لا تكون سبباً في عملية التصحر .

ثمانية أسباب رئيسية للتصحر في الوطن العربي ،

أكدت عملية الدراسات والمناقشات التي تمت من قبل الخبراء المعنيين في هذا المؤتمر وأمثاله هو أن السبب الرئيسي للتصحر إنما هو .

(١) سوء إدارة واستغلال البيئة من قبل الإنسان أى سوء استغلال موارد التربة والمياه والنبات في المنطقة ، وفعل الإنسان هذا قد تجلى في عديد من الأمور التي يتطلب عرضها عديداً من الصفحات ، ولكني سأشير بتلميح دون تصريح إلى أهم هذه الآثار :

فالقطع الجائر للغابات (٢) منذ القديم حتى الوقت الحاضر من أجل تلبية حاجة الإنسان للبناء والوقود هو من أهم أسباب التصحر في الوطن العربي في سورية و الأردن و السودان ، كما أن حرائق الغابات المتعمدة وغير المتعمدة (٣) قد ساهمت في القضاء على معظم شجيرات البوادى والصحارى ، ولقد عقدت مؤتمرات دولية عدة بشأن الحرائق الغابية كان آخرها المؤتمر الذى عقد في مونبيلييه في عـــام ١٩٧٦ وكنت قد أشرت في مناسبة سابقة من هذا المقال إلى أن أكثر من ١٨٢ مليون شجيرة تحرق سنوياً في بادية الأردن ، وأكثر من هذا العدد في البادية السورية كما أشار مندوب السودان إلى أن الإ نسان يسير مسافات طويلة ليصل إلى مناطق أشجار الاكاسيا ليقطعها ويستعملها كوقود ، وكذا فإن تونس يخسرحوالي ٢ مليون م٣ من الأخشاب تقطع سنوياً لنفس الغاية ، ولم يكتف الإ نسان بالقضاء على الشجيرات المنتشرة في الغطاء النباتي فحسب ، بل عمد إلى تدمير البقية المتبقية منه بفضل الرعي الجائر في مناطق الغابات والمراعي الطبيعية بصورة تفوق حمل الغطاء أو طاقة المراعي (٤) وكذلك يمكن القول بأن فتح آبار في البادية بشكل عشوائي أدى إلى تجمع أعداد كبيرة من الماشية والحيوانات الأخرى حول هذه الآبار ، وإبادة ما حولهـــا من غطاء نباتي .

وجدير بالذكر أخي القارئ أن هنالك أمراً رئيسياً كان سبباً من أسباب التصحر في الوطن العربي وهو (٥) حراثة مناطق البادية التي تقل أمطارها عن معدل ٢٠٠ ملم من أجل استزراعها بالحبوب ، إذ أن هذا يعتبر من أخطر أسباب التصحر في المنطقة العربية . ولقد ضاعف من هذا الخطر دخول الحراثة الآلية الخاطئة التي جردت مساحات واسعة من غطائها النباتي خلال سنوات وتركتها عرضة للانجراف بالماء والهواء لتضيف إلى الصحراء قطعة جديدة ، وقد نسي الإنسان العربي ، أنه يستخدم أراضي مناطق جافة وشبه جافة تتميز بكونها هشة وتكون النظم البيئية السائدة فيها مرهفة إلى أقصى حد ، ولذا فإن المؤتمرين العرب قد أكدوا على ضرورة استخدام مثل هذه الأراضي استخداماً سليماً من وجهة النظر البيئية ، وإن هذا الموضوع غدا أمراً بالغ الأهمية بالنسبة للأقطار العربية ، (٦) فتزايد سكان تلك الأقطار ، وإدخال التكنولوجيات الحديدة والتقلبات المناخية ، أدت كلها إلى ضغط خطير على موارد هذه الأراضي ، وإلى وضع فقدت فيه النظم الحالية لاستخدام الأراضي قدرتها على زيادة الإ نتاج إلى الحد المنشود وبدلا من ذلك ، نجـــد أن النظم البيئية للأراضي الجافة وشبـــه

الجافة تشهد عملية تدهور تخفض باستمرار من إنتاجيتها بل وتهدد مستقبل استخدامها نظراً لأن عملية تجديدها هي عملية دقيقة وبطيئة للغاية .

فتدهور الغطاء النباتي ، وتحات التربة ، وزحف الصحراء ، تعتبر نتيجة لتحميل المراعي فوق طاقتها ويعتبر هذا الأمر إلى جانب امتداد الزراعة البعلية التي أشرت إليها إلى أراضي حدية ، من العلامات الواضحة لهذا الاتجاه السلبي .

(٧) ولابد لنا من أن نشير إلى وجود مشكلات خطيرة تتعلق بالرى عموماً وبمشاريع الرى الكبرى بصفة خاصة ، فالتوسع بالزراعة المروية للمناطق الجافة ونصف الجافة قد يكون من أسباب التصحر إذا لم يكن مرافقاً بدراسة مسبقة عن خصائص التربة وخصائص المياه المستخدمة في الري .

ومن هنا فإن المؤتمرين ذوى الباع الطويل في هذا المجال يؤكدون على ضرورة بذل المزيد من الجهود في مجال البحوث بغية وضع أنظمة رشيدة لتدبير واستخدام مثل هذه الأراضي ، من شأنها أن تعطي نتائج اقتصادية هامة ، وأن تحافظ في الوقت نفسه على إنتاجية هذه المناطق لأغراض استخدامها مستقبلا ، وكذلك لابد إذا ما كان الهدف إجراء تحسن فعلي في العلاقات بين الإنسان وبيئته في البلاد العربية أن تأخذ البحوث والدراسات النظام البيئي الشامل ، وأن تكون جامعة لفروع العلم المتكاملة ، على ألا تغفل دراسة العلوم الاجتماعية الثقافية والاقتصادية (٨) ولابد لنا في الختام من الاشارة في عداد عوامل التصحر في الوطن العربي إلى سبب هام وهو عدم إتباع المزارعين لدورة زراعية مناسبة في الرى والصرف فهذا سبب جوهرى من أسباب التصحر لأنه يؤدى إلى تملح وانخفاض إنتاجية مساحات مساحات كبيرة في الأراضي الزراعية بالإضافة إلى أن بعض خصائص المناخ السائد في المنطقة العربية ، وسوء توزيع الأمطار من سنة لأخرى وازدياد الضغط على المراعي الطبيعية في سنوات الأمطار الجيدة .

وقصارى القول أن عرض ثمانية من أسباب التصحر في الحديث المقتضب الآنف الذكر ، يدعونا إلى ضرورة إتخاذ السبل لمكافحة التصحر ، فما هي التدابير اللازم إعتبارها للحد منه من جهة ولأعمار ما تصحر في الأراضي من جهة أخرى . ؟

التدابير اللازم اعتبارها لمكافحة التصحر :

إننا لا ننكر أن الدول العربية قد قطعت مرحلة جيدة من الوعي حيال هذه المشكلة الحيوية ، اشتراكها في مؤتمر بلودان ، وفي المؤتمرات التحضيرية الخاصة بالمؤتمر الدولي الذى انعقد في نيروبي بهدف التداول بشأن حماية التربة من الانجراف والمحافظة على خصوبتها ، ومنع هدر مياه الأمطار والمياه الجوفية والمحافظة على الغابات والمراعي الطبيعية لدليل على ذلك .

إن تطوير الأراضي القاحلة وشبه القاحلة في العالم بوجه عــام وإيقاف التصحر ستشكلان المشكلة الرئيسية في العالم كله عامة ، وفي الوطن العربي بوجه خاص إذ أننا نعلم جميعاً أن مساحة وطننا هي بين ١٢ ــ ١٣ مليون كم ٢ كنت قد أشرت إلى أن معظم هذه الأراضي تقع في المنطقتين الجافة وشبه الجافة ، ويعيش المواطنون العرب في وطنهم ضمن إطــار من نظم بيئة طبيعية سبقت وجودهم على أرض وطنهم ، وضمن نظم بيئية صناعية من عملهم وإنشائهم وصحيح أن صحارى الوطن العربي ليست مجدية كما هو مفهوم من الكلمة لأول وهلة ، لكنها أخي القارئ كنز لا يقدر بثمن للأمة العربية ، فهي بؤرة أولى في العالم للطاقة التقليدية وهي النفط من خير وأجود الأنواع ومنبع للطاقة غير التقليدية كالطاقة الشمسية والأرضية ، وهي ليست هكذا فحسب ، بل إن كنزاً يفوق كنز النفط والطاقة الشمسية تقوم عليه هذه الصحارى وهي مياه حلوة تفوق النفط قيمة ، كما اتضح ذلك من الدراسات التي تمت في الصحراء الليبية ، ولذلك فإن كنز الأمة العربية كلها كامن في صحرائها ، ولما كانت السوق العالمية للنفط لأمور شتى ، فإن علينا أن نعد العدة للمستقبل حفاظاً على حياة أجيالنا من بعدنا خاصة وأن النفط ثروة غير متجددة ، وإن نفاذه قد ينتهي خلال نصف القرن المقبل ، فلابد لنا من استخدام هذا الدخل الناجم عن بيع النفط للعالم في تطوير الموارد البشرية والمادية التي تبقى منتجة بعد جفاف آبار النفط عن طريق وضع الخطط لبرامج بعيدة المدى ترمي إلى عدة أهداف :

١ ــ صيانة النظم البيئية الطبيعية في المناطق الجافة وشبه الجافة كخطوة أولى .

٢ ــ إيقاف التصحر بوضع برامج علمية تدرس أسبابه ، وتوجد حلولا للحد منه .

٣ ــ تحويل الصحارى إلى جنات بقدر الإمكان عن طريق وضع برامج ترمي إلى تحديد

أفضل أنواع المحاصيل والمواشي المناسبة للمناخ الصحراوى وشبه الصحراوى ، ولا شك أن هنالك برامج قد شرع بتنفيذها في بعض الأقطار العربية وهي فأل خـــير .

٤ – إجراء دراسة مشاريع رى تعمل على وضع خطط إدارية لاستثمار الميـــاه حيث توجد لرى تلك المنـــاطق .

٥ – عدم اللجؤ إلى استخدام المياه المالحة بعد تحليتها إلا عند الضرورة القصوى حفاظاً على النفقات ولكن الضرورة قد تقتضي القيام بمثل هذه المشروعات في بعض أجـــزاء الوطن العربي وخاصة في دول الخليج لأن المـــاء أساس كل تنمية وطنية لا محـــالة .

٦ – إنشاء مدن صحراوية صغيرة ذات اكتفاء ذاتي تستطيع إنتاج المواد الغذائية التي تحتاجها في أوساط استنباتية اصطناعية بادئ الأمر تعتمد في توفير الطاقة اللازمة لها على الطاقة الشمسية ، إذ من الضرورى أن لا تعتمد اقتصاديات تلك المدن الصغيرة المقترحة على موارد مائية ضئيلة غير ثابتة ، بل على حرارة الشمس الوفيرة التي يمكن اقتناص طاقتها لتطوير زراعة مكثفة وصناعات مناسبة ، وبطريق تركيز الزراعة والصناعة في منطقة محدودة يقطنها السكان بكثافة معتدلة يمكن الإبقاء على جزء من الصحراء بطبيعة ابتدائية .

٧ – إن تطور الأراضي الجافة لا يمكن في الوسائل التقنية الجزئية التي تعتمد، بل في النظرة إلى المستقبل البعيد ، حيث يحول مورد طبيعي غزير وغني ، وهو النفط إلى مشاريع صناعية واجتماعية ذات قيمة دائمة ولكن هذا الأمر يتوقف على الدراسة التي يجب أن تهدف إلى إيجاد نظم بيئية اصطناعية مصححة لتستجيب إلى المستلزمات البيئية المحلية

٨ – إن الأمة العربية بتطويرها للأراضي الجافة وشبه الجافة ، ودعمها للمراكز الإقليمية العاملة في هذا المجال كالمركز العربي لدراسات المناطق الجافة وشبه الجافة وأمثاله ، تكون قد وضعت بذور طاقة جديدة للأجيال العربية في المستقبل .

إن المستقبل القريب، وليس البعيد سيوضح أن النباتات ستبقى دوماً وأبداً خير مصدر للطاقة وأصلاً لطاقة النفط والفحم ، فهنالك دراسات حديثة حول المواد

العضوية والطاقة المنتجة في العالم من النبات ومقارنتها بما يلزم للعالم كله ، تعتبر كلها مؤشرات إلى إتجاه العالم نحو هذه الناحية من توليد الطاقة من المواد النباتية خاصة وإنها تمتاز عن الفحم والبترول بأنها متجددة وقد ابتدأت بالفعل بعض من الدول المتقدمة بتنويع فنون إنتاج الطاقة والكيماويات بالتحليل الطيفي وتعمل ضمن نطاق دراسات فيزيولوجية واختمارية على توليد غاز الميثان من النباتات ومعالجته بالهيدروجين لإ نتاج سوائل قابلة للاحتراق وتوليد الطاقة، فخير لنا في هذا الوطن أن لا نكتفى بالحد من التغول الصحراوى فقط بل علينا أن نضع المشروعات الرائدة لإعمار ما تصحر من أراضينا وقلبها إلى جنات يانعات .

٩ — إن ما تحدثت عنه من تدابير لا يعني أن علينا أن ننظر إلى مناطقنا الحافة ونصف الحافة في وطننا العربي على أنها نظام بيئي يجب الحفاظ عليه دون تغير ، أو كفريسة يجب استغلال نفطها لأسباب اقتصادية قصيرة المدى ، بل يجب علينا تطويره ضمن فهم علاقة بين الإ نسان والطبيعة لا تهدف للحفاظ على الوضع القائم ، بل إلى خلق ظواهر وقيم جديدة ، فقد أظهرت خبرة ملايين السنين أن إيجاد علاقة بين الإ نسان والطبيعة على أساس الفائدة المتبادلة تتيح للإنسانية عملية خلق مستمرة .

١٠ — إن الطبيعة الشاملة المتشعبة للبحوث الخاصة بالتصحر ، وطابعها التجديدى ، يتطلبان من الدول العربية إتباع أسلوب المشروعات الرائدة ، وعلى كل بلد أن يضع بياناً بالمشروعات البيئية المتكاملة الرائدة ، الجارية والمزمعة ، شريطة أن تتناول تلك المشروعات الرائدة مختلف الأوضاع البيئية ومختلف ظروف استخدام الأراضي في البلاد العربية .

كما يمكن للبلاد العربية أن تعمل على وضع مشروعات إقليمية متكاملة للبحوث والتدريب في مجال التدبير الرشيد للمناطق الجافة وشبه الجافة .

ولا شك أن هذا الأمر يتطلب وضع سلسلة من الخرائط الفيزيا بيئية الحيوية للبلاد العربية إلى جانب خرائط موضوعية تشمل العوامل الاجتماعية والاقتصادية ، يتخذها المخططون والمسؤولون عند إتخاذ القرارات كأداة أساسية لعملهم كما تتخذ

أساساً للقيام بدراسات مكثفة إضافية ، ولا بد لكل ذلك من استخدام (طرق الاستشعار عن بعد) في إجراء المسوح ووضع تلك الخرائط .

١١ – لابد للدول العربية من اختيار مناطق نموذجية للنظم البيئية الجافة وشبه الجافة في البلاد العربية وتخصيصها لأغراض الصون والبحوث والتعليم ، ولاستخدامها المحتمل مستقبلا لأغراض اقتصادية ومن الضرورى في الوقت ذاته أن تزيد الدول العربية بقدر كبير من عدد هذه المناطق للتأكد من صون المواد الوراثية ومواطنها الطبيعية التي قد تنتج مستقبلاً أنواعا تفيد الإ نسان بطريق مباشر ، ويحسن تسمية تلك المناطق باسم (محميات الكرة الحية) وستصبح هذه المحميات دون شك مواقع ممتازة لإجراء دراسات ضابطة عن النظم البيئية الطبيعية أو التي طرأت عليها تعديلات طفيفة ، تتخذ أساساً لمقارنتها بالنظم البيئية التي أحدث بها تدخل الإ نسان آثار خطيرة .

ما هي الأهداف والأسس اللازم اعتبارها عند التخطيط لحل مشكلة التصحر ؟

لا شك أن الهدف المباشر لأى خطة تضعها دولة عربية لمكافحة التصحر هو نقطتان :

الأ ولى : وقف التغول الصحراوى (زحف الصحراء) .

الثانية :إعمار الأرض المتصحرة وتحويلها إلى الإ نتاج حيثما أمكن ذلك .

أما الهدف النهائي فهو المحافظة على إنتاجية الأرض في المناطق الجافة وشبه الجافة والتي تتعرض لمخاطر التصحر من أجل ذلك :

ينبغي أن تأخذ الحملة الشاملة ضد التصحر موضعها كواحدة من أولويات الجهود التي تستهدف تحقيق الإ نتاج الأمثل على المدى البعيد وأن يَعْني تنفيذ خطة العمل في الدول التي تأثرت بالتصحر شيئاً أكثر من مجرد حملة ضد التصحر أي يجب أن يكون في كل دولة جزءاً أساسياً من عملية التنمية والتطوير .

ولو تساءلنا مثلاً : هل من حلول سريعة لهذه المشكلة قد عرفت في العالم؟ على الرغم من أن مشكلة التصحر مسألة عاجلة في مناطق كثيرة ، لوجدنا أن الجواب شبه سلبي ، على الرغم

من وفرة البحوث والمشاريع الرائدة في هذا المجال، ومن هذا المنطلق وجب إعتبار مشكلة التصحر مشكلة تستدعي التقييم والمراجعة المستمرة والتخطيط البعيد المدى والإ دارة الرشيدة على كافة المستويات وتقتضي كذلك التعاون الدولي صحيح أننا قد نجد بين أيدينا أحياناً حلولا تقنينية لبعض المشاكل الخاصة بالتصحر ، ولكن تطبيق هذه الحلول يواجه عقبات اجتماعية وقانونية بل يواجه في بعض الأحوال عقبات تنظيمية حتّى ولو توفر الوقت والمال والقوة العاملة وتدل الدراسات أننا لو أخذنا في الاعتبار عمليات التنمية من جهة والتغيرات في السكان ومتطلباتهم وما يتصل بذلك من التقنيات المناسبة والإ نتاجية البيولوجية للأرض من جهة أخرى، فإننا نجد أن أفضل الوسائل لإ زالة تأثيرات التصحر على النظم البيئية المنتجة هي الوسائل التي تتناول هذه القطاعات جميعاً ، أى أن الجهود التي تبذل لمقاومة التصحر ينبغي أن تكون جزءا من برنامج عريض الجبهة لدفع خطى التقدم الاجتماعي والاقتصادى .

زد إلى ذلك أن ملامح التصحر لما كانت تبدو على شكل تدهور للأرض والماء وغيرهما من الموارد الطبيعية تحت وطأة الاجتهاد البيئى . فإن هذا التدهور بالذات يدل على أن الأنشطة الإ نسانية غير مناسبة إما في درجتها أو في نوعيتها ، وقد ترجع هذه الأنشطة إلى نقص في المعارف أو في الخبرة البيئية أو إلى نقص في الطرائق البديلة لاستغلال الموارد أو إلى السعي إلى تكثيف المكاسب القصيرة الأجل ، على حساب الإ نتاجية في مدى الأجل الطويل ، ومع إدراكنا أن الحلول تكمن في نهاية الأمر في التعليم والتقدم الاجتماعي والاقتصادى وتنظيم النمو السكاني ليتوافق مع الموارد ، فإننا نجد أن الحلول القريبة العاجلة تكمن في ترشيد استخدام الأرض ويتضمن ذلك عناصر ثلاثة :

أ ــ حصر ومسح الموارد المحلية وتقييم طاقاتها وإمكاناتها .

ب ــ تحديد الاستخدامات المرغوب فيها على أسس من إمكانات الموارد والأهداف والضوابط الاجتماعية والاقتصادية .

جـ ــ نظام مناسب لتطبيق خطة الاستخدام الأمثل لموارد الطبيعة ولاستصلاحها والمحافظة عليها هذا وتشير كافة المداولات وأنواع النقاش في المؤتمرات الخاصة بالتصحر إلى أن المياه والتربة وغيرها من الموارد المادية هي العوامل الفيزيائية المحددة ، ولكنا نجد أن العوامل

الاجتماعية والسياسية وغيرها من النظم الإنسانية المتصلة بصنع القرارات وتنفيذ الخطط ، ضوابط أساسية للتنمية ، ومنع التصحر وإعادة إعمار الأراضي التي أصابها التصحر والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية المتصلة بإدارة الموارد الطبيعية موضع اهتمام أساسي لخطة العمل لمكافحة التصحر ، ولما كانت إدارة الموارد الطبيعية عنصراً حاسماً في أية استراتيجية للتنمية المادية والاقتصادية والاجتماعية فإن اتباع سياسات راشدة في إدارة الموارد الطبيعية مسألة أساسية بالنسبة لسائر الأنظمة البيئية لو أردنا المحافظة على إنتاجيتها وتنمية مواردها .

الأسس الرئيسية الراشــدة في عملية مكافحة التصحر :

معلوم أن أسباب التصحر وعوامله تختلف من منطقة إلى أخرى من المناطق التي أصابها في ربوع الأرض وذلك بسبب الاختلاف في السمات البيئية وفي الأهداف والبيئات الاجتماعية والاقتصادية وقد يتطلب الأمر في كل منطقة أصولاً خاصة اقضايا التصحر ولكن المهم أن عدداً من قضايا التصحر يتجاوز الحدود الوطنية ، بل وحتى الحدود الإقليمية إلى الدولية ، مما يفرض أحيانا تعاوناً دولياً مثمراً كلما اقتضت الحاجة ، ويتطلب هذا التعاون خطة عمل يسترشد بها ترتكز على أسس عــامة أهمها :

أ ــ أن تتفق سائر الأعمال مع القواعد التي يتضمنها ميثاق الأُمم المتحدة .

ب ــ أن تتضمن المنهجية الأساسية للعمل تطويع المعارف العملية المتاحة وتطبيقها وخاصة في تنفيذ برامج التصويبات العاجلة وتدابيرها لمكافحة التصحر وفي تعليم الناس وتنويرهم بأوجه المشكلة وفي إنشاء برامج للتدريب .

جـ ــ من مفاتيح النجاح في مكافحة التصحر تحسين استخدام الأرض ، وهو أمر يستلزم التقييم والتخطيط وحسن الإدارة على أسس من تطبيق الأُسس البيئية المعروفة بالنسبة لإدارة الأراضي في المناطق الجافة وشبه الجافة .

د ــ ينبغي أن يأخذ تحسين استخدام الأراضي في الاعتبار أمرين :

أولهمــا : حتمية وقوع نوبات الجفاف في مناطق الأراضي الجافة .

ثانيهما : قلة إمكانات الإنتاج البيولوجي الطبيعي في تلك الأراضي .

هـ - ينبغي أن يكون تطبيق هذه الخطة كبرنامج من الأعمال المنسقة والشاملة والمؤثرة لمكافحة التصحر ، ويتضمن ذلك إنشاء وتدعيم الإمكانات العلمية والتكنولوجية المحلية والوطنية والإقليمية وكذلك الإمكانات الإدارية المناسبة في المناطق المعينة .

و - أن تتجه الإجراءات جميعها إلى صالح الناس ممن تأثروا بالتصحر وإلى تنمية حياتهم وتطويرها .

أما حسن إدارة موارد الأرض والمياه ، فينبغي أن يأخذ بالاعتبار عدة مبادئ بيئية أساسية تشمل النقـــاط الآتيـــة :

١ - ينبغي أن تكون إدارة الأراضي على أساس وحدات بيئية متكاملة .

٢ - ينبغي أن يتبع استخدام الأرض توقيتاً دقيقاً يتوافق مع التغيرات الموسمية في الأحوال الجـــوية .

٣ - ينبغي أن يكون تحديد نوعية استخدام الأرض على أساس العطاء الأمثل للإنتاجية المستديمة ، أى أن يكون الاستخدام متوافقاً مع الإمكانات الوطنيـــة .

ومن الضرورى هنا ، القيام بعملية تقييم المشاكل البيئية الثانوية التي يمكن أن تنشأ عن الإجراءات التي تتصدى إلى علاج موقع أصابه التصحر ، وكذلك آثار الأنشطة الانمائية التي تجرى خارج المنطقة المتأثرة بالتصحر ، ويحسن بالحكومات أن تعمل على تنفيذ خطة العمل لمكافحة التصحر عن طريق المؤسسات والأجهزة الوطنية .

مراحل الحملة لمجابهة التصحر :

لا يمكن لتوصية واحدة أن تجابه بنجاح المشكلة العريضة للتصحر ، وأن الطريق الوحيد لوقف التصحر واستعادة الإنتاجية للمناطق التي تصحرت من قبل يكون في إتخاذ مجموعة من الإجراءات المترابطة والمتكاملة ، والمقصود بالتكامل هنا هو أن يكون جميع التوصيات مرتبطة في علاقات متداخلة عديدة الاتجاهات وأنه على قدر ما يكون مستوى اليقظة الوطنية ومستوى الأعمال والجهود ، فإن الدول سوف تتبع مراحل ذات التسلسل معينا في جهودها لمجابهة التصحر ، وفق حملة مناسبة يجب بالحتم أن تبتدئ بالخطوة الآتية :

معرفة الكيفية التي يتم فيها تحديد التصحر وفق ثـلاثة خطوط هي :

(١) – تحـديد المعـايير لتعريف وتقدير مدى التصحر .

(٢) – تدعيم أو إنشاء جهـاز وطني لتقييم مدى التصحر ورصده .

(٣) – تقدير قيمة المشكلة على أساس المعـايير والتقنيات المتبعة ، وعلى وجه الخصوص تحديد استخدامات الأرض التي تؤدى إلى التصحر ومكانها .

وفي هذا الحال فقط يمكن لكل دولة أن تعرف سبيلها وتقيم جدوى أعمالها في كل مرحلة من مراحل التنفيذ ، ، ،

خـاتمة :

ولابد لي في ختـام هذه المطالعة حول هذا الموضوع الهـام من الإ شارة إلى أن الجوهر الأساسي في كافة ما يجب إتخاذه لدرء عملية التصحر أو إعمار الأراضي المتصحرة إن هو إلاّ إدراك كل فرد من أفراد المجتمع البشري مكانه في البيئة وواجباته حيالها عن طريق تربية بيئية تهدف إلى تنمية إدراك حسي جديد لدى الأفراد لتوجيه أنماط السلوك الجديدة للإنسان مع البيئة وبين الإ نسان والإ نسان ، وتعزز في نفوسهم حب التعاون الاجتماعي في سبيل استثمار البيئة استثماراً عقلانياً رشيداً ، ودرء الأخطار عنها . في إطار التعاون بكل مستوياته الوطنية والإ قليمية والدولية ، مع إعتبار الواقع الاقتصادي والاجتماعي والبيئي في كل مجتمع حتى يكون هنالك توافق بين خططه الإنمائية الوطنية وبين ما تتطلبه الموارد الطبيعية التي تنمى عليها الخطط الإ نمائية من متطلبات تنمية وتطوير دون إحداث ما من شأنه أن يكون سبباً في نقص إنتاجيتها وبالتي تصحرها .

المراجع الرئيسية

١ – دراسات حول الإنسان والمحيط) : (MAN & ENVIRONMENT) ، إعداد الدكتور سعيد محمد الحفار (رئيس اللجنة الوطنية للإنسان والبيئة المجلس الأعلى للعلوم – دمشق

الحلقة الثالثة : (التقدم العلمي والأزمات البيئية)

الحلقة الرابعة :) دراسة حول المشكلات البيئية للمناطق الجافة وشبه الجافة في الوطن العربي

الحلقة السادسة : (الرعي أزمة في الأراضي الجافة ونصف الجافة في الوطن العربي)

الحلقة التاسعة : (تدهور الغابة عامل من عوامل التصحر في الوطن العربي)

الحلقة العاشرة : هل يمكن للري أن يكون عاملاً في مشكلة زحف الصحاري ؟

الحلقة الحادية عشرة : تعرية التربة وانجرافها من عوامل الزحف الصحراوي

الحلقة الثانية عشرة : المشكلات البيئية الرئيسية للمناطق القاحلة وشبه القاحلة ودور البحوث الرائدة في حلها

الحلقة الثالثة عشرة :أمثلة من العالم في إعمار الصحارى ، وإمكانية تحويلها إلى جنات

الحلقة العشرون : منجزات رائعة في الوظيفيات النباتية التطبيقية حول إعمار الصحارى وإمكانية استزراعها

الحلقة الحادية والثلاثون : نماذج مشروعات في العالم حول إعمار الصحارى

٢ – سلسلة وثائق مؤتمر التصحر للدول العربية (بلودان) حزيران سنة ١٩٧٥ .

٣ – سلسلة وثائق المؤتمر الدولي للتصحر عام ١٩٧١ .

٤ – سلسلة برنامج الإنسان والكرة الحية MAB (السلسلة التقنية) UNESCO

٥ – وثائق أربعة مؤتمرات تحضيرية لمؤتمر الأمم المتحدة عن التصحر (عام ١٩٧٧ .

٦ – دراسة علمية عن المصادر الطبيعية في الوطن العربي الدكتور سعيد محمـد الحفار
(المجلس الأعلى للعلوم) – دمشق
٧ – دراسة علمية حول استغلال الرطوبة الجوية في إعمار الصحـارى
الدكتور سعيد محمـد الحفـار (المجلس الأعلى للعلوم) – مشق
٨ – وثـائق المؤتمر الدولي للتصحر (الوثائق التحضيرية) .
٩ – برنامج الأمم المتحدة للبيئة United Nations Environment Programme
(عشرات من النشرات والوثائق التي تتعلق بالأراضي الجافة وشبه الجافة والأراضي الحـدّية) .
١٠ – I. GINDEL The Ecodynamics of Forest—Water Relationships in Arid Climates Science Series No. 1 1970
١١ – 1960 ECKHARDT
Ecophysiological measuring in techniques applied to research on Water relations of Plants in Arid and Semi Arid Regions
UNESCO: Arial Zone Rcs 15 139-171
١٢ – 1968 Mc. GIWNIES
Making the desert bloom, American forests 75: 32—37
١٣ – 1968 Mc. GIWNIES
Deserts of the World Univ. of Arizona Press PP 788
١٤ – عديد من النشرات الخاصة حول زحف الصحارى في أفريقيا . UNESCO

تقويم المعلم
والوسائل المستخدمة في تقويمه

دكتور محمد إبراهيم دعبس

استاذ مساعد بقسم المناهج وطرق التدريس

اولا ــ المقدمة :

كانت المدارس منذ نشأتها الأولى إلى الآن ، وكان المعلمون فيها منذ بدئهم بمهنة التعليم ، يحاولون أن يقيسوا ما تعلمه تلاميذهم من معلومات أو معارف أو مهارات بأساليب مختلفة من الأحكام والتقديرات إلى أن توصلوا أخير إلى ما يعرف اليوم بنظام « الدرجات الرقمية » أو نظام « التقديرات اللفظية » الذى يرمز إليه بالحروف أو الكلمات .

وظلت هذه الأحكام والتقديرات شائعة التداول والاستعمال في المدارس مدة طويلة من الزمن إلى أن جاء القرن العشرون ، فزاد الاهتمام بالتقويم وجميع أنواع القياسات ، وظهرت الاختبارات المقننة للذكاء والتحصيل إلى جانب غيرها من الفحوص والاختبارات التي كان يضعها المعلمون بأنفسهم لقياس وتوجيه نمو تلاميذهم ، وأتسعت مجالات التقويم عبر سنوات هذا القرن ، وكثرت الفحوص والاختبارات ، وتعددت وسائل التقويم والقياس ، فاستفادت المدارس من حركة التقويم هذه ، وتهيأ لها أن تحصل على وسائل قياس متعددة تقيس بها مجمل مظاهر النشاط المدرسي فيها ، بما في ذلك قياس أداء التلميذ ، وقياس نموه عقلياً وثقافياً وإجتماعياً ، وتقدير كفاءة المعلم والحكم على فاعليته في التعليم ، وتقدير صلاحية المناهج وطرق التدريس ، والحكم على قيمة الكتب المدرسية ، إلى تقويم النظام التربوى بأجمعه .

وهكذا ظلّت عملية التقويم هذه تحافظ على أهميتها ومكانتها في ميدان التربية والتعليم إلى أن صرنا اليوم لا نقرأ كتاباً أو مؤلفاً من مؤلفات التربية وعلم النفس دون أن نجد فيه فصلاً أو أكثر لمناقشة موضوع التقويم ، وبيان أهميته ، والتعرض لذكر أهدافه وأنواعه

وأساليبه . وليس هذا القول يعني أن التقويم كان مقصوراً على ميداني التربية وعلم النفس وحدهما دون ميادين المعرفة الأخرى، وإنما كان التقويم ولا يزال يستخدم في جميع الميادين والأعمال والمشروعات ، إذ بدونه لا نستطيع أن نحدد أخطاءنا ، أو نقيس مدى تقدمنا ، أو نعرف أسباب النجاح أو الفشل في أعمالنا . وبدونه أيضاً يظل الفرد يتخبط في أعماله على غير هدى أو إتجاه .

ثانيا ــ تعــريف مفهوم التقويم :

يعرّف التقويم لغة ــ أو التقييم كما هو الشائع أو المستخدم في لغة الكلام المتداولة ــ بأنه تقدير أو تحديد لقيمة الشيْ ووزنه . فيقال : قوّم فلان الشيْ ، أي حدد قيمته أو حدد وزنه ، أو قدّر ثمنه .

ونستخدم هذا التعريف في التربية فنقول : قوّم المعلم أداء تلاميذه ، أي أنه حكم على أدائهم ، وأعطاه وزناً أو قيمة في ضوء بعض الأُسس والمعايير .

ويلاحظ من هذه التعاريف والأحكام أن عملية التقويم لا تقتصر على جانب واحد من الشيْ المقوّم ، وإنما هي عملية واسعة وشاملة تأخذ باعتبارها نواحي متعددة من الشيْ المقوّم ، وتحاول أن تجمع عنه معلومات وبيانات كافية لأجل أن تستخدمها في إتخاذ قرار أو حكم معينّ بشأنه ، ولذا فالتقويم في مجال التربية والتعليم هو عملية واسعة لها من الأبعاد والجوانب ما يجعلها تضم في حدودها وإطارها العام مختلف القياسات والفحوص والاختبارات التي يجريها المعلمون على تلامذتهم ، وأحكام التلاميذ على أنفسهم ، وأحكام أقرانهم عليهم ، وأحكام المعلم عليهم .

ثالثا ــ علاقة التقويم بعمليــة الاشراف التربوي :

لما كان هذا البحث يتناول أساساً عملية تقويم المعلم والوسائل المستخدمة في تقويمه ، فلابد من أن يكون هناك جهاز خاص أو شخص مسؤول يقوم بهذه العملية . فالجهاز المسؤول عن هذه العملية بعامة هو جهاز الاشراف والمتابعة ، والشخص المسؤول مباشرة عن تقويم المعلم هو المشرف التربوي بخاصة .

وتقضي الاتجاهات الحديثة في الاشراف التربوي أن تكون هناك علاقة قوية بين عملية

الاشراف في المدارس وعملية تقويم التعليم ، وأن تكون هذه العلاقة علاقة تفاعل متبادلة تهدف بالدرجة الأولى إلى تطور العملية التربوية ككل ، وتحاول أن تجعل من المعلم مشرفاً ذاتياً على نفسه ، ومن المشرف شريكاً حقيقياً له يعمل بالتعاون معه لتطوير عملية التعلم والتعليم مستخدماً لذلك كل ما يملك من قدرات وخبرات ومهارات لمساعدة المعلم على أن يصبح أداة تعليمية مسؤولة مستقلة .

فالاشراف التربوي بهذا المعنى ، هو نوع من العمل التربوي التعاوني ، ومجموعة من المقترحات والوسائل والاجراءات التي يمكن أن يؤديها كل مسؤول في المدرسة لأجل معاونة المعلم والعمل معه لتطوير أساليبه ووسائله بغية التوصل إلى موقف أفضل للتعلم والتعليم ، وأسلوب أمثل لتوجيه تعلم التلاميذ وتربيتهم تربية سليمة .

والاشراف بهذا المعنى أيضاً ، هو عملية تقويمية لها وسائلها وأساليبها ، والتقويم فيه هو وسيلة من الوسائل الأساسية التي تستخدم للتأكد من مدى النجاح الذي يحرزه العاملون في ميدان التعلم والتعليم لتحقيق الأهداف التي يحددها برنامج الاشراف إلى نفسه .

رابعا ـ تقويم المعلم والوسائل المستخمة في تقويمه :

لما كان التقويم يدخل في كل ناحية من نواحي العملية التربوية ، ويشترك في كل جانب من جوانبها ، فإن تقويم المعلم يدخل إذن ضمن البرنامج العام لعملية التقويم في المدرسة . فكما تقوّم الأهداف والوسائل والمناهج والكتب وطرائق التدريس ، يقوّم عمل المعلم كذلك .

ولكن كيف يقوّم المعلم ؟ وما الأهداف المتوخاة من تقويمه ؟ ومن يقوم بتقويمه ؟ وما هي الجوانب التي تقيمّ فيه ؟ وعلى أي الأُسس يبنى هذا التقويم ؟ وما هي الوسائل والأدوات المستخدمة في تقويمه ؟ وإلى أي مدى يمكن الاعتماد على هذه الوسائل في تقويمه ؟

هذه الأسئلة وغيرها ، سنحاول الإجابة عنها في معرض كلامنا عن هذا الموضوع الذي خصصنا له هذا الجزء من البحث .

اهـداف تقييم المعلم :

إذا أريد الحكم على عمل أو نشاط أو مشروع من المشروعات بالنجاح أو الفشل ، فلابد في أن يكون لذلك المشروع أو العمل ، هدف أو أهداف محددة وواضحة ، وأداة أو أكثر

من أداة يمكن استخدامها أو اللجوء إليها في التحقق من سلامة تلك الأهداف ومدى صلاحيتها لذلك العمل أو المشروع ، وهذه الأداة أو الوسيلة هي التقويم . ولهذا ، فلا يمكن إذن لعملية التقويم أن تجرى في فراغ ، ولا يمكن للتقويم أن يطبق على أهداف مبهمة أو غامضة . ومن هنا ، فلا يمكن لعملية تقويم المعلم أن تكون مثمرة ونافعة إلا إذا كان لهذا التقييم هدف أو أهداف محددة وواضحة . فتحديد الأهداف ووضوحها إذن هو الخطوة الأولى في مراحل التقويم ، وهو عامل أو عنصر أساسي يساعد المقوِّم على إدراك عمله ، ويعينه على فهم أبعاد المجال الذي يريد تقويمه .

ولما كانت أهداف تقويم المعلم كثيرة ومتنوعة ، ومنها ما يكون قريباً أو بعيد المدى ، ومنها ما يقتصر على تقدير كفاءته في مجال محدد ، أو نشاط معين ، كتقدير كفاءته مثلاً في تدريس موضوع خاص ، أو الحكم على قدرته في التعاون مع زملائه المعلمين ... ، ومنها ما يتسع ويمتد إلى مجالات أكبر كتلك الأهداف التي تتداخل مع الأهداف والغايات التربوية العامة أو أهداف الاشراف الخاصة ، فإن من الصعب جداً أن نعدد هنا جميع هذه الأهداف ، وإنما سنقتصر على ذكر طائفة محدودة منها فقط ، ثم نحاول أن نختار من هذه الطائفة المحددة عدداً من الأهداف ، ونجعلها كمؤشرات للفقرات أو المعلومات التي سوف ندرجها في حقول إستمارة التقويم التي سنقترحها لمن يقوم بمهمة الاشراف على المعلم وتقويم عمله التعليمي. كما أننا سنحاول أخيراً أن نعطي – إلى جانب إستمارة التقييم المقترحة – صورة أو نموذجاً للتقييم الذاتي الذي يمثل مظهراً من مظاهر تطوير استخدام إستمارة التقييم ، ليسترشد بها المعلم في تقويم ممارساته التعليمية في مهنة التعليم .

أهداف تقويم المعلم :

يمكن إجمال الأهداف المتوخاة من تقييم المعلم فيما يأتي : –

١ – التعرف على كل نشاط يقوم به المعلم لتيسير عملية التعلم والتعليم للناشئة .

٢ – الوقوف على الوسائل والأساليب التي يستخدمها المعلم لتحقيق أهداف الاشراف التربوي النابعة من مبادئه الأساسية الثلاثة : مبدأ التعليم وكيفية تطويره ، ومبدأ المعلم وكيفية توجيهه لتطوير أساليبه وتحسين طرائقه التدريسية لأجل أن يتمكن من خلق

موقف أفضل للتعلم والتعليم ، ومبدأ المتعلم وكيفية توجيه نموه للمشاركة المثمرة في المجتمع الذي يعيش فيه .

٣ ـ الكشف عن قدراته العلمية والمهنية والفنية ، والتعرف على خصائصه الفردية ، بما في ذلك معارفه ومعلوماته ، وقدرته على الاندماج والتعاون مع زملائه المعلمين وعلاقاته مع تلاميذه ، ومساهماته في المجتمع المحلي ، ومهاراته الفنية وقدرته على تطبيق مبادئ التعلم المشتقة من علم النفس .

٤ ـ التعرف على مظاهر شخصيته العامة بما في ذلك صحته العامة ومظهره الخارجي ، وقدرته اللغوية على التعبير عن آرائه ، وتأثيره في كسب احترام التلاميذ له وتفاعلهم معه ، وقدرته على إدارة الصف وضبطه .

٥ ـ التعرف على معلوماته العلمية ومدى حداثتها ودقتها ، والكشف عن ثقافته العامة وقدرته على كيفية استخدامها في إثراء مادته الدراسية وجعلها مفيدة لتلاميذه .

٦ ـ التعرف على كفاءته العامة في التدريس من خلال تشخيص نواحي القوة والضعف عنده ، والعمل على تثبيت وتطوير نواحي القوة لديه ، وتلافي نواحي الضعف عنده .

٧ ـ التعرف على النتائج التي أدت إليها جهوده في نمو التلاميذ في المعارف والمعلومات والميول والمهارات والاتجاهات .

الوسائل المستخدمة في تقويم المعلم :

تستخدم المدارس الحديثة في المجتمعات المتقدمة وسائل متعددة وطرائق مختلفة لتقويم المعلم والحكم على فاعليته في التعليم . وترى هذه المدارس أن عملية تقويم المعلم ينبغي أن تكون شاملة وواسعة تأخذ باعتبارها كل نشاط أو عمل يقوم به لتحقيق الأهداف التربوية ، وتيسير عملية التعلم والتعليم للناشئة ، كما تأخذ باعتبارها جميع الوسائل والأساليب المستخدمة لبلوغ تلك الأهداف والغايات . وتحاول هذه المدارس أيضاً ـ بوسائلها التقويمية ـ أن تقوّم المعلم من جميع جوانبه بما في ذلك صفاته الشخصية ، ومعارفه ومعلوماته ، ومهاراته المهنية ، وقدراته الخاصة ، وكفاءته العلمية والفنية في التدريس إلى غير ذلك من النواحي المتعلقة به كعنصر رئيسي من عناصر العملية التربوية .

ولكن على الرغم من المطامح الكثيرة التي تسعى إليها هذه المدارس في تقويم عمل المعلم بغية التوصل إلى معرفة كفاءته وقدرته الحقيقية على تحقيق الأهداف التربوية بعامة ، وتحقيق الأهداف الخاصة بدرسه ، فإن هذه المدارس لم تصل بعد إلى مقاييس دقيقة تقيس بها نجاح المدرس وكفاءته الحقيقة في هذه المجالات قياساً موضوعياً دقيقاً ، وإن كل ما توصلت إليه – عن طريق الدراسات والتجارب والمحاولات الكثيرة – هو إيجاد عدد من الوسائل التقويمية التي مكنتها من أن تعطي صورة تقريبية ، ووصفاً مناسباً لنجاح المدرس و كفاءته في عمله ، إلا أن هذه الوسائل – على ما فيها من فوائد كثيرة – لا تزال موضع شك ونقد وتعريض ، الأمر الذى يتطلب ممن يستخدمها أن يكون على حذر واحتراس ، وأن يسعى دائماً إلى توفير الضمانات الكافية لجعلها أقرب ما تكون إلى القياس الموضوعي منها إلى القياس الشخصي الخاضع للتبدل والتغيير .

ولأجل أن يطلع القارئ على هذه الوسائل التقويمية ، ويتعرف على أنواعها المختلفة ، ندرج إليه في أدناه ، طائفة منها ، ثم نحاول بعد ذلك أن نعلق عليها جميعاً تعليقاً موجزاً وسريعاً لنمكّن القارئ من الوقوف على نقاط القوة والضعف فيها من جهة ، ولأجل أن نستعين بهذا التعليق في الإجابة عن الأسئلة التي طرحناها في مقدمة هذا الموضوع من جهة أخرى.

الوســـائل :

١ – تقييم المعلم من قبل المشرف التربوي أو المدير على أساس الانطباعات والملاحظات الشخصية المبنية على الرأي الفردي والخبرة الشخصية .

٢ – تقويم المعلم من قبل عدد من المشرفين التربويين أو المديرين على أساس الانطباعات والملاحظات الشخصية المبنية على خبرة هؤلاء المقيمين وآرائهم الشخصية في المعلم .

٣ – تقويم المعلم من قبل تلاميذه وحكمهم عليه بناءً على آرائهم الشخصية عنه بعامة ، وعن تدريسه الصفي بخاصة .

٤ – تقييم المعلم بوساطة عدد من زملائه المعلمين ، وإعطاء آرائهم الشخصية فيه .

٥ – تقييم المعلم من قبل المشرف التربوي أو المدير على أساس نتائج طلابه في إمتحانات التحصيـــل .

٦ – تقييم المعلم من قبل المشرف التربوي أو المدير بواسطة معايير التقدير المختلفة ، كمقاييس التقدير ، وبطاقات التقدير ، وجداول التقدير ، وقوائم التقدير .

٧ – تقويم المعلم بوساطة الاختبارات المهنية التي تستهدف :

أ – قياس القدرة العقلية للمعلم ، وذكاءه الاجتماعي ، وشخصيته ، وصفاته الأخرى كمعايير لقياس كفاءته في التدريس .

ب – قياس معلومات المعلم العلمية والمهنية ، وقدراته الشخصية والاجتماعية والنفسية من ناحية صلتها بالتدريس .

٨ – التقويم الذاتي للمعلم ، وهو تقويم ذاتي يجريه المعلم على نفسه بقصد التعرف على نواحي القوة والضعف عنده . ويعتبر هذا التقويم أفضل أنواع التقييم الأخرى – إذا كان المعلم مخلصاً فيه وأميناً على نفسه في تقدير قدراته – لأنه يكسب المعلم مهارة تجعله جيداً في عمله ، وبارعاً في مهنته عن طريق ما توفره له هذه الممارسة التقويمية من تدريب يمكنه من اكتشاف نواحي القوة والضعف عنده ، فيعمل على تثبيت نواحي القوة فيه ويسعى إلى نموها وتطويرها ، ويعمل على التخلص من نواحي الضعف أو التغلب عليها .

إن من يلقي نظرة سريعة وفاحصة على وسائل التقييم هذه ، يجد أنها مبنية إما على أساس الانطباعات والآراء الشخصية أو على أساس نتائج إختبارات التحصيل ، أو على أساس نتائج معايير التقدير المختلفة أو نتائج الاختبارات المهنية .

أما الجوانب التي تقيم في المعلم – عن طريق هذه الوسائل – فهي جميعاً منصبة على تقدير كفاءة المعلم في التدريس ، وتقدير بعض الصفات والخصائص الكامنة في شخصية ولها علاقة بعمله التدريسي ، وأن من يجريها أو يقوم بها بشكل رسمي ، هو عادة شخص واحد أو أكثر يكون مسؤولاً عن تطوير العملية التربوية بعامة ، والنهوض بعمليةالتدريس بخاصة سواء أكان هذا المسؤول مديراً أم مشرفاً تربوياً أم معلماً .

أما الحكم على أهمية هذه الوسائل التقويمية وقيمتها التربوية ، ومدى صلاحها أو الاعتماد عليها في عملية القياس والتقدير ، وما يثار حولها من جدل وانتقادات ، فيمكن حصره في

مجالين رئيسيين ، يتصل الأول منهما بطبيعة عملية التدريس نفسها وما تشتمل عليه من عوامل ومتغيرات كثيرة ، ويتعلق الثاني منهما بوسائل التقويم المختلفة وخاصة معايير التقدير المتبعة في تقويم المعلم ، وقدرتها في الحكم الموضوعي الدقيق على كفاءة المعلم في التدريس .

فعملية التدريس ليست عملية سهلة أو بسيطة يمكن تقديرها أو الحكم عليها بيسر وسهولة ، وإنما هي عملية معقدة تسهم في تعقيدها جميع العوامل والأطراف المشتركة فيها . فالمعلم كطرف من أطرافها وما يتصف بـــه من سمات شخصية ، وقدرات عقلية ونفسية ، وخصائص جسمية ، وما لديه من ثقافة ومعلومات وخبرات ومهارات ، وقدرات خاصة ، يشترك في هذا التعقيد .

والتلاميذ كطرف آخر في هذه العملية ، وما يقوم بينهم من فروق واختلافات في البيئات المنزلية والقدرات العقلية والاتجاهات والميول والاستعدادات ، وارتباط هذه العوامل بطبيعة المادة الدراسية ، ونوع الإمكانات التعليمية ، وطبيعة التعامل والعلاقات القائمة بين المعلم وتلاميذه ، هي جميعاً تشترك في هذا التعقيد .

والتداخل المشترك بين متغيرات المعلمين المتباينة من جهة ، وبين التلاميذ وما يقوم بينهم من اختلافات كثيرة من جهة أخرى ، يمثل العنصر الثالث الذى يشترك في عملية التعقيد هذه .

ولما كانت العلوم التربوية والنفسية لا تعرف لحد الآن إلا القليل عن آثار هذه العوامل وانعكاساتها على كفاءة التدريس بدليل أننا يمكن أن نجد معلماً أو عدداً من المعلمين فاشلين في مدرسة معينة أو مع صف (فصل) معين تحت مجموعة من الظروف ، بينما نجد هؤلاء المعلمين أنفسهم ناجحين في مدرسة أخرى أو في صف آخر ، فإننا نستطيع أن نقول : إن طبيعة عملية التدريس وما تشتمل عليه من متغيرات كثيرة وعلاقات معقدة ، تجعل عملية تقويم الكفاءة في التدريس أمراً بالغ الصعوبة ، ويعتمد إلى درجة كبيرة على الاحكام والآراء الذاتية المعرضة للتغيير والتبديل .

خامسا ـ تقويم المعلم في مدارسنا والأسس التي ينبغي أن تراعى في هذا التقويم :

في ضوء المعلومات التي وقفنا عليها في هذا البحث عن موضوع « تقييم المعلم » والوسائل المستخدمة في تقويمه ، وإدراكاً منا للصعوبات التي تواجهها المدارس عندنا وفي بعض الأقطار

المتقدمة بشأن التوصل إلى معيار موضوعي دقيق يقيس كفاءة المعلم في التدريس قياساً علمياً يتوافر فيه الصدق والثبات بسبب العوامل الكثيرة التي تعرضنا لذكر البعض منها في مكان آخر من هذا البحث ، وفي ضوء ما تكون لدينا من شعور وانطباع حول حساسية موضوع « تقويم المعـــلم » وما يمكن أن يتركه من إنعكاسات على نوع العلاقة بين المعلم والمقيِّم ، وآثار تلك الانعكاسات في عمل المعلم ونشاطاته بعامة ، وفي العملية التربوية بخاصة ، واستناد إلى ما هو متوفر لدينا حالياً من القوى البشرية والإمكانات المادية ، والوسائل والخدمات المدرسية ،

أقترح أن تكون الخطوط العريضة الآتية هي المؤشرات الأساسية التي ينبغي أن تقوم عليها عملية تقويم المعلم في مدارسنا : —

١ — أن تحدد الأهداف التي تتوخاها عملية تقويم المعلم في مدارسنا ، .

٢ — أن تحدد الوسائل والإجراءات التي ينبغي أن تسلك من قبل المقوِّم لتحقيق تلك الأهداف

٣ — أن يتم تحديد الأهداف والوسائل الموصلة لتحقيقها في عملية تقويم المعلم من قبل جميع المعنيين بالعملية التربوية ، بما في ذلك المعلم والتلميذ ، والمشرف التربوي ، ومدير المدرسة ، وأولياء الأمور إذا إقتضى الأمر . وأن يراعى في عملية تحديد الأهداف والوسائل هذه ما يأتي من الاعتبارات : —

أ — علاقة هذه الأهداف والوسائل بالمفاهيم الحديثة للاشراف التربوي ، ومبادئه الأساسية الثلاثة وهي : مبدأ التعليم وكيفية تطويره ، ، ومبدأ المعلم وكيفية توجيهه لتحسين طرائقه وتطوير أساليبه ومعاونته على خلق موقف أفضل للتعلم والتعليم ، ومبدأ المتعلم وكيفية توجيه نموه للمشاركة المثمرة في المجتمع والعالم الذي يعيش فيه .

ب — علاقة هذه الأهداف بنوع وطبيعة المعلومات التي يجمعها المقيم عن النشاط المهني للمعلم ، وما لهذا النشاط من أهمية متبادلة تقضي بضرورة تقييمه والحكم عليه بالتعاون والاشتراك ما بين المشرف أو المقيم والمعلم .

ج — علاقة هذه الأهداف بالفرص المتاحة للمعلم بأن يدرس عمله الخاص ، ويتعلم

هو بنفسه كيف يقيم النشاط التعليمي لتــلاميذه ، وكيف يقيم أساليبه وطرق التدريس التي يمارسها .

٤ ـ أن ترتبط أهــداف التقييم ووسائله التي سيتفق عليها من قبل المعنيين بتطوير العملية التربوية : ـ

أ ـ بشخصية المعلم العــامة ومعارفه ومهاراته وقدراته المهنية ، وعلاقاته بتلاميذه وزملائه المعلمين ورجــال الإ دارة .

ب ـ بأهــداف الدرس الذى يدرسه لتلاميذه ، وبالمــادة العلمية التي يقدمها لهم ، وارتباط هذه المادة بأهداف الدرس والأهداف العامة للتربية .

جـ ـ بالوسائل والإ جراءات التي يستخدمها في الوصول إلى أهــداف الــدرس .

د ـ بطــريقة أو طرائق التدريس التي يسلكها في معالجة مادة الدرس لجعلها ملائمة لمستوى التلاميذ وفي حدود قدراتهم واستعداداتهم ، وبجميع الأعمال والنشاطات الأخرى التي يقوم بها المعلم داخل المدرسة وخارجها .

٥ ـ ألاّ يكون الحكم النهائي في عملية تقويم المعلم مبنياً على مشاهدة أو زيارة واحدة يقوم بها المشرف له (المقيم) في الصف (الفصل) وإنما أن يعتمد هذا الحكم النهائي إلى جانب المشاهدة المباشرة ، على معلومات وبيانات كافية يضمها ملف أو سجل خاص يحتفظ به المشرف التربوى (المقيم) لكل معلم من المعلمين الذين يشرف عليهم وأن يشتمل هذا السجل أو الملف على المعلومات والبيانات الآتية : ـ

أ ـ عدد الزيارات التي قام بها المشرف التربوى لهذا المعلم وما كتب عنه من ملاحظــات حول تلك الزيارات .

ب ـ الملاحظــات التي دونها عنه في مختلف المناسبات ، بما في ذلك ملاحظاته عن الزيارات التي أجراها عليه ، والمناقشات التي أعقبت تلك الزيارات ، وملاحظاته عن مهاراته وقدراته الخاصة ، وإتجاهاته نحو المهنة ، ورغبته في العمل ، ونواحي الابداع والأصالة التي يظهرها فيما يقوم به من عمل أو نشاط .

جـ ـ نسبة النجاح العامة لتلاميذه في امتحانات التحصيل عبر السنة أو السنوات التي قيمّه فيهـــا .

د ـ مقارنة أعماله ونشاطاته بما يقوم به المدرسون الأخرون من أعمال ونشاطات .

هـ ـ تقارير المدير والمدراء السابقين عنه ، وملاحظات روساء الأقسام ، وملاحظات زملائه المدرسين ، وانطباعات تلاميذه عنه وحكمهم عليه بصورة عامة ، وعلى تدريسه بصورة خاصة .

و ـ مساهماته في البيئة المحلية ، ومدى تعاونه مع ا لإدارة المدرسية ، وانسجامه مع أقرانه المدرسين .

ز ـ نواحي القوة والضعف البارزة عنده ، والمحاولات التي أتخذت لتعزيز نواحي القوة وتلافي نواحي الضعف عنده .

ح ـ نوع الهوايات التي يميل إليها ، والكتب والمجلات التي يقروها والمنظمات المهنيـــة المشترك فيها .

ط ـ مشاركاته في الدورات التربوية ، ومساهماته في اللجان والمؤتمرات والندوات التربوية .

ك ـ رغبته في التجديد والتطوير ، وميله إلى إجراء البحوث والدراسات الميدانية لتطوير عمله التدريسي واستمراره على النمو في المهنة

ي ـ محاولات المقيم أو المشرف التربوى في تشجيعه على تقويم نفسه بنفسه ، ومقارنة نتائج هذا التقويم بتقويم المشرف التربوي في جهة وبالمعلومات المتوفرة عنه في هذا السجل ـ سجل المعلومات والبيانات ـ من جهة أخرى .

سادسا ـ استمارات التقويم المقترحة لتقدير

كفـــاءة المعلم في التـدريس :

سنقدم للقارئ تحت هذا العنوان ثلاثة نماذج من استمارات تقويم المعلم ، يمثل النموذج الأول منها إقتراحاً عاماً يتضمن المبادئ العـــامة والخطوط العريضة لصورة إستمارة

إفتراضية يقوم إعدادها وبناؤها على بعض الأهداف والمبادئ الأساسية في الاشراف التربوي . ويمثل النموذج الثاني منها صورة لاستمارة يقوم تنظيمها وبناؤها على إختيار عدد محدود من أهداف تقويم المعلم التي تعرضنا لها في هذا البحث ، وأخيراً سنحاول أن نضع بين يدي المشرف التربوى والمعلم معاً نموذجاً لاستمارة ثالثة تمثل التقويم الذاتي للمعلم :

أ ـ الاستمارة الافتراضية :

إن القصد من طرح الاقتراح الأول المتصل بنموذج الاستمارة الاقتراضية هو إطلاع القارئ على أحدث الآراء والاتجاهات التربوية المعمول بها حالياً في عملية تقويم المعلم في مجال الاشراف وما تسعى إليه من أهداف وغايات ترمي إلى استبعاد أو تجنب كل ما يتعلق بمفاهيم الاشراف القديمة وما يتصل بها من أساليب تفتيشية أو تسلطية ، واستبدالها بمفاهيم حديثة ترمي إلى تعزيز جانب المعلم واحترام شخصيته ، وتقدير مكانته العلمية والمهنية ، والعمل على معاونته بمختلف السبل والوسائل للنهوض بعمله التعليمي على أفضل وجه ممكن ، خاصة بعد أن أدرك المعنيون في ميادين الإ دارة والاشراف خطورة المحاذير الكامنة في عملية تقويم المعلم ، والصعوبات الكثيرة التي تحول دون التوصل إلى معيار موضوعي دقيق يلجأون إليه في الحكم على كفاءة المعلم في التدريس ، على أساس أن هناك إعتبارات كثيرة يصعب التغلب عليها ، ويجب أن تؤخذ جميعاً بعين الاعتبار في عملية تقويم المعلم . فالظروف الخارجة عن ذاتية المعلم نفسه ، وأثرها في عمله التدريسي ، وتعقيد عملية التدريس بأطرافها المختلفة ، وما يدخل فيها من متغيرات وعوامل كثيرة هي مجرد إشارات سريعة نسترعي إنتباه القارئ إليها هنا مرة أخرى لأجل أن يتصور حجم التعقيد الكامن في عملية التقييم هذه . واستناداً إلى هذه الأسباب وغيرها ، فإنه ينبغي للمشرف أن ينظر إلى المعلم عند تقييمه على أنه جزء من الموقف الكلي الذى يتكون منه ، ومن مدرسته بإمكاناتها وظروفها ، وأن نجاحه في مهنته يتوقف على طبيعة ظروف هذا الموقف بجميع عوامله المتشابكة ، كما يتوقف على الدرجة التي يستطيع بها المعلم أن يتكيف لهذا الموقف الذي هو أحد القوى الفعالة فيه .

ومن الاعتبارات العامة الأخرى التي يجب أن تلاحظ أيضاً في عملية تقويم المعلم ، هي

مسألة العامل الشخصي في المشرف باعتباره المسؤول الأول عن تقدير عمل المعلم ، وإصدار الحكم على نجاحه أو فشله . فللمشرف معاييره الخاصة ، وله مبادؤه ومستوياته ، وله ما يتوقعه ، وما ينتظره من المعلم وفق المستوى الذي يضعه لنفسه ، ولهذا سوف لا يكون من السهل أن تأتي أحكام المشرف التربوي على المعلم بعيدة عن التأثر بهذه العوامل الشخصية .

وتجنباً لهذه المشكلات ، فقد إرتأى المختصون بميدان الأشراف التربوي أن يعدل المشرف عند تقييمه المعلم – عن النمط المألوف في التقييم سابقاً ، وأن يتجه في تقويمه الجديد لا إلى تقدير شخصية المعلم ، أو إحصاء عيوبه وأخطائه ، وإنما أن يركز على ملاحظة عمله التدريسي ، وما يقوم به من نشاط داخل الصف وخارجه ، وأن يكون الحكم عليه من خلال أعماله ونشاطاته ، وأن يكون المعيار لتقدير كفاءته في التدريس مبنياً على قدرته في خلق موقف أفضل للتعلم والتعليم من جهة ، وعلى نوع التعليم نفسه وما يدور في غرفة الصف فعلياً من نشاط وفعاليات بدلاً من الحكم على المعلم شخصياً أو بالذات من جهة أخرى ، وأخيراً أن يكون التقييم الكلي لكفاءة المعلم في التدريس ليس معتمداً على وسيلة واحدة ، وإنما على استخدام وسائل تقويمية مختلفة ، كرأي المعلم مثلاً عن نفسه ، ورأي المعلمين الآخرين فيه ، ورأي المدير فيه إلى غير ذلك من الوسائل التي ذكرناها تحت عنوان « الوسائل المستخدمة في تقويم المعلم » .

وتمشياً مع هذه الآراء والاتجاهات الحديثة ، فإني أقترح – إذا كانت أهدافنا من تقويم المعلم تتوخى أساساً تطوير التعليم ، والارتقاء به إلى مستوى أفضل من الكفاءة ، ومعاونة المعلم على تحسين طرائقه وأساليبه التدريسية لأجل أن يتمكن من خلق جو أفضل للتعلم والتعليم – أن تبنى أية أداة للتقويم ، استمارة كانت تلك الأداة ، أم مقابلة نجريها مع المعلم ، أم مشاهدة نقوم بها إلى صفه ، أم تقريراً نكتبه عنه ، أم أية وسيلة أخرى ، على أساس هذه الأهداف والمبادئ والاتجاهات الحديثة ، وأن يتم بناء الهيكل العام لهذه الأداة أو الاستمارة الافتراضية في ضوء المبدأين الأساسيين اللتين تعرضنا لهما في بداية هذا الموضوع وهما : مبدأ العلم والتعليم ، وأن تعنى هذه الأداة أو الاستمارة أخيراً بما يأتي : –

١ – بدراسة طبيعة عملية تعلم التلاميذ ، وما يحدث لهم داخل الصف .

٢ ـ بدراسة الوسائل التي يستخدمها المعلم لتوجيه هذه العملية .

٣ ـ بملاحظة سير الدرس ملاحظة دقيقة من قبل المشرف بحيث يستطيع أن يقف على الوسائل التي استخدمها المعلم في أسئلة تلاميذه ، وحرية تلاميذه في توجيه الأسئلة إليه .

٤ ـ بتحليل النشاط التعليمي الذي تمّ في الصف بصورة فعلية ، وجمع معلومات وبيانات كافية عن هذا النشاط ، وتقييمه والحكم على قيمته بالاشتراك والتعاون ما بين المعلم والمشرف .

٥ ـ بمعاونة المعلم على تشخيص نواحي القوة والضعف في تدريسه ، والعمل على تدعيم وتشجيع نواحي القوة لديه ، وتلافي نواحي الضعف عنده ».

٦ ـ باتاحة الفرصة للمعلم بأن يدرس عمله الخاص ، ويتعلم هو بنفسه كيف يقيم النشاط التعليمي لتلاميذه ، وكيف يقـيم طرق التدريس التي يمارسها، على أن يكون الهدف الأساسي من هذا التقييم جمع حقائق ومعلومات كافية تصلح لدراسة موقف التعلم والتعليم دراسة تعاونية تتوخى مساعدة المعلم والأخذ بيده لتطوير عملية التعليم للناشئة بما يحقق لهم النمو الكامل جسمياً وعقلياً وعاطفياً وخلقياً ، كما تتوخى الارتفاع بمستوى المعلم علمياً ومهنياً لمواجهة مشكلاته ، ومعاونته على حلها بنفسه لأجل تطوير عملية التعلم والتعليم .

٧ ـ باطلاع المعلم على صورة حقيقية لنشاطه داخل الصف (الفصل) لأن هذا الإجراء يساعده على تحليل وتقييم عملية التعلم والتعليم .

ب ـ استمارة التقييم المقترحة :

بالإضافة إلى الأُسس والمعايير التي ذكرناها تحت عنوان « تقويم المعلم في مدارسنا على ص ٥٨ ـ ٦١ من هذا البحث » ، وفضلاً عن المعلومات والبيانات التي اقترحنا ضمها أو جمعها في ملف أو سجل خاص يحتفظ به المشرف التربوي لكل معلم من المعلمين الذين يشرف عليهم ، فإني أقترح لاستمارة التقييم التي نحن بصددها الآن ما يأتي : ـ

١ ـ أن تكون بين يدي المشرف استمارة للتقويم المباشر للمعلم ، لأن التقييم يعتبر المسؤولية الأولى من مسؤوليات المشرف التي يستطيع بوساطتها أن يعرف بنفسه ما يعمله المعلم

داخل الصف . ولعل أفضل وسيلة يمكن أن يسلكها المشرف للحصول على هذه المعلومات هي الزيارة الصفية أو المشاهدة المباشرة للمعلم .

٢ – أن تسمى الاستمارة التي يستخدمها المشرف للتقويم استمارة « تقييم التعليم » بدلاً من تسميتها باستمارة « تقييم المعلم » وألاّ يقدم المشرف التربوي على استعمالها إلا بعد أن توزع على جميع المعلمين ليبدوا ملاحظاتهم عليها ، وانطباعاتهم عنها ، ويحذفوا منها أو يضيفوا إليها ما يستحق الحذف أو الإضافة ، ثم تحال بعد ذلك إلى لجنة من الخبراء المتخصصين ليبدوا رأيهم فيها ، وأن يجرى عليها تقويم كامل في كل سنة أو سنتين حتى تصل إلى المستوى اللائق بها علمياً ومهنياً وموضوعياً ، وتستقر عند الحدود أو المتطلبات التي يقبلها كل من المعلم والمشرف على حد سواء .

أما تنظيم هذه الاستمارة ، وما يمكن أن يضمن فيها من فقرات ومعلومات وحقول ، فإني أقترح أن يكون على النحو الآتي : –

١ – أن تحتوي الاستمارة على المعلومات الآتية : –

أ – الهدف أو الأهداف التي يسعى المعلم إلى تحقيقها ، وما لهذه الأهداف من قيمة ، ومدى إمكانية تحقيقها .

ب – مدى فهم التلاميذ واستيعابهم لهذه الأهداف ومقدار فائدتها بالنسبة إليهم .

جـ – خطة التدريس التي أعدها المعلم لتحقيق تلك الأهداف .

د – ملاءمة الخبرات التعليمية التي اقترحها المعلم لتلاميذه ، وقدرتها على مساعدتهم في إدراك الأهداف المطلوبة ، واستعدادهم للمشاركة الإيجابية في هذه الخبرات

هـ – دقة المادة العلمية التي يقدمها المعلم لتلاميذه ، وعلاقتها بأهداف الدرس ، وقدرة المعلم على إتقان تلك المادة وضبطها وعرضها بأسلوب يتلاءم وحاجات التلاميذ وقدراتهم .

د – ملاءمة الأدوات والوسائل التعليمية التي استخدمها المعلم لشرح الدرس وتوضيحه

ز – ملاءمة الطريقة التدريسية لمادة الدرس وأهدافه ومستويات التلاميذ وقدراتهم.

ح – استجابة المعلم لأسئلة التلاميذ ومقترحاتهم وأنشطتهم ، وقدرته على توجيهها

توجيهاً سليماً ، ومراعاته لها بروح من العدل والإنصاف في التوزيع والمعاملة .

ط ــ مواطن القوة والضعف عند المعلم ، ونوع المساعدة أو التشجيع الذي يحتاج إليه لتدعيم نواحي القوة عنده والتغلب على نواحي الضعف فيه .

٢ ــ أن تقسّم الاستمارة إلى أربعة حقول رئيسية ، وحقل خامس للملاحظات والتوجيهات العــامة ، على أن يخصص الحقل الأول منها للمعلومات المتعلقة بشخصية المعلم بصورة عامة ومظهره الخارجي وقدرته على إدارة الصف وضبطه . ويقدّر لهذا الحقل (١٠) عشر درجات . ويخصص الحقل الثاني إلى المادة العلمية ودقتها ، وأهداف الدرس ، وعلاقة المادة بهذه الأهداف . ويقدر لهذا الحقل (٣٦) درجة . أما الحقل الثالث فيخصص للطريقة التدريسية ومستلزماتها الأساسية وما تحتاج إليه من وسائل تعليمية . ويقدر لهذا الحقل (٣٦) درجة أيضاً . ويخصص الحقل الرابع من الاستمارة إلى علاقات المعلم الاجتماعية ، ويقدر لهذا الحقل (١٨) درجة .

وقد يلاحظ القارئ من حقول هذه الاستمارة أننا قد أعطينا حقل الطريقة والمادة العلمية أعلى تقدير في الدرجات ، وساوينا بينهما في الوزن لاعتقادنا بأن هذين الحقلين يمثلان أهم جانب من جوانب التقييم . كما يلاحظ القــارئ أيضاً أننا قد أعطينا درجات قليلة نسبياً إلى الحقل الخاص بشخصية المعلم ، والحقل الخاص بعلاقاته الاجتماعية . والسبب في ذلك يعود إلى إعتقادنا بأن المعلومات المضمنة في حقل الشخصية هي معلومات عامة عن المعلم ، ويمكن الحكم عليها حكماً شخصياً سريعاً لأنها لا تتعلق بالجوانب الفنية والعلمية أو الأبعاد العميقة لشخصية المعلــم كقدرته العقلية ، وخصائصه النفسية ، وخبراته ومهاراته وقدراته المهنية ، وغيرها من السمات الدقيقة التي يتطلب الكشف عنها نوعــاً في القياس أو الحكم الموضوعي الدقيق .

أما السبب في قلة درجات حقل « العلاقات الاجتماعية » فإنه يعود إلى إعتقادنا بأن قسماً كبيراً من هذه العلاقات يمكن للمشرف أن يشاهدها مباشرة أثناء الطريقة التدريسية ، وأسلوب العرض للمادة العلمية وطبيعة التفاعل والعلاقة القائمة بين المعلم وتلاميذه . أما علاقات المعلم مع زملائه المعلمين وغيرهم ، فيستطيع المشرف أن يلاحظها أثناء المناقشات

التي يجريها معه ومع غيره من المعلمين . أما النشاطات التي يقوم بها المعلم خارج الصف أو خارج المدرسة والتي ترمز إلى علاقاته الاجتماعية ، فإن القسم الأعظم منها لا يخضع إلى ملاحظات المشرف المباشرة وإنما يمكن للمشرف أن يلمّ بها إما عن طريق مدير المدرسة وملاحظاته عن المعلم في هذا المجال ، أو بالرجوع إلى المعلومات المسجلة في ملف المعلم الخاص

أما الحقل الخامس من الاستمارة ، فنقترح أن يترك مفتوحاً لملاحظات المشرف وتوجيهاته ، مع الإشارة إلى المشرف – إذا أراد أن يكتب ملاحظة أو تعليقاً على المعلم في هذا الحقل – في أن يمهد لملاحظته أو تعليقه بكلمة شكر وتقدير للمعلم ، لأن لهذا الشكر قيمة كبيرة في رفع معنوية المعلم ، وفي تدعيم العلاقة الودية بينه وبين المعلم . كما نقترح على المشرف أيضاً أن يثني في ملاحظته هذه على جهد المعلم ونواحي القوة أو الابداع في طريقته التدريسية ، مع الإشارة إلى نواحي الضعف إن وجدت وكيفية معالجتها بالاشتراك والتعاون ما بين المشرف والمعلم .

جـ – استمارة أو نموذج التقييم الذاتي :

استكمالاً لهذا البحث ، فإني سأحاول هنا أن أعرض على المعلم نموذجاً لاستمارة التقويم الذاتي للمعلم مع التنبيه والإشارة إلى أن هذه الاستمارة تمثل مظهراً من مظاهر تطوير إستمارات التقويم المستعملة لتقدير كفاءة المعلم من جهة ، ولأنها تمثل من جهة أخرى أحدث الاتجاهات في مجال تقويم المعلم إذا درب عليها تدريباً كافياً وعوّد على ما فيها من فقرات التقييم التي تعتمد أساساً على أمانته ونزاهته فيما يتعلق بتقويم عمله بنفسه بقصد اكتشاف نواحي القوة والضعف عنده ومحاولة التغلب على نواحي الضعف الموجودة لديه .

ولا يختلف تصميم هذه الاستمارة عن بقية إستمارات التقويم الأخرى من حيث الهدف ، وتقسيم محتوى الاستمارة إلى حقول أو مجالات تقويمية ، وإنما يبنى الهيكل العام لها عادة إما على شكل أسئلة يجاب عنها بكلمة (نعم أو لا) من قبل المعلم نفسه ، أو على شكل عبارات أو فقرات يحاول المعلم أن يجيب عنها وفق مقياس ثلاثي أو رباعي أو خماسي التقدير مثل : (دائماً ، أحياناً ، نادراً أو : « دائماً ، كثيراً ، نادراً ، أبداً » ، وأن تعطى أوزان بالأرقام لهذه التقديرات مثل : إعطاء رقم ٤ لكلمة (دائماً) ، و ٣ لكلمة (كثيراً) و ٢ لكلمة (نادراً) و ١ لكلمة (أبداً) وهكذا . . . شريطة أن تصمّم الأسئلة والفقرات

في هذه الاستمارة في ضوء هدف أو عدد من أهداف التقويم ، وأن تجعل هذه الأهداف إطاراً عاماً لتلك الاستمارة .

فإذا جاءت أجوبة المعلم عن جميع الأسئلة الموجودة فيها بكلمة (نعم) ، أو كان التأشير فيها على مقياس التقدير يتركز على أكبر الأوزان المعطاة له في ذلك المقياس ، فإن من الممكن أن يشك بهذا النوع من التقييم الذاتي لأن من الصعب جداً أن نجد معلماً يستطيع أن يجيب عن جميع أسئلة الاستمارة إجابة مثالية ، أو معلماً يستطيع الوصول بقدراته وممارساته ومواهبه ومهاراته إلى درجة الكمال المطلقة .

أما إذا كانت الأجوبة أو التأشيرات في الاستمارة تعكس جوانب متوازنة من القوة والضعف عند المعلم ، فإن هذه النتيجة توحي أو تعطي إنطباعاً لتقدير مناسب أو معقول عن كفاءة المعلم يمكن الوثو ق بصحته أو صدقه إلى حد معقول .

وإليك في أدناه نموذجاً عاماً وليس تفصيلياً لهذا النوع من الاستمارة لأجل الاطلاع عليه والتعرف على صياغة فقراته وكيفية بنائه : —

نموذج استمارة التقديم الذاتي

أ - أشر بعلامة واحدة فقط إما على شكل (+) أو على شكل (×) في مقياس التقدير المقابل لكل سؤال من الأسئلة الآتية تعتقد بأن جوابه سيكون إما كلمة (نعم) أو كلمة (لا) : -

الأسئلة	مقياس التقدير	
	نعم	لا
١ - هل أنني دائماً أصمم خطتي التدريسية في ضوء الأهداف المقررة للدرس؟		
٢ - هل أنني غزير بمادتي العلمية وأسعى إلى تطويرها وإثرائها دائماً بالتتبع والمطالعة الخارجية ؟		
٣ - هل تعتمد طريقتي التدريسية على فعالية التلاميذ ومساهماتهم الفعلية في الدرس ؟		
٤ - هل لوسائل الإيضاح التي استخدمها في الطريقة آثار واضحة في تبسيط الدرس وتيسيره للتلاميذ ؟		
٥ - هل أنا قادر على ربط مادة الدرس بحياة التلاميذ وبيئتهم ؟ ...		
٦ - هل لدي رغبة حقيقية للمساهمة بأوجه النشاط المختلفة داخل المدرسة وخارجها ؟		
٧ - هل أنني متعاون فعلاً مع زملائي المدرسين وجميع العاملين معي في المدرسة لصالح التلاميذ والمدرسة ؟		
٨ - هل أنني أعامل تلاميذي بروح من العدل والمساواة فيما أطلبه منهم؟		
٩ - هل لدي رغبه شديدة في قراءة الكتب المهنية والاشتراك في المنظمات التربوية ؟		

ب – إقرأ كل عبارة من العبارات الآتية ، ثم أشر بعلامة واحدة فقط تحت الكلمة التي تناسبها في العمود المقابل لهـا من مقياس التقدير : –

العبـــارات	مقياس التقدير			
	دائما	كثيرا	نادرا	أبدا
١ – أقوم بواجباتي التعليمية كما ينبغي ، وأراعي الدقة والاتقان في عملي ..				
٢ – أعرف مواطن القوة والضعف عندي ، وأعمل على تدعيم القوي فيها وتلافي الضعيف منها				
٣ – أحاول نقد نفسي لأصحح أخطائي وأتعلم منها				
٤ – أجرب تطبيق طرق جديدة في التعليم ، وأحاول استخدام طرق فنية لتقويم أنواع مختلفة من نمو التلاميذ				
٥ – أساهم في الندوات والورش الدراسية وأشارك في المؤتمرات واللجان التربوية				
٦ – أعـــاون تلاميذي على تنمية مهاراتهم في العمل بطريقة تعاونية ..				
٧ – أساعد كل تلميذ بطريقة مهنية تعاونه على التغلب على نواحي الضعف عنده				
٨ – أقدم لتلاميذي من الوسائل التعليمية ما يساعدهم على استخدامها والإ فـــادة منها				
٩ – أبذل كل ما في وسعي لجعل جو الصف جواً يساعد على التفاعل الإ يجابي بيني وبين تلاميذي				
١٠ – أختار أحسن الطرق التدريسية وأكثرها ملاءمة لمستوى تلاميذي وقدراتهم				
١١ – أعمل باستمرار على توطيد العلاقات الطيبة بيني وبين زملائي المعلمين وجميع العاملين معي في المدرسة..				
١٢ – أساهم مساهمة فعلية في أي نشاط إجتماعي داخل المدرسة وخارجها				
١٣ – أقـــوم بتجريب أساليب وطرق جديدة في التدريس..				

مصادرة البحث العربيـة والاجنبية

المصــادر العربية :

١ – الغريب ، رمزية . التقويم والقياس في المدرسة الحديثة ، دار النهضة المصرية ، القــاهرة ، ١٩٦٢ م .

٢ – سمعان ، وهيب وآخرون . الإشراف الفني في التعليم ، مكتبة النهضة المصرية . القــاهرة ، ١٩٦٣ م .

٣ – الأفندي ، محمد حامد . الإشراف التربوي . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٢م

٤ – كاتول ، جبرائيل . الإدارة التربوية ، دار التربية في الجامعة الأمريكية ، بيروت ، ١٩٦٦ م .

المصــادر الأجنبية :

5. N.C.T.E., The English Language Arts in the Second-Schools, Appleton, Century-Crafts, Inc., N.Y., 1956
6. Gage, N.L., Teacher Effectiveness and Teacher Aduc., Pacific Books Publishers, Palo Alto, Calif., 1972
7. Amindon, E., The Analysis of Class-room Verbal Instruction, Rinehart and Winston, Inc., N.Y., 1967.

مكة وتميم

البروفيسور م . ج . كستر
ترجمة دكتور يحيى الجبوري
استاذ بقسم اللغة العربية ووكيل كلية
الانسانيات والعلوم الاجتماعية

لتاريخ تميم في العصر الجاهلي أهمية خاصة . والمعلومات حول تميم في المصادر العربية تشير بوضوح إلى العلاقات الوثيقة بين زعماء تميم وملوك الحيرة . وهنالك مركز آخر ارتبطت به تميم بعلائق وثيقة ، ذلك المركز هو مكة ، ومن الممكن القول أن تميما لعبت دوراً ذا أهمية في تاريخ مكة في العصر الجاهلي ، وكانت تساهم كثيراً في دعم نفوذ هذه المدينة في المجتمع القبلي لشبه الجزيرة العربية .

إن تمحيص العلاقات بين مكة وتميم ، ربما يلقى بعض الضوء على أصول الحكم القبلي بقيادة مكة ، وعلى السياسة الملكية مع القبائل المحيطة بها . إن تقصى هذه المعلومات ربما يدعو إلى إعادة النظر في بعض الآراء المتعلقة بصلة مكة بالقبائل ، وتفسير بعض الأحداث التي حصلت في فترة الصراع بين النبي ومكة .

إن بحث العلاقات بين مكة وتميم يمكن أن يمهد له ببعض الملاحظات حول علاقة القبائل العربية بالحيرة في أواخر القرن السادس .

كان النصف الثاني من القرن السادس عصر تبدل أساسي في العلاقات بين القبائل في شمال شرق الجزيرة وبين الحيرة ، وكان لانكسار قوات الحيرة في المعارك التي تخوضها هذه القبائل أن قوض هيبة حكام الحيرة في نظر هذه القبائل . وقد أدي منح امتياز حراسة القوافل لبعض رؤساء العشائر إلى إثارة الحسد والخلاف بين القبائل وقاد إلى التصادم فيما بينهم ، ثم أدى السخط القبلي إلى قيام الثورة ضد الحيرة ، ولهذا كثرت الإغارة على قوافل الحكام ، وصارت طرق التجارة غير آمنة ، لقد بدأ حكام الحيرة يفقدون السيطرة على الطرق التجارية وتتضاءل هيبتهم .

(*) الاصل :

Mecca and Tamim (Aspects of their relations) by: M. J. Kister. Journal of the Economic and Social History of Orient. Vol. VIII, Part, II, 1965, Leiden.

إن ضعف أمراء الحيرة وأسيادهم الفرس كان أمراً واضحاً ، فكثيراً ما كانت تنهزم الحاميات الفارسية والقبائل الموالية لهم في المعارك التي تخوضها ضد القبائل ، لقد سجل البلاذري حالة من هذا القبيل : « وأغارت بكر بن وائل على بني عمرو بن تميم يوم الصليب ومعهم ناس من الأساورة ، فهزمتهم بنو عمرو ، وقتل طريف رأس الأساورة ، فقال :

ولـــولا طرادى بالصليب لسوقت نساء أناس بين درنا وبارق(١)

وكانت المعدات التي تجهز من قبل الفرس للقبائل الموالية تأخذها القبائل المنتصرة غنائم وأسلابا (٢) .

لقد صار أمراء الحيرة يشعرون باضمحلال الامبراطورية الفارسية وتدهورها في أواخر القرن السادس ، ذلك أن النعمان آخر أمراء الحيرة بدأ يتعاطف مع العرب ، ومن المعقول أنه صار يوثق العلائق مع زعماء القبائل محاولة منه لإيجاد أسباب مشتركة مع القبائل القوية ، وفي رواية – غير راجحة – نسبت إلى النعمان قوله : « إنما أنا رجل منكم ، وإنما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم . . . ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدث نفسه » (٣) . يؤكد نولدكه وهو على حق حقيقة أن أمـــراء لخم صاروا أكثر استقلالا في موقفهم تجـــاه كسرى(٤) . ويستشهد روثستين بنص من الدينورى ذلك أن كسرى قال في محاورة : إنه إنما قتل النعمان ، لأن النعمان وأسرته وحدوا سياستهم وأهدافهم مع العرب (٥) ووفقاً لرواية سجلها أبو البقاء ، أن كسرى عزم بعد موت المنذر على ارسال حاكم فارسي مع ١٢٠٠٠ إثني عشر ألف اسوارى إلى الحيرة . ثم غير رأيه وقرر أن يعين أحد أطفال المنذر طبقاً لمشورة عدى بن زيد(٦) .

إن الشعر الجاهلي يعكس بوضوح مقاومة القبائل للحكم الأجنبي ، فالشعراء يمتدحون

(١) البلاذري : انساب الاشراف مخطوط الورقة ١٠٥ ب .
(٢) انظر النقـائض ص ٥٨١ : وكانت بكر تحـت يد كسرى وفارس ، قال : فكانوا يقومونهم ويجهزونهم . فاقبلوا من عند عامل عين التمر ... الخ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١/١٦٩ .
(٤) T. Nöldeke: Geschichte der prser U. Araber, p. 332. N.I.
(٥) Rothstein: Die Dynastie der Lahmiden, pp. 116-117.
(٦) ابو البقاء : مناقب مخطوط الورقة ١١٠٦ .

قبائلهم بأنهم حاربوا الملوك(٧) وقتلوهم(٨) . وكان لابــد للنعمان أن يشعر بتقوض الامبراطورية الفارسية وتزايد قوة القبائل العربية ، ولابد أن يكون قد اختط لنفسه سياسة جديدة لا تنسجم والمصالح الفارسية ، وينبغي أن يكون هناك شيء من الحقيقة في شكوك كسرى ، ويبدو أن الأسرة اللخمية – في نظر كسرى – قد ألغيت ، لأنها لم تعد أهلاً للثقة . فلم يعد بمستطاع اللخميين تأمين طرق التجارة ، وفشلوا في منع القبائل العربية من غزو ممتلكات الامبراطورية الفارسية .

يرى نولدكه أن إلغاء حكم الأسرة اللخمية يسر للقبائل العربية أن تغير على ممتلكات الحيرة (٩) . ويعتبر بروكلمان أن اندحار القوات الفارسية في ذى قار كان نتيجة لإلغاء حكم هذه الأسرة (١٠) . أما ليفى دلا فيدا فيفترض أنه : « مع سقوط الدولة التي كانت حاجزاً بين العرب والفرس صار الباب مفتوحاً للغارات العربية » (١١) . ولكن الباب في الحقيقة كان مفتوحاً للغارات العربية بسبب انحطاط الامبراطورية الفارسية ، وارتفاع قوة القبائل العربية ، أن الحاميات الفارسية لم يكن بمقدورها منع هجمات القبائل ، وأن الجيوش الفارسية كانت قد هزمت أمام جيوش القبائل العربية .

إن القبائل العربية ، بسبب من خيبة أملها بسياسة الحيرة وسياسة فارس ، بالإضافة إلى وعيها بضعف الدولة الموالية (الحيرة) ، شعرت بضعف الولاء لهذه الدولة وبدأت تتطلع إلى كيان سياسي ذى قيادة كفوءة خاص بها وقد خلق هذا فكرة تحالف سياسي يرتكز على المساواة والمصالح المشتركة ذلك هو التحالف السياسي الموحد لمكة .

إن الروايات المتعلقة بفترة توطيد قوة مكة ، مع أنها شحيحة ، فهي تعطينا فكرة أولية لظهور هذه المرحلة .

---

(٧) انظر :
Levi della vida: pre-Islamic Arabia. (The Arab Heritage p. 50).

(٨) انظر الزبير بن بكار : نسب قريش ٢٦/١ :

القاتلين من المنـاذر ســبعة   في الكهف فوق وسائد الريحان

قالها في مدح بني حرملة ، وأراد بالمناذر ، النعمان بن المنذر ورهطه .

(٩) نولدكه : المرجع السابق والصفحة .

(١٠) C. Brockelmann: History of the Islamic peoples, p. 8.

(١١) ليفى دلا فيدا : المرجع السابق ص ٥١ .

ففي رواية مجملة لمحمد بن سلام (١٢) تقدم تمهيداً للقضية ، ذلك أن قريشا كانوا تجارا ، ولم تكن تجارتهم في أي حال لتتجاوز حدود مكة ، وكان التجار الغرباء يجلبون تجارتهم إلى مكة يبيعون بضائعهم لقاطني المدينة ، والقبائل المجاورة ، وهكذا كانت تجارتهم إلى أن ذهب هاشم بن عبد مناف إلى الشام ووطأ أرض قيصر ، وصار هاشم يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويطعم جيرانه ، وبذلك سمي هاشما لأنه هشم الخبز وجعله ثريداً (١٣) (كان اسمه عمرا) وكان قيصر الروم يدعوه إلى بلاطه ، وصار هاشم يتردد عليه ، وحين أدرك أنه نال رضاه ، سأله أن يعطي تجار مكة كتاباً يؤمن فيه تجارتهم وأنفسهم ، فاستجاب الامبراطور لطلبه فضمن لتجار مكة (صك الأمان) عند زيارتهم سورية ، فكان تجار مكة يجلبون الملابس والجلود من الحجاز فهي أرخص لسكان الشام . وعند رجوع هاشم — في طريقه إلى مكة — لقي رؤساء القبائل التي مر بها فأخذ منهم عهد الأمان « الإيلاف » دون أن يعقد معهم حلفا . كان تجار مكة يحملون البضائع إلى الشام ويشاركون العرب في التجارة بأن يأخذوا بضائعهم ويتاجروا بها ثم يعطوهم أرباحاً مع رؤوس أموالهم (١٤) .

لقد ذهب هاشم نفسه في تجارة مع تجار مكة ، وطبقاً للاتفاق مع القبائل حيث قاد تجار مكة إلى الشام وأحلهم في قراها ، وقد توفي هاشم في هذه الرحلة في مدينة غزة . كما ذهب المطلب بن عبد مناف إلى اليمن وحصل من حكام اليمن على ترخيص مماثل لما حصله هاشم

(١٢) القالي : ذيل الامالي ص ٢٠٠ ، الكلاعي : الاكتفاء ١/٢٠٧ — ٢٠٩ .
Hamidullah: Al-ilaf au les rapports economic - diplomatiques de la Mecque pre Islamique.
(Mélanges Louis Massignon, II, 293 seq.); idem: Muslim Conduct of State, 102;
ظافر القاسمي : الايلاف والمعونات غير المشروطة . مجلة مجمع اللغة العربية ، دمشق ٣٤ ص ٢٤٣ — ٢٥٥ .

(١٣) للتفسيرات الاخرى لهذا اللقب انظر كايتاني :
Caetani: Annali I, 109-110 (90).

(١٤) يترجم محمد حميد الله : « وعلى ان قريشا تحمل لهم (هكذا من نص المنمق ، وعند القالي « اليهم ») بضائع فيكفونهم حملانها ويؤدون اليهم رؤوس أموالهم وربحهم كالاتي :
"et leur remettraient la prix realisée sons pour autant les charger des pais au deduire des commissions...".

لقد جعل الفقرة في الانكليزية تصبح كالاتي :
"... promised... to carry their goods as agents without commission for commercial purposes or otherwise concluded treaties of friendship...".
وهذه الترجمة تبدو غير مضبوطة .

لتجار قريش ، وحصل على الإيلاف من رؤساء القبائل ، وقد توفي في ردمان . وذهب عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة وفي طريقه حصل على الإيلاف . وكذلك حصل نوفل أصغر الأخوة على ترخيص من كسرى امبراطور الفرس والأيلاف من رؤساء القبائل (في طريق فارس) ، وعاد بعدها إلى العراق وتوفى في سلمان . لقد طورت قريش بعد ذلك تجارتها ، وزادت ثرواتها ، وكان ذلك بفضل بني عبد مناف الذين تدين لهم قريش بالفضل في الجاهلية .

يدون ابن سعد قصة هاشم الذى حصل على الإيلاف وعلى رخص الأمان من لدن الحاكمين (١٥) . وقد سمى القالى تلك الرخص (عهدا) أو (أمانا) ويستعمل ابن سعد صيغة (حلف) ، كما يستعمل محمد بن حبيب في فصل الأيلاف كلمة (إيلاف) للرخص والاتفاقات مع رؤساء القبائل (١٦) . ويطلق البلاذرى في ذكره للايلاف تعبير (عصام) على رخص الحكام . فقد قيل إن نوفل بن عبد مناف كان قد حصل على (عصام) من ملوك العراق (١٧) .

يستعمل الطبرى الكلمتين (عصام) و (حبل) للدلالة على الرخصة . قال : حصل نوفل على (الحبل) من الأكاسرة ، وكانوا (أي تجار قريش) يترددون على العراق وفارس (١٨) .

ويذكر الثعالبي أن هاشما أخذ الإيلاف من الأعداء (١٩) . إن عبارة أخذ الإيلاف من الأعداء سجلها الثعالبي في موضع آخر وهي تختلف كلياً عن الروايات المذكورة ،

(١٥) ابن سعد : الطبقات ١/٧٥ ـ ٨٠ سيقت الرواية عن عبدالله بن نوفل بن الحارث (انظر ابن حجر : الاصابة رقم ٤٩٩٤) يقول : ان هاشما كتب الى النجاشي (ملك الحبشة) يسأله أن يمنح تجار مكة أمانا · ان القاعدة الاقتصادية للايلاف تسجل هنا كالاتي : « على أن تحمل قريش بضائعهم ولا كراء على أهل الطريق » ص ٧٨ تساعد هذه على فهم الفقرة التى نوقشت في الملاحظة السابقة ·

(١٦) محمد بن حبيب : المحبر ص ١٦٢ وما بعدها ·

(١٧) البلاذري : انساب ١/٥٩ ، انظر في كلمة (عصم) الاعشى : الديوان ص ٢٩ ·

(١٨) الطبري : تاريخ ٢/١٢ ، قارن ابن ظفر الصقلي : انباء نجباء الابناء · ط مصطفى القباني ، القاهرة بلا تاريخ ص ٦٦ ـ ٦٨ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ، ط القاهرة ١٣٨٠هـ ١/٢١٤ ـ ٢١٥ ، سير الملوك ، مخطوط المتحف البريطاني رقم ٢٣٢٩٨ الورقة ١٧٤ أ ·

(١٩) الثعالبي : لطائف المعارف ص ٥ ط دي جونج ١٨٦٧م ·

ولابد أن تكون قد حرفت عن الروايات السابقة حول الإيلاف (٢٠) .

كانت قريش – كما يقول الثعالبي – لا تفارق مكة ولا تتعامل إلا مع التجار الذين يترددون على سوق عكاظ وذى المجاز خلال الأشهر الحرم ويأتون مكة ، وكان سبب ذلك أن قريشا متمسكة بدينها محبة لحرمها وبيتها ، وكانت تخدم حجاج مكة وفي ذلك نفع لها .

وكان هاشم أول من ذهب إلى الشام ، وزار الملوك وقام برحلات بعيدة واجتاز الأعداء (أي القبائل المعادية) وأخذ منهم الأيلاف المذكور (في القرآن) . فيذكر الثعالبي رحلتين لهاشم (إلى العباهلة في اليمن وإلى اليكسوم في الحبشة في الشتاء ، وإلى الشام وبيزنطة في الصيف) ويقول حول الإيلاف : لقد أخذ الإيلاف من رؤساء القبائل والزعماء لسببين : بسبب أهل « الحرم » والناس الذين لا يأمنون من هجمات « ذؤبان العرب » ولصوص البدو ورجال الغزو ، والغارقين في أعمال الثأر المتأصلة ، وبسبب تلك القبائل التي لا تحترم حرمة الحرم والأشهر الحرم ، مثل طيء وخثعم وقضاعة ، بينما تحج القبائل الأخرى إلى الكعبة وتحترم البيت . إن الإيلاف يعني كما يقول الثعالبي : مبلغاً من المال يمنح من قبل هاشم إلى رؤساء القبائل كأرباح ويتعهد هاشم بنقل بضائعهم سوية مع بضائعه ، ويسوق ابلهم مع ابله ، كي يريحهم من مشاق الرحلة ويريح قريشا من خوف الأعداء ، وكان في ذلك فائدة للجانبين : فقد ربح المقيمون (البــدو) وأمن المسافرون (القرشيون) وتحسنت بذلك أحــوال قريش (٢١) .

---

(٢٠) الثعالبي : ثمار القلوب ص ٨٩ وما بعدها · ان حق الايلاف لقريش وامتيازها به ذكر في أبيات لمسور بن هند ·

زعمتم أن اخوتكم قريش | لهم الف وليس لكم الاف
أولئك أومنــوا جوعا وخوفا | وقد جاءت بنو أســد وخافوا

انظر الحماسة (شرح المرزوقي ط هارون) ص ١٤٤٩ رقم ٦٠٥ · وقارن البلاذري : انســاب ١/٨٩ (قول نتيلة حول ولدها ضرار بن عبدالمطلب) :

سن لفهر سنة الايلاف

وانظر الهمداني : الاكليل ١/٢ مخطوطة الورقة ١٢٦ :

فلا تقصــوا معــدا ان فيها | الاف الله والامــــر السمين

(٢١) هناك رواية ذات مغزى مقتبســة من كتاب الكمائم (مفقود) جاءت عن أبي سعيد في كتابه نشوة الطرب (مخطوطة توبنجن الورقة ٩٧) ، قال صاحب الكمائم · « كانت قريش قد انقطعت عند البيت وكانت العرب التي حولها تمنعهم من الخروج في طلب المعاش ولم يكن لهم عيش الا ما يأتي الموسم أيام الحج ، فلما نشأ بنو عبد مناف المذكورون أخذوا العرب بالســياسة والمهاداة الى أن انقادوا لهم وفتحوا الطريق لسفارهم حيث شاءوا فاخترعوا الايلاف الذى ذكره الله عز وجل ·

يذكر ابن أبي الحديد روايتين (٢٢) واحدة عن القالى والأخرى عن الجاحظ في رسالته (فضل هاشم على عبد شمس) (٢٣) ، توضح رواية الجاحظ المشاركة في الأرباح بين هاشم ورؤساء القبائل : « وشارك في تجارته رؤساء القبائل من العرب . . . وجعل لهم معه ربحاً . . . » . ويذكر الجاحظ رواية أخرى حول الإيلاف يقول فيها : إن هاشماً فرض ضرائب على رؤساء القبائل ، وقد استطاع هاشم بهذه المبالغ المجموعة أن ينظم الدفاع عن أهل مكة ضد اللصوص والقبائل التي ما كانت لتحترم قدسية مكة (٢٤) .

وينقل اليعقوبي (٢٥) القصة المذكورة سابقاً حول الأخوة الأربعة (هاشم وأخوته) الذين حصلوا على الإيلاف ، وتتضمن الرواية مع ذلك عبارة تعطى اشارة تعين على تقدير مدى فعالية إتفاقات الإيلاف التي أنجزها هاشم ، يقول اليعقوبي : كانت قريش بعد موت هاشم خائفة من تسلط البدو عليها ، وهذه العبارة تدل على أن اتفاقيات الإيلاف لم تكن في الواقع قد نفذت ، وقد خشيت قريش من أن بعض القبائل ربما تمتنع من تنفيذ بنودها . إلا أن نشاط أبناء عبد مناف والأرباح الممنوحة للرؤساء جعل الرؤساء يلتزمون بتعهداتهم حول الإيلاف .

إن التفسير المعجمي لكلمة (إيلاف) نوقش من قبل بيركلاند ، فأرجع الكلمة إلى كونها « حماية » (حلف يضمن الأمن) الخ (٢٦) ، ويرى بيركلاند أن معنى كلمة (الحماية (Protection)) لم يرد في تفاسير القرآن عدا تفسير الألوسى ، وهو على كل حال يستند في تفسيره إلى أبي حيان (٢٧) ، يستشهد أبو حيان برأى النقاش بأنه كانت هناك أربع رحلات (أى أنهم يرسلون أربع قوافل : إلى الشام ، والحبشة ، واليمن ، وفارس) ولا يوافق أبو حيان على تفنيد ابن عطية ، ويستشهد في مناقشته بقصة أبناء عبد مناف الأربعة الذين حصلوا على الإيلاف ، ويذكر أبو حيان شرح الأزهري لكلمة

(٢٢) ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ٣/٤٥٤ ، ٤٥٨ .
(٢٣) الجاحظ : رسائل ص ٧٠ ط السندوبي .
(٢٤) الجاحظ : المصدر السابق والصفحة .
(٢٥) اليعقوبي : تاريخ ١/٢٧٨ .
(٢٦) H. Birkeland: The Lord Guideth, p. 106-107.
قارن ذلك بالزمخشري : الفائق ١/٤٠ .
(٢٧) ابو حيان : البحر المحيط ٨/٥١٥ سورة قريش .

(إيلاف) ويستشهد بأبيات مطرود بن كعب (التي ترجمت من قبل بيركلاند) (٢٨) . وجاء شرح الأزهرى أيضاً في تعليق معاهد التنصيص على أبيات مساور بن هند (٢٩) : « شبه الاجارة بالخفارة » .

وينبغي أن يقال إن الروايات التي وردت حول الإيلاف ، تجمل الظواهر الأساسية للتغيرات في مكة التي كانت مركزاً صغيراً لتوزيع البضائع على القبائل البدوية المجاورة للمدينة ، وقد اكتسبت مكة موقعاً ممتازاً كمركز لتجارة المرور (Transit Trade) .

وكان تجار مكة يحملون البضائع أيضاً إلى سورية والحبشة والعراق واليمن . وهذه التجارة المستندة إلى أحلاف الإيلاف كانت عملية مشتركة بين أسر قريش بزعامة أسرة عبد مناف . إن الأحلاف المعقودة مع القبائل على مبدأ الربح التجارى لم تكن معروفة حتى ذلك الحين ، إنها لم تكن أحلافاً مع التزامات في المساعدة المتبادلة والحماية ، ولم تكن تلزم القبائل بحماية قوافل قريش مثلما كانت حال القبائل في علاقتها بقوافل الحيرة .

إن اتفاقيات الإيلاف كانت قد أقيمت على أساس في الأرباح مع رؤساء القبائل ، ومن الواضح استخدام رجال القبائل أيضاً كحراس للقوافل .

بإمكاننا أن نفترض أن الإيلاف ينبغي أن يتضمن فقرة بخصوص مراعاة الأشهر الحرم أي التعهد بالسلم خلال هذه الأشهر ، واحترام قداسة مكة (أو بالأحرى حرمة مكة) . وكان الإيلاف يعني في الحقيقة القبول بـ « نظام السلم المكي » ((Pax Meccana)) من قبل القبائل والاعتراف بمكانة المكيين وتجارة مكة ، وإقامة التعاون الاقتصادى المستند إلى المصلحة العامة ، وذلك يوضح تلك الفقرة المهمة في رواية الثعالبي حول الإيلاف مع القبائل التي كانت معادية حتى ذلك الحين .

يناقش بيركلاند الخلفية التاريخية للآيتين ١ — ٢ من سورة قريش ١٠٦ ، ويؤكد على أهمية عهود الإيلاف فيقول : « إن براعة قريش المالية وحيازتهم الأماكن المقدسة جعلهم أسياد الاقتصاد في غرب الجزيرة حوالى مائة سنة قبل النبي » (٣٠) . ومن الممكن تعميم قول

---

(٢٨) بيركلاند : المرجع السابق ص ١١٩ ، وانظر القالى : أمالى ٢٤١/١ ، البكري : السمط ص ٥٤٧ — ٥٥٠ ، الشريف المرتضى : أمالى ١٧٨/٤ — ١٧٩ .

(٢٩) العباسي : معاهد التنصيص ٩٥/١ .

(٣٠) بيركلاند : المصدر السابق ص ١٢٢ وما بعدها .

بيركلاند هذا ليشمل شرق الجزيرة أيضاً . لقد كان حجم التجارة القرشية واسعاً جداً (٣١) .

ومن الممكن تصور أن رؤساء القبائل كانوا يفضلون الاشتراك في التجارة مع تجار مكة ، فقد كانت أرباحهم أكثر استقراراً في تعاونهم مع قريش ، وكان في مقدورهم إقامة علاقات وطيدة معهم ، وقد فعلوا ذلك حقاً ، فقد كان يرحب بهم في مكة ويستطيعون دخولها من غير خوف ، على خلاف موقفهم من الحيرة فقد كان موقف الذليل الخاضع ، أما في مكة فهم أنداد يستطيعون التفاوض على قدم المساواة .

إن تأثير مكة التجارى كان واضحاً ، وبإمكاننا أن نستنتج ذلك من قصة سجلها اليعقوبي (٣٢) : ذلك أن رجلاً من كلب كان في خدمة امرأة كلبية (تاجرة) على مشارف الشام ، وقد شاهد وصول قافلة مكية إلى الشام ، فيصف بالتفصيل شخصية هاشم ومهابته وشرفه وعزة نفسه وسخاءه والتبجيل الذى يظهره له رؤساء مكة ثم يقول : « والله إن هذه هي العظمة الحقيقية وليست عظمة آل جفنة » . إنها عبارة جديرة بالملاحظة ، فقد شهد هذا البدوى مجد الزعيم القرشى ، فعاداته وسيرته وسجاياه كانت أكثر قرباً إلى نفس البدوى من عزلة حكام آل جفنة ، إنها عبارة صيغت لتكون تمهيداً للمستقبل .

وهناك رواية جديرة بالملاحظة ربما تلقى بعض الضوء على الوضع في مكة في زمن هاشم ، هذه الرواية نقلها السيوطي عن الموفقيات للزبير بن بكار (٣٣) ، وقد رويت عن عمر بن عبد العزيز ، وذلك إن أشراف مكة كانوا يزاولون (الاعتفاد) (٣٤) ، والاعتفاد – كما يوضح السيوطي – أن أهل البيت منهم كانوا إذا خسروا أموالهم يخرجون إلى الصحارى فيضربون على أنفسهم الأخبية ثم يتناوبون فيها حتى يموتوا من قبل أن يعلم الناس بورطتهم . هكذا كانت تجرى الأمور حتى نشأ هاشم ، فلما نبل وعظم قدره في قومه ، جمع قريشا وقال لهم : « يا معشر قريش إن العز مع الكثرة ، وقد أصبحتم أكثر العرب أموالا وأعزهم

(٣١) انظر :
E. R. Wolf: The Social Organization of Macca and Origins of Islam, Southwestern Journal of Anthropology 1951, pp. 330-337.

(٣٢) اليعقوبي : تاريخ ٢٨٠/١ ، وانظر ابن كثير : البداية ٣١٦/٢ – ٣١٧ ، سير الملوك مخطوطة الورقة ١٧٣ ب .

(٣٣) السيوطي : الدر المنثور ٣٩٧/٦ سورة قريش ١٠٦ .

(٣٤) في الاصل « احتفاد » ولابد انها خطأ .

نفرا وإن هذا الاعتفاد قد أتى على كثير منكم » ثم بسط لهم رأيه الذى قبلته قريش ، وذلك أن يلحق بكل رجل غني رجلاً فقيراً ، فالفقير يعين الغني في رحلاته مع القوافل ، و« يعيش في ظله بفضلة أمواله » وكان ذلك قطعاً للاعتفاد فألف هاشم بين الناس .

فلما كان من أمر الفيل وأصحابه ما كان ، وأنزل الله ما أنزل ، وكان ذلك مفتاح النبوة وأول عز قريش حتى هابهم الناس وقالوا : أهل الله والله معهم ، وكان مولد النبي في ذلك العام ، فلما بعث الله النبي كان فيما أنزل عليه يعرف قومه وما صنع لهم وما نصرهم من الفيل وأصحابه : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » (٣٥) ، ثم قال : ولم فعلت ذلك يا محمد بقومك وهم يومئذ أهل عبادة أوثان ، فقال لهم : « لإ يلاف قريش » (٣٦) أي لتراحمهم وتواصلهم ، كانوا على شرك وكان الذى أمنهم منه من الخوف خوف الفيل وأصحابه و « أطعمهم من جوع » يعني جوع الاعتفاد .

إن الرواية تميل إلى تفسير « لإ يلاف قريش » على أنها تعني (لتراحم قريش وتواصلهم) ، إلا أن هذه القصة نوعاً ما غير مترابطة مع تفسير الآية ، إنها تبدو في الحقيقة وكأنها تعكس الحالة قبل الإيلاف . لدى الزبير بن بكار معلومات واضحة عن حالة مكة الاجتماعية والاقتصادية في العصور الجاهلية . وروايته ربما تتضمن مقداراً جيداً من الصدق ، تشير الرواية إلى أن القوافل ، قبل عمل هاشم للإيلاف ، كانت تبعث من قبل الأفراد ، وكان في ذلك مخاطرة كبيرة ، فالتجار معرضون لخسارة كل شيء في حالة هجوم قطاع الطرق أو القبائل المعادية ، والتاجر الذى استثمر كل رأس ماله ربما خسر كل شيء ، فكان الإ يلاف هو الذى جعل الرحلات أمينة .

كان رأي هاشم في ضم الفقير لمشروع القوافل رأياً جريئاً ، إنه أراد أن يعطي الفقير بعض الحصص في الأرباح مكافأة لعمله ، أو من الراجح ، مقابل توظيف المبالغ الصغيرة للأقارب الفقراء . ويبدو أن هذا الاتجاه قد ظهر صداه في أبيات مطرود بن كعب (٣٧) :

---

(٣٥) سورة الفيل ١٠٥ .

(٣٦) سورة قريش ١٠٦ .

(٣٧) انظر بيركلاند : المرجع السابق ص ١١٩ ، وانظر هذه الابيات أيضا في ابن عربي ، محاضرات الابرار ١١٩/٢ ، الطبرسي : مجمع البيان (سورة قريش ١٠٦) ، البلاذري : انساب ٥٨/١ ، اليعقوبي : تاريخ ٢٠٢/١ ، الدياربكري : تاريخ الخميس ١٥٦/١ ، سير الملوك ، مخطوط الورقة ١٧٣ أ .

والخالطين فقيرهم بغنيهم   حتى يكون فقيرهم كالكافي

وهذه الفكرة « فكرة مخالطة الفقير » (أو الأدني مرتبة) مع الغنى كانت المثل الأعلى في المجتمع الجاهلي ، وقد قررها الشعر (٣٨) . إنه لتقليد هام في المثل الجاهلية انعكس في العناية بالأسر المحتاجة . على أن اعتناق الإسلام اعتبر انحرافاً عن هذه المثل .

فنعيم بن عبد الله (٣٩) من العويج (من عدى قريش) اعتنق الإسلام ، وقد كان والده يطعم فقراء عدى ، وبعد اعتناق نعيم الإسلام لقيه الوليد بن المغيرة المخزومي الذى قال له : « يا ولد عبد الله ، لقد هدمت ما بنى أبوك وقطعت ما وصل (بفضله) حين تبعت محمداً»(٤٠)

وتذكر رواية للبلاذرى حول حلف الفضول تعهداً خاصاً بمساعدة المحتاجين القادمين إلى مكة من فضلة مال القوم الداخلين في الحلف « . . . تعاقدوا على . . . ومواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أموالهم » (٤١) .

يقول النعمان بن عجلان الشاعر الأنصارى حين يفخر بفضل الأنصار على المهاجرين(٤٢)

وقلنا لقوم هاجروا مرحباً بكم   وأهلاً وسهلاً قد أمنتم من الفقر

نقاسمكم أموالنا وديارنا   كقسمة أيسار الجزور على شطر

وهناك روايات حول حكيم بن حزام تفيد أنه اعتاد توزيع أرباح قوافله على فقراء ومحتاجي قومه (٤٣) .

(٣٨) قارن القالي : الامالي ١٥٨/٢ ، البكري : السمط ص ٥٤٨ ، ابن شرف : رسائل الانتقاد (رسائل البلغاء ص ٣٣٤) (الخرنق) :

والخالطين نحيتهم بنضارهم   وذوى الغنى منهم بذي الفقر

وانظر ابن الشجرى : الحماسة ص ٥٦ (عمرو بن الاطنابة) :

والخالطين حليفهم بصريحهم   والباذلين عطاءهم للسائل

وانظر الخالديين : الاشباه ٢٠/١ ، حسان : الديوان ص ٣٠٨ :

والخالطين غنيهم بفقيرهم   والمنعمين على الفقير المرمل

وقارن الاعشى : الديوان ٣٥/٣ :

واهان صالح ماله لفقيرها   واسا واصلح بينها واسالها

وانظر ابن عبدالبر : الاستيعاب ص ٣٠٠ (النعمان بن بشير) :

فلا تعدد المولى شريكك في الغنى   ولكنما المولى شريكك في العدم

(٣٩) انظر حوله ابن حجر : الاصابة رقم ١٨٧٧٧ (اعتنى بارامل بني عدي) .

(٤٠) البلاذري : انساب مخطوط الورقة ٨٦٩ أ .

(٤١) المصدر السابق مخطوط الورقة ١٤٤ أ ، رواية أخرى جاءت في السيرة لابن هشام ١٤١/١ .

(٤٢) ابن حجر : الاصابة رقم ٨٧٤٧ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ص ٢٩٨ .

(٤٣) الزبير بن بكار : نسب قريش ٣٦٧/١ رقم ٦٤٤ .

إن الروايات المستشهد بها سابقاً تعكس بوضوح الاتجاه للعناية بالفقراء والمحتاجين من العشيرة . وهكذا فإن توطيد هاشم للإيلاف استطاع بنجاح أن يوسع التجارة وأن يشارك الأغنياء والفقراء في القوافل ، وصارت القوافل مشروعاً مشتركاً ، فإذا ما جازف تاجر وأرسل قافلة خاصة ، فإن التجار الآخرين يشتركون معه في استثمار أموالهم في قافلته (٤٤) . إن النص الآتي للقمى حول وعى المكيين الاجتماعي وعنايتهم بالفقراء جدير بالملاحظة : « وكانت قريش يتفحصون عن حالة الفقراء ويسدون خلة المحاويج » (٤٥) .

ويبدو أن هاشماً قد وسع الاتجاه في العناية بالمحتاجين حتى أصبح مبدأ إجتماعياً ، فيذكر الديار بكرى رواية حول هاشم في سند عن ابن عباس تفيد : أن أهل مكة كانوا في حالة فقر حتى جمعهم هاشم بإرسال القوافل إلى سورية واليمن . لقد درجوا على تقسيم أرباحهم بين الأغنياء والفقراء حتى أصبح الفقير مثل الغنى (٤٦) . ويتحدث ابن حبيب عن رجال الإيلاف قائلاً : « بسببهم رفع الله قريشا ونعش فقراءها . . . » (٤٧) .

وقد يبدو للمرء وجود تشابه بين مزج الفقير والغنى (المخالطة) وبين المؤاخاة (٤٨) . وقد رافق ابرام إتفاقيات الإيلاف تحسين الحالة الداخلية في مكة وتجهيز وسائل الراحة للحجـــاج .

إن البيوت الأولى في مكة كانت قد بنيت من قبل قصى (٤٩) .

ومن الممكن أن نفترض أن تلك البيوت كانت متواضعة جداً ، وكان قطع الأشجار في مكة يعد مشكلة خطيرة ، بسبب حرمة مكة ، ولكن قصياً أمر بقطع الأشجار وبناء البيوت(١) .

---

(٤٤) المصدر السابق ٤٧١/١ رقم ٦٤٥ ، ٦٤٦ .

(٤٥) القمي : غرائب القران (على حاشية تفسير الطبري بولاق ١٢٢٩هـ) ١٦٩/٣٠ .

(٤٦) الديار بكري : تاريخ الخميس ١٥٦/١ .

(٤٧) محمد بن حبيب : المحبر ص ١٦٢ .

(٤٨) قارن السلامي : ادب الصحبة ص ٥٠ : « وكان (النبي صلى الله عليه وسلم) ينبسط في مال ابي بكر كما ينبسط في ماله ويحكم فيه كما يحكم في ماله » .

(٤٩) انظر ابو البقاء : مناقب مخطوط الورقة ٨٥ أ .

(١) انظر ابن سعد : الطبقات ٧١/١ ، البلاذري : انساب ٥٨/١ ، كايتاني : حوليات ١٠٣/١ (٧٨) ، اليعقوبي تاريخ ١٩٧/١ ، الحلبي : انسان العيون ١٤/١ .

ويظهر أن البيـــوت كانت مستديرة الشكل حتى لا تكون شبيهـــة بشكل الكعبة (٢) . ويذكر مؤرج السدوسي أن الزبير بن الحارث بن أسد كان أول من سقف بيتاً ، لقد كانت قريش تهدم البيت الذي لا يكون فيه تعظيم للكعبة (٣) . وكان حميد بن زبير بن الحارث ابن أسد بن عبد العزى أول من بنى بيتاً مربعاً في مكة (٤) . وحين بنى بيته خافت قريش العقاب (من الله) . وقد نظم الرجاز في ذلك أبياتاً :

اليـــوم يبنى لحميـــد بيتـــه
إمـــا حيـــاته وإمـــا موته (٥)

ولما لم يصب حميد ببلاء ، بدأت قريش في بناء البيوت المربعة . فإذا صحت هذه الرواية فإن الزمن الذي تغير فيه بناء البيوت كان النصف الثاني من القرن السادس ، إن أخت حميد هذا كانت أم حكيم بن حزام ، وابن حميد ، عبد الله بن حميد قتل في أحد (٦) . وهكذا يمكن أن نحدد زمن التغييرات المهمة في طراز بناء البيوت هو العقد الأخير من القرن السادس .

(٢) الثعالبي : ثمار القلوب ص ١٣ ، وانظر الموصلي : غاية الوسائل الى معرفة الاوائل مخطوط كمبرج ٣٣ الورقة ٥٨ : « ... وقيل : اول من بنى بها بيتا سعد بن سهم (لكن انظر الفاسي : شفاء الغرام ١٩/١ : سعيد بن عمر بن هصيص السهمي ، قارن مصعب بن عبد الله : نسب قريش ص٤٠٠) فقال عبدالله بن وادعة (اقرأ : بنو وداعة ، انظر مصعب : المصدر السابق ص٤٠٦ وقارن الفاسي : المصدر السابق ١٩/١ ، وذكر الزبير بن بكار عن ابى سفيان بن ابى وداعـة ـ حيث القراءة الصحيحة) يفتخر :

وسعد السعود جامع الشمل انه — بدا الحلف والاحيـاء غير حلاف
فأوسق عهد الحلف والود بينهم — بامـر حصيف فيهم ونصـاف
وذلك ما ارسى ثبير مكـانه — وما بل بحـر صوفه بنطـاف
وأول من بوىء بمكـة بيتـه — وسـور فيه سـاكنا باثافي

كذا بدا وبوى لاسباب الوزن . لكن انظر الفاسي : المصدر السابق والصفحة . يسجل الموصلي (في الموضع السابق) ان اول من بنى بيتا مربعـا في مكة كان بديل بن ورقاء الخزاعي (صاحب الرسول) . يروى الواقدي عن الزهري (الفاكهي : تاريخ مكة ، مخطوط ليدن رقم ٤٦٣ الورقة ٤٤٤ ب) ان اول بيت مربع بني في مكة أثناء فتنة عثمان رضى الله عنه) .

(٣) مؤرج السدوسي : الحذف من نسب قريش ص ٥٤ .

(٤) الزبير بن بكار : نسب قريش ٤٤٣/١ ، وانظر الفاكهي : المصدر السابق الورقة ٤٤٠ ب حول شكل البيوت : ... وانما كانت عامـة بيوتهم عروش من خصاص وسعف وجريد وكانوا يسمونها العروش .

(٥) تنسب هذه الابيات لدويد ، انظر الزبير بن بكار : المصدر السابق والصفحة .

(٦) انظر ابن هشام : السيرة ١٣٥/٣ ، البلاذري : انساب ٣١٩/١ وكان قد اقسم ان يقتل النبي في أحد .

لقد تنافس أشراف مكة في تقديم العون لراحة الحجاج ، فقد قيل إن هاشماً كان يطعم الحجاج في كل موسم (٧) . وكان عبد المطلب أول من جهز الحجاج بالماء العذب (٨) ، لقد حفر عبد المطلب بئر زمزم في زمن كسرى بن قباذ (٩) ، وعلى الرغم مما في ماء زمزم من صفات دوائية (١٠) فانه لم يكن مقبول الطعم ، ولذلك كان عبد المطلب يمزجه بالزبيب . وكذلك كان يعطى الحجاج الحليب مع العسل (١١) . وقد قام بأمر السقاية بعده العباس بن عبد المطلب فجهز ماء الشرب للحجاج . وقد شرب النبي من (السقاية) ، والشرب من سقاية أسرة العباس يعد (سنة) (١٢) . هناك روايات حول حفر الآبار والمنافسة بين أشراف مكة في توفير ماء الشرب للحجاج (١٣) ، فقد قيل أن سويد بن هرمي كان أول من أعطى الحجاج الحليب ليشربوا (١٤) ، كما أعطى أبو أمية بن المغيرة المخزومي (زاد الركب) وأبو وداعة السهمي الحجاج عسلا (١٥) .

إن الروايات حول الإيلاف وحول التحسينات في مكة وتجهيز الطعام والشراب للحجاج كل ذلك يشير إلى الجهود المبذولة لازدياد هيبة المدينة وأمن الحج والتجارة ولذلك فقد أعطيت التسهيلات الخاصة لبعض التجار القادمين إلى مكة للحج (١٦) ، وكانت القوافل التي تجهز بأحسن المؤونة وأجودها كي تحظى برضا القبائل قد نالت الربح الوفير .

وقد لعبت تميم في هذا المجال دوراً كبير الأهمية ، ويمكن أن يقاس هذا من بعض الفقرات التي تتحدث عن الأسواق في الجاهلية كما سجلها محمد بن حبيب (١٧) ، يذكر ابن حبيب في رواية حول سوق دومة الجندل : « إن كل تاجر يخرج من اليمن والحجاز كان يتخفر بقريش مادام مسافراً في بلاد مضر ، لأن مضر لم تكن تعرض لتجار مضر ،

(٧) البلاذري : انساب ١/٦٠ ـ ٦١ ، الازرقي : اخبار مكة ١/٦٧ ط · وستنفيلد ·

(٨) المسعودي : مروج ٢/٤٦ ·

(٩) المصدر السابق والصفحة ·

(١٠) Rathjens: Die Pilgerfahrt pp. 42, 45.

(١١) الازرقي : اخبار مكة ص ٧٠ ، قارن ابو ذر : شرح السيرة ص ٤٢ ط · برونله ·

(١٢) انظر السيوطي : الدر المنثور ٣/٢١٩ ·

(١٣) قارن المصعب الزبيري : نسب قريش الصفحات ٣٢ ، ١٩٧ ـ ١٩٨ ·

(١٤) المصدر السابق ص ٣٤٢ ، الزبير بن بكار : نسب قريش مخطوط الورقة ١٥٣ أ ·

(١٥) محمد بن حبيب : المحبر ص ١٧٧ ·

(١٦) المرزوقي : الامكنة ٢/١٦٦ ، انظر ترجمة محمد حميد الله · Le projhéte de l'Islam, II, 606.

(١٧) محمد بن حبيب : المحبر ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ·

ولا كانوا (أي التجار) يضايقون من حلفاء مضر ، تلك كانت عادة متفق عليها بينهم ، وكذلك كانت كلب لا تضايقهم بسبب حلفهم مع تميم (١٨) . وكانت طيء أيضاً لا تضايقهم بسبب حلفهم مع أسد . وكانت مضر تقول : « قضت عنا قريش مذمة ما أورثنا اسماعيل من الدين » (١٩) .

هذا الخبر جاء عند المرزوقي مع اختلافات مهمة (٢٠) : « كانت قريش تنطلق من مكة إلى (دومة الجندل) ، فإذا أخذوا طريق الحزن فما كانوا يحتاجون لحماية أية قبيلة حتّى يرجعوا ، وكان ذلك بسبب مضر . . . الخ (٢١) وعندما يغادرون الحزن أو يذهبون إلى الحزن يردون مياه كلب ، وكانت كلب حلفاء بني تميم ، ولذلك فما كانوا يقلقونهم ، وإذا ذهبوا إلى الغور يمرون بأسد ويصلون إلى طيء . . . » .

إن رواية المرزوقي تكمل رواية ابن حبيب . فتعبير ابن حبيب الغامض (في بلاد مضر) جاء هنا أكثر اتقانا ، إن الطريق الموصل من مكة إلى الحزن (٢٢) كان تحت سيطرة القبائل المضرية ، والحزن نفسه كان في ملك تميم (٢٣) .

---

(١٨) حميد الله في : Muslim Conduct of State, p. 54 (10).

« لانهم كانوا (اي كلب) قد حالفوا بني جشم » (خطا مطبعي على ما يظهر) .

(١٩) يترجم حميد الله :

Les Mudarites avaient l'habitude de dire (apec fierté) "Les Qurachites ont paye la dette de honte que nous avions contractée au nom d'Ismaël (Par les guerres fraticides et par le bellum amnium contra omnes" — Le prophéte de l'Islam, II, 600.

هذه الترجمة تبدو على اى حال غير مضبوطة لكي يترجم :

"que nous avions contractée au nom d'Ismaël'.

وقد قرا حميد الله « ما اورثنا اسماعيل » (بالفتح) التي هي خطا . وحق العبارة ان تقرا « ما اورثنا اسماعيل » (بالضم) ، ان العبارة عظيمة الاهمية لفهم موقف القبائل نحو قريش ، ولأجل التفسير الصحيح للعبارة ينبغي أن نقتبس فقرة من الكلاعى : الاكتفاء ١٥٠/١ يناقش الكلاعى ميزات قريش ويسجل الفقرة الآتية : « ... وكانوا على ارث من دين ابراهيم واسماعيل من قرى الضيف ورفد الحاج وتعظيم الحرم ومنعه من البغى فيه والالحاد وقمع الظالم ومنع المظلوم » . ان الفقرة التي تبدأ بـ (من قرى) هي شرح لـ « ارث من دين ابراهيم واسماعيل » . والفقرة عند المرزوقي : الامكنة ١٦٢/٢ لا تترك اي شك حول معنى الجملة : (واورثنا ابونا اسماعيل) . وقارن المجالسي : بحار الانوار ٤٢/٦ .

(٢٠) المرزوقي : الامكنة ١٦٢/٢ .

(٢١) ربما كان هناك بعض التطبيع او الخطا ، ربما يقرا احد : (او علوا الحزن) .

(٢٢) انظر : Thilo: Die Ortsnamen, p. 56.

وانظر ياقوت : البلدان ، والبكري : معجم ما استعجم مادة (حزن) .

(٢٣) انظر : Von Oppenheim-Caskel: Die Beduinen III, 164.

إن الروايتين المهمتين ، رواية ابن حبيب ورواية المرزوقي ، تعطيان بعض المعلومات حول أسلوب مكة في العمل في منطقة مكة الحزن وتوسعها ، هناك تحالفان قبليان لمضر مرتبطان بمكة ارتباطاً وثيقاً ، هما تميم وأسد . وقد يسر هذان الحلفان ، حلف تميم و كلب (قضاعة) وحلف أسد وطيء (القحطانية) ، لقريش في أن ترسل بكل أمن قوافلها وتسيطر على التجارة في هذه الطرق . وقد كانت هاتان القبيلتان – طيء و كلب – بصورة خاصة أشد خطورة على مكة ، لأن أغلبية هاتين القبيلتين ما كانوا يحترمون قداسة مكة والأشهر الحرم ، ومن المهم قول المرزوقي حول طيء : « و (عند وصول أراضي طيء) كانو (أي التجار) يعطونهم شيئاً ، وكانت (أي طيء) تقودهم (في الإتجاه) الذين يريدونه » (٢٤) . وستعرف على موقف طيْ وكلب تجاه مكة فيما بعد .

إن خط سير التجار إلى مركز التجارة المهم في المشقر كان يحتاج أيضاً إلى حماية قريش ، لأن الطريق يمر ببلاد مضر ، وكانت سوق هذه المدينة التجارية المهمة – التي يتردد عليها تجار الفرس وهي قاعدة مهمة للحكم الفارسي – بأمرة رجل من تميم (٢٥) .

إن تمحيص الروايات حول دومة الجندل (٢٦) تجعل الباحث يفترض أن تميماً لعبت دوراً كثير الأهمية في السيطرة على طرق هاتين السوقين وفي تأمين قوافل مكة .

إن نفراً من تميم أتوا مكة للتجارة ، وقد أصيب تميمي بظلم عند زيارته ، فسبب ذلك خلافاً بين زعماء قريش ، إن هذه القصة دونها ابن أبي الحديد رواية عن الواقدي (٢٧) وذلك أن عبد الله بن جعفر نازع في المجد يزيد بن معاوية في حضور معاوية (٢٨) سأله : « بأي أجدادك تفاخر ؟ بحرب الذى آويناه أو بأمية ؟ » إننا نعنى هنا بقصة حرب الذى آواه عبد المطلب والتي جاءت كالآتي ، كان لقريش حق الأسبقية في عبور العقبة عند السفر ، وكان على الآخرين أن ينتظروا حتى تجتاز قريش . فخرج حرب في ليلة وعند عبوره العقبة لقى رجلاً من أسرة حاجب بن زرارة ، متوجهاً إلى مكة في عمل ، تقدم حرب نحو الرجل

(٢٤) المرزوقي : الامكنة ١٦٢/٢ .

(٢٥) ابن حبيب : المحبر ص ٢٦٥ .

(٢٦) انظر مادة دومة الجندل : L. Veccia Vaglieri in E12.

(٢٧) ابن ابى الحديد : شرح نهج البلاغة ٤٦٥/٣ ، ابن عساكر : تاريخ ٣٢٩/٧ .

(٢٨) انظر رواية هذه الحادثة في سيرة دحلان ٢٢/١ (على هامش انسان العيون) : كان الكلام بين ابن عباس ومعاوية ، وانظر ابن العربي محاضرات الابرار ١٧٩/١ .

واستعلم عن اسمه فأجاب أنه « ابن » حاجب بن زرارة ، وقد عبر التميمي العقبة مع حرب سوية ، فغضب حرب وأقسم أنه لن يسمح له أن يمكث في مكة مادام حياً . قضى التميمي بعض الوقت خارج مكة ، ولأن متجره بمكة فقد قرر أن يدخل ويسأل عن الرجل الذى يستطيع حمايته من حرب ، فدخل التميمي « ابن زرارة » مكة ليلاً وقصد بيت عبد المطلب ، وأنشد قصيدة سرد فيها الحادث وطلب حماية الزبير بن عبد المطلب (٢٩) ، وهكذا منح التميمي الحماية . وفي الصباح استدعى الزبير بن عبد المطلب أخاه الغيدق وأنطلقا متوشحين بالسيوف يحميان التميمي ، وحين لقيهم حرب هجم على التميمي وصفعه على وجهه ، فنجم عن ذلك خصام بين أولاد عبد المطلب وبين حرب ، واحتال حرب للهرب ولجأ إلى بيت عبد المطلب الذى آواه .

هذه القصة ربما تشير إلى العلاقة بين بني هاشم ودرام ، وتذكر الرواية أسماء بعض أناس من دارم الذين كانوا على صلة ببني هاشم ، كان أحدهم (حرمى) النبي .

إن المكانة المرموقة التي تتمتع بها تميم في مكة كانت ترتكز خاصة على قوتهم وخدماتهم لتجارة مكة الخارجية . كانت تميم قوية وكان زعماؤها مبجلين جداً ، إن هيبة زعماء تميم (من فرع دارم) تنعكس في القصة الطريفة التي تعزى إلى النبي : إن رجلاً (مسلماً) تزوج امرأة من طبقة دنيا ، وكانت المرأة تعير من قبل أخيه بضعة نسبها ، وكان النبي قد أخبر عنه كما أخبر عن فضيلة المرأة التي تزوجها ، فقال مخاطباً زوجها : إنك لا تلام لأنك لم تتزوج امرأة من أشراف العرب مثل بنت حاجب بن زرارة ، إن الله جاء بالإسلام وجعل الناس سوية ، إن المسلم لا يلام (على مثل هذا الزواج) (٣٠) .

إن فريقاً من رجال تميم كانوا يعدون ضمن سياسيي مكة يساهمون في إدارتها كما ساهموا في ازدياد نفوذها وهيبتها في المجتمع القبلي ، وكان ذلك وفق نظام خاص ، ذلك النظام هو نظام الحمس .

يعد ابن سعد في الحمس قريشاً ، وخزاعة ، وناسا من العرب « ولدتهم قريش » وطبقاً لرواية أخرى لابن سعد : « وأحلاف قريش » (٣١) .

(٢٩) كان الزبير بن عبدالمطلب زعيم بني هاشم في (أيام الفجار) انظر محمد بن حبيب : المحبر ص ١٦٩ ، ابن دريد الاشتقاق ص ٤٧ ، البلاذري : انساب ١٠٢/١ .

(٣٠) الفاسي : شفاء الغرام ١٤١/٢ .

(٣١) ابن سعد : الطبقات ٧٢/١ ، وانظر ابن ظفر الصقلي : انباء نجباء الابناء ص ٦٩ ـ ٧٠ .

ويذكر ابن اسحق في الحمس : قريشاً ، وخزاعة ، وكنانة ، ويضيف ابن هشام (في رواية عن أبي عبيدة النحوى) عامر بن صعصعة (٣٢) .

ويعد ابن قتيبة في كتابه المعارف في الحمس : قريشا وناسا من كنانة (٣٣) ، ولكنه يعد في كتابه المعاني الكبير : قريشا ومن ولدت وحلفاءها (٣٤) .

أما الجاحظ فيعد في الحمس : قريشا وعامر بن صعصعة والحارث بن كعب (٣٥) .

ويعد الانباري (٣٦) والمرزوقي (٣٧) في الحمس : قريشا وكنانة وخزاعة وعامر بن صعصعة .

ولدى ابن حيان في تفسيره للقرآن هذه القائمة : قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم وعامر بن صعصعة ونصر بن معاوية (٣٨) . ويعطى القرطبي قائمة مماثلة تقريباً ولكنه يأتي بجشم بدلاً من خثعم (٣٩) .

والحمس في لسان العرب : قريش ومن ولدت قريش ، وكنانة ، وفهم ، وعدوان ، وعامر بن صعصعة ، وخزاعة (٤٠) .

إن قوائم الحمس المستشهد بها في أعلاه متناقضة ، وأن فحص هذه القوائم يظهر بلا شك أن الحمس يشمل قريشا وساكنى مكة واناسا خارج مكة ، وطبقاً لما يقوله ارندونك : « الحمس اسم تقليدى اعطى لساكنى مكة عند ظهور محمد بقدر ما كانوا مميزين عن القبائل

---

(٣٢) ابن هشام : السيرة ٢١٢/١ ، الكلاعي : الاكتفاء ٢٧٢/١ .

(٣٣) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٦٩ .

(٣٤) ابن قتيبة : المعاني الكبير ص ٩٨٩ .

(٣٥) الجاحظ : مختارات فصول مخطوط الورقة ٢٠٨ ب .

(٣٦) المفضليات ٣٤ ، ١٤ ط لايل .

(٣٧) المرزوقي : شرح الحماسة ص ٣١ ، وانظر المرزباني : نور القبس ص ٢٥٨ (عن ابن الكلبي) ابن حبيب : المنمق ص ١٤٣ ـ ١٤٦ ، مقاتل : تفسير الخمس مائة آية ، مخطوط المتحف البريطاني رقم ٦٣٣٣ OR الورقة ٢٨ ب ، المصدر السابق نفسه ، حميدية ٥٨ الورقات ٢٩ ب ، ٣١ب ، ٨٧ب ، وحول العادات الخاصة بطواف ثقيف وعامر بن صعصعة وخزاعة وبنى مدلج والحارث ابن عبد مناة انظر المصدر السابق الورقة ١٢٣ أ .

(٣٨) أبو حيان : البحر المحيط ٦٣/٢ .

(٣٩) القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ٣٤٥/٢ (سورة البقرة آية ١٨٩) وانظر بلاشير ، القرآن ٧٨٢/٢ رقم ١٨٥ .

(٤٠) لسان العرب (حمس) .

الأخرى بعادات خـاصة خـلال الإحرام ، وكانت بقيـة القبائـل الأخرى تعرف باسم (الحلة) (٤١) . وقد تغير هذا المفهوم .

إن القائمة المطولة لقبائل الحمس تعطى من قبل محمد بن حبيب ، فهو يقرر : « أن الحمس كل قريش ، وخزاعة (لنزولها في مكة ومجاورتها قريشا) ، وكل من ولدت قريش من العرب ، وكل من نزل مكة من قبائل العرب ، فمن ولدت قريش : كلاب ، وكعب ، وعامر ، وكلب ، بنو ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وأمهم مجـد بنت تيم بن غالب بن فهر . وإليهـا يشير لبيد قائلاً :

سقى قومى بنى مجـد وأسـقى نمـيرا والقبـائل من هـلال (٤٢)

والحارث بن عبد مناة بن كنانة ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة ، بنزولهم حول مكة ، وعامر بن عبد منـاة ، ومالك وملكان ابنـا كنانة ، وثقيف وعدوان ، ويربوع بن حنظلة ، ومازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، وأمهما جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر (٤٣) . ويقال إن بنى عامر كلهم حمس لتحمس اخوتهم من بنى ربيعة بن عامر ، وعلاف وهو ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وجناب بن هبل بن عبد الله (٤٤) من كلب . أمه آمنة بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وأمها مجد بنت تيم الادرم بن غالب ابن فهر » (٤٥) .

إن قائمة ابن حبيب ترى حقيقة فريدة ، ذلك أن القبائل التي قبلت نظام الحمس ، كانوا من أصول مختلفة وينتمون إلى قبائل متعددة . فعامر بن صعصعة كانوا مضريين . وكلب تعود لقضاعة . وأصل ثقيف مختلف فيه (طبقاً لبعض الروايات يعتبرون من أحفاد قيس

---

(٤١) ارندونك : دائرة المعارف الاسلامية (حمس) .

(٤٢) انظر ابن عبدالبر : الانباه ص ٨٧ ، لبيد : الديوان ص ٩٣ (ط احسان عباس) . ابن الكلبي : جمهرة مخطوط الورقة ١٢٠ ب (في الجمهرة : مجد بنت تيم بن مرة بن غالب بن فهر) . النص المستعمل في الجمهرة ، للفائدة : « وهي التي حمست بني عامر جعلتهم حمسا » .

(٤٣) جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر بن كنانة كانت زوجة حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. ولدت لقيس : يربوعا وربيعة وعمرا ـ أولاد حنظلة بن مالك بن زيد مناة ، وبعد وفاة حنظلة بن مالك تزوجت مالك بن عمرو بن تميم وولدت لمالك : غيـلان وأسلم وغسان ـ ابناء مالك بن عمرو . انظر ابن الكلبي : جمهرة مخطوط الورقتان ٦٢ أ ، ٩٠ أ ، البلاذري : انساب مخطوط الورقة ٩٥٨ ب .

(٤٤) انظر ابن دريد : الاشتقاق ص ٥٤٠ .

(٤٥) محمد بن حبيب : المحبر ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

عيلان) . وعدوان تعود لقيس عيلان . وخزاعة كانت من أصل جنوب الجزيرة (٤٦) . والأهم من ذلك أن هذه القبائل عاشت في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة ، فقد سكنت ثقيف في جنوب شرقي مكة ، وقضاعة (كلب) في الشمال ، تسيطر على طريق التجارة إلى سورية ، ويربوع ومازن تسيطران على طريق الحيرة وفارس .

وللفائدة نذكر حالة خاصة هي حالة زهير بن جناب الكلبي ، فقد قررت غطفان – طبقاً لرواية – أن تنشئ «حرما» مثل مكة ، فهاجمهم زهير بن جناب وحطم حرمهم(٤٧). وتفسر هذه الرواية سبب كون جناب من كلب ضمن نظام الحمس .

ربما يجد أحد بعض الصلة بين (الإيلاف) الذى بحث سابقاً وبين (الحمس) . وإن تعبير الثعالبي بأن هاشماً : « أخذ الإيلاف من الأعداء » (٤٨) يعني في الحقيقة أن الإيلاف كان نظاماً مكملاً للحمس . لقد قصد بالإيلاف تلك القبائل التي ما كانت تحترم الأشهر الحرم ، أو – مع انها تقوم بالحج – كانت تحت تأثير الجماعات الموالية للدول الأجنبية ، هذه القبائل مثـــل طيئ وخثعم وأفخاذ من قضاعة (٤٩) وغفار من كنانة (٥٠) ، كانت تعطى نصيباً من الأرباح كي تدع القوافل آمنة . فالى أي مدى كانت مكة معتمدة على هذه القبائل ، وراغبة في أن تحمل إليهم شروط الإيلاف ؟ يمكن أن يقاس ذلك من بعض الأخبار المحفوظة .

كان العباس حاضراً حين ضرب أبو ذر بقسوة في مكة بعد أن اعتنق الإسلام . لقد لام العباس قومه قائلاً : « ويلكم ، تقتلون رجلاً من غفار ومتجركم وممركم على غفار ؟ » فأخلوا سبيله (٥١) . واستطاع ثمامة بن أثال من حنيفة أن يهدد قريشا بقطع المؤونة من اليمامة ،

---

(٤٦) انظر ابن دريد : الاشتقاق ص ٤٦٨ وما بعدها .

(٤٧) الاغاني ١٢/١٢١ ، ٢١/٦٣ .

(٤٨) ثمار القلوب ص ٨٩ .

(٤٩) البلاذري : انساب مخطوط الورقة ٩٠٠ ب ، الجاحظ : الحيوان ٧/٢١٦ وانظر البلاذري : انساب مخطوط ٣٦٦ أ الكلام بين معاوية وعدي بن حاتم حيث ان معاوية اتهم طيئا انها لا تحترم حرمة مكة . طيء وخثعم لا يقومون بالحج الى مكة . وكان هذان الحيان يدعيان بـ (الافجرين) .

(٥٠) انظر الذهبي : سير اعلام النبــلاء ٢/٣٤ : « وكانوا يحلون الشهر الحـرام » ، وانظر اسد الغابة ١/١٦٠ .

(٥١) الذهبي : سير اعلام النبلاء ٢/٣٧ .

وقد حقق تهديده فقطع ميرتهم (٥٢) . كما استطاع سعد بن معاذ إفزاع أبي جهل إذا هو منعه من الطواف حول الكعبة سيقطع تجارته مع سوريا (٥٣) . وقد يحاول المرء أن يفكر أن هنالك بعض الصلة بين كلمة « ألفهم » (أنجز عهود الإيلاف معهم) ، وبين عبارة « المؤلفة قلوبهم » (الناس الذين كسبت قلوبهم « للإسلام » ببعض المنح) . ولكن الحمس يدل على أناس شديدي الاقتناع بقدسية مكة ، مقرين بتميز قريش مسرورين بأوثانهم الخاصة في طقوس « الحج » وعلى استعداد للذود عن معتقداتهم .

يمكن أن تميز بعض سمات الحمس من فصول للجاحظ ، يذكر الجاحظ أن من مزايا قريش : أنه لم ينتسب قرشي قط إلى قبيلة أخرى ، بينما تجد حتى اليوم « أشراف العرب — مثل بني مرة بن عوف بعض بني سليم ، وخزاعة ، وآخرين — يزعمون كونهم من أصل قرشي . ولم تئـــد قريش بنتا حية أبداً ، وكذلك سكان الطائف لا يئدون ، لأنهم كانوا جيران قريش وأصهارهم بالزواج ، ولأنهم كانوا حمسا ، وكانت قريش هي التي جعلتهم حمسا » (٥٤) . ويقول الجاحظ مواصلاً : وحتى ظهور الإسلام لم تسب امرأة قرشية قط من قبل القبائل العربية ولم يكن هناك أي أسير أمه قرشية .

لقد ميز القرشيون أنفسهم عن بقية القبائل ، ذلك أنهم لم يزوجوا بناتهم من أشراف القبائل الأخرى ، ما لم يأخذوا ضماناً بأنهم سيعتنقون فكرة الحمس (بينما هم أنفسهم — كما يؤكد الجاحظ — تزوجوا بنات القبائل الأخرى بلا شروط تلزمهم) ، تلك القبائل كانت : عامر بن صعصعة ، وثقيف ، وخزاعة ، والحارث بن كعب . كانوا أناسا متعبدين « وكانوا ديانين » ولذلك نبذوا الغزو ، كان ذلك لكي يتجنبوا النهب والظلم واللصوصية واغتصاب النساء .

وفي فصل آخر يناقش الجاحظ صفات قريش ، ويلاحظ أن قريشا ظلت كريمة على الرغم من أن أرباحها لم تكن كبيرة منذ أن امتنعوا عن الغزو ، وينوه الجاحظ بكرم قريش وعنايتهم بالحجاج واهتمامهم بذوي القربى . يقول الجاحظ : كانت قريش تتفقد رجال القبائل بالأموال ، فكانت غطفان مخصوصة بعناية المغيرة (المخزومي) ، وذهب بنو عامر

---

(٥٢) ابن عبدالبر : الاستيعاب ص ٧٩ ، القسطلاني : ارشاد ٤٣٣/٦ ، القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ١٤٣/١٢ ، الحلبي : انسان العيون ١٩٨/٣ .

(٥٣) ابن العربي : محاضـــرات الابرار ٢٦٦/٢ ، صفة الصـفوة ٣٧/١ : « لاقطعن متجرك الى الشام » .

(٥٤) الجاحظ : مختارات فصول ، مخطوط الورقة ٢٠٢ وما بعدها .

لشخص آخر ، وتميم لشخص غيره ، وقد ألزمتهم قريش بتأدية فروض الحج وقامت هي بكل ما يحتاجون إليه (٥٥) . ويؤكد الجاحظ أن قريشاً بقيت (لقاحا) حرة ، لم تدفع أية ضريبة لأحد ، وكانت لهـا (الرفادة) و (السقاية) الخ .

ويكرر الجاحظ في الفصل الثالث أن كل قريش كانوا حمسا وقد امتنعوا تدينا من الغزو والأسر ونكح السبايا عند أسرهن ووأد البنات ، ويقول كذلك : إن قريشا لم تزوج بناتها ما لم تشترط أن تكون ذريتهم حمسا . ولقد كانوا مجبرين – لسكناهم في واد مجدب – أن يجدوا وسائل رزق وحصلوا على الإيلاف وقاموا برحلات إلى الملوك . . . (٥٦) .

وفي الفصل الرابع من تقرير الجاحظ حول الحمس تكرار ، ولكن هنالك بعض التفصيلات التي تستحق التنوية ، منها ذكر القوافل – يقول الجاحظ إن التجار ذهبوا إلى (أرض) قيصر في بيزنطة ، وإلى النجاشي في الحبشة ، وإلى المقوقس في مصر . وهذه هي الحالة الوحيدة التي تذكر فيها مصر كوجهة لتجار مكة . ويرسم الجاحظ في هذا الفصل ، خطاً بين حمس قريش وبين الذين صاروا حمسا ، حمس عامر بن صعصعة والحارث بن كعب ، لقد امتنعت قريش عن الغزو حين صارت حمسا ، بينما استمرت القبائل التي اقتنعت بفكرة الحمس على الغزو ، ونكح الأسيرات ، وأخذ الغنائم ، وقد ظلت قريش مع ذلك شجاعة (٥٧) .

---

(٥٥) الجاحظ : مختارات فصول ، مخطوط الورقة ٢٠٤ أ : « ... فيقتسمونهم ، فتكون غطفان للمغيرة ، وبنو عامر لكذا ، وتميم لكذا ... » عند الزبير بن بكار : نسب قريش ، مخطوط الورقة ١٢٨ ب خبر طريف حول تخصيص حصص من عشائر قريش . انهم (قريش) كانوا يعطونهم ملابس يلبسونها في الطواف حول الكعبة ، وكان الاعراب يخلعون ملابسهم التي جاءوا بها الى مكة ، وكان اهل مكة يعطونهم نصيبا من لحوم الاضاحي . ونزلت فزارة في بيت المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم . اول من منع المغيرة ان يعطى حصته من الجزور هو خشين بن لأى الفزاري الشمخي .. ، قارن ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ٢٩٦/٤ ، وانظر ابن دريد : الاشتقاق ص٢٨٢ (ظويلم) . كلمة (حريم) ليست مدونة في المفردات كعطاء لقريش عن نزول البدو ، وهي مدونة في قصة ظويلم ومروية من قبل البلاذري في كتابه الانساب مخطوط الورقة ١١٠١ أ . وللفائدة ، البيت المستشهد به :

ونحن منعنا من قريش حريمهـا   بمكة ايام التحالق والنحـر

ويذكر البلاذري ايضا قصة عمرو بن جابر بن خشين الذي كان ياخذ من كل اسـير من غطفان جملين ، وقد منعه ظويلم بن عرين عن اخذ الفدية . (قارن رواية ابن دريد السابقة) .

(٥٦) الجاحظ : مختارات فصول مخطوط الورقة ١٦ ب وما بعدها .

(٥٧) الجاحظ : مختارات فصـول ، مخطوط الورقة ٢٠٨ ب وما بعدها ، قارن الثعالبي : ثمار القلوب ص ٨ وما بعدها « اهل الله » ، ومغزى التعبير : وصاروا باجمعهم تجارا خلطاء . لتعبير (اهل الله) انظر الفاكهي : المصدر السابق الورقة ٤١٥ ب – ٤١٦ أ ، الازرقي : المصـدر السابق ٢٨٠ – ٢٨١ ، محمد حسين القزويني . شرح شواهد مجمع البيان ٦٢/٢ رقم ٢٣٦ ، سير الملوك ، مخطوط الورقة ١٧٧ أ .

يعد ابن الفقيه في روايته الذين اعتنقوا فكرة الحمس هم : خزاعة ، وعامر بن صعصعة وثقيف ، و « رجال قبائل » ، ويسجل الرواية حول الشرط المفروض على أشراف القبائل المتزوجين نساء من قريش ، ويذكر تفصيلات حول القيود المفروضة على الحجاج من غير الحمس ، فيقول : عليهم أن يتركوا مؤونتهم خارجاً عنـــد دخول مكـــة ، وان يخلعوا ملابسهم التي يلبسونها خارج منطقة مكـــة ليلبسوا ملابس الحـــرم (التي يحصلون عليها شراء أو إعارة أو هـــدية) . وإذا لم يجـــدوا ملابس للإحرام فإنهم يؤدون الطواف عرايا . لقد ألزموا الحجاج أن يبدأوا (الإ فاضة) من المزدلفة . وقد كانت قريش (لقـــاحا) لا تدين لدين الملوك ، ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان ولم يؤد أهلها اتاوة (٥٨) .

ويذكر ياقوت الحمس ، وطبقاً لروايته فإن قريشا قد ضمت إلى جانبها بفكرة الحمس القبائل : كنانة ، وجديلة قيس ، وفهم وعدوان ثقيف وعامر بن صعصعة . ويذكر المشقة التي ألزموا بها أنفسهم ، والقيود المفروضة على الحجاج ، وأن أهل مكة كانوا (لقاحا) . ويقول كانت تحج إليها ملوك حمير و كندة وغسان ولخم فيدينون للحمس من قريش ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم فرضاً وشرفاً عندهم (٥٩) .

وفي رواية للحلبي ذكرت مكة على أنها (دار الحمس) في أبيات تنسب إلى كاهن لهب(٦٠)

وينوه الحلبي بشروط زواج قريش ، ورفضهم للغزو الذي ارتبط بالسلب والنهب والاغتصاب(٦١) .

وتقدم المصادر تفصيلات حول فروض الحمس والتشديد في المشقة (٦٢) ، فكانوا يرون (الوقوف) في مزدلفة بدلاً من عرفات(٦٣) . لقد حبسوا أنفسهم خلال الحج في

---

(٥٨) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ١٨ .

(٥٩) ياقوت : معجم البلدان (مكة) .

(٦٠) كان اللهبي يعرف كرجل له علم خاص بزجر الطير انظر ولهاوزن :
Wellhausen: Reste p. 134.
ابن دريد : الاشتقاق ص ٤٩١ ، السهيلي : الروض الانف ١١٨/١ .

(٦١) الحلبي : انسان العيون ٢٤٢/١ .

(٦٢) انظر محمد بن حبيب : المحبر ص ١٨٠ : ياقوت : معجم البلدان (مكة) ، ابن العربي : محاضرات الابرار ١٦٢/١ ، ١٥٠ .

(٦٣) انظر ولهاوزن :
Wellhausen: Reste p. 77.
Rathjens: Die Pilgerfafrt pp. 72-73.
ولكن النبي لم يتبع الحمس في وقوفهم . انظر الذهبي : تاريخ الاسلام ٤٩/١ .

حدود الحرم ، ما كانوا يأكلون اللحم خلال الحج ، ولا كانوا يعدون اللبن الخاثر ، ولم يقيموا في ظلال البيوت ، ولم يدخلوا بيوتهم من الأبواب (٦٤) ، إلى آخره . ومن الواضح أنهم بالزام أنفسهم المشقة أرادوا أن يعبروا عن احترام الكعبة والحرم .

يربط الزمخشري الجذر (حمس) مع الجذر (حرم) . ويستخلص أن قريشا اكتسبوا مكانتهم الممتازة المبجلة لسكناهم الحرم . ودعوا أنفسهم « أهل الله » (٦٥) . ذلك أن فكرة الحمس كانت في الحقيقة مرتبطة بعبادة الكعبة ، وقد ثبت صراحة أن الكعبة كانت تسمى (الحمساء) (٦٦) .

من الواضح أن هذا الربط بين قريش والقبائل التي لها صلة بالحمس وسع علاقاتهم . ويلاحظ كاسكل أن عامر بن صعصعة لكونهم حمسا ، كانوا على صلة جيدة بسكان مكة (٦٧) وأن شاعراً وزعيما من بني عامر ، هو عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب ، أقسم بالشهر الحرام (٦٨) لبني أمية ، وأماكن قريش المقدسة ، والضحايا (٦٩) .

قال خالد بن جعفر عم عوف انه أول من كسا الكعبة بالديباج الذى غنمه من قافلة غزاها (٧٠) . وكان كعب وكلاب من بني عامر يدعيان « كعب قريش » و « كلاب قريش » (٧١) . ويذكر مالك بن نويرة من يربوع (تميم) الذى ينتسب للحمس حول بعض المعارك جماعة من الفرسان الذين أخبروا قريشا على أنهم (عمار) (٧٢) .

(٦٤) ولكن انظر الروايات المخالفة في تفسير الطبري (سورة البقرة آية ١٨٩) والسيوطي : الدر المنثور ٢٠٤/١ وما بعدها .

(٦٥) الزمخشري : الفائق (حمس) .

(٦٦) الفيروزابادي : القاموس (حمس) ، لقد جاء تفسير غريب للحمس في الايناس : المغربي مخطوط الورقة ٢٦ ب : « كانوا يدعون حمسا لانهم امتنعوا عن الخدمة في العمل ... » .

(٦٧) دائرة المعارف الاسلامية (عامر بن صعصعة) .

(٦٨) يعني ذا الحجة .

(٦٩) الضبي : المفضليات القصيدة ٣٥ البيت ٤ ـ ٥ (ط لايل) :

وانی ومـا حجت قريش ... محارمه وما جمعت حـراء

وشـهر بني اميـة والهدايا ... اذا حبست مضرجها الدمـاء

وانظر العصامي : سمط النجوم العوالي ٢١٨/١ : وانما سموا الحمس بالكعبة لانها حمساء حجرها ابيض يضرب الى السواد ، وانظر التعريف الهام للحمس في المصدر السابق ص ٢١٩ : لم تكن الحمس بحلف ولكنه دين شرعته قريش واجمعوا عليه .

(٧٠) السهيلي : الروض الانف ٧٧/١ ، الالوسي : بلوغ الارب ٢٣٤/١ .

(٧١) الضبي : المفضليات ص ٢٥٩ .

(٧٢) الاصمعيات القصيدة ٣٦ البيت ٣ (ط الوارد) ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ٢٩٢/٤ .

وكان النبي نفسه أحمس (٧٣) ، وكان حرمى عياض بن حمار المجاشعى التميمي . كان إذا قدم مكة طاف في ثياب النبي (٧٤) .

من الروايات المستشهد بها سابقاً نستطيع أن نحصل على فكرة بسيطة حول الحمس ، كان المبدأ الأساسي للحمس هو عدم انتهاك منطقة الحرم واستقلال (٧٥) وحياد مكة .

لقد وصف الشعور بالأمن في مكة من قبل أحد أشراف مكة في الأبيات الآتية :

فخرنا والأمور لها قرار ... بمكتنا وبالبلد الحرام
وأنا لا يرام لنا حريم ... وأنا لا نروع في المنام
وأنا لا تساق لنا كعاب ... خلال النقع بادية الخدام
معاذ الله من هذا وهذا ... فإن الله ليس له مسامى (٧٦)

إن البدوى لم يستطع أن يعود نفسه على حياة مكة الوادعة ، ولذلك يقول قيس بن زهير العبسي :

تفاخرني معاشر من قريش ... بكعبتهم وبالبلد الحرام
فأكرم بالذى فخروا ولكن ... مغازى الخيل دامية الكلام

(٧٣) انظر المرزوقي : أخبار مكة ١٢٤/١ ، السيوطي : الدر المنثور ٢٠٤/١ وما بعدها .

(٧٤) انظر محمد بن حبيب : المحبر ص ١٨١ ، ابن قتيبة : المعارف ص ١٤٧ ، ابو عبيدة كتاب الاموال ص ٢٥٦ ، ابن الكلبي : الجمهرة مخطوط الورقة ٦٦أ ، الطبراني : المعجم الصغير ص ٣ ، ابن الجارود : المنتقى ص ٥٠٠ ، البلاذري : أنساب مخطوط الورقة ٩٨١ أ ابن حزم : جوامع السيرة ص ٢٥ (يفيد انه كان ابن عم الاقرع بن حابس) ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢١٩ ، ياقوت البلدان (حرم) ، ابن حجر : الاصابة رقم ٦١٢٣ ، ابو نعيم : حلية ١٦/٢ (يذكر انه أحد أهل الصفة) ، المجلسي : بحار الانوار ٢٩٤/٢٢ (يفيد ان عياضا كان قاضيا في عكاظ) .

(٧٥) يمكن أن يعرف رد الفعل الشديد للمكيين عندما يكون استقلالهم مهددا من قصة عثمان بن حويرث ، انظر الزبير بن بكار : نسب قريش ، مخطوط الورقة ٧٦ ، المصعب الزبيري نسب قريش ص ٢١٠ ، لسان العرب (لقح) ، أبو البقاء : مناقب مخطوطة الورقة ١٠ ب ، البلاذري : انساب ٤ب/١٦٢ (انظر التعليقات) ، وانظر الزمخشري : ربيع الابرار ، مخطوط المتحف البريطاني رقم ٦٥١١ .OR الورقة ٨٣ب : ... لم تزل مكة حرسها الله أمنا ولقاحا ، قال حرب بن أمية :

ابا مطر هلم الى صلاح ... فتكفيك الندامى من قريش
فتأمن وسطهم وتعيش فيهم ... ابا مطر هديت بخير عيش
وتنزل بلدة عمرت لقاحا ... وتأمن أن يزورك رب جيش

كلمة (صلاح) توضح على انها اسم مكة ، وانظر المصدر نفسه الورقة ١١١٣ : ان ملك الحبشة طلب من عبدالمطلب أن يدين له ، ولكن مكة كانت لقاحا ، وانظر المصدر السابق الورقة ٨٣ب : ان أهل مكة كانوا قد سئلوا من قبل بعض الملوك أن يعطوا الاتاوة ، ولكن عبدالمطلب رفض . (وقارن مجلة « اربيكا » ١٥ سنة ١٩٦٨ ص ١٤٤ الملاحظة ٥) ، وانظر العصامي : المصدر السابق ٢١٣/١ ـ ٢١٤ ، ابن سعيد : المصدر السابق الورقة ١٠٣ السطر ٥ .

(٧٦) البلاذري : انساب مخطوطة الورقة ١١٠٩٤ .

وطعـــن في العجـــاجة كل يـــوم   نحـــور الخيـــل بالأســـل الـــدوامى
أحب إلى مـــن عيشـــن رخـــى   مع القـــرشي حـــرب أو هشـــام
ومـــا عيش ابن جدعـــان بعيش   يجـــر الخـــز في البـــلد التهامى (٧٧)

يلاحظ أن بعض الطقوس والعادات كانت في الحقيقة تعبيراً عن احترامهم للكعبة المقدسة . إن تنظيم الحمس هذا كان يشمل مختلف الوحدات القبلية ــ من ذلك وحدات تميم التي سكنت في مناطق مختلفة من الجزيرة ، وعرفت بصفاتها الحربية ، وكانوا على استعداد للقتال دفاعاً عن معتقداتهم في قدسية مكة .

يبدو أن « الإيلاف » كان قد أقيم على أساس الحمس . والحمس هم النخبة التي تمتاز بصلاتها الوثيقة بالمكيين ، عن طريق طقوسهم وعاداتهم ، وكلا النظامين ، الحمس والإيلاف كان له مغزى اقتصادى ، كما أن الصبغة الدينية ليست غريبة (٧٨) .

أما الناس الذين لم ينتسبوا إلى الحمس فكانوا « حلة » . والحلة تشمل ــ طبقاً لرواية ابن حبيب ــ كل تميم (غير يربوع ، ومازن ، وضبة ، وحميس ، وضاعنة ، والغوث بن مر) ، وكل قيس عيلان (عدا ثقيفا ، وعدوان ، وعامر بن صعصعة) ، وربيعة بن نزار كلها ، وقضاعة كلها (ما خلا علافا وجنابا) ، والأنصار ، وخثعم ، وبجيلة ، وبكر بن عبد مناة ابن كنانة (الفروع الأخرى من كنانة كانوا حمسا) ، وكذلك هذيل ، وأسد ، وبارق (٧٩) هذه الحلة ــ عند تأدية الحج ــ كانت تختلف تماماً في طقوسها خلال (الإحرام) وخلال (الطـــواف) .

أما القسم الثالث الذى ذكره ابن حبيب فكانوا (الطلس) ويشمل قبائل من اليمن وحضرموت ، وهم علك وأياد (٨٠) .

(٧٧) المصدر السابق نفسه ·

(٧٨) قارن :
Rathjens: Die Pilgerfafrt, p. 8. (... “Teilweise Religiös Getarnt...”.

(٧٩) محمد بن حبيب : المحبر ص ١٧٩ ، وقارن العصامي : سمط النجوم العوالي ٢١٩/١ ·

(٨٠) ابن حبيب : المصدر السابق ، هناك مجموعات خاصة تستحق الذكر ، أولئك هم البسل ، تدل كلمة « بســـل » على مدلولات تماثل الافكار المتضمنة في كلمـــة « حمس » : هي الجراة والشجاعة والاقدام من جانب ، وحماية (الحرم) من جانب آخر · كان « البسل » عامر بن لؤي (أو عوف بن لؤي ، أو مرة بن عوف بن لؤي) · ذكروا أن البسل ثمانية أشهر حرم كانت لقوم لهم صيت وذكر في غطفان وقيس · انظر الكلاعى الاكتفاء ٧٨/١ ، ابن كثير : البداية ٢٠٤/٢ ، لسان العرب (بسل) ، أبو ذر : شرح السيرة ص ٢٣٣ ، البسل كانوا قريشا ، لانهم كانوا أهل مكة ، ومكة حرم ·

إن التقسيم إلى مجموعات ثلاث – حمس ، حلة ، طلس – يقابل بتقسيم آخر وهذا قسم القبائل وفق قبولهم قدسية مكة : ١ – المحرمون ٢ – المحلون . يشمل المحرمون الحمس وبعض القبائل من الحلة الذين يؤدون الحج . أما المحلون فلم يأبهوا بقدسية مكة ، ولم يحترموا الأشهر الحرم ، وقد كانوا خطراً على مكة .

يعد الجاحظ في المحلين : كل طيّ ، وخثعم « ممن كان لا يرى للحرم ولا للشهر الحرام حرمة » . ويقول : ومن المحلين كذلك عدة عشائر من قضاعة ، ويشكر ، والحارث بن كعب . كانوا أعداء بسبب اختلاف دينهم واختلاف نسبهم (٨١) .

وضد هؤلاء المحلين قال صاحب الموسم قوله المشهور في هدر دماء المحلين : « . . . وإني قد أحللت لكم دماء المحلين من طيّ وخثعم فاقتلوهم حيث وجدتموهم إذا عرضوا لكم » (٨٢) .

يذكر اليعقوبي المحلين ، الناس الذين يعتبرون شرعا مرتكبين للمظالم في هذه الأسواق كانوا فئات من أسد ، وطيّ ، وبكر بن عبد مناة ، ومن عامر بن صعصعة (٨٣) . من الواضح أنه كان من الضروري إتخاذ بعض الخطوات لحراسة الأسواق الحرة (٨٤) لمكة من القبائل المعادية والعناصر المتمردة مثل قطاع الطرق واللصوص .

ويذكر اليعقوبي : وكان من ضمن القبائل ناس حرموا هذا و « نصبوا أنفسهم » لمساعدة المظلوم وحقن الدماء ومنع اقتراف الجرائر ، كانوا يدعون « الذادة المحرمين » ، كان هؤلاء من عمرو بن تميم ، وبني حنظلة بن زيد مناة (بن تميم) ، وهذيل ، وشيبان ، وكلب بن وبرة ، كانوا يحملون الأسلحة (في الأشهر الحرم) . وكانت القبائل تنقسم إلى أناس يتجردون من أسلحتهم خلال الأشهر الحرم ، وآخرين يحملون أسلحتهم .

إن تقرير اليعقوبي مهم ، فهو يلقى الضوء على دور بعض الجماعات من تميم الذين

---

(٨١) الجاحظ : الحيوان ٢١٦/٧ وما بعدها ، قارن النجيرمي : ايمان العرب ص ١٢ ، محمد بن حبيب : المحبر ص ٣١٩ وما بعدها .

(٨٢) البلاذري : أنساب مخطوط الورقة ٩٠٠ب ، وللفائدة نذكر هذا البيت للحطيئة :

علام اك محرما فيكون بيني … وبينكم المودة والاخاء

ديوان الحطيئة ص ١٠٠ – ١٠١ ، وفي الشرح : « المحرم المسالم الذي يحرم دمه عليك ودمك عليه » .

(٨٣) اليعقوبي : تاريخ ٢٢١/١ .

(٨٤) راجع محمد بن حبيب : المحبر ص ٢٦٧ : « ولم تكن فيها (أي عكاظ) عشور ولا خفارة » .

نصبوا أنفسهم كقوة طوارئ ضمن القبائل للدفاع عن مكة وأسواق مكة .

ينبغي أن نتذكر القطعة المهمة للجاحظ المستشهد بها سابقاً (٨٥) ، حيث فسر الإيلاف كضريبة فرضت على القبائل لأجل الدفاع عن مكة من « ذؤبان العرب » قطاع الطرق والقبائل المعادية التي ما كان يمكن أن يسيطر عليها دون ذلك ، وربما كان الإيلاف يشمل بعض النقاط حول أجور المتطوعين لحراسة الأسواق وحراسة مكة .

ويقـــدم المرزوقي تفصيلات إضافية حول هؤلاء المتطوعين (Militia) (٨٦) كانت العرب تنقسم إلى ثلاثة أهواء مختلفة حول الأشهر الحرم :

١ ــ ناس يرتكبون الأعمـــال المحرمة ، وهؤلاء هم (المحلون) الذين لا يحترمون قدسية الحرم ، يسرقون في الحرم ويقتلون .

٢ ــ وناس يمتنعون عن ذلك ويحترمون الأشهر الحرم « يحرمون الأشهر الحرم » .

٣ ــ وناس اتبعوا المبدأ الذى شرعه لهم (٨٧) صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية ابن شريف بن عمرو بن تميم ، إنه هو الذى شرع لهم مقاتلة المحلين .

هذه الرواية التي نقلها ابن الكلبي (عن أبيه) قد دحضت من قبل ابن الكلبي وأبي خراش فهما يقرران : « ذلك زعم بني تميم ، والثابت من وجهة نظرنا أنه كان القلمس وأسلافه ، إنه هو الذى كان ينسئ الأشهر » . إن تفنيد ابن الكلبي وأبي خراش لا يشير إلى كل الرواية

---

(٨٥) انظر ما سبق رسائل الجاحظ ص ٧٠ . والقطعة تجرى عند الجاحظ كالآتي : « وقد فسره قوم بغير ذلك . قالوا : ان هاشما جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها اليه ليحمى بها أهل مكة . فان ذؤبان العرب وصعاليك الاحياء وأصحاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على الحرم ، لا سيما وناس من الاعـــراب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحـــرام قدرا ، مثل طيء وخثعم وبعض بلحارث ابن كعب » .

(٨٦) المرزوقي : الامكنة ١٦٦/٢ .

(٨٧) ترجمة حميد الله Le Prophéte, R 605 غير مضبوطة ، فهو يجعل النص كالآتي :

... Mais Les Gens Se Partageaient En Trois Groupes á Ce Propos: Ceux Qui Pratiquaient L'abomination ... Ceux Qui S'en Abstenaient... Et Enfin Les Fantaisistes (أهل الأهواء) Partisans Au Tamimite.. "

ان النص يتحدث عن ثلاثة أهواء حيث كان الناس منقسمين : « وكانت العرب في أشهر الحج على ثلاثة أهواء : منهم ... ومنهم ... ومنهم أهل هوى شرعه لهم صلصل ... الجماعة التي أنشئت من قبل صلصل لم تكن Fantaisistes ان تعبير « أهل هوى » ليس Peiorative انه يقابل في دلالته التعبير المستعمل في المجموعة السابقة .

حول صلصل ، إنه يشير فقط إلى عبارة : « فإنه أحل قتال المحلين » . يبدو أن ابن الكلبي يشير صراحة إلى الذى ينسئ الأشهر ، وقد كان المنسئ ((Intercalator)) في الحقيقة هو الذى صرح بقتال المحلين ، ولكن جماعة صلصل (المحرمين — الذادة) هم الذين نفذوا مضمون هذا التصريح .

وهناك رواية غريبة سجلها الشهرستاني (٨٨) تزعم أن القلمس (في النص المتلمس) ابن أمية الكناني كان على دين بنى تميم . ويسجل العصامي (٨٩) رواية ابن الكلبي ، مقتبساً إياها من كتاب الفاكهى تاريخ مكة . هذه الرواية لها قطعة إضافية حيث يبدو أنها على جانب من الأهمية . تقول الرواية : إن جماعة صلصل اعتادوا أن ينزلوا على بئر في جوار منى يدعى بئر صلصل، ومن هذا المكان كانوا يتفرقون لكي يلتقوا بمجموعات مختلفة من الناس(٩٠)

يبدو أن الرواية حول (محرمين — ذادة) صحيحة ويمكن الركون إليها ، فأسيد ، قبيلة صلصل ، كانت على صلة وثيقة بمكة . وبعض بني أسيد جاءوا إلى مكة وأصبحوا أصدقاء لأسر ذات نفوذ فاكتسبوا مالاً ، وتزوجوا نساء من أسر شريفة ، وصاروا من مواطنى مكة المبجلين ، وكان النفوذ لآل أسيد من بنى النباش ، وكانت بيوتهم في جوار الكعبة (٩١) ، وكان الأعشى بن زرارة بن النباش قد بكى على نُبيه ومنبه ولدى الحجاج ابن عامر ، اللذين قتلا في بدر (٩٢) ، وأم بغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار هي ابنة النباش بن زرارة (٩٣) .

وينسب أحد جبال مكة إلى بنى النباش (٩٤) . وفي رواية ملفقة — ربما تتضمن شيئاً من الصدق — تزعم أن أكثم بن صيفى ، الحكيم المشهور من بنى أسيد ، اقتبس حكمته من

(٨٨) الملل والنحل ص ٤٤٣ (ط كرتون) .
(٨٩) المصدر السابق ٣٣٣/١ .
(٩٠) انظر حول هذه البئر الازرقي : المصدر السابق ص ٤٤٢ .
(٩١) الزبير بن بكار : نسب قريش مخطوط الورقة ٨٨ب ، الفاسي : شفاء الغرام ١٤٠/٢ وما بعدها .
(٩٢) ابن هشام : السيرة ١٦/٣ ، الزبير بن بكار : نسب قريش مخطوط الورقة ١٨٢ب ، ابو الفرج : الاغاني ٦٠/١٦ .
(٩٣) الزبير بن بكار : المصدر السابق الورقة ٨٩ب ، المصعب الزبيري : نسب قريش ص ٢٥٤ ، وانظر المناقشة حول كاتب (الصحيفة) عند السهيلي : الروض الانف ٢٣٢/١ .
(٩٤) الازرقي : اخبار ٤٩٠/١ ، ياقوت : بلدان (شيبة) .

قصي ، وعبد مناف ، وهاشم ، وأبي طالب (٩٥) ، ورواية ملفقة أخرى تزعم أن أكثم تعلم (النسب) من عبد المطلب (٩٦) ، وينتسب إلى أسيد كذلك أو (أو ثاني) زوج لخديجة ، وهو أبو هالة .

إن أسرة أوس بن مخاشن كانت من الأسر الشريفة ، وأحفاد أوس بن مخاشن كانوا سدنة شمس ، الصنم الذى عبدته ضبة ، وتميم ، وعكل ، وعدى ، وثور (٩٧) ، فكسره هند ابن خديجة وصفوان بن أسيد من بنى مخاشن (٩٨) ، وتزوج صفوان هذا درة ابنة أبي لهب ، فولدت له ولديه عوف والقعقاع (٩٩) ، أما مخاشن بن معاوية بن جروة بن أسيد فكان يدعى « ذو الأعواد » (١٠٠) ، وكان صيفي بن رياح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية ابن جروة بن أسيد ، أبو أكثم يدعى « ذو الحلم » أو « ذو الأوبار » (١٠١) (بسبب قطعان الإبل الكثيرة التي كان يمتلكها) ، وكان ربيعة بن مخاشن ووالده مخاشن من المبجلين « حكام العرب » (١٠٢) . أما صلصل الذى يعزى إليه إنشاء نظام (المحرمين — الذادة) فكان على صلة وثيقة جداً بمكة ، كان له « الموسم » وقضاء عـــكاظ (١٠٣) .

إن الواجبات المعهود بها إلى تميم في مكة وفي أسواق مكة ، دليل مقنع على الدور المهم الذي لعبته تميم في ترسيخ قوة مكة الاقتصادية . كانت تميم مقلدة سلطة « الإ فاضة » في مكة نفسها مع الاشراف على سوق عكاظ . كانت عكاظ إحدى الأسواق المهمة ، لأن الرأى القبلي السائد هنا يستطيع أن يعبر عن نفسه في أدبه ، وسياسته ، وأشكاله الاجتماعية (١٠٤) .

(٩٥) المجلسي بحار الانوار ٣٩/٦ ٠
(٩٦) ابو البقاء : مناقب مخطوط الورقة ١٩٦ ٠
(٩٧) محمد بن حبيب : المحبر ص ٣١٦ ٠
(٩٨) المصدر السابق ، وانظر ابن حجر : الاصابة رقم ٤٠٧٦ ، ٤٠٧١ ٠
(٩٩) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ١٩٩ وما بعدها ٠
(١٠٠) الهمداني : الاكليل ٢/١ مخطوط الورقـــة ١١٧٨ (مخاشن) ، محمد بن حبيب : المحبر ص ١٣٤ (ربيعة بن مخاشن) ، الانباري : مفضليـــات ٤٤٧ (ربيعة) اليعقوبي : تاريخ ٢١٤/١ (مخاشن) ، الفرزدق : الديوان ص ٥٠٣ رقم ٢ ، ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ٤٢٧/٣ ٠
(١٠١) الهمداني : المصدر السابق ، ابن الاثير : المرصع ص ٨٢ (تنسب لاكثم ايضا) ٠
(١٠٢) محمد بن حبيب : المحبر ص ١٣٤ ، العسكرى : جمهرة الامثال ص ١٠٤ ٠
(١٠٣) محمد بن حبيب : المحبر ص ١٨٢ ٠
(١٠٤) قارن المرزوقي : الامكنة ١٦٥/٢ ، ١٧٠ ، المرزوقي : شرح الحماســـة ص ١٥١٤ ، ولهاوزن :
Wellhausen: Reste, p. 84-86. Ruhl: Das Leben Muhammeds, pp. 49 50, 105.

إن مشاركة تميم في سوق عكاظ وتعاونها ، قد ساعد قريشا أن تتفادى المنافسة وتؤمن لها النفوذ في هذه الأسواق (١٠٥) .

لقد حدد ابن حبيب مشاركة تميم في نظام المكيين على الوجه الآتي : « كان قادة (أئمة) القبائل (بعد عامر بن الظرب) في الموسم وقضاتهم في عكاظ هم بنو تميم ، وكان سدنتهم على دينهم وأمناؤهم على (قبلتهم) هم قريش ، وكان الممثلون الحازمون للدين هم بنو مالك بن كنانة » (١٠٦) . ويعطي ابن حبيب قائمة بأسماء رؤساء تميم الذين اجتمع لهم الموسم والقضاء في عكاظ وهم : ١ ــ سعد بن زيد مناة بن تميم ٢ ــ حنظلة بن زيد مناة بن تميم ٣ ــ ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ٤ ــ مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ٥ ــ ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ٦ ــ معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو ابن تميم ٧ ــ الاضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة ٨ ــ صلصل بن أوس ابن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد ٩ ــ سفيان بن مجاشع ، وكان سفيان آخر رجل اجتمع له الموسم والقضاء بعكاظ . فمات سفيان فافترق الأمر فلم يجتمع الموسم والقضاء لأحد منهم حتى جاء الإسلام فكان محمد بن سفيان يقضي في عكاظ ، فصار ميراثاً لهم ، فكان آخر من قضى بينهم الذي وصل إلى الإسلام هو الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع . وأجاز بالموسم بعد صلصل ، العلاق بن شهاب بن لأي من بني عوافة بن سعد (١٠٧) .

وكان آخر رجل يجيز بأهل الموسم في الجاهلية (عند ظهور الإسلام) هو كرب بن

---

(١٠٥) يبدو ان راي راثجنس :

Rathjens: Die Pilgerfahrt p. 70.

بان هناك منافسة بين سوق مكة وسوق عكاظ لا يستند الى اساس .

(١٠٦) محمد بن حبيب : المحبر ص ١٨١ وما بعدها ، كان بنو مالك بن كنانة من عشيرة المنسيء .

(١٠٧) ان زينب بنت علاق بن شهاب بن عمرو من بني عوافة بن سعد بن زيد مناة كانت جدة عمر بن عبدالعزيز ، انظر ابن حبيب : المحبر ص ٢٧ ، البلاذري : انساب مخطوط الورقة ١٠٤٩ب ، وابنه عتاب (بن العلاق) أخذ عطاء الـ ٢٥٠٠ درهم من عمر ، البلاذري : المصدر السابق الورقة ١١٠٥٠ ، ابن الكلبي : الجمهرة مخطوط الورقة ١٨٣ ، وكان علاق قد قال انه آمن بالله وبيوم البعث ، الشهرستاني : الملل ص ٤٣٩ .

صفوان (١٠٨) . ويقدم البلاذري في رواية عن ابن كناسة جريدة بأسماء قضاة تميم ، وهي مطابقة تقريباً لجريدة المحبر (١٠٩) ، وهي تطابق أيضاً جريدتي النقائض (١١٠) وأمكنة المرزوقي (١١١) ، وينقل ابن حزم في فصل ساقط من طبعة ليفي روفنسال (١١٢) ان تميما أعطيت القضاء في عكاظ و (الإفاضة) بعد أن كانا بيد عدوان ، وكان آخر بني عدوان عامر بن الظرب وأبي سيارة . وآخر رجل قام بوظيفة الإفاضة عند ظهور الإسلام كان كرب بن صفوان ، وآخر قاض كان الأقرع بن حابس .

لقد ورثت تميم واجبات (الرمي) و (النفر) و (الاجازة) من صوفة كما يقرر ابن حزم . ويشيد الشعراء التميميون في قصائدهم بالواجبات التي قضتها تميم ، فالفرزدق يفتخر بواجب (الحكم) الذي قام به أحد أجداده :

وعمي الذي اختارت معد حكومة على الناس إذ وافوا عكاظ بها معا
هو الأقرع الخير الذي كان يبتني أواخي مجد ثابت أن ينزعا (١١٣)

وكذلك فاخر جرير بوظيفة القضاء :

ونحن الحاكمون على قلاخ كفينا ذا الجريرة والمصابا (١١٤)

(هناك اختلاف في الرواية : ونحن الحاكمون على عكاظ) (١١٥) .

وهناك بيت لحسان بن ثابت له دلالته الهامة ، يشير فيه إلى واجبات تميم في الأسواق

وأفضل ما نلتم من المجد والعلى ردافتنا عند احتضار المواسم (١١٦)

(١٠٨) انظر ابن الكلبي : جمهرة مخطوط الورقة ٨١أ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٠٨ ، البلاذري : أنساب مخطوط الورقة ١٠٤٤أ كان ضمرة بن جابر بن نهشل قد تزوج ابنته هندا . الضبى : أمثال العرب ص ٨ .

(١٠٩) البلاذري : أنساب مخطوط الورقة ١٠٤٤ب لكن مازنا متبوع بمعاوية بن شريف ، وصلصل متبوع بعلاق .

(١١٠) النقائض ٤٣٨ : ثعلبة بن يربوع يتبع بمعاوية بن شريف ، ولكن معاوية بن شريف متبوع بجروة بن أسيد . وذلك خطأ واضح ، اقرأ الى « ثم : ابن » .

(١١١) المرزوقي : الامكنة ٢/١٦٧ .

(١١٢) حمد الجاسر : نظرة في كتاب جمهرة أنساب العرب مجلة المجمع العربي - دمشق ١٩٥٠ ص ٢٤٨ وما بعدها .

(١١٣) الفرزدق : الديوان ص ٥٠٢ ط الصاوي .

(١١٤) جرير : الديوان ص ٦٧ ، النقائض ص ٤٣٧ .

(١١٥) انظر النقائض ص ٤٣٨ ، جرير : الديوان ص ٦٧ ، ياقوت : بلدان (قلاخ) .

(١١٦) حسان : الديوان ص ٣٨٥ (ط البرقوقي) .

هذا البيت هو الرابع عشر من قصيدة لحسان حيث كان يجيب على قصيدة وفد تميم حين قدم مكة لمقابلة النبي سنة ٩ هـ لقد حلل عرفات القصيدة (١١٧) واستنتج أن هذه القصيدة على الرغم من نسبتها إلى حسان ، نظمت في الحقيقة من قبل أحد الأنصار في فترة متأخرة . ولسوء الحظ أن عرفات لم يحلل هذا البيت ، واستنتاج عرفات ، مع أنه غير مقبول حتى الآن ، فإن البيت له أهميته ، فيؤخذ على فرض أن هناك شاعراً أنصارياً مهتماً بهجاء تميم – إنه لم يتذكر هذه العلاقة بين مكة وتميم . في العصور المتأخرة حين صارت قريش محترمة جداً في المجتمع الإسلامي – إن (ردافة) قريش لم تكن سبّة .

يلاحظ عرفات أن قصيدة حسان « تنقسم بوضوح إلى قسمين . الأبيات الثمانية الأولى فخر واعتزاز في أول شخص جمع بجدارة نفس الأسلوب الذي تميزت به قصائد الأنصار المتأخرين ، وبعضها ينسب لحسان . وأما الأبيات الستة المتبقية فتهديد وسباب موجه إلى بني دارم » (١١٨) . نحن لا نعني هنا بالأبيات الثمانية من القصيدة التي احتوت مديح الأنصار والتأكيد على مساعدة الأنصار للنبي . ربما كان عرفات على حق في افتراضه أن هذه الأبيات كانت قد نظمت من قبل أنصارى من جيل متأخر ، ولكن لماذا يقذف هذا الأنصارى المتأخر تميماً بهذا الشكل العنيف .

ومن البداية ربما يلاحظ أحد أن الأبيات الستة لقصيدة حسان (٩ – ١٤) هي جواب عن قصيدة للزبرقان بن بدر (١١٩) . يمدح الزبرقان في أربعة أبيات قبيلته ويذكر مآثرها . وتشكل أبيات حسان في الحقيقة جواباً « نقيضة » لأبيات الزبرقان . إن بيت حسان المذكور سابقاً يصلح جواباً للبيت الأول من قصيدة الزبرقان :

أتيناك كيما يعلم النـــاس فضلنـــا   إذا احتفلوا عند احتضـــار المواســـم

يبدو أن البيت يشير إلى الواجب الذى تؤديه تميم في الأسواق . إن جواب حسان – دفاعاً عن النبي – صريح : ما أنتم إلا « ارداف » لنا في الأسواق ، وذلك أقصى فضل استطعتم

(١١٧) وليد عرفات ·
W. Arafat: "An interpretation of the Different Accounts of the Visit of the Tamim Delegation to the Prophet A.H. 9", BSOAS 1955 pp. 416-25.

(١١٨) المرجع السابق ص ٤٢٢ ·

(١١٩) ابن هشام : السيرة ٢١١/٤ ، اســتشهد المرزباني ببيتين : معجم الشعراء ص ٢٩٩ ونسبهما الى عطارد بن حاجب (نسبا كذلك الى الاقرع بن حابس) ·

بلوغه . لقد كان من الأفضل أن يوضع هذا البيت بعد البيت العاشر من القصيدة ، وبذلك تجتمع ثلاثة أبيات يدحض فيها حسان مزاعم تميم بالفضل . وتكون الأبيات الثلاثة الأخرى (١١ – ١٣) وحـــدة في التهـــديد على اعتناق الإسلام .

إن الهجـــاء القاسي في أبيات حسان ليس غريباً ، لقد كان حسان معروفاً بذكر سقطات مناوئية وفشلهم في الحروب وضعة الأنساب ، يذكر ذلك في شعره دفاعاً عن النبي (١).

يفند عرفات صحة أبيات حسان ويلاحظ : « إلا أنه على أية حال من المشكوك فيه أن تتفق هذه الأبيات مع أخلاق النبي وهو ذلك السياسي العظيم بأن يسمح بمثل هذا الهجاء والتهديد ليكون موجهاً في مثل هذا الموقف ضد وفد مشهور لقبيلة عظيمة » (٢) . قد تكون حجة عرفات مقبولة ، ولكن هناك رواية ربما تعطى جواباً معقولاً للسؤال الذى طرحه عرفات ، فطبقاً لرواية جاءت في السيرة الحلبية (٣) كانت هناك مفاخرة بين الأقرع التميمي (٤) وبين حسان ، حيث كان الرسول حاضراً . أنشد الأقرع قصيدته وأجاب حسان بنقيضته . وحين سمع النبي قصيدة حسان قال للأقرع : « لقد كنت غنياً أن تذكر بأمور أنت تعلم أن الناس قد نسيتها » . وكلام النبي هذا – كما يقول الكلبي – كان أشد وقعاً على الأقرع من أبيات حسان .

ليس من الغريب أن هذا البيت الرابع عشر لحسان كان قد حذف من المصادر المتأخرة . وأن واجب تميم قد نسى أيضاً ، وما كان يذكر إلا من قبل شعراء تميم فقط في صدر الإسلام. إن الأسواق القديمة كان قد أنهى وجودها ، وإن البيت لا يمكن أن ينتفع به في مجال المفاخرة أو الهجاء . ويقدم الشرح الحديث للبرقوقي التفسير الآتي ، يقول حسان : « خير لكم أن تسلموا إذ لو أنتم اسلمتم لكان لكم الشرف الأعلى لأنكم ستكونون معنا في جميع المحافل وهذا خير ما تسعون إليه » (٥) . إن من الصعوبة أن يقبل هذا الشرح ، فإن « وأفضل ما

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢/٣٧٦ ، الزرقاني : شرح المواهب ٢/٣٧٦ .

(٢) عرفات : المرجع السابق ص ٤٢٣ .

(٣) الحلبي : انسان العيون ٣/٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٤) ان الاكثر قبولا أن تكون أبيات الشاعر التميمي منسوبة الى الاقرع أو عطارد بن حاجب ومن المقبول جدا أن الزبرقان السعدي كان قد مدح دارما : « وان ليس في أرض الحجاز كدارم » وقد وجهت أبيات حسان أيضا الى دارم لا تفخروا » .

(٥) حسان : الديوان ص ٣٨٥ .

نلتم » لا يشير إلى المستقبل ، بل إلى الماضي ، لقد كان البيت هجاء في زمن حسان سنة ٩ هـ : ما أنتم إلا أرداف لنا (لقريش) في الأسواق .

البيتان ١١ ــ ١٢ من القصيدة (البيت الثالث من القسم الثاني) يصف موقفاً حقيقياً : « إذا جئتم لتحفظوا أنفسكم فلا تقتلوا ، وأموالكم فلا تغنم وتقسم على المجاهدين ، فلا تجعلوا لله شريكاً وأسلموا ولا تلبسوا زياً كزى الأعاجم . . . » (٦) .

وبيان الحال في هذه الأبيات ذكر بوضوح في أبيات للفرزدق . إن قول حسان بأن الأسرى التميميين يمكن أن يباعوا في الأسواق ــ لا يمكن أن يعتبر خاليا من التهديد .

يفاخر الفرزدق بدارم قائلاً :

وعند رسول الله إذ شد قبضه ومليء من أسرى تميم أداهمه
فرجنا عن الأسرى الأداهم بعدما تخمط واشتدت عليهم شكائمه (٧)

وفي قصيدة أخرى يؤكد الفرزدق أن سراح الأسرى كان ناتجاً عن شفاعة الأقرع لهم عند النبي :

وعند رسول الله قام ابن حابس بخطة سوار إلى المجد حازم
له أطلق الأسرى التي في حباله مغلقة أعناقها في الاداهم
كفى أمهات الخائفين عليهم علاء المفاذى أو سهام المساهم (٨)

وفي رواية عن الكلبي (تصلح شرحا لهذه الأبيات) ، تفيد أن الأقرع تشفع في أسرى بنى عمرو بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم ، ووعد بدفع الفدية نيابة عن قومه (٩) ، ويبدو أن أشعار حسان في تميم صحيحة .

وربما يتفق المرء مع عرفات حول ركة أبيات حسان هذه ، ولكن هذا لا يقوم برهانا كافياً بأن هذه الأبيات ليست من نظم حسان . إن أمثال هذه الأبيات ليست غريبة على الهجاء السياسي .

---

(٦) عرفات : المرجع السابق ص ٤٢٣ .
(٧) الفرزدق : الديوان ص ٧٦٧ ، النقائض ٧٤٨ .
(٨) الفرزدق : السابق ص ٨٢٦ ، النقائض ص ٧٤٧ : « مغللة اعناقها » .
(٩) نقائض ص ٧٤٧ هناك روايات اخرى : « او سهام المقاسم » تشبه كثيرا تعبير بيت حسان .

إن مشكلة وفد تميم تستحق أن تعالج على انفراد . فإن الواجبات المتوارثة لتميم في السوق، والتي نوقشت فيما سبق ، كانت قد أكملت بالواجبات المهمة التي أديت من قبل أقرباء تميم خلال مواسم الحج . تقدم سيرة ابن هشام الرواية التالية حول وظائف زعماء تميم في مواسم الحج :

« كان الغوث بن مر بن أد بن الياس بن مضر يلي الاجازة بالناس في الحج من عرفة ، وولده من بعده ، وكان يقال له ولولده من بعده صوفة ، وإنما ولى ذلك الغوث بن مر لأن أمه كانت امرأة من جرهم ، وكانت لا تلد ، فنذرت إن هي ولدت ولدا أن تصدق به على الكعبة عبداً لها ، يخدمها ويقوم عليها ، فولدت الغوث ، فكان يقوم على الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم . فولى الاجازة بالناس من عرفة لمكانه الذي كان به من الكعبة ، وولده من بعده حتى انقرضوا . فقال مر بن أد مشيرا إلى وفاء نذر أمه :

إني جعلت ربِّ من بنيه
ربيطة بمكة العلية
فباركن لي بها أليه
واجعله لي من صالح البريه

وكان الغوث بن مر – فيما زعموا – إذا دفع بالناس قال :

لا هم اني تابع تباعه
إن كان اثم فعلى قضاعه

روى يحيى بن عباد بن الزبير عن أبيه قائلاً : كانت صوفة تدفع بالناس من عرفة وتجيز بهم إذا نفروا من منى ، فإذا كان يوم النفر اتوا لرمي الجمار ، ورجل من صوفة يرمى للنلس ، لا يرمون حتى يرمى ، فكان ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له : قم فارم حتى نرمي معك ، فيقول : لا والله حتى تميل الشمس ، فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ، ويقولون له : « ويلك قم فارم » فيأبى

عليهم ، حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه . فإذا فرغوا من رمي الجمار وأرادوا النفر من منى ، أخذت صوفة بجانبي العقبة ، فحبسوا الناس وقالوا : أجيزي صوفة ، فلم يجز أحد من الناس حتى يمروا ، فإذا نفرت صوفة ومضت خلى سبيل الناس فانطلقوا بعدهم ، فكانوا كذلك حتى انقرضوا . فورثهم ذلك من بعدهم بالقعدد بنو سعد ابن زيد مناة بن تميم ، وكانت من بني سعد في آل صفوان بن الحارث بن شجنة ، وكان صفوان هو الذي يجيز للناس بالحج من عرفة ثم بنوه من بعده ، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام ، كرب بن صفوان .

وقال أوس بن تميم بن مغراء السعدى :

ولا يريمون في التعريف موقفهم حتى يقال أجيزوا آل صفوانا (١٠)

إن أبيات ابن مغراء كثيراً ما يستشهد بها ، وأهمية واجب كرب بن صفوان تتواتر (١١) وهذا البيت لاوس بن مغراء ذو دلالة وأهمية أيضاً :

ترى ثنانا إذا ما جاء بدأهم وبدؤهم إن أتانا كان ثنيانا (١٢)

وقد ذكرت اجازة الصوفة في أبيات مرة بن خليف :

إذا ما أجازت صوفة النقب من منى ولها قتار فوقه سفع الدم

رأيت الإياب عاجلاً وتبعثت علينا دواع للرباب وكلثم (١٣)

(١٠) ابن هشام : السيرة ١٢٥/١ وما بعدها ، ترجمة هذه الفقرة المستشهد بها كلها اخذت من :
Guillaume: The Life of Muhammad p. 49-50.

قارة ابن كثير : البداية ٢٠٦/٢ ٠

(١١) المبرد : نسب عدنان وقحطان ص ٩ ، محمد بن حبيب : المحبر ص ١٨٣ ، البلاذري : انساب مخطوط الورقة ١٠٤٤ ، القالى : أمالى ١٧٦/٢ ، البكري : سمط ص ٧٩٥ ــ ٧٩٦ ، ابن قتيبة : الشعر ص ٢٦٤ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ٢٢٢/٢ ، ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة ٤٢٦/٣ ، ابن ولاد : المقصور والمدود ص ٢٤ ٠

(١٢) لسان العرب (ثنى) ٠

(١٣) المرزباني : معجم الشعراء ص ٣٨٢ ٠

ويفتخر شاعرا تميم جرير والفرزدق باجازة قبيلتيهما (١٤) من مكة ، ويعد بيت الفرزدق حول اجازة تميم أفخر بيت :

إذا هبط النـــاس المحصب من منى — عشية يوم النحـــر من حيث عرفـــوا
ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنــا — وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا (١٥)

ويقـــول جرير :

وجـــواز الحجيـــج لنـــا عليـــكم — وعـــاديّ المـــكارم والمنـــار(١٦)

ويقول العجاج واصفاً جمع الحجيج :

حتّى إذا ما حـــان فطـــر الصـــوّم — أجـــاز منـــا جـــائز لم يوقـــم (١٧)

تعين أشعار الشعراء التميميين السابقة بوضوح التعاون بين قريش وتميم ، وفي الحقيقة

---

(١٤) تقرر الرواية أن صوفة كان سليل الغوث بن مر (يدعى الربيط ، أو صوفة) نقل الرواية ابن الكلبي : جمهرة مخطوط الورقة ٦٠ أ ، وقد بادوا ، محمد بن حبيب : مختلف القبائل ص ٩ ، البلادري : انساب مخطوط الورقة ٩٥٦ ب ابن قتيبة : المعارف ص ٣٤ (الغوث بن مر صاروا باليمن ويقال لها صوفة) ، الكلاعي : الاكتفاء ١/١٣٢ وما بعدها وانظر ولهاوزن Reste p. 77. ، كايتاني : حوليات ١/١٠٥ ، هناك روايات مختلفة حول صوفة ، ينقل الارزقي : أخبار مكة ١/١٢٨ : كانت الافاضة في الجاهلية الى صوفة ، وصوفة رجل يقال له أخزم بن العاص من بني مازن بن الاسـد · وكانت للغوث بن صوفة وأمه امرأة من جرهم الافاضة بالناس على الموقف ، جعلها اليه حبشيـة بن سلول من خزاعة ، وكان حبشية يومئذ يلي حجابة الكعبة وأمر مكة · ثم صـارت الافاضة في عدوان بن عمرو بن قيس عيلان الى زيد بن عدوان في زمن قريش ، حتى كان الذي قام عليه الاسلام أبو سيارة ·

يسجل المقدسي (كتاب البدء ٤/١٢٧) ان صوفة كانوا جماعة من جرهم أعطوا حق الاجازة ، وقد دحروا في معركة مع قصي · يذكر ياقوت أن الاجازة كانت أولا في عهدة ناس خزاعة ثم انتقلت الى عدوان ، ثم صارت الى أبى سيارة ، وأخيرا صارت الاجازة الى الغوث بن مر بن أد (البلدان « ثبير ») · ويذكر ياقوت في فقرة أخرى أن قبيلة من جرهم اسمها صوفة بقيت بمكة تلى الاجازة بالناس من عرفة مدة ، وفيهم يقول الشاعر :

ولا يريمون في التعريف موقفهم — حتى يقـال أجيزوا آل صفوانا

(ياقوت : البلدان « مكة ») · وقد انتقل هذا الامتياز الى خزاعة ، ثم تحول أخيرا الى عدوان (ابى سيارة) ، ثم عزل قصى أبا سيارة وقومه · وطبقا لرواية السجستاني (المعمرون ص ٥١) أن صوفة يقوم بالاجازة يوما ، وفي اليوم الآخر تؤدى من قبل عدوان (انظر السابق ص ٣٤) ·

(١٥) ابن رشيق : العمدة ٢/١٣٧ ، العســكري : ديوان المعاني ١/٧٨ · الفرزدق : ديوان ص ٥٦٦ (ط الصاوي ، هناك خطأ مطبعي : أومأنا الى النار ، بدلا من : الى الناس) ولكن القالى : الامالى (ذيل ١١٩ وما بعدها) وابن رشيق : العمدة ٢/٢٦٩ ·

(١٦) جرير : ديوان ص ٢٩٨ ·

(١٧) العجاج : ديوان ص ٦٠ ط اهلوارد ·

إن قريشا قلدت تميما وظيفتين كبيرتي الأهمية في دينهم وحياتهم الاقتصادية : « الحكومة » و « الاجازة » (١٨) . ويدل هذا على أن تميما كانت في الحقيقة قوية وذات نفوذ ، وقد قدمت لمكة خدمات عظيمة الأهمية .

إن اشارة ولهاوزن بأن منح الاجازة إلى صوفة (وأخيراً إلى تميم — ك) يرى بأن مكة لم تكن مركزاً للحج (١٩) ، يبدو أن هذا الرأي غير مناسب . فقد تخلت قريش عن حقها أو وظفت عشائر ببعض الواجبات في منطقتها أو في المناطق التي تجد قريش أن نفوذها فيها مهما (الأسواق) لأنهم استطاعوا عن هذا الطريق أن تكون سيطرتهم أكثر حيوية ونفوذاً في القبائل ، ويحصلوا على الأمن في أراضيهم . وقد كان هناك سابقة لهذا الأسلوب ، فكان هذا المبدأ مطبقاً سابقاً من قبل حكام الممالك التي على الحدود (٢٠) . وحول اسناد الواجبات في السوق ، نستطيع أن نقيس ذلك من فقرة ذات دلالة جاءت في كتاب الأمكنة للمرزوقي(٢١) : « وكان أشراف العرب يتوافون بتلك الأسواق مع التجار من أجل أن الملوك كانت ترضخ للأشراف لكل شريف بسهم من الأرباح . فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، إلا عكاظ ، فإنهم كانوا يتوافون بها من كل أوب » .

تقدم هذه الفقرة فكرة عن العلاقات بين الحكام ورؤساء الأعراب . فقد كانوا يعطون بعض الحصص من الأرباح ، وكان هذا الموقف واضحاً في دومة الجندل وفي هجر وفي صحار وفي دبا وفي الأسواق الأخرى التي كانت تحت سيطرة حكام موالين للممالك حيث تجبي فيها الضرائب (الأعشار) ، وبالطريقة نفسها قلدت قريش تميما وجعلت لها أمر القيادة في سوق عكاظ . ولكن ما كان هذا قائماً على المكافأة الزهيدة ، فقد كانت عكاظ سوقاً حـــرة لا تدفع فيها الضرائب ، وليس لدينـــا اشـــارة إلى هذه المكافأة كيف كانت .

إن تعبير « أئمة العرب » يشير إلى مبدأ التعاون المشترك ، وكأساس فكري فإنه يخدم مبدأ

---

(١٨) انظر في الاجازة :
Von Grunebaum: Muhammadan p. 32-33; Wellhausen: Reste, pp. 57, 75-80.

وانظر حول « اشرق ثبير » أبا مسحل : نوادر ص ٤٥٢ ، وانظر لسان العرب (ثبر ، شرق) .

(١٩) ولهاوزن :
Wellhausen: Reste, p. 77.

(٢٠) قارن ابن حبيب : أسماء المغتالين (نوادر المخطوطات ٦/٢٢١هـ هارون) ولكن ربما يقرأ « مليك » وليس « ملك » أي ليس بالملك التام) .

(٢١) المرزوقي : الامكنة ٢/١٦٦ .

احترام حرمة مكة والأشهر الحرم ، ومن الواضح أن رضا القبائل كان ضرورياً لتأدية هذا الواجب .

إن السيطرة على الأسواق والاجازة كانت مهمة وضرورية ليست للقبائل وحسب ، بل كانت في مصلحة بعض الحكام أيضاً . يمكن أن يستنتج هذا من رواية هامة رواها السهيلي : « وقال بعض نقلة الأخبار إن ولاية الغوث كانت من قبل ملوك كندة » (٢٢) وقيل إن بني الغوث هؤلاء رحلوا إلى اليمن (٢٣) . إن الروايات التي تذكر هجرة الغوث ابن مر إلى اليمن تشير بوضوح إلى صلاتهم بجنوب الجزيرة العربية ، وطبقا لرواية ، أنه بعد هلاك الصوفة آلت الولاية إلى صفوان بن الحارث بن شجنة من سعد حيث ورثها أقاربه من بعده : « فورثهم ذلك من بعدهم بالقعدد » .

وربما يتذكر أحد أن هذه الأسرة كان لها علاقة وثيقة بآل كندة . كان عوير بن شجنة الذي آوى بعض الأفراد المنهزمين من آل كندة ، وكان قد مدح من قبل امرئ القيس . وكان كرب بن صفوان الذي رفض أن ينضم إلى العشائر الأخرى من تميم في حربهم ضد عامر بن صعصعة التي تدين بالحمس ، في معركة جبلة ، وقد يجازف أحد فيفترض أن هنالك شيئاً من الصدق في هذه الرواية . لقد تعاونت كندة من قريش في حماية القوافل (٢٤) ، ومن الراجح أنه كان لهم تأثير على الأقل في تعيين الرجل أو القبيلة التي تلي الاجازة .

إن شاعراً وزعيما من بني سعد هو الزبرقان بن بدر قال يلوم رجلاً كان قد هجا أبا جهل :

أتدري من هجوت أبا حبيب ... سليل خضارم سكنوا البطاحا
أزاد الركب تذكر أم هشاما ... وبيت الله والبلد اللقاحا (٢٥)

يعبر هذان البيتان عن الصدق والاحترام للارستقراطي القرشي أبي جهل والولاء لمكة . إن فرع تميم الذي عهدت إليه ولاية القضاء في عكاظ كان في بني مجاشع من دارم ، العشيرة التي لها نفوذ في بلاط الحيرة (٢٦) . والرواية التي نوقشت في هذا البحث تعطينا

---

(٢٢) السهيلي : الروض الانف ١/٨٤ وما بعدها .

(٢٣) انظر ما سبق بحثه حول الغوث بن مر .

(٢٤) قارن محمد بن حبيب : المحبر ص ٢٦٧ حول سوق الرابية في حضرموت : فكانت قريش تتخفر فيها ببني اكل المرار من كندة ، وساد بنو آكل المرار بفضل قريش على سائر الناس » .

(٢٥) ياقوت : بلدان (مكة) .

(٢٦) انظر : Oppenheim — Caskel: Die Beduinen III, 166.

فكرة تقريبية عن كيفية ارتباط عشائر تميم بمكة : لقد ارتبط بعضها بنظام الحمس ، وبعضها بعهود الإيلاف ، وبعضها بالحصول على امتيازات في الأسواق وتأدية فروض الحج ، وبعضها بالاشتراك بالجيش القبلي لحراسة مكة .

ومن المقبول أن نجد في مكة رجالا من تميم حلفاء لقريش ، وأن يزوج زعماء تميم بناتهم لرؤساء الأسر المكية ، هذه الحقيقة ربما تستوجب التأكيد . فطبقاً لبعض الروايات أن قريشا كانت تمتنع من التزوج ببنات القبائل الأخرى . فكانت تماضر بنت الأصبغ الكلبي ، زوجة عبد الرحمن بن عوف ، أول امرأة كلبية تزوجت من قرشي . فلم تكن قريش تتزوج من كلب (٢٧) . أما حول أسرة تميم ، فتؤكد الرواية أن قريشا ارتبطت بالزواج مع هذه الأسرة (٢٨) .

فقد كانت زوجة هشام بن المغيرة الشريف المخزومي هي أسماء بنت مخربة بن جندل ابن أبير بن نهشل بن دارم أم أبي جهل المشهور ، وكانت كذلك أم عبد الله بن أبي ربيعة وعياش بن أبي ربيعة (٢٩) . وتزوج عياش بن أبي ربيعة (٣٠) أسماء بنت سلامة بن مخربة ابن جندل (٣١) . وتزوج عبد الله بن عيّاش بن أبي ربيعة هنداً بنت مطرّف بن سلامة بن مخربة (٣٢) . وتزوج عبد الله بن أبي ربيعة ليلى ابنة الزعيم التميمي عطارد بن حاجب بن زرارة (٣٣) . وتزوج أبو جهل ابنة عمير بن معبد بن زرارة (٣٤) . وتزوج عبد الله بن عمر

---

(٢٧) المصعب الزبيري : نسب قريش ص ٢٦٧ ، الزبير بن بكار : نسب قريش مخطوط الورقة ٩٥ ب .

(٢٨) البلاذري : انساب مخطوط الورقة ٩٨٩ ب : « ... كان شريفا وقد نكحت اليه قريش ... » .

(٢٩) ابن الكلبي : جمهرة مخطوط الورقة ٣٦ أ ، الجمحى : طبقات فحول الشعراء ص ١٢٣ ، الزبير بن بكار : نسب قريش مخطوط الورقة ١٣٥ أ ١٤٠ ب ، المصعب الزبيرى : نسب قريش ص ٣٠١ ، ٣١٧ ، الواقدي : مغازى ص ٨٣ ـ ٨٤ ، ابو الفرج : الاغاني ٢٩/١ وما بعدها ، نقائض ص ٢٠٧ ، البلاذري : انساب مخطوط الورقة ٩٨٦ ب ، ٨٠٤ أ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ص ٤٩٥ ، البلاذري : انساب ٢٩٨/١ ، ٢٠٩ ، ٢٣٥ ، ابن حجر : الاصابة ١٠/٨ (رقم ٥٥ نساء) .

(٣٠) نظر حوله ابن حجر : الاصابة رقم ٦١١٨ .

(٣١) ابن هشام : سيرة ٢٧٢/١ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ص ٧٠٥ ، المصعب الزبيري : نسب قريش ص ٢٦٧ ، ٣١٩ ، الزبير بن بكار : نسب قريش مخطوط الورقة ٩٦ أ .

(٣٢) المصعب الزبيري : نسب قريش ص ٣١٩ ، ابن سعد : طبقات ٢٧/٥ .

(٣٣) المصعب الزبيري : نسب قريش ص ٣١٨ ، الزبير بن بكار : نسب قريش مخطوط الورقة ١٤١ أ ، ابن حجر : الاصابة ١٨٢/٨ ، البلاذري : انساب مخطوط الورقة ٨٠٤ ب .

(٣٤) المصعب الزبيري : المصدر السابق ص ٣١٢ ، الزبير بن بكار : السابق مخطوط الورقة ١٣٥ ب .

ابن الخطاب أسماء بنت عطارد بن حاجب بن زرارة (٣٥) . وتزوجت خولة بنت القعقاع ابن معبد بن زرارة بن عدس ، طلحة بن عبيد الله ، كان زواجها الثاني من أبي جهم بن حذيفة (٣٦) . وتزوجت ليلى بنت مسعود بن خالد بن مالك بن ربعى بن سلمى بن جندل بن نهشل ، على بن أبي طالب ، وكان زواجها الثاني من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (٣٧) . وتزوج عقيل بن أبي طالب ابنة سنان بن الحوتكية من بني سعد بن زيد مناة (٣٨) .

أما بنات الزبرقان بن بدر فقد تزوجن من : سعد بن أبي وقاص ، المسور بن مخرمة الزهري ، عامر بن أمية الضمرى ، الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، عثمان بن أبي العاص ، الحكم بن أبي العاص ، أمية بن أبي العاص (٣٩) .

وكان أمية الأصغر ، وعبد أميـــة ، ونوفل ، وأمامة أولاد عبد شمس بن عبد مناف ، وللدوا من زوجته عبلة بنت عبيد بن جاذل بن قيس بن حنظلة بن مالك بن زيــد منـــاة ، وكان أحفادهم يدعون (العبلات) (٤٠) . وتزوج نوفل بن عبد مناف بن قصي فكيهة بنت جندل بن أبير بن نهشل بن دارم (٤١) . وكانت إحدى زوجات المطلب بن عبد مناف ابن قصي أم الحارث بنت الحارث بن سليط بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة (٤٢) . وتزوج أمية بن خلف امرأة تميمية هي سلمى بنت عوف ، وولدت له علي بن أمية الذي قتل

---

(٣٥) الجمحى : طبقات فحول الشعراء ص ٤٨٨ رقم ٣ .

(٣٦) الزبير بن بكار : نسب قريش مخطوط الورقة ١١٨ أ ، ١٧١ أ ، البلاذري : انساب مخطوط الورقة ٨٧١ أ ، المصعب الزبيري : نسب قريش ص ٣٧٢ ، ٢٨١ ، ابن حجر : الاصـــابة ٧١/٨ (رقم ٣٧١) ، ابن سعد : طبقات ١٥٢/٣ ، ١٢٠/٥ ، ١٤٧/٦ .

(٣٧) ابن الكلبي : جمهرة مخطوط الورقة ٩ أ ، البلاذري : انساب مخطوط الورقة ١٥٣ أ ، المصعب الزبيري : المصــــدر السابق ص ٤٤ ، ٨٣ ، ابن حجر : الاصابة رقم ٨٤٠٤ ، ابن ســعد طبقات ١٩/٣ .

(٣٨) البلاذري : انساب مخطوط الورقة ١٥٤ أ ، ١٥٠ أ .

(٣٩) البلاذري : انساب الورقة ١٠٤٤ أ المصعب الزبيري : السابق ص ١٦٩ .

(٤٠) ابن الكلبي : جمهرة مخطوط الورقة ١١٦ ، المصعب الزبيري : السابق ص ٩٨ ، مؤرج السدوسي : حذف ص ٣٠ ، البلاذري : انساب مخطوط الورقة ٢٤٥ ، ٨٠٦ ، أبو الفرج : أغــاني ٨٢/١ .

(٤١) المصعب الزبيري : السابق ص ١٩٨ ، البلاذري : انساب مخطوط الورقة ٨٠٨ أ (كهيفة بنت جندل ــ وليس فكيهة) ، ابن الكلبي : جمهرة مخطوط الورقة ٢١ أ .

(٤٢) ابن الكلبي : جمهرة مخطوط الورقة ٢٠ ، المصعب الزبيري : السابق ص ٤٤ ، ٨٣ ، ابن حجر : الاصابة رقم ٨٤٠٤ ، ابن سعد : طبقات ١٩/٣ .

في بدر(٤٣) . وتزوج وهب بن عثمان بن أبي طلحة من بني عبد الدار بن قصي ، سعدة بنت زيد بن لقيط من مازن بن عمرو بن تميم (٤٤) . وتزوج حرب بن أمية امرأة تميمية (٤٥) . وتزوج نافع بن طارق بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف غنية بنت أبي اهاب بن عزيز بن قيس بن سويد من ربيعة بن زيد بن عبد بن دارم (٤٦) . وكان أبو أهاب حفيد سويد بن ربيعة الذي قتل ابن ملك الحيرة وهرب إلى مكة ، فأصبح حليفاً لنوفل بن عبد مناف . وكان جد غنية عزيز بن قيس قد تزوج فاختة بنت عامر بن نوفل بن عبد مناف (٤٧) . وتزوج أبو أهاب بن عزيز والد غنية، درة بنت أبي لهب عم النبي(٤٨) . وتزوجت ابنة أبي أهاب عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس (٤٩) وتزوجت حفيدة أبي لهب ، درة بنت عتبة بن أبي لهب ، تميمياً هو أبو هالة هند بن هند بن أبي هالة حفيد خديجة من زوجها الأول (أو الثاني) (٥٠) . وتزوجت ابنة نوفل بن الحارث بن عبد المطلب (٥١) تميمياً هو حنظلة بن الربيع كاتب النبي (٥٢) ، وهو ابن أخت أكثم بن صيفي (٥٣) .

إن جريدة النساء التميميات اللواتي تزوجن رجالاً من أسر قرشية شريفة لا يمكن إدراكها جميعاً ، فيظهر أن هناك عدداً كبيراً من النساء التميميات تزوجن من أبناء الأسر المتميزة في مكة . وهذا يشير إلى العلاقات الوثيقة بين قريش وتميم ، وربما كان المراد من هذه الزيجات تقوية الروابط مع زعماء تميم الذين أسهموا كثيراً في دعم مكانة مكة في المجتمع القبلي .

---

(٤٣) الزبير بن بكار : السابق الورقة ١٧٦ ب ، المصعب الزبيري : السابق ص ٣٨٧ وما بعدها .
(٤٤) الزبير بن بكار : السابق الورقة ١٨٨ .
(٤٥) المصعب الزبيري : نسب قريش ص ١٢٣ .
(٤٦) المصعب الزبيري : السابق ص ٢٠٤ .
(٤٧) المصدر السابق والصفحة ، و ص ٤٢٠ ، الزبير بن بكار : نسب قريش مخطوط الورقة ١٨٦ أ ، ابو البقاء : مناقب مخطوط الورقة ١٥٠ ب .
(٤٨) ابن الكلبي : جمهرة مخطوط الورقة ١١٦ ب .
(٤٩) المصعب الزبيري : السابق ص ١٩٣ .
(٥٠) ابن الكلبي : جمهرة مخطوط الورقة ١١٨ب .
(٥١) انظر حوله ابن حجر : الاصابة رقم ٨٨٢٧ .
(٥٢) ابن الكلبي : السابق الورقة ١١٨أ .
(٥٣) انظر حوله ابن حجر : الاصابة رقم ١٨٥٥ .

مصـــادر ومراجــع البحث

١ ــ باللغة العربيـة :

ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة . ط مصر ١٢٨٦ هـ .

: المرصع . ط سيبولد . ويمر ١٨٩٦ م .

الازرقي : أخبار مكة . ط وستنفيلد . ليبزك ١٨٥٨ م .

الاصبهاني ــ أبو نعيم : حلية الأولياء . ج ١ ــ ١٠ ط القاهرة ٣٢ ــ ١٩٣٨ م .

الاصفهاني ــ أبو الفرج : الأغاني . ط دار الثقافة بيروت .

الاصمعي ــ عبد الملك بن قريب : الاصمعيات . ط اهلوارد . ليبزك ١٩٠٢ م .

الأعشي : ديوان . ط جاير . وين ١٩٢٨ (سلسلة ذكرى جب ٦) .

الألوسي : بلوغ الارب . ط القاهرة ١٩٤٠ م .

أبو البقاء ــ هبة الله : المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية .

مخطوط ، المتحف البريطاني ٢٣ ، ٢٩٦ .Add .

البكرى ــ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز : سمط اللآلى . ط عبد العزيز الميمنى . القاهرة ١٩٣٦ م .

: معجم ما استعجم . ط مصطفى السقا . القاهرة ٤٥ ــ ١٩٥١ م .

البلاذري ــ أحمد بن يحيى : أنساب الأشراف . مخطوط عاشر أفندي ٥٩٧ / ٨ استانبول .

الجزء الأول ط محمد حميد الله . القاهرة ١٩٥٩ م .

الجزء الرابع . ط جلو سينجر . القدس ١٩٣٨ م .

الجزء الخامس . ط كويتين . القدس ١٩٣٦ م .

الثعالبي ــ عبد الملك بن محمد بن اسماعيل : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب . ط القاهرة ١٩٠٨ م .

: لطائف المعارف . ط دي جونج . ليدن ١٨٦٧ م

الجاحظ ــ أبو عثمان عمرو بن بحر : رسائل الجاحظ . ط السندوبي . القاهرة ١٩٣٣ م .

: الحيوان . ج ١ ــ ٧ ط هارون . القاهرة ٣٨ ــ ١٩٤٥ م .
: مختارات فصول الجاحظ . مخطوط المتحف البريطاني ٣١٨٣ .Or .
ابن الجارود : المنتقى . ط حيدر آباد ١٣٠٩ هـ .
جرير ــ ابن عطية الخطفى : ديوان . ط الصاوى . القاهرة ١٣٥٣ هـ .
الجمحى ــ محمد بن سلام : طبقات فحول الشعراء . ط محمود شاكر . القاهرة ١٩٥٢ م .
ابن الجوزي : صفة الصفوة . حيدر آباد ٥٥ ــ ١٣٥٧ هـ .
ابن حبيب ــ محمد : أسماء المغتالين من الأشراف . ط هارون (نوادر المخطوطات ٦) . القاهرة ١٩٥٤ م .
: المحبر . ط الزالجتنستدتر . حيدر آباد ١٩٤٢ م .
: مختلف القبائل . ط وستنفيلد . جوتنجن ١٨٥٠ م .
: المنمق . ط خورشيد أحمد فاروق . حيدر آباد ١٩٦٤ م .
ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة ج ١ ــ ٨ . ط القاهرة ٢٣ ــ ١٣٢٧ هـ .
ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة . ج ١ ــ ٤ ط القاهرة ١٣٢٩ هـ .
ابن حزم : جمهرة أنساب العرب . ط ليفى بروفنسال . القاهرة ١٩٤٨ م .
: جوامع السيرة . ط احسان عباس وناصر الدين الأسد . ط القاهرة د.ت .
حسان بن ثابت . ط البرقوقي . القاهرة ١٩٢٩ م .
الحطيئة ــ جرول بن أوس : ديوان . ط البرقوقي . القاهرة ١٩٢٩ م .
: ديوان . ط نعمان أمين طه . القاهرة ١٩٥٨ م .
الحلبي ــ على بن برهان الدين : إنسان العيون ج ١ ــ ٣ ط القاهرة ٣٢ ــ ١٩٣٥ م .
حمد الجاسر : نظرة في كتاب جمهرة أنساب العرب . مجلة المجمع العربي بدمشق ١٩٥٠ .
أبو حيان ــ محمد بن يوسف الجباني الأندلسي : التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط . ج ١ ــ ٨ ط القاهرة ١٣٢٨ هـ .
الخالديان ــ سعيد ومحمد ابنا هاشم . الاشباه والنظائر . ط محمد يوسف . القاهرة ١٩٥٨ م .
دحلان : السيرة النبوية . على هامش سيرة الحلبي (إنسان العيون) . ج ١ ــ ٣ ط القاهرة ٣٢ ــ ١٩٣٥ م .

ابن دريد ـ محمد بن الحسن الازدي : الاشتقاق . ط هارون . القاهرة ١٩٥٨ م .
الديار بكرى ـ حسين بن محمد : تاريخ الخميس . ج ١ ـ ٢ القاهرة ١٢٨٣ هـ .
أبو ذر الخشني : شرح السيرة . ط برونله . القاهرة ١٩١١ م .
الذهبي ـ محمد بن أحمد بن عثمان : تاريخ الإسلام . ج ١ ـ ٥ . ط القاهرة ٦٧ ـ ١٣٦٩ هـ .
: سير أعلام النبلاء ج ١ ـ ٢ . ط المنجد والأبياري . القاهرة ٥٦ ـ ١٩٧٥ م .
ابن رشيق ـ الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة . ج ١ ـ ٢ ط محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٣٤ م .
الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش وأخبارها . مخطوط بودلى مارش ٣٨٤ .
: جمهرة نسب قريش وأخبارها ج ١ ط محمود شاكر . القاهرة ١٣٨١ هـ .
الزبيري ـ المصعب بن عبد الله : نسب قريش . ط ليفى بروفسال . القاهرة ١٩٥٣ .
الزرقاني : شرح المواهب اللدنية . القاهرة ٢٥ ـ ١٣٢٨ هـ .
الزمخشري ـ محمود بن عمر : ربيع الأبرار . مخطوط المتحف البريطاني ٦٥١١ .Or .
السجستاني ـ أبو حاتم سهل بن محمد : كتاب المعمرين . ط كولد زيهر . ليدن ١٨٩٩ م .
السدوسي ـ مؤرج بن عمرو بن الحارث : حذف من نسب قريش . ط صلاح الدين المنجد . القاهرة ١٩٦٠ م .
ابن سعد ـ محمد بن سعد بن منيع الزهري : الطبقات الكبرى ج ١ ـ ٨ ط بيروت ١٩٦٠ م.
ابن سعيد : نشوة الطرب . مخطوط توبنجن .
السهيلي ـ عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي : الروض الأنف . ج ١ ـ ٢ ط القاهرة ١٩١٤م.
السيوطي ـ عبد الرحمن بن أبي بكر : الدر المنثور في التفسير بالمأثور . ج ١ ـ ٦.. ط طهران ١٣٧٧ هـ .
ابن الشجري ـ هبة الله بن علي : الحماسة . ط حيدر آباد ١٣٤٥ هـ .
ابن شرف : رسائل الانتقاد (ضمن رسائل البلغاء) . ط محمد كرد علي القاهرة ١٩٤٦ م .
الشهرستاني ـ محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل . ط كرتون . لندن ١٨٤٦ م .
الطبراني ـ سليمان بن أحمد : المعجم الصغير . ط دلهى ١٣١١ هـ .
الطبرسي ـ الفضل بن الحسن : مجمع البيان ج ١ ـ ٣٠ ط بيروت ١٩٥٧ م .

الطبري ــ محمد بن جرير : تاريخ الأُمم والملوك ج ١ ــ ٨ ط القاهرة ١٩٣٩ م .
الصقلي ــ ابن ظفر : أنباء نجباء الأبناء . ط مصطفى القباني . القاهرة بلا تاريخ .
الضبي ــ المفضل بن محمد : أمثال العرب . ط القسطنطينية ١٣٠٠ هـ .
: المفضليات . ط لايل . اوكسفورد ١٨ ــ ١٩٢١ م . و ط شاكر وهارون القاهرة ١٩٥٢ م .
العباسي ــ عبد الرحيم بن أحمد : معاهد التنصيص . ط القاهرة ١٣١٦ هـ .
ابن عبد البر ــ يوسف بن عبد الله النمري : الانباه على قبائل الرواة . ط القاهرة ١٣٥٠ هـ .
: الاستيعاب في معرفة الأصحاب . ط حيدر آباد ١٣٣٦ هـ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد : ج ١ ــ ٤ ط القاهرة ١٩٣٥ م .
أبو عبيد : كتاب الأموال . ١٣٥٣ هـ .
أبو عبيدة ــ معمر بن المثنى : نقائض جرير والفرزدق . ط بيفان . ليدن ١٩٠٥ ــ ١٩١٢ م .
العجاج ــ عبد الله بن روٌبة : ديوان . ط اهلوارد . برلين ١٩٠٣ م .
ابن العربي : محاضرات الأبرار . ج ١ ــ ٢ ط القاهرة ١٩٠٦ م .
العسكري ــ أبو هلال الحسن بن عبد الله : ديوان المعاني . ج ١ ــ ٢ ط القاهرة ١٣٥٢ هـ .
العصامي : سمط النجوم العوالي . ط القاهرة ١٣٨٠ .
الفاسي ــ محمد بن عبد الله بن علي : شفاء الغرام . ط وستنفيلد . ليبزك ١٨٥٩ . و ط القاهرة ١٩٥٦ م .
الفاكهي : تاريخ مكة . مخطوط ليدن ٤٦٣ OR .
الفرزدق ــ أبو فراس همام بن غالب : ديوان . ط الصاوي . القاهرة ١٩٣٦ م .
ابن الفقيه ــ أحمد بن محمد الهمذاني : كتاب البلدان . ط دي غوية . ليدن ١٨٥٨ م .
الفيروزابادى ــ محمد بن يعقوب : القاموس المحيط . ط الحلبي مصر ١٩١٣ .
القاسمي ــ ظافر : الإيلاف والمعونة غير المشروطة . مجلة المجمع العلمي العربي دمشق العدد ٣٤ .
القالي ــ اسماعيل بن القاسم : ذيل الأمالي والنوادر . ط عبد العزيز الميمني . القاهرة ١٩٢٦ م.
ابن قتيبة ــ عبد الله بن مسلم : الشعر والشعراء . ط السقا . القاهرة ١٩٣٢ م .
: المعــارف . ط القاهرة ١٩٣٥ م .

: المعـاني الكبير ج ١ ـ ٣ ط حيدر آباد ١٩٤٩ م .
القرطبي : الجامع لأحكام القرآن . ط القاهرة ٣٥ ـ ١٩٤٠ م .
القزويني ـ محمد حسين : شرح شواهد مجمع البيان . ط طهران ١٣٣٨ هـ ش .
القسطلاني : ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري . ط القاهرة .
القمي : غرائب القرآن (على هامش تفسير الطبري) . ط بولاق ٢٣ ـ ١٣٢٩ هـ .
ابن كثير ـ اسماعيل بن عمر : البداية والنهاية . ج ١ ـ ١٤ ط القاهرة ٥١ ـ ١٣٥٨ هـ .
الكلاعى ـ أبو الربيع سليمان بن سالم : كتاب الاكتفاء . ط ماس . الجزائر ١٩٣١ م .
ابن الكلبي ـ هشام بن محمـد : جمهـرة النسب . مخطـوط المتحف البريطـاني Add. ٢٣٢٩٧ .
لبيد بن ربيعة العامري : ديوان . ط احسان عباس . الكويت ١٩٦٢ م .
المبرد ـ محمد بن يزيد : عدنان وقحطان . ط عبد العزيز الميمني . القاهرة ١٩٣٦ م .
المجلسي : بحار الأنوار . ط ١٣٠٢ هـ . و ط طهران طبعة جديدة .
مجهول المؤلف : سير الملوك . مخطوط المتحف البريطاني رقم Add. ٢٣٢٩٨ .
المرزباني ـ محمد بن عمران : معجم الشعراء . ط كرنكو . القاهرة ١٣٥٤ هـ .
: نور القبس . ط زلهيم . فسبادن ١٩٦٤ م .
المرزوقي ـ أحمد بن محمد بن الحسن : الأزمنة والأمكنة . ج ١ ـ ٢ ط حيدر آباد ١٣٣٢هـ .
: شرح ديوان الحماسة . ط أحمد أمين وهارون . القاهرة ١٩٥٣ م .
أبو مسحل ـ عبد الوهاب بن حريش : النوادر . ط عزة حسن . دمشق ١٩٦١ م .
المسعودي ـ علي بن الحسين : مروج الذهب . ط محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٣٥٧ هـ .
المغـربي ـ الوزيـر الحسين بن عـلي : الإ ينـاس بعلـم الإ نسان . مخطـوط المتحف البريطاني ٣٦٢٠ OR .
مقاتل : تفسير الخمسمائة آية . مخطوط المتحف البريطاني ٦٣٣٣ .
المقدسي ـ مطهر بن طاهر : البدء والتاريخ . ط هوارت . باريس ١٨٩٩ ـ ١٩١٩ م .
ابن منظور ـ محمد بن المكرم : لسان العرب . ط بولاق ١٣٠٠ هـ .
الموصلي : غاية الوسائل إلى معرفة الأوائل . مخطوط كمبرج رقم ٣٣ Qq .
النجيرمي : إيمان العرب . ط محب الدين الخطيب . القاهرة ١٩٢٨ م .

ابن هشام ــ أبو محمد عبد الملك : السيرة النبوية ج ١ ــ ٤ . ط السقا والابياري وشلبي . القاهرة ١٩٥٥ .
الهمداني ــ الحسن بن أحمد : الإكليل . مخطوط فاكسمل برلين ١٩٤٣ م .
: الإكليل . ط برلين ١٩٤٣ م .
الواقدي ــ محمد بن عمر : المغازي . ط فون كريمر . كلكتا ١٨٥٦ م .
ابن ولاد ــ أحمد بن محمد : المقصور والممدود . ط برونله . لندن ١٩٠٠ م .
ياقوت ــ ابن عبد الله الرومي الحموي : معجم البلدان . ج ١ ــ ٨ . القاهرة ١٩٠٦ م .
اليعقوبي ــ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر : تاريخ . ج ١ ــ ٣ ط النجف ١٣٥٨ هـ .

ب ــ باللغات الاوربيــة :

Arafat W.: An interpretation of the different accounts of the visit of the Tamim delegation to the Prophet in A.H. 9. BSOAS 1955.
Birkeland H. The Lord Guideth, OSLO 1956.
Buhl F.: Das Leben Muhammeds, trans. H.H. Schaeder, Heidelberg, 1955.
Caetani L.: Annali dell' Islam, I-II Milano 1905-1907.
Grunebaum G. Von: Muhammadan Festivals, New York, 1951.
Guillaume A.: The Life of Muhammad, Oxford University Press, 1955.
Hamidullah M.: "al-Ilaf au les rapports économico-diplomatiques de la Mecque pré-Islamique", Mélanges Louis Massignon, II, p. 293 seq.
———,: Muslim Conduct of State, Lahore, 1961.
———,: Le Prophéte de l'Islam, Paris, 1959.
Nöldeke T.: Geschichte der Perser und Araber Zur Zeit der Sassaniden, Leiden, 1879.
Oppenheim M. — Caskel W. Bräunlich E.: Die Beduinen, I-III, Wiesbaden, 1939-1952.
Rathjens C.: Die Pilgerfahrt nach Mecca, Hamburg 1948.
Rothstein G.: Die Dynastie der Lahmiden in al-Hira, Berlin, 1899.
Thilo U.: Die Ortsnamen in der altarabischen Poesie, Wiesbaden, 1958.
Vida G. Levi della: "Pre-Islamic Arabia" in N.A. Faris (ed.), The Arab Heritage, Princeton, 1944.
Wolf E.R.: "The Social Organization of Mecca and the Origins of Islam", South-Western Journal of Anthropology (1951), 330-337.
Wellhausen J.: Reste arabischen Heidentums, Berlin 1887.

هيلاسلاسي والحبشة

دكتور رأفت غنيمي الشيخ

استاذ مساعد بقسم التاريخ والمكتبات

الحبشـــة :

الحبشة تلك الأرض الهضبية التي تقع في شرق أفريقيا وتطل على البحر الأحمر ترجع تسميتها إلى ما تذكره بعض المصادر من أن إحدى القبائل العربية اليمنية التي عبرت البحر الأحمر قبل الميلاد بألف سنة مع غيرها من القبائل وكانت تسمى « الحبشات » ، وعندما تقدمت في الهضبة الحبشية واستقرت في المنطقة الشمالية منها أطلق عليها اسم « حابش » . ومن هنا جاءت تسمية الإقليم .

وجاء انتقال هذه القبائل لكى يختلطوا بسكان الهضبة الأصليين والذين ينتمون إلى الأصل الحامي ، وكانت نتيجة هذا الاختلاط فرض العادات والتقاليد العربية ، ومن نسل الفريقين كانت نواة الشعب الحبشى ذى الثقافة السامية والأصل الحامي .

وفي القرن الأول بعد الميلاد قامت مملكة أكسوم في الطرف الشمالى من الأرض الحبشية حيث كان يتركز فريق من السكان يمتون بصلة القربي إلى قبائل الدناكل والصوماليين التي تضرب في صحراء النوبة ، ولكن هذه المملكة مدت سلطانها إلى الجنوب حيث كان السكان خليطاً من الحاميين والزنوج الذين نزحوا إلى الأرض الحبشية من أعالى النيل .

وعندما ظهر الإسلام كانت هجرة المسلمين الأولى بدينهم بعيداً عن اضطهاد كفار قريش إلى الحبشة حيث كان ملكها المسيحى يتمسك بمسيحيته التي سادت المنطقة الشمالية من البلاد ، ومع ذلك رحب ملك الحبشة برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بكل احترام، بعد أن تبين له صدق الرسول الكريم واعترافه بالنبي عيسى عليه السلام وطهارة السيدة مريم العـــذراء .

ورغم بقاء سكان الجبال الحبشية على الوثنية ، واعتناق سكان الشمال للمسيحية فقد

انتشر الإسلام في المناطق الجنوبية وخاصة في أقاليم : « أمهرا » و « جود جام » و « شوا » ، كما انتشر الإسلام في الشرق والوسط نتيجة لغزو سكان الصومال المسلمين ، فاعتنقت إحدى قبائل « الجالا » الوثنية في القرن السادس عشر الميلادي وهي قبيلة « الأولو » الدين الإسلامي ، إلى جانب استيلاء القبائل المسلمة على ميناء مصوع والمناطق الساحلية .

ورغم أن بعض الأحباش اعتنقوا الرسالة المحمدية إلا أن ملوك الحبشة ظلوا على دين آبائهم ، ومع ذلك لم يمتد الفتح الإسلامي إلى هذه البلاد المسيحية التي ارتبطت كنيستها بكنيسة الكرازة المرقسية بالإسكندرية ، بل إن مطارنة الحبشة كثيراً ما كانوا مصريين لا يعرفون اللغة المحلية سواء كانت الأمهرية أو لغة العجيز الأصلية ، بل كانوا يؤدون واجباتهم الدينية باللغة القبطية أو اللغة العربية .

وعندما مد العثمانيون سيطرتهم على ملحقات السلطنة المملوكية في الحجاز واليمن عقب استيلائهم على مصر عام ١٥١٧ م ، مدوا سيطرتهم إلى سواكن ومصوع على الساحل الغربي للبحر الأحمر . وقد أطلقوا على هذا الجزء من أملاكهم اسم « ولاية الحبش » بإعتبار أنها تمثل مخارج بلاد الحبشة ، ووضعت هذه الولاية تحت إشراف والى جدة أى باشا الحجاز ، على أن يعين من جانبه قائمقام على كل من سواكن ومصوع (١) .

وعندما ضعف النفوذ العثماني على ساحل البحر الأحمر الغربي أواخر القرن السادس عشر نتيجة انشغال الدولة العثمانية بجبهات متعددة ، استعانت السلطات التركية بأحد الزعماء المحليين ليكون نائباً عنها في البر الساحلي أو « حرقيقو » وللمعاونة في أعمال الحكومة والإدارة بمصوع ، كما استعانت بزعيم محلي آخر في سواكن (٢) .

ورغم أن الدولة العثمانية لم تفتح الأراضي الحبشية إلا أن السلطان العثماني اعتبر الحبشة تابعة للدولة العثمانية ، واستند في ذلك إلى أمرين : —

أولا : حق فرض رسوم المرور على المسافرين والقوافل التي تدخل الحبشة والتي تخرج منها بحكم احتلال الدولة العثمانية لميناء مصوع منفذ الحبشة على البحر الأحمر والعالم الخارجى

ثانياً : أن بطريرك الكرازة المرقسية في مصر هو الذى يعين مطران الحبشة الأمر الذي لا يتم إلا برضاء السلطة الزمنية ، أي بموافقة الباب العالى منذ أن خضعت مصر له عام ١٥١٧ م (٣) .

وعندما نجح إبراهيم بن محمد على في إخضاع الحجاز للدولة العثمانية بعد امتداد الدعوة الوهابية إليه عام ١٨١٨ م كافأه السلطان العثماني بتعيينه والياً على جدة وعلى إيالة الحبش . ورغم أنها لم تضم إلى الباشوية المصرية بل كانت باسم إبراهيم باشا ، فإن محمد على أراد ضم بلاد الحبشة تحت السيادة العثمانية ولم يمنعه من تحقيق ذلك سوى موقف إنجلترا .

ورغم أن اسم الحبشة ظل قروناً عدة سائداً إلا أن الملوك صاروا يأنفون من هذه التسمية ويتمسكون بالاسم الآخر وهو إثيوبيا ، وأما العاصمة فإنها انتقلت بعد أكسوم إلى مدينة جوندار شمالى بحيرة تانا ثم إلى مجدالا الواقعة على المنحدر الشرقي من الهضبة الحبشية ، ثم انتقلت خلال القرن التاسع عشر إلى مدينة أديس أبابا نظراً لضعف نفوذ الملوك في شمال البـــلاد .

ملك الملـــوك :

وكان اللقب الرسمي لعاهل الحبشة منذ بدء التاريخ المعروف للحبشة هو « ملك الملوك » ، والسبب في هذه التسمية أن « ملك الملوك » يتزعم عدة دويلات صغيرة يحكم بعضها ملوك ورثوا عروشها ، ويحكم البعض الآخر أمراء يؤدي كل منهم جزية سنوية لملك الملوك ، وهناك فريق من الحكام يسمى كل منهم بالرأس لا يستطيع مغادرة أراضيه إلا بإذن من ملك الملوك . ويتولى كل رأس قيادة الجنود الذين يعسكرون في أراضيه ، كما يتحمل نفقاتهم ، وعليه أن يجبى المكوس ويؤدي الجزية السنوية التي يفرضها ملك الملوك .

وخلال قرن من الزمان (١٧٧٠ – ١٨٧٠ م) دار الصراع على زعامة الحبشة بين الرءوس والحكام ، وخاصة بين رأس مقاطعة تيجرى الواقعة في شمال الحبشة الغربي ، ورأس ولاية أمهرا الذى يضفى حمايته على ملك الملوك ، وحاكم ولاية جوجام الواقعة إلى الجنوب من بحيرة تانا ، ورأس مقاطعة شوا الواقعة إلى الشرق من البحيرة .

وفي عام ١٨٧٢ ارتقى رأس تيجرى عرش الحبشة باسم يوحنا الرابع ، ولكن قوة منليك حاكم مقاطعة شوا أرغمت يوحنا الرابع على مهادنته والتحالف معه على أن يخلفه على العرش ، فلما قتل يوحنا الرابع أثناء اشتباكه بالمهديين أصبح العرش من نصيب منليك الذى كان ينتمى إلى إحدى بنات النجاشي داود أى أنه من سلالة الأسرة السليمانية الملكية .

واعتمد منليك على ابن اختــه الرأس ماكونين حاكم هرر في كثير من أمــور السياسة الخارجية .

زادت قوة منليك بعد أن هزم الإ يطاليين في موقعة عدوة عام ١٨٩٦ م فسارعت الدول الأوروبية إلى إيفاد مبعوثيها إلى أديس أبابا ــ ومعناها الزهرة الجديدة ــ التي بناها منليك منذ عام ١٨٨٣ م للامبراطورة واتخذها عاصمة ، وتنافست كل من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا في التقرب للنجاشى ، إلى جانب الدولة العثمانية وروسيا ، واتسعت رقعة مملكته غرباً وجنوباً ، ودخل في صراع مع الزعيم الصومالى محمد عبد الله الشهير بالمجذوب .

وعندما توفي منليك عام ١٩٠٨ م ــ وكان ماكونين رأس مقاطعة هرر ومانجاشا رأس تيجرى قد توفيا قبله ــ ثارت الخلافات بين الامبراطورة ، والصبى ليج يسوع خليفة منليك ، فلما توجت الامبراطورة زاوديتو في ١١ فبراير ١٩١٧ م نودى في اليوم التالى بالرأس « ولدو جرجس » وصياً على العرش ، وقيل تعليلاً لذلك أن الرأس « تيفرى » بن ماكونين مازال حدثاً ولا يستطيع أن يحمل أعباء هذا الشرف العظيم ، فقبع الرأس تيفرى في مقاطعة هرر التي ولد بها ، وهو الذي صار فيما بعد الامبراطور هيلا سلاسى .

هيلاسلاسى :

وقد كان مولد هيلا سلاسى في عــام ١٨٩١ م ، وهو ابن الرأس ماكونين حاكم هرر المتنور ، والذي كان حفيداً للملك شوا سلسلاسى Sahle Silassie ، ومن ثم فإنه ابن العم الأول للامبراطور منليك . وكان الرأس ماكونين قد مارس نفــوذاً ملحوظاً على الأخير . وأما زوجة هيلا سلاسى ــ وايزيرو مانين Waizero Manen ، فكانت حفيــدة للملك ميخائيل حاكم « وولو » وعــلى هذا فهــي ذات صــلة بليج يســوع الامبراطور المخلوع "Lij Yasu (4) .

وعندما توفى والده ــ ماكونين ــ في عــام ١٩٠٧ تم تعيين الرأس تيفرى حاكماً على سيدامو . وبعد وفاة منليك أصبح له حكم هرر التي ظل يحتفظ به حتى عام ١٩١٦ . وبعد عزل ليج يسوع في ذلك العام اختير ــ تيفرى ــ وصياً على العرش . على أن هذا الاختيار لم يكن من الصعب فهمه ، منذ أن أعقب كل من الرأس كاسا Kassa « وديجازماش توى »

الملك سلا سيلاسى Sahle Silassie في سلك النبالة والشرف Dejazmach Toye . ولكن سادالاعتقاد بأن الاختيار ، الذى كان فيه فيتورارى هوبتا جورجيس Fitaurari Hopta ، وزير الحربية السابق ، والذى كانت له الكلمة الأقوى، كان معنياً بوجود شخص بأسرع وقت يمكن السيطرة عليه والذي يمكن أن يكون مقبولاً لدى مفوضيات الدول الأجنبية، والذى ليس قوياً بدرجة كبيرة بين زعماء البلاد . والذى يمكن أن يظل تحت سيطرة كبار الزعماء .

ولما مات وزير الحربية فيتورارى عام ١٩٢٦ م كان الرأس تيفرى قد استكمل أسباب القوة وزود جيشه بالأسلحة الحديثة وقضى على الرءوس الذين كانوا يسعون إلى اقتناص السلطة واحداً بعد واحد فدان له الجميع . وفي سبتمبر ١٩٢٨ م رغم أنه لم يكن له صوت مسموع في مجالس الحكم إلا أنه انتزع موافقة الامبراطورة زاوديتو على تتويجه نجاشياً Negus .

وكان النزاع بين الامبراطورة والوصى على العرش في عام ١٩٢٨ م قد أصبح خطيراً بدرجة كافية ليحدث التفكير لبرهة أن العداء يمكن أن ينفجر بين الطرفين ، ولكن حل المشكلة كان سلمياً ورائعاً . ففى أو حوالى ٢٦ سبتمبر خلعت الامبراطورة على الرأس تيفرى لقب ملك (نجاشى) وتوج ملكاً في السابع من أكتوبر .

وبوفاة الامبراطورة « زاوديتو » في أول أبريل ١٩٣٠ م أعلن تتويج الملك تيفرى مباشرة امبراطوراً ، وبعد مدة قصيرة صار لقبه هيلا سلاسى الأول (٥) . وشهد حفلات التتويج جميع الأمراء وأعضاء البعثات الدبلوماسية ، كما جاء دوق « جلوستر » نائباً عن أبيه الملك جورج الخامس لتقديم التهنئة للامبراطور . وبهذا صار هيلا سلاسى مطلق اليدين في شئون بلاده .

وكان هيلاسلاسى ميالاً إلى الأخذ بأساليب المدنية الحديثة ، ومنذ تعيينه وصياً على العرش عام ١٩١٦ م حاول أن يطبق أساليب الحياة الأوروبية العصرية ، ولكن أثناء وجود الامبراطورة كان يواجه باستمرار بمعارضة قوية منها ومن الزعماء المحافظين . وبالتدريج استطاع تقوية مركزه كلما سنحت الفرصة لذلك ، وقد نجح بالفعل في البدء بالاصلاح حتى من قبل أن يعلن تتويجه امبراطوراً .

وكان طبيعياً أن يبدأ هيلا سلاسى حياته بمناخ عسكرى ، ولكنه كان عاجزاً بطبيعة الحال بسبب الحظر الذى فرضته على استيراد الأسلحة كل من إنجلترا وفرنساً وإيطاليا . ومع ذلك فقد استقدم بعثة عسكرية بلجيكية لتبدأ في تدريب الجيش الأثيوبي ، ووضع أسس خدمات جوية ، وأخذ على عاتقه مسألة الاتصالات في البلد . وفي يوليو ١٩٣١ م أعلن عن إصدار دستور ، وفي شهر نوفمبر من نفس العام افتتح أول دورة للبرلمان (٦) . وجاء في خطبة العرش أمام الرءوس وأعيان البلاد : إن الأباطرة من قبل كانوا يحكمون الحبشة حكماً مطلقاً بوصفهم آباء الشعب ، ولكن الحال تغير الآن ، فلابد أن تضطلع الأمة بجانب من مهام الحكم .

ومع وجود دستور وبرلمان إلا أن زمام السلطة الفعلية كان في قبضة هيلا سلاسى الذى ظل يعتمد على مشورة ذوى الرأي من الأجانب ، وإن كان قد حقق وحدة الامبراطورية وحيث أصبحت الحكومة المركزية وطيدة الأركان تدين لها الأقاليم كلها بالطاعة والولاء بعد أن تولى شئونها رجال من أتباع وأنصار هيلا سلاسى .

لقد تقلد الامبراطور عدة أوسمة بريطانية ، فقد منح وسام G.C.M.G. عندما تقلد منصب الوصى على العرش عام ١٩١٦ ، ووسام G.C.B. ودرجة L.L. D. أثناء الزيارة التي قام بها الامبراطور لإنجلترا عام ١٩٢٤ م ، ووسام سلسلة الأمر الملكي الفيكتورى Chain of the Royal Victorian Order بمناسبة زيارة بعثة دوق جلوشستر للحبشة في نوفمبر ١٩٣٠ .

ونتيجة لما عرف بحادث « وال وال » أشرف هيلا سلاسى بنفسه على المعارك بين الحبشة وإيطاليا . وتفصيل ذلك أن لجنة إنجليزية حبشية مختلطة قامت على رأس ستمائة جندى من الأحباش لرسم الحدود بين الصومال البريطاني والأراضي الحبشية ، وكان الإيطاليون قد توغلوا من قبل في هذه المنطقة لكثرة الآبار بها وأنشأوا فيها عدة نقط حصينة ، فلما وصلت اللجنة إلى المنطقة اعترض الإيطاليون وأرسلوا عدة طائرات حومت فوق المكان على سبيل الارهاب والاستفزاز فآثر أعضاء البعثة السلامة وانسحبوا من منطقة الآبار ، غير أن اللجنة رأت أن تترك في المنطقة فصيلة من الجند حتى لا تثور ثائرة أهالى أوجادين إذ يعتقدون أن في هذا تسليماً بحقوق الإيطاليين في الآبار والعيون . وفي غمرة هذا الجو نشبت المعركة

بين إيطاليا والحبشة في ٥ ديسمبر ١٩٣٤ م .

قاد هيلا سلاسي المعارك بنفسه من أكتوبر ١٩٣٥ إلى مايو ١٩٣٦ م وفي أول مايو ١٩٣٦ م وعقب وقوع الهزيمة بقواته عند الحدود الشمالية اعتزل هيلا سلاسي توجيه دفة الأُمور ، وفي الثاني من نفس الشهر غادر أديس أبابا إلى بيت المقدس ، حيث منح ملاذا . ومن القدس ذهب إلى إنجلترا حيث وصل في اليوم الثالث من شهر يونيو . كما أنه زار جنيف في نفس الشهر ليسمع الجمعية العامة لعصبة الأُمم صوت بلاده المظلومة . ولكنه منذ عودته من جنيف بقى مقيماً بالمملكة المتحدة هو وأعضاء أسرته وبعض الخلصاء من أنصاره (٧) ، إلى أن عاد إلى بلاده في ربيع ١٩٤٢ م بعد أن هزم الطليان في معارك الحرب العالمية الثانية .

هذا هو هيلا سلاسى الذى قاد سفينة الحبشة ضد عوامل التخلف داخل البلاد وضد مطامع الدول الأوروبية التي إتخذت من شرق أفريقيا أحد مجالاتها ، والذى قاد المعركة ضد إيطاليا حتى استعادت الحبشة قوتها ووحدة أراضيها بعد الحرب العالمية الثانية وهزيمة الطليان فيها .

اوجادين واريتريا :

وهذا هو هيلا سلاسى الذى انتهز فرصة هزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية وفقدها لمستعمراتها في كل مكان لكي يحل محلها في الصومال الغربي وفي إقليم أرتيريا ، ويسعى إلى السيطرة على هذه الأراضي العربية التي تسعى لتقرير مصيرها .

هذا هو هيلا سلاسى الذى أدار السياسة الحبشية لكي تظل جاثمة على صدر إقليم أوجادين الصومالى والذى أنكر على شعب الإ قليم رغبته في الانضمام مع اخوانه في الأصل والدين في الوطن الأُم الصومال ، والذى وضع اللبنة الأولى للصراع بين الحبشة والصومال حول هذا الإ قليم ، ذلك الصراع الذى لا يعلم إلا الله مداه لأنه صراع بين حق الصومال وباطل الحبشة .

وهذا هيلا سلاسى الذى جاهد بعد الحرب العالمية الثانية للإستحواذ على إقليم أرتيريا وضمه إلى الحبشة . ورغم أن الجمعية العامة للأُمم المتحدة إتخذت قراراً في ٢ ديسمبر ١٩٥٠ م بأن تصبح أريتريا وحدة متمتعة بالحكم الذاتي في إطار إتحاد مع أثيوبيا تحت سيادة التاج الأثيوبي ، وأن يكون للحكومة الأريترية سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية في حقل الشئون

المحلية (٨) ، فإن آثيوبيا هيلا سلاسى سعت خلال السنوات العشر من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٢ م إلى إلغاء الحكم الفيدرالى عن طريق إجراءات متتالية كان آخرها الإعلان المؤرخ في ١٤ نوفمبر ١٩٦٢ م بإنهاء الحكم الفيدرالى وإعتبار أريتريا ولاية إثيوبية (٩) .

هذا هو هيلاسلاسى الذى واجه جبهة التحرير الأريترية وغيرها من حركات التحرير الاريترية التي بدأت نشاطاتها منذ عام ١٩٥٨ م بالقسوة والتنكيل ، والتي بدأت حين هاجم الثوار آنذاك أحد المخافر الحكومية في أقصى حدود أريتريا الغربية الملاصقة للسودان ، والتي صارت تسيطر الآن على حوالى ٨٠ ٪ من أراضى الإقليم .

هذا هو هيلا سلاسى الذى لم يفهم طبيعة الحركة التحررية في أريتريا بل نظر إليها على أنها مجرد نوع من « الشفتا » أي قطاع الطرق الجبلية ، وحاول أن يحبسها عن سمع العالم كله ، ولكن دون جدوى .

وأخيراً هذا هو هيلا سلاسى الذى أطاحت به ثورة عسكرية في اثيوبيا ذاتها عام ١٩٧٤م إتخذت سياسة اشتراكية على النقيض من السياسة التي ظل هيلا سلاسى يسير على منوالها . فبينما كان الامبراطور العجوز يتجه نحو قبلة الغرب (إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية) ، جعل الحكام العسكريون قبلتهم نحو الشرق وخاصة نحو الاتحاد السوفيتى .

ورغم أن الحبشة دولة أفريقية « وبحر أحمرية » في نفس الوقت فقد إتخذ الامبراطور العجوز – ومن بعده الحكام العسكريون – سياسة غير ودية نحو الأقطار العربية في أفريقيا وآسيا فلم تكن هناك علاقات قوية بين الحبشة وكل من مصر والسودان بل أن الحبشة هيلا سلاسى نظرت إلى كل تقارب مصرى سوداني بارتياب ، كما لم تكن الحبشة تنظر بارتياح إلى قوة المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية اليمنية ونشاط كل منها في البحر الأحمر . ومن ثم زادت وقوت الحبشة من علاقتها باسرائيل وأعطتها تسهيلات بحرية في الجزر الأريترية لتكون قريبة من مدخل البحر الأحمر الجنوبي الذى تسيطر عليه أقطار عربية .

وعلى هذا فقد نظر حكام اثيوبيا الجدد العسكريون الاشتراكيون إلى دعوة الرئيس جعفر محمد نميرى رئيس جمهورية السودان بعقد إجتماع يضم الدول المطلة على البحر الأحمر ، بارتياب فلم تشارك الحبشة في مؤتمر تعز الذى عقد في مارس ١٩٧٧م بتلك المدينة اليمنية (١٠)

الهوامش والمصـــادر

(١) محمد رفعت رمضان : وضع السودان في نطاق العلاقات بين مصر والدولة العثمانية حتى ١٨٦٣ م ص ٢٦ .

(٢) د . السيد رجب حراز : إرتريا الحديثة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٤ ص ٣٢ – ٣٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٤ – ٣٥ .

(4) F.O. 401, confidential (15544) No. 37/18 [J2157/2157/1]: Records of Leading personalities in Abyssinia (As amended by Addis Ababa Despatch No. 54 of March 18, 1937, Received May 4). The Emperor Haile Silassie 1, G.C.B., G.C.M.G., G.C.V.O., LL.D.

(5) Ibid.

(6) Ibid.

(7) Ibid.

(٨) عثمان صالح سبي : تاريخ أرتيريا ص – ٢٠٢ – ٢٠٣ .

(٩) نفس المصدر ص ٢١٩ .

(١٠) بحث بعنوان أمن البحر الأحمر بين ميثاق جدة عام ١٩٥٦ م ومؤتمر تعز عام ١٩٧٧م. مقدم من د . رأفت الشيخ إلى الاسبوع العلمي الثالث لسمنار التاريخ الحديث بجامعة عين شمس .



البحر الأحمر
مصوع
أسمرة
تيجري
عصب
جوندار
تانا
ولو
خليج عدن
السودان
جوجام
شاوا
أديس أبابا
الصومال
هرر
وليجا
كافا
بالي
سيدامو
كينيا
السودان
الصومال

الحبشــة

قضية التحديث
في ضوء الإتجاهات المعاصرة لعلم الإجتماع

دكتورة جهينة سلطان سيف العيسى
مدرسة بقسم الاجتماع

مقـــدمة :

إن مفهوم التحديث ((Modernization)) يصعب ترجمته موضوعياً في ضوء خصائص أو نتائج يمكن اكتشافها ، لذلك يجب تعريفه بالاعتماد على وجهات نظر متعددة متباينة في العلوم الاجتماعية ، فبعض التعريفات يتسم بالنسبية المطلقة والآخر ينطلق من المسلمة القائلة بأن هذه العلوم لديها القدرة على التوجيه والنقد وكشف مواطن الخلل الوظيفي في البناء الاجتماعي، مما أدى إلى ظهور تعريفات متحيزة كالقول مثلاً « بأن التحديث هو اكتساب الطابع الغربي (١) » ولكن تبنى المنهج العلمي ساعد على اكتشاف العناصر التي تشترك فيها كل المجتمعات مما عاون على صياغة تعريف مقبول لمفهوم التحديث ، فأصبح يشير إلى نموذج محدد للتغير يظهر في المجتمع ، أو العملية المعقدة التي تستهدف أحداث التغييرات في جوانب الحياة الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والثقافية، والأيديولوجية

ويلعب التحديث دوراً هاماً في عملية التنمية التي تستلزم تشعباً وتعقيداً مستمراً في النظم الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع والتي تتطلب بدورها تغييرات في التزامات الأفراد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والسيكولوجية ، فالتنمية والتحديث يسيران قدما منذ أكثر من قرن في أجزاء كثيرة من العالم .

وقد دار جدل طويل حول مفهوم التحديث خلال السنوات الماضية ومن الواضح أن التحديث يعني التقدم ، ويرتبط بالتنمية . ومع ذلك فالمفهوم يستخدم اليوم للدلالة على التطور الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي . وطالما أن استخدام المفهوم مازال فضفاضاً فإننا نحدده بالتغير الذى يحدث في إتجاهات الأفراد وسلوكهم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي من

---

(١) انظر ـ السيد / محمد الحسيني وآخرون : دراسات في التنمية الاجتماعية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤ . ص ص ٣٣٧ ـ ٣٤١ .

جهة وبالتغير في البناء الاجتماعي من جهة أخرى . ونلاحظ أن اصرار بعض العلماء على استخدام المفهوم ليس لأنه جزء من الحصيلة اللغوية فحسب ، ولكن لأنهم لاحظوا أن هذه التغيرات المترابطة والمتعلقة ببعض والتي تأخذ مكانها في كثير من الدول الجديدة هي نفسها التي مرت بها كثير من الدول المتقدمة .

ولعل من أصعب الأسئلة التي تواجه علماء الاجتماع : ما هي هذه التغيرات وما علاقتها ببعض وكيف ندرسها وكيف يمكن أن نعجل من حدوثها ؟ .

فمنذ أن بحث آدم سميث في أسباب النمو الاقتصادي والمفكرين يبحثون في السبب الذى يجعل بعض المجتمعات أكثر تحديثاً من الأخرى . فظهور دول جديدة مستقلة بمفكريها الذين يكرسون جلّ وقتهم لتنمية مجتمعاتهم وتحديثها أضاف بعداً جديداً في دراسة عملية التحديث وليس هذا من خلال تزايد أعداد العلماء ولكن لاختلاف مناهجهم عن المناهج المتبعة في القرن العشرين عن المؤرخين وأصحاب النظريات الاجتماعية .

فالاختلاف يبدو اليوم أولاً في أن العلماء يميلون إلى الدراسات الامبيريقية ، فظهر الاهتمام بوضع افتراضات تخضع للتحقيق والدراسة الامبيريقية . لدرجة أن قليلا من العلماء يمكنه الادعاء علمياً بتعميم نتائجه لبعض القصور في البيانات الاقتصادية والدراسات التجريبية والأبحاث الميدانية . ولكن هدف الدراسات هي أن تكون الافتراضات دقيقة وقابلة للاختبار والتجريب .

وثانياً كانت الدراسات الأولى تجعل من أمريكا وأوربا المناطق التي بدأ منها التحديث بينما الأبحاث الحاليـــة أكثر عالميـــة Universal وتعتمد على الدراسات المقارنة . فبحثت مجتمعات حديثة أخرى ، كالاتحاد السوفيتي واليابان . وأمكن بالتالي دراسة الاتجاهات والدوافع والعلاقات المستمدة من الأدلة التاريخية .

وثالثاً : أصبح العلماء أكثر قدرة على تحليل عوامل التحديث بأساليب منهجية منسقة . فبحثوا في كيفية حدوث التحضر Urbanization ، وكيفية تغـير البنـاء الاجتماعي وكيفية تطور النظم التعليمية والاقتصادية والسياسية وما إلى ذلك .

وأخيراً لا يهتم العلماء الاجتماعيون اليوم بكيفية حدوث التحديث ولكن أيضاً في البحث عن طرق التعجيل والاسراع به مما حدا ببعض حكومات الدول الحديدة إلى الاستعانة بعلماء الاجتماع في وضع السياسات الإنمائية . وذلك لأن علماء الاجتماع يعكسون روح المجتمعات الحديثة من خلال اهتمامهم بالدراسات الامبيريقية والنظرية : وتخصصهم في استخدام المعلومات من أجل الاسراع بالتحديث .

فالتحديث ، قد يسمى بالتعصير ، عامل أساسي في جعل المجتمع أكثر نشاطاً وفعالية وذلك بتجديد إنجازاته التكنولوجية التي تؤثر بدورها في المجتمع ، وبذلك يعني التحديث تغيراً للتغير أو تجديداً للتجديد مما يجعله بالفعل لازمة حضارية للمستقبل إذ لا يكفي أن نخطط أو أن نجمع بين التخطيط والتغير (التغير المخطط) ولكن علينا أن ننتقل إلى أكثر الصيغ حداثة في ميدان التغيرات الاجتماعية وهي التحديث فما هو المقصود بالتحديث ؟ .

يختلف مفهوم التحديث باختلاف العلـــوم الاجتماعية (١) أى أن كل فرع من العلوم الاجتماعية يعكس عاملاً من عوامل التحديث . فيرى الاقتصاديون التحديث من خلال استخدام الإنسان للتكنولوجيا للسيطرة على المصادر الطبيعية من أجل زيادة دخل الفرد . بينما يهتم رجال الاجتماع والانثروبولوجيا بعملية الاختلاف والتمايز بين المجتمعات فدرسوا الطرق والأساليب التي تظهر بها أبنية جديدة ذات وظائف جديدة ، أو تبنى وظائف أبنية أخرى مع التركيز على الفروق الناتجة في الأبنية الحديدة نتيجة ظهور وظائف جديدة ونمو نظم تعليمية وظهور مجتمعات جديدة بينما يهتم علماء السياسة بمشكلات بناء الدولة وبعض عناصر التحديث الهدامة .

لذلك يجب دراسة تعريفات التحديث مجتمعة لعدم وجود تعريف شامل يضم العناصر كلها منهـــا .

نشـــاة مفهوم التحديث وتعريفه :

دار نقاش كثير حول مفهوم التحديث خلال السنوات الماضية ، ومن الواضح أن التحديث يعني التقدم ويرتبط بالتنمية ، والتحديث إما أن يكون تطوراً تكنولوجياً أو تطوراً اجتماعياً أو نفسياً مثل ارتفاع درجة الطموح الفردي وتأكيد دور الفرد في الحراك الاجتماعي، وكل ذلك معاً بتفاعل جدلي .

---

(١) انظر :

International Encyclopaedia of Social Science
The Mac Millan Company and the Free Press, 1968, Vol. 10, pp. 396-397.

ولدينا صورة مشابهة لتقييم الغربيين والأمريكيين بصفة خاصة لحالة دول العـــالم الثالث وذلك في دراسة دانيال ليرنر (١) التي ظهرت عـــام ١٩٥٨ ، فمن خلال استبيان طبقة على ست من دول الشرق الأوسط أوضح مستوى التقدم أو التخلف الذى وصلت إليه كل دولة . فوجد أن بعضاً منها ما يزال يعيش في مجتمع تقليدى والقليل جداً كمصر وسوريا وصلت إلى منتصف الطريق وأطلق عليها مجتمعات إنتقالية " Transitional Societies " ، فأفراد هذه المجتمعات لديهم طموح Aspiration غربي السمات ، بينما إنجازاتهم Achievements بعيدة عن مجال طموحهم . وأخيراً هناك أقلية كالأتراك يسيرون نحو التحديث . والملاحظ في هذه الدراسة ضيق أُفق المؤلف الذى يعتبر قيم المجتمع الأمريكي مقياساً للتحديث .

والحقيقة التي يجب توضيحها أن التحديث ظاهرة تاريخية معاصرة تناولها العلماء من منطلقات مختلفة باستخدام مفاهيم مختلفة كالتحديث السياسي والتحديث الاقتصادي والتحديث التعليمي والتحديث التكنولوجي والتحديث الحربي والتحديث الإ داري وما إلى ذلك ويرجع استخدام مفهوم التحديث بطرق غامضة إلى صعوبة التمييز بين الظواهر المختلفة التي تبحث في : —

(١) تحديد التحديث بأنواع التغير الاجتماعي المختلفة ، وإعتبار أشكال التغير المختلفة أنواعاً من التحديث ، بينما يكون بعضها في الواقع نتائج للتحديث وليس العملية الأساسية له .

(٢) ارتباط مفهوم التحديث باكتساب الطابع الغربي Westernization ظاهرياًأو ضمنياً ويمكن ملاحظة ذلك في تعريف المؤرخ الإ نجليزي أرنولد توينبي (٢) .

(٣) تحديد التحديث بأنماط الحكومات الديمقراطية والدستورية التي ترتكز أساساً على النموذج الأوروبي الغربي . حيث يوضح ايزنشتات (٣) أن فشل الديمقراطية والحياة

(١) انظر : Daniel Lerner, The Passing of Traditional Society, (New York: The Free Press, 1964) Pp. 43-90.

(٢) انظر — يقول المؤرخ الانجليزى ارنولد توينبي (Arnold Toynbee — ١٨٨٩) في هذا الصدد ، ان العالم كله يتجه لأن يكون عصريا Modern وهذه الكلمة تقابل كلمة Western التي يجد الأفراد صعوبة في استخدامها لأنها تعني تغيير اتجاهاتهم ، . انظر — J. Toynbee, The Present Day Experiment in Western Civilization (London: Oxford Universities Press, 1962), Pp. 24

(٣) انظر : S. N. Eisenstadt, "Breakdown of Modernization", Economic Development and Cultural Change, 12 (1964), Pp. 345-67.

الدستورية في كل من أندونسيا وباكستان وبورما والسودان هو انهيار للتحديث . ومن الواضح أن مفهومه للتحديث ضيق ويفقد السمات الرئيسية للعملية .

التحديث والمفاهيم المرتبطة به :

نجد أن قليلاً من العلماء الاجتماعيين يفرق بين التحديث (١) ومفاهيم التغير الاجتماعي ، والتنمية الاجتماعية والتصنيع (٢) ومن هؤلاء العلماء الذين فرقوا بين هذه المفاهيم ابتر Apter وبوسكوف Boskoff وهورفيتز Horowitz ونتل Nettle وربرتسون Robertson .

ونجد أن أبتر قد ميز بين مفاهيم التحديث والتغير الاجتماعي والتنمية الاجتماعية والتصنيع في قوله « أننا نعتبر التنمية كنوع خاص من التغير الاجتماعي والتحديث كحالة خاصة من التنمية ، بينما التصنيع وهو الأكثر تحديداً ، إلا أنه أكثر دلالة ووضوحاً (٣) ثم يضيف « أنه مع تداخل هذه المفاهيم إلا أن مفهوم التحديث يمكن إعتباره كعملية بعيدة عن التصنيع وبما أن الأول تم نتيجة للثاني كما حدث في المجتمعات الغربية ، فإنه يمكن أن يكون سببه في الدول الجديدة » (٤) ، أى أن التحديث في الدول الجديدة يؤدى إلى التصنيع ، وما عدا ذلك فإن آبتر لم يفسر كيف تتصل هذه العمليات ببعض وكيف تختلف عن البعض الآخر .

ومن ناحية أخرى فإن بوسكوف يميز بين التغير الاجتماعي والتنمية الاجتماعية حيث أن الأول يؤدى إلى تنوعات في البناء الاجتماعي ، بينما الثاني يتضمن حكماً على الرغبة في

---

(١) تظهر هذه القضية في معظم تعريفات التحديث فمثلا يقول ماريون ليفي « الابن » ان التحديث يشير الى التغيرات التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية المتفرعة من الابنية الثقافية ككل
Neil Smelser, "Modernization of Social Relation" in Modernization edited by Myron Weiner (New York: Basic Books, 1966), p. 111.

(٢) انظر بصفة خاصة ماريون ليفي « الابن » عندما يقرر انه بسبب انتشار التحديث في العالم اصبح المفهوم متغيرا اكثر من المفاهيم الاخرى كالقومية والكرامة والقوة .

(٣) انظر :
Myron Levy Jr., Modernization and the Siructure of Sccieties, New Jersey: Princeton University Press, 1966), p. 31

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ، ٤٤ .
David Apter, The Politics of Modernization (Chicago: The University Press, 1965), p. V.

التغير(١) . فالتغير الاجتماعي يفترض معنى موضوعياً ، بينما التنمية الاجتماعية تحمل معاني لفظية Connotations ذاتية فإذا نحن وافقنا على تعريف بوسكوف للتنمية فهل هذا يعني أنه عند دراسة التنمية في مجتمع معين يجب أن نضع معايير أو قيماً لنوع التغير المرغوب فيه ثم نقوم بتقييم التنمية في ذلك المجتمع من خلال إذا ما التغير كان قريباً من الشكل المفروض . وهذه قضية كثير من الدراسات وخاصة التنمية الاقتصادية والسياسية في الدول الحديدة التي يفترض أن التنمية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تشير إلى مؤشرات الديمقراطيات الغربية الحرة .

وقد قدم هوروفيتز Horowitz تصوراً دقيقاً للتنمية . فقد فرق بوضوح بينها وبين التصنيع ، والتغير والتطور الاقتصادي والديمغرافي . فالتصنيع يشير إلى الاختراعات التكنولوجية والآلية بينما تتضمن التنمية التغير في العلاقات الإنسانية وفي المركز الاقتصادي والسياسي التي فيها يتصل الفرد بغيره ، بغض النظر عن مستوى التصنيع » (٢) .

هذا التميز يزيل حتمية الارتباط السببي بين التنمية الاجتماعية ومراحل التصنيع المحددة ، بالتالي يمكن تنمية العالم الثالث اجتماعياً دون الحاجة إلى الدخول في مراحل التصنيع الثقيل ، وهذا يعني أن الثاني ليس النتيجة الوحيدة للأول ، وبنفس المنطق السببي يمكن للفرد أن يقول أن خصائص الديمقراطيات الغربية الحرة ليست المؤشرات الوحيدة في التنمية .

ونستطيع أن نحدد مفهوم التنمية بدقة أكثر إذا ما قارناه بمفهوم التغير . فالتغير الاجتماعي بالنسبة لهوروفتيز يتضمن تبنياً بطيئاً من خلال التوازن الموجود Existing equilibrium (٣) ومن ناحية أخرى فإن التنمية هي انسلاخ Break حقيقي عن التوازن الموجود ، فيقول تتضمن « التنمية الخروج على التوازن الثابت ، وما يمكن تعديله هو نتيجة للتغير والذى لا

(١) المرجع السابق :
A. Boskoff, "Social Change", **Modern Sociological Theory,** (eds.), H. Becker and A. Boskoff (New York: The Dryden Press, 1957), p. 266.

(٢) انظر :
I. Horowitz, **Three Worlds of Development,** op. cit., pp. 25—26.

(٣) انظر : **Ibid.**

يحتوى على إمكانية المرونة هو نتيجة للتنمية (١) » .

فيشير التميز بين التغير والتنمية إلى فكرة التغير التطورى والتغير الثورى ، أما التطور الاقتصادي والديمغرافي فيختلفان عن التنمية في أنهمـــا لا يؤديان إلى عمليات جديدة (٢) . ويبقى لدينا سؤال بدون إجابة ، وهو ما موقع التحديث في العلاقة بين التغير والتنمية ؟ فهوروفيتز كان مهتماً بوضـــع صياغات تصورية Conceptualization للتنمية بـــدلاً من التحديث ، من أجـــل أن يبين أن الأول « التنميـــة » هو عملية شامـــلة يكون فيها التحديث والتصنيع وحدات فرعية (٣) ومع ذلك فليس من الضروري أن يتوازى الاتفاق مكانياً أو مؤقتاً فقد يكونان في فترات زمنية معينة متناقضين . Anthetical (٤) .

وعلى العكس من ذلك نجد نتل وروبرتسون يريان أن التصنيع والتنمية مفاهيم تابعة للتحديث (٥) وقد فسرا العلاقة بين هذه المفاهيم من خـــلال تصوراتهما لحالات المجتمعات المتغيرة . ويرجع السبب إلى اختلاف مفهوم عن آخر إلى الظروف الأمبيريقية المتغيرة التي ظهر فيها كل مفهوم . لذلك يمكن أن يحدد التصنيع بأنه « يتكون من العملية التي تشير إلى التغـــير من الأنشطة الزراعية أو المنزلية إلى الإنتاج الصناعي (٦) » فالتصنيع لاينفصل عن التنمية الاقتصادية ولا عن النتائج الاجتماعية التابعة له . كما أن نتل وروبرتسون يطلبان فصلاً تحليلياً بين التصنيع وعمليات التغير الأخرى على المستويات الاجتماعية والنفسية والسياسية (٧) .

---

(١) انظر : نفس المرجع . **Ibid.**

(٢) انظر : نفس المرجع . **Ibid.**

(٣) I. Horowitz, "Personality and Structural Dimension in Comparative International Development," **Social Science Quarterly,** 51:3 December, 1970), pp. 494—513.

(٤) المرجع السابق ، ص ٥١٣ .

(٥) انظر :
J. P. Nettle and Roland Robertson, "Industerialization Development and Modernization", **British Journal of Sociology,** 17:3 (September, 1966) pp. 274—289.

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

وقد بحث ناتال وربرتسون Robertson and Nettle في الصياغات التصورية لمفهــوم التحديث وقدما « الوعي القومي والذاتي» للمجتمع الذى يتجه نحو التحديث في النسق الدولي(١) فالتحديث والحداثة يرتبطان بالمجتمع وليس حسب مؤشرات تحليلية ، فيتضمن التحديث « تقييم وتحقيق أهداف معاً ترتبط بالدرجة الأولى بشكل الدولة (في المجال الصفوة السياسية) ، وتعمل كميكانزمات التوافق الذاتي بالنسبة للمعلومات التي تحصل عليها (٢) » . والأمر الذى يلفت النظر في تعريف ناتال وروبرتسون هو تفسير العلاقة بين الموقف المحلي والدولي ، فبالنسبة للباحث تكون المشكلة امبيريقية وتحليلية معاً . فيجب عليه أن يفحص امبيريقيا الأهداف الحقيقية التي تهدف إليها دولة معينة ، ومن الناحية التحليلية « تكون أفضل وسيلة للبحث في عملية التحديث من خلال عالمية التحديث والتنشئة الاجتماعية والجماعات المرجعية».

ولا يمكن للباحث أن يحل المشكلة التحليلية ما لم يحدد مؤشرات « الثقافة العالمية » وهنا نواجه مرة أخرى السؤال الذى يدور حول نموذج التحديث الذى يؤدى إلى تغيرات في المجتمعات الجديدة . وهذا السؤال لم يجب عليه نتل ((Nettle)) وروبرتسون إلا أنهما يشيران إلى مشاريع التنمية التي تحتاجها المجتمعات الجديدة ، كوسائل وأساليب الاتصال التي تجلب مؤشرات التحديث العالمي في المجال المحلي (٣) .

وفي هذه النقطة بالذات يمكن لمفهوم التنمية أن يخدمنا ، إذا ما استخدم بهذا المعنى فإنه سيشير إلى الدرجة التي استطاع فيها المجتمع إما أن يحقق أهدافه أو الأهداف التي افترضها العلماء الاجتماعيون .

ومن التحليل السابق لمفاهيم التحديث والتنمية والتصنيع يمكن أن نعتبر التغير المفهوم الأكثر موضوعية ، ويمكن أن نتعرض له بأى اتجاه وأى شكل ، وعلى العكس من ذلك فالتنمية هي تقييم ذاتي سواء استخدمه العلماء الاجتماعيين أو القادة السياسيين في الدول الجديدة ، لأن كليهما يصور التنمية (بأنها التغير) إلى « الأفضل أو النمط المرغوب » ،

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٤ .

(٣) ولكن نتل وروبرتسون تجنبا تحديد مؤشرات « الثقافة العالمية » وصور النسق الدولي « بانه النسق الذى تتكون فيه قيم واهتمامات الفرد من خـــلال علاقتها بقيم واهتمامات « الآخرين » المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

وذلك حسب الإطار النظرى الذى يفترضه الباحث من جهة والأهداف القومية التي يحددها القادة السياسيون من جهة أخرى . ولكن اقتراب الأهداف القومية من الإطار النظرى للباحث قضية امبيريقية يحتاج إلى دراسة وبحث .

وكما يبدو فإن هناك إجماعاً بين بعض العلماء على أن التصنيع عملية تختلف عن التحديث إذا حدد التصنيع بالتغير التكنولوجي(١) . والتفرقة التحليلية بين هذين المفهومين ذات دلالة إذا ما تعرضت للتغيرات الإجتماعية . وبالتالي يمكن تحليل التغير الإجتماعي والسياسي بغض النظر عن درجة التصنيع ، إلا أنه لا يعتبر نتيجة أساسية التصنيع . وهذا التصور يجعلنا نركز على طبيعة التغير في الدول الجديدة . فكما ذكر نتل وربرتسون أن التغير في الدول الجديدة انتقل من قضايا « التبني الاقتصادي Adaptive economic إلى تحقيق الأهداف Goal-attainment فهذا التغير في الاتجاه يقابل الانتقال التحليلي من مفهوم التصنيع إلى التحديث . وبالتالي فالتحديث هو العملية التي من خلالها يمكن للنسق السياسي أن يسمح ويساير التغير الاجتماعي والاقتصادي (٢) .

التحديث كعملية وكهدف قومي :

١ ـ التحديث كعملية :

يشكل تعريف التحديث في المناقشة السابقة الاتجاه الجديد في دراسة التحديث بالنسبة لبعض علماء الاجتماع والسياسة . ونلاحظ أن العلماء كانوا ينظرون إلى مفهوم التحديث في الدراسات السابقة باعتباره تغيراً ويتجاهلون دوره كهدف قومي للمجتمع المعني(٣) . وهذا التركيز يظهر في تعريف ويلبرت مور الذى يوافق عليه كثير من الدارسين حين يعتبر

---

(١) تعرف معظم الدراسات الاجتماعية التحديث من خلال علاقته باتصنيع . ففي الخمسينات كانت الفكرة السائدة ان عملية التصنيع تؤدى الى تغيير المجتمع التقليدى ويظهر ذلك في كتابات جوزيف كال وبصفة خاصة عندما تحدث عن علاقة التصنيع باتحديث في :
J. Khal, "Some Social Concomitants of Industerialization and Urbanization", **Human Organization** (1959), pp. 53—71.

(٢) وهذا يعني أن التغير التكنولوجي في الدول الجديدة يرتبط بالتغيرات الأيديولوجية والسياسية .

(٣) من الدراسات التي تنظر الى التحديث كعملية دراسات هربرت برنجر وزملاءه Herbert Barringer وايزنشتات (١٩٦١) وماريون فاينر Myron Weiner (١٩٦٦) اما العلماء الذين اعتبروا التحديث كهدف فهم قلة ومن بينهم تصور ناتال وشيلز للتحديث الذى يرون انه يقترب من الهدف الذى ترمى اليه الصفوة في الدول الجديدة .

التحديث « التحول الشامل للمجتمع التقليدي أو ما قبل الحديث إلى الأشكال التكنولوجية والتنظيمات الاجتماعية المرتبطة به التي تميز الدول « المتقدمة » المزدهرة اقتصادياً والمستقرة سياسياً في العالم الغربي (١) » .

ونلاحظ أمرين رئيسيين في تعريف « مور » الأول : افتراض التغير الخطي Unilinear Change والثاني تعادل أو تطابق التحديث بالأخـــذ بالطابع الغـــربي — Westernization ولكن الموضوع الأول يعتبره كثير من العلماء الاجتماعيين بإنه مضلل ، فمثلاً جوزيف جسفيلد Gusfeild يرى أن افتراض التغـــير الخطي مشتق من تصور أن النظـــم التقليدية والقيم غير ملائمة للتغير . أما مشابهة التحديث بالأخذ بالطابع الغربي فيبدو كأمر لا يمكن اجتنابه في التعريفات الفنية Techniical للتحديث ، لأن هذه التعريفات تنظـــر إلى التحديث من خلال ارتباطه بالتصنيع . وبما أن معظم دراسات التصنيع هي في الواقع دراسات في التطور التكنولوجي والاقتصادي في الغرب فقد أدى هذا إلى إعتبار خصائص التصنيع إعتبـــار خصائص التصنيع كخصائص للتحديث . وهنا نجـــد لاباالومبرا La Palombra لا يوافق على هذه النقطة ، لأنه يرى إمكانية إعتبار التحديث مفهوماً حيادياً إذا كان يعني ببساطة التصنيع . ومن بعد ذلك فإن مفهوم التحديث « لن يتضمن بالضرورة النظرية الخطية في التطور أو أي إطار نسقي معين يجب أن يتم من خلاله ذلك النوع من التغير الاقتصادي (٢) » ويرى أيضاً إن هذين الافتراضين يجب ألا يرتبطا بالتصنيع . ولكن تصور لا بالومبرا بعيد عن معظم الدراسات التحليلية للتصنيع الذى يعتبر فيها كموضوع عالمي وأن أشكال التنظيمات

Shils, "On the comparative stydy of New States", **Old Societies and New States, op. cit.**,

وكذلك يعتبر جسفيلد أهداف الدول الجديدة محور تحليله .

Joseph Gusfield, Tradition and Modernity: Misplaced Polarities in the Study of Social Change, "**American Journal of Sociology**, 72 (1967), pp. 351—362.

(١) Wilberte Moore, **Social Change.** (New Jersey: Prentice Hall, 1963), p. 89, 91—92.

(٢) انظر :

J. La Palombra, (ed.), **Bureaucracy and Political** Development (New Jersay: Princetion University Press, 1963) p. 9.

الاجتماعية الغربية تعتبر المرحلة النهائية التي يؤدى إليهـا التصنيع(١) . وعلى ذلك فالالتباس التحليلي بين التحديث والتصنيع يصبح كبيراً إذا ما استخدمنا الأول في تحليل التغير الاجتماعي في المجتمعات الجديدة من جهة ، وإذا اعتبرنا خصائص الثاني (التصنيع) ذات صدق عالمي من جهة أخرى .

وكذلك نجد أن النموذج الغربي في كثير من دراسات التحديث يشير إلى المرحلة الختامية "End State" التي يتجـه نحوها تحديث الدول الجديدة . لأن هؤلاء الدارسين يستخدمون مقـوله النسق الحـديث الموجودة في الانساق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الدول الغربية وهي بإيجاز كما ذكرها الموند Almond وكولمان Coleman (٢) ارتفاع معدل التحضر ، وانتشار التعليم وارتفاع دخل الفرد وزيادة معدل الحراك الجغرافي والاجتماعي وارتفاع معدل التجارة والتصنيع مع وجود شبكة اتصال جماهيرى واسعة وبالإضافة إلى المشاركة الجماهيرية .

ويرى العلماء الاجتماعيون الذين يستخدمون النموذج الغربي في تحليل التغير الاجتماعي في الدول الجديدة إن المراحل التي مرت بها الدول الغربية هي نفس المراحل التي تمر بها الدول الجديدة . ومن العلماء الذين يؤيدون هذا الرأي دانيال ليرنر ، ولكن التطور الذى شهدته الدول الغربية يرجع إلى عوامل تختلف اختلافاً كلياً عن العوامل والظروف التي تمر بها الدول الجديدة اليوم . فالدول الغربية مرت بعصور اقطاعية طويلة انتقلت منها إلى مجتمعات صناعية بعد الثورة الصناعية مستخدمة في ذلك المواد الخام التي تستوردها من الدول المستعمرة . كما أن التطور الفكرى جاء نتيجة خبرات طويلة من التعليم ونشر الثقافة التي قامت على أيدى رجال الدين ، وأيضاً تختلف النظم السياسية في الدول الغربية فبعضها كان امبراطوريات وأخرى كان ملكيات . ولكن الدول الجديدة تختلف في ظروفها عن الدول الغربية ، والسؤال الذى يواجهنا هل على الدول الجديدة أن تستعمر دولاً أخرى لتعتمد عليها في الحصول على

(١) انظر :
Fatina Amin Shaker, **Modernization of the Developing. Nations, op. cit.**, p. 33.

(٢) انظر :
G. Almond and James Coleman, **The Politics of Developing Areas** (Princeton, New Jersay: Princeton University Press, 1960), p. 52.

الموارد الخام وهل تحتاج أيضاً إلى ثورة صناعية كالثورة الصناعية في الدول الغربية في هذا العصر ؟ إن الإجابة بالطبع على هذه الأسئلة بالنفي ، فإذن النموذج الغربي ليس هو النمط المثالي الذى يجب على الدول الجديدة أن تسعى إليه ، وذلك لوجود نماذج حديثة أخرى في اليابان والاتحاد السوفيتي والصين مثلاً قد تكون نماذج جيدة للاقتباس ولكن الأمر الذى يجب أن تعرفه الدول الجديدة أن لها خصائص مميزة وتراثاً اجتماعياً وثقافياً خاصاً يمكنها من تكوين نموذج خاص بها يسير جنباً إلى جنب مع النماذج الغربية وغير الغربية الحديثة . لأن التحديث في الغرب كان نتيجة للتصنيع ، بينما التحديث يؤدي إلى التصنيع في المجتمعات الجديدة (١) .

٢ ـ **التحديث كهدف قومي :**

تعتبر الأهداف القومية للدول الجديدة وفق التحليل السابق لنموذج التحديث هي تحقيق التحديث الغربي ، وهذا هو الموضوع الذى يواجهه دارسو التحديث في الدول الجديدة أى هل يعتبر التحديث بالنسبة للقادة في الدول الجديدة هو نفس الأمر الذى يراه الغربيون متمثلاً في العلمانية والترشيد والحياة الحضرية والقيم الديمقراطية وغيرها . فيقول هوروفيتز في هذا الصدد « إذا افترضنا أن الدول المتقدمة تبدو كصورة المستقبل للدول النامية فهل الدول النامية تتقبل هذا التصور ؟ وهل هي مستعدة لتقبل التحديث دون أن تكون أهــلاً له (٢) » ؟ هذا السؤال وغيره يبقي دون إجابة في دراسات التحديث .

ولكن نستطيع الإجابة على هذا السؤال إذا بحثنا في معنى التحديث من وجهة نظر المجتمع المعنى أو موضع الدراسة . ومن هنا يمكن أن نعرف ماذا يريد ذلك المجتمع أن يكون أولا يكون . ولا يستطيع قادة الدول الجديدة فهم التحديث من خلال الأسباب التي يضعها العلماء الاجتماعيون فقط ، ولكن من خلال تجاربهم التاريخية والثقافية ، وبين المزج بين واقع هذه الدول وبين ما يريد القادة تحقيقه . فقد وجد بعض الدارسين أن افتراضاتهم في الواقع تختلف عن نتيجة وإتجاه التغير في بعض الدول النامية . فمثلاً في تحديث الهند وجد

---

(١) انظر :

David Apter, **The Politics of Modernization, op. cit.**, p. 44.

(٢) انظر :

I. Horowitz, **Three Worlds of Development, op. cit.**, p. 3.

ماريوت Marriot أن تنمية الدول الحديدة تمثل نموذجاً يختلف عن الافتراض القائل أن تنمية هذه الدول تشكل إتجاهاً يسير في خطي الثقافة الغربية (١) . وهذا الهدف القومي يختلف من دولة لأخرى حسب بنائها السياسي والاجتماعي والاقتصادي . فمثلاً نجد في معظم كلمات وخطب ملوك أو أمراء أو رؤساء المجتمعات النامية الإشارة إلى التنمية الاجتماعية بإعتبارها هدفاً قومياً ولكن ما هي الاعتبارات التي تصبح التنمية في ضوئها هدفاً قومياً ؟ هذه الاعتبارات قد تتمثل في التراث القومي والديني (المملكة العربية السعودية وإمارات الخليج) وقد تستمد من النظام السياسي أو الاقتصادي للدول المعينة . وقد يكون السبب المنطقي في هذه الدول هو نفسه الذى قاد الوعي القومي في اليابان ضد نظام حكم الميجي الميجي عام ١٨٦٨ (٢) ، الذى حافظوا فيه على خصائص النسق العائلي . فنحن نتوقع من القادة السياسيين في المجتمعات الحديدة أن يحققوا أهدافهم من خلال قومياتهم . وفي هذه الحالة يمكن أن يعتبر النموذج الغربي نموذجاً جيداً (بالنسبة للغرب فقط) .

والنقطة التي نود توضيحها أن على العلماء الاجتماعيين أن يدرسوا التحديث ليس كعملية فحسب وإنما كهدف قومي للمجتمع الذى يقومون بدراسته (٣) ، وبالتالي فعلى الباحث أن يبحث القضايا الداخلية والخارجية لهذا الهدف ، وفي هذه الحالة يستطيع العلماء الاجتماعيون التمييز بين الأسباب العالمية المؤدية إلى التحديث والخاصة بمجتمع معين . وعلى ذلك فدراسة التحديث كهدف هي دراسة أهداف مخطط لها ومدروسة ومتحكم فيها وترمي إلى تحقيق احتياجات معينة وبالتالي يمكن معرفة مدى تحقيقها . فإذا اعتبرنا التحديث هدفاً قومياً لمجتمع معين فإن النظم والاحتياجات يجب أن تتوافق لتحقيق متطلبات التحديث . وهذا يتطلب

---

(١) انظر :

Mckim Marriot, "Cultural Policy in the New States" **Old Societies and New State,** Geertz(ed.) **op. cit.,** p. 35.

(٢) انظر :

Marius Jansen (ed.) **Changing Japanese Attitudes Toward Modernization,** (Princeton: Princeton University Press, 1968), Chapt. VII.

(٣) انظر :

J. Nettle, "Strategies in the Study of Political Development" Colin Leys (ed.), **Politics and Change in Developing Countries** (Campbrige: The University Press, 1969, pp. 17—18.

وضع خطط محددة للتغير في المجتمع حتى يمكن للتحديث كهدف أن يحقق احتياجات النظم والقيم . وهنا سيواجه المخطط أمراً آخراً : هل الخطة الموضوعة للتغير في المجتمع هي من أجل تغيير النظم أو القيم أو كلاهما ؟ . والإجابة على هذا السؤال ، تكمن في ضرورة فهم العلماء الاجتماعيين لاحتياجات المجتمع المقصود .

وهنا نحتاج مرة أخرى إلى معرفة كيف يوجه المجتمع نفسه ، بمعنى أن المجتمع يمكنه أن يقرر ما يحتاج إليه وما يفيده وبالتالي يضع خططه وفقاً لاحتياجاته طالما أن لديه رصيداً معرفياً « ضخماً » لثقافته من خلاله يمكن أن يوجه مسار تغيره الاجتماعي . وهذا مما حدا ببعض العلماء الاجتماعيين في الشك في عملية التحديث ، فمثلاً نتل يقول أن الدراسات في الخمسينات التي كانت تسود فيها مفاهيم التنمية الاقتصادية والتصنيع أصبحت الآن قديمة ، لأن المجتمعات الجديدة وضعت بنفسها قراراتها في هذا الشأن . فالمجتمعات الجديدة اليوم بدلاً من أن تتبع مراحل النمــو الاقتصادي لروستو أو الرجل السياسي ليبست Lipset ترى أن التحديث هو تحقيق أهداف اجتماعية معينة .

ويرجع هذا الشك إلى سببين أساسيين ، الأول ظهور نماذج للتحديث تختلف عن النموذج الغربي ، كالنموذج الياباني والروسي ، وقد تناول رودولف وسوسنا رودولف مميزات هذين النموذجين في فهم التحديث (١) ، والعامل الثــاني هو عدم ثبات النموذج الغربي والذى يواجه اعتراضاً من المجتمع الغــربي نفسه (٢) . وبالإضافة إلى تطور أهداف المجتمعات النامية والتي أصبحت تدرك تنوع أشكال التحديث ونماذجه ، وبالتالي تختار ما يناسبها .

---

(١) انظر :

L. Rudolph and Susanna Rudolph, **The Modernity of Tradition** (Chicago: The University Press, 1967), p. 10.

(٢) انظر :

J. Nettle, "Strategies in the Study of Political Development" **op. cit.,** p. 20.

المـــراجع والمصـــادر

السيـــد محمـــد الحسيني (الدكتور) وآخرون ، دراسات في التنمية الاجتماعية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤ .

Almond, G. and James Coleman
1960. The Politics of Developing Areas. New Jersey: Princeton University Press.

Apter, David.
1965. The Politics of Modernization. Chicago: The University Press.

Becker. H., and A. Boskoff. (eds.)
1957. Modern Sociological Theory. New York: The Dryden Press.

Eisenstadt, S. N.
1964. "Breakdown of Modernization", Economic Development an dCultural Change, 12.

Geertz, C. (ed.)
1963. Old Societies and New States. New York: The Free Press.

Gusfield, Joseph.
1967. "Tradition and Modernity: Misplaced Polarities in the Study of Social Change," American Journal of Sociology. 72: 351—362.

Horowitiz, Irving Louis.
1970. "Personality and Structural Dimensions in Comparative International Development,: Social Science Quarterly, 51:3 (December) 494-513.
1972. Three Worlds of Development. London: Oxford University Press.

International Encyclopedia of Social Science.
1968. Vol. 10. New York: The MacMillan Company and the Free Press.

Khal, Joseph.
1959. "Some Social Concomitants of Industerialization and Urbanization." Human Organization. 53-71.

Janson, Marius (ed,)
1968. Changing Japanese Attitudes oward Modernization. Princeton: Princeton University Press.

Levy, Mryon Jr.
1960. Modernization and the Structure of Societies. New Jersey. Princeton University Press.

Lerner, Daniel.
1964. The Passing of Traditional Society. New York: The Free Press.

Leys, Colin (ed.)
1969 Politics and Change in Developing Countries. Cambridge: The University Press.

Moore, Wilbert.
1963. Social Change. New Jersey: Prentice-Hall.

Nettle, J. P. and Roland Robertson.
1966. "Industerialization, Development and Modernization." British Journal of Sociology. 17:3 (September) 274-289.

La Palombara, J. (ed.)
1963. Bureaucracy and Political Development. New Jersey: Princeton University Press.

Rudolp. L. and Susanna Rudolph.
1967. The Modernity of Tradition. Chicago: The University Press.

Shaker, Fatina Amin.
1972. Modernization of the Developing Nations: The Case Study of Saudi Arabia. Ann Arabor, Michigan: University Microfilms International.

Toynbee, A. J.
1962. The Present Day Experiment in Western Civilization. London: Oxford University Press.

Weiner, Myron (ed.)
1966. Modernization. New York: Basic Books.

اتجاه الجرجاني

في دراسة الصور البيانية

دكتور عثمان موافي

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية

أظننا لا نعدو الصواب إن قلنا ، إن اتجـــاه عبد القاهـــر الجرجاني في دراسة الصورة البيانية ، يعد أمراً بالغ الأهميـــة .

وبخاصة إذا عرفنا أن معظم مؤرخي البيـــان العربي قديمـــاً وحديثاً ، يجمعون على أنه قد أرسى بهذا الاتجاه دعائم هذا البيان ، وأصل أصوله وحدد مصطلحاته (١) .

وليس هذا وحسب ، بل استطاع أن يصل من خلال دراسته له ، إلى نظرية نقدية ، تقوم على العلة والمعلول (٢) ، وترتكز على دعائم وأصول فنية ثابتة .

والمتصفح الدقيق لكتابة أسرار البلاغة ، يدرك بحق طبيعة هذا الاتجاه وألوانه المختلفة ، التي يبدو أن هناك عـــوامل كثيرة ، تضافـــرت على خلقه وتشكيله ، منها ما يرجع إلى ثقافة هذا الناقد وفكره ، ومنها مـــا يرجع إلى موهبته الفنيـــة (٣) ، وقـــدرته الفائقة على التذوق الجمالي والنفسي للنصوص الأدبية .

ومن اللافت للنظر أن اتجاه هذا الناقـــد ، في دراسة الصورة البيانيـــة ، يرتبط أوثق ارتباط ، باتجاهه في دراسته لنظرية النظم ، التي أودعها كتابه دلائل الأعجاز .

والتي يؤكد فيها على أن بلاغة التعبير الأدبي ، لا ترجع إلى اللفظ وحده ، ولا إلى المعنى وحده ، ولكنها ترجع إلى ارتباط هذا بذلك ، وانتظامهما معا في سياق لغوى .

(١) انظر مقدمة كتاب الطراز لحمزة العلوى ص ٤ ط : المقتطف ، ومادة بلاغة بدائرة المعارف الاسلامية ، وتعليق الخولى عليها ، ثم بحث طه حسين « البيان العربى من الجاحظ الى عبد القاهر » ، المنشور ضمن كتاب نقد النثر المنسوب لقدامة ص ٢٤ ـ ٣٠ ترجمة العبادى .

(٢) من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ، لمحمد خلف الله ص ١٠٧ ـ ١٣٤ ط : الثانية جامعة الدول العربية .

(٣) انظر ترجمته في بغية الوعاة للسيوطي ص ٣١٠ ط : بيروت ، وفوات الوافيات لابن شاكر ج ١ ص ٦١٢ ـ ٦١٣ ط : النهضـــة بمصر ، وشذرات الذهب لابن العماد ، « احـــداث سنة اربع وسبعين واربعمائة » .

ويوضح هذه الحقيقة قوله ، معقباً على بعض النصوص ، التي أوردها في هذا الشأن :

(فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالا ، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة ، وخلافها ، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ) (١) .

ويستدل على هذا بأن الكلمة قد تحلو وتروق في موضع ، وقد ترى بعينها مستقبحة في موضع آخر ، والذى يمنحها هذه الحلاوة ، أو ذلك القبح ، هو السياق التعبيرى .

وبرغم تأكيده على هذه العلاقة الوثيقة بين اللفظ والمعنى ، فقد شغل المعنى في نظريته جانباً كبيراً من اهتمامه (٢) ، لدرجة جعلته يضعه في مرتبة من الفن التعبيرى ، أعلى من مرتبة اللفظ .

ومما يصور هذه الحقيقة عنده ، قوله مشيراً إلى أن البلاغة والفصاحة ، وما يجرى على نسقهما من أوصاف ترجع كلها إلى المعاني ، وإلى ما يدل عليه بالألفاظ ، دون الألفاظ أنفسها ، لأنه إذا لم يكن في التسمية إلا المعاني والألفاظ ، وكان لا يعقل تعارض في الألفاظ المجردة إلا ما ذكرت ، لم يبق إلا أن تكون المعارضة من جهة ترجع إلى معاني الكلام المعقولة دون ألفاظه المسموعة) (٣) .

فمرد بلاغة الفن التعبيرى عنده إلى المعنى أصلاً ، ثم إلى ما يتطلبه المعنى من لفظ ، ولن يتأتي له ذلك ، إلا إذا دخل في سياق تعبيرى .

وهو يرد بهذا على أصحاب اللفظ من النقاد ، الذين أرجعوا جمال الفن التعبيرى إلى الشكل دون المضمون ، وفهموا الشكل على أنه إطار لفظى جميل ، يقوم على الانسجام الموسيقى ، والتلاؤم الصوتي بين الحروف والألفاظ ، المتقاربة في مخارجها الصوتية .

ويقصد بذلك « الجاحظ » (٤) ، ومن لف لفة من النقـاد الذين انتصروا للفظ على المعنى (٥) ، وكانت حجتهم في ذلك ، قـولة « الجاحظ » المشهورة (والمعاني مطروحة

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٦ ط : السادسة تحقيق رشيد رضا .

(٢) المرجع السابق (باب اللفظ والنظم) ص ١٧٢ ـ ١٩١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٢ ـ ٥٦ ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

(٥) من هؤلاء ابو هلال العسكرى في الصناعتين ص ٦٣ والآمدى في الموازنة جـ ١ ص ٤٠٢ .

في الطريق يعرفها العجمى والعربي ، والبدوى والقروى والمدني . وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإن الشعر صناعة (١) ، وضرب من النسج وجنس من التصوير) (٢) . والمتأمل لهـذا النص جيداً ، يدرك أن الجاحظ لا يقصد باللفظ الكلمة المفردة وحسب ، ولكنه يقصد من ذلك أيضاً ، الصياغة الفنية ، أو الصورة التعبيرية ، وبعض العناصر الموسيقية ، التي تحقق لهذه الصياغة ، نوعاً من الجمال الصوتي ، الذى يعد أحد مقومات الفن التعبيرى الأصيل . وفي رأيه أن جودة التعبير أو السياق ، مرتبطة أوثق ارتباط ، بجودة العناصر الجزئية المكونة لهذا السياق ، كالألفاظ وما تشتمل عليه من حروف وأصوات .

ومن ثم ، فقد نظر أولا إلى فصاحة اللفظ المفرد ، الذى يشكل اللبنة الأولى في السياق التعبيرى ، ثم إلى بلاغة التعبير اللغوى ، الذى يتألف من عدة ألفاظ ومعان .

وهذا يدلنا دلالة قاطعة ، على أنه لم ينظر إلى اللفظ مجرداً عن المعنى ، ولم يفصل بين هذا وذاك ، ولكنه نظر إلى الصياغة التعبيرية ، ورأى أن جمال هذه الصياغة ، لا يتحقق إلا بحسن اختيار الألفاظ ، وحسن انتظامها في النسق التعبيرى ، معتقداً أن ذلك ، سيؤدى لا محالة إلى الكشف عن جمال المعنى .

ويوضح ذلك قوله (ومتى كان اللفظ كريماً في نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب إلى النفوس واتصل بالأذهان . . . ومن أعاره الله من معونته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، جلبت إليه المعاني ، وسلس له النظام) (٣) .

وهذا يوضح لنا حقيقة موقف « الجاحظ » من هذه القضية ، ويضع أيدينا على أوجه الاتفاق والاختلاف بينه وبين الجرجاني .

فهما يتفقان معا ، على أن بلاغة الفن التعبيرى مردها في نهاية الأمر إلى السياق ، الذى يسميه الجرجاني نظماً ، بينما يسميه الجاحظ ، صناعة أو صياغة فنية .

وهذا يعنى ارتباط اللفظ بالمعنى ، وعدم تصور وجود أحدهما في السياق التعبيرى منفصلاً عن وجود الآخـــر .

---

(١) في بعض الروايات « صياغة » بدلا من صناعة ، انظر دلائل الاعجاز ص ١٧١ .
(٢) الحيوان جـ ٣ ص ١٣٢ تحقيق هارون ط : الثالثة ـ بيروت .
(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ٨ تحقيق هارون ط : الرابعة ـ الخانجي بمصر .

وبرغم اتفاق هذين الناقدين على هذه الناحية ، فإنهما يختلفان من ناحية أخرى .

ويكمن جوهر الخلاف بينهما في المفاضلة بين اللفظ والمعنى ، من حيث التأثير الجمالي في الفن التعبيرى ، فأيهما أكثر فاعلية في ذلك ؟ ؟

يرى الجرجاني أن المعنى ، هو المؤثر الفعال في الجمال التعبيرى ، بينما يرى الجاحظ على العكس منه ، أن اللفظ ، أشد تأثيراً من المعنى في ذلك .

وإذا كنا قد عرفنا ، ما يقصده الجاحظ باللفظ ، عند إشارته إلى أهميته في الفن التعبيرى فيحسن بنا أن نعرف : ما الذى يقصده الجرجاني بالمعنى في هذا الصدد ؟ ؟

يبدو لي ، أنه يقصد بالمعنى هنا ، شيئاً آخر ، غير الذى يتبادر إلى الذهن العادى . فهو لا يقصد به ما يحدده المعجم اللغوى للفظ من دلالة ، ولكنه يقصد به شيئاً أبعد من هذه الدلالة المعجمية ، وأقرب رحماً بالدلالة المجازية .

ولهذا نجده ، وهو بصدد مناقشته لهذه القضية ، يشير إلى المعنى ، ينقسم إلى قسمين أصلي ، وفرعي . ويقصد بالمعنى الأصلي ، المعنى الحقيقي الذى يحدده المعجم اللغوي للفظة .

أما المعنى الفرعي ، فهو ما يتفرع عن المعنى الحقيقى ، من دلالة مجازية ، وهو يطلق عليه اسم معنى المعنى . يقول (فهنا عبارة مختصرة ، وهي أن تقول المعنى ، ومعنى المعنى تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ ، والذى تصل إليه بغير واسطة ، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر) (١) .

وفي رأيه أن جمال الفن التعبيرى ، لا يرجع إلى المعنى الحقيقى ، ولكنه يرجع إلى المعنى الفرعى ، أو معنى المعنى (٢) ، الذى يعد حلية أنيقة لذلك المعنى الأصلي .

يقول (فالمعاني الأولى المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشى والحلى ، وأشباه ذلك ، والمعاني الثواني ، التي يومأ إليها بتلك المعاني ، هي التي تكسى تلك المعارض ، وتزين بذلك الوشى والحلى) (٣) .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٧٥ .

(٢) وقد سبق عبد القاهر بهذا الفهم ، للمعنى في الفن الأدبى ، بعض ما وصل اليه في هذا الشان اساتذة النقد الأدبي المحدثين من الاوربيين مثل رتشاردز انظر مقدمة كتابه .
The Meaning of meaning P. 235.

(٣) دلائل الاعجاز ص ١٧٦ .

وهو يضغط بشدة على هذه الناحية ، في دراسته لنظرية النظم ، معتقداً أن المعنى الأصلى ثابت لا يتغير ، وأما الذى يطرأ عليه التغير ، فهـــو صورته المجازية (١) ، التي هي مناط بحثه ودراسته في نظرية المعنى .

وعلى العكس منه ، يرى « الجاحظ » وأصحاب مدرسة اللفظ ، أن المعنى الأصلى متغير واللفظ ثابت على حاله (٢) .

وعلى أية حال ، فإن اهتمام الجرجاني بالمعنى في نظريته على النحو الذى رأينا ، لا يعنى تجاهله التام للفظ ، وإنما يعنى ذلك ، وضعه في مرتبة تالية له ، فهو إطاره الخارجى الذى يبرزه للعيان ، ومحال أن يحيا المعنى في فراغ بعيداً عن هذا الإطار الشكلى .

ولما كانت أهمية هذا الإطار تلى أهمية المعنى بالنسبة للفن التعبيرى ، فقد وجد أنه من الضرورى ، دراسة هذا الإطار ، دراسة مفصلة في موضع آخر ، غير كتابه دلائل الأعجاز ، الذى حظيت فيه دراسة المعنى – كما أشرنا – بقسط وفير من اهتمامه . ويظهر أنه ادخر لذلك مؤلفاً آخر ، وهو « أسرار البلاغة » الذى يرى كثير من العلماء الباحثين أنه ألفه بعد الدلائل (٣) ، وضمنه نظريته في الصورة البيانية .

والملاحظ ، أنه لم يخرج كثيراً في دراسته لهذه النظرية ، عما قرره في دراسته لنظرية النظم ، بخصوص أهمية المعنى في الفن التعبيرى .

وعلى هدى من هذا الموقف ، ينطلق في دراسته للصورة البيانية ، مقرراً حقيقة هامة ، وهي أن الفن التعبيرى نوعان ، أصيل وزائف .

ويشبه الفن الأصيل بالذهب الإبريز (الذى تختلف عليه الصور ، وتتعاقب عليه الصياغات ، وجل المعول في شرفه على ذاته ، وإن كان التصوير ، قد يزيد في ذاته ويرفع من قدره) (٤) .

---

(١) المرجع السابق والصحيفة .

(٢) نظرية المعنى لمصطفى ناصف ص ٤٢ ط : دار العلم .

(٣) انظر مقدمة « ريتر » لكتاب أسرار البلاغة — Introduction of Ritter P. 6

ومن الوجهة النفسية ص ١٠٧ – ١٠٨ ، وتاريخ النقد لزغلول سلام ج ١ ص ٢٢٢ .

(٤) أسرار البلاغة ص ٣٢ تحقيق المراغى ط : التجارية .

وأصالة هذا النوع ، مردها إلى شرف معناه ، كما أن زيف النوع الثاني ، مرده إلى وضاعة معناه .

ولهذا فقد يبدو شريفاً في الظاهر ، ويثير الاعجاب بجمال مظهره ، ولكن سرعان ما يتهاوى هذا الجمال المصنوع فينكشف المعنى الزائف ، وتعرف حقيقته .

وعلى هذا ، فالصورة البيانية في رأيه ، معنى منمق ، أو مضمون في حلية جمالية أنيقة ، وهي روح الفن التعبيرى ، وسر جماله .

وهي ليست لوناً واحداً ، وإنما هي ألوان متعددة .

فمنها التشبيه ، ومنها التمثيل ، ومنها الاستعارة .

ومعظم هذه الألوان البيانية ، ترتد إلى المجاز .

وقد بدأ بدراسة هذه الألوان ، لوناً لوناً ، مستهلاً ذلك بالاستعارة ، ثم التشبيه والتمثيل، وأخيراً المجاز .

وقد تناولت دراسته لكل لون منها ، عدة نقاط رئيسية ، وهي تحديد ماهية كل لون والكشف عن خصائصه الفنية ، وتأثيره الجمالى في الفن التعبيرى .

وكان من المفروض ، أن يبدأ دراسته لهذه الصورة البيانية ، بتناول العام منها أولاً ، ثم الخاص بعد ذلك .

وبما أن ألوان هذه الصورة البيانية ، وأفرعها ، ترتد غالباً إلى المجاز ، فكان عليه أن يبدأ بدراسة المجاز أولا ، ثم يتناول بعد ذلك صوره وأنواعه ، ولكنه عكس الآية عامداً ، فتحدث عن الأنواع قبل الأجناس ، وليس هذا وحسب ، ولكنه قدم في دراسته لهذه الأنواع ، الفرع منها على الأصل .

فالتشبيه باعترافه أصل الاستعارة (١) ، ومع هذا ، فقد أخره عن الاستعارة وبدأ بها ثم ثنى به .

ومن ثم ، فقد يبدو هذا المسلك المنهجى ، من ناقد عقلاني التفكير ، كعبد القاهر

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥ .

الجرجاني ، شيئاً مُحيراً ، وقد يدفعنا هذا إلى البحث ، عن سر هذا الاضطراب المنهجى ، الذى أوقع فيه نفسه .

ويبدو لي ، أن مفتاح هذا السر ، يكمن في اعتقاده بأن الدراسة الدقيقة للظواهر الفنية ، لا تتأتي إلا من خلال ، معرفة جزئياتها الدقيقة ، التي تحدد أخص خصائصها ، والوصول من ذلك إلى معرفتها جملة لأن معرفة الشيء تفصيلاً ، تختلف عن معرفته جملة .

ففى التفصيل تحديد دقيق لخصائص النوع ، لا يتحقق برؤيته جملة .

ثم إن هذه الدراسة التفصيلية ، القائمة على التحليل الدقيق لخصائص النوع ، تتيح للدارس فرصة كبيرة ، لتأمل الظاهرة ، التي يدرسها تأملاً دقيقاً واعياً ، وكلما كثر تأمله لها ، كلما اكتشف فيها ، شيئاً جديداً لم يره من قبل .

يقول : (فإنك تتبين من تفاصيل الصوت ، بأن يعاد عليك ، حتى تسمعه مرة ثانية ما لم تتبينه بالسماع الأول . وتدرك من تفاصيل طعم المذوق ، بأن تعيده إلى اللسان ما لم تعرفه في الذوقة الأولى ، وبإدراك التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء ، وسامع وسامع ، وهكذا . فأما الجمل فتستوى فيها الأقدام ، ثم اعلم أنك في إدراك تفصيل ما تراه وتسمعه ، أو تذوقه كمن ينتقى الشيء من بين جملة ، وكمن يميز الشيء عما اختلط به .

وإنك حين لا يهمك التفصيل ، كمن يؤخذ الشيء جزافاً وجرفاً) (١) .

وهو بهذا الاتجاه المنهجى ، يتفق وأصول المنهج الاستقرائي ، الذى يعتبر منهج العلم في العصر الحديث ، والذى يعد من أخص خصائصه ، استقراء جزئيات الظاهرة ، وأنواعها المختلفة ، بغية الوصول من هذا كله إلى حكم عام ، يمكن تطبيقه على الظاهر ككل . وهذا المنهج في الحقيقة ، هو المعبر عن روح الحضارة الإسلامية ، ومن صنع العقل الإسلامى ، وعن المسلمين ، أخذه الأوربيون في العصور الوسطى (٢) .

فمنهج الجرجاني في دراسة هذه الظاهرة الفنية ، لا يعد شيئاً غريباً على الفكر النقدى العربي ، وإنما هو شيء أصيل فيه .

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٢) انظر مناهج البحث عن مفكرى الاسلام لعلى سامى النشار ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ وكتابنا « منهج النقد التاريخى الاسلامى والمنهج الاوربي ص ٩٦ ـ ٩٧ ، ط : الثانية .

ويبدو أن بعض الدراسات التي سبقته ، إلى دراسة هذه الظاهرة الفنية ، قد حظيت بشيء من روح هذا المنهج . ويتجلى هذا واضحاً ، في اتجاهها ، نحو تحليل الظواهر البيانية ، وتحديد خصائصها ، وأنواعها المختلفة .

ولعل دراسة « ابن المعتز » لفنون البديع ، التي حصرها في خمسة أنواع (١) ، تعد من أقدم هذه الدراسات .

وقد بدأ هذه الدراسة ، بالاستعارة ، معتبرها لوناً من ألوان البديع ، وثمرة من ثماره وليست بذلك قرينة للتشبيه أو التمثيل .

ويظهر أن كثيراً من النقاد الذين تناولوا ، هذه الظاهرة الفنية بعده ، قد تأثروا بمنحاه في دراستها ، وبفهمه لهـــا .

ويبدو هذا بوضوح عند العسكرى ٣٩٥ هـ في الصناعتين ، فقد درس الاستعارة على أنها لون من ألوان البديع وصورة من صور المجاز ، وفصل في ذلك بينها وبين التشبيه ، الذى اعتبره فناً بلاغياً قائماً بذاته ، ودرسه على هذا النحو (٢) .

ويتضح من دراسة الآمدى ٣٧١ هـ التطبيقية لهذه الظاهرة الفنية على شعر أبي تمام ، أنه قد تأثر بهذا الاتجاه تأثراً واضحاً (٣) .

والمتأمل الواعى ، لاتجاه عبد القاهر الجرجاني ، في دراسته لهذه الظاهرة الفنية يدرك بحق ، مدى ما أفاده من هذه الدراسات ، واتجاهات أصحابها .

ويعد أبا الحسن الجرجاني ٣٦٦ هـ من أكثر هؤلاء النقاد ، تأثيراً في اتجاه عبد القاهر الجرجاني ، لدراسة هذه الظاهرة الفنية ، وفهمه لأنواعها ، وألوانها المختلفة . ويبدو هذا بشكل واضح ، من دراسته للاستعارة ، وفهمه لأنواعها وألوانها المتعددة . فقد اعتبرها ، كمعظم النقاد السابقين عليه ، لونا من ألوان البديع ، ولكنه اختلف عنهم ، في اعتباره التشبيه أصلاً فيها .

(١) وهى الاستعارة ، والطباق ، والجناس ، رد الاعجـــاز على الصدور ثم المذهب الكلامى انظر كتاب البديع لابن المعتز ص ٢ ـ ٥٣ ط : كرتشقوفسكى .

(٢) الصناعتين الباب السابع في التشبيه ص ٢٤٤ ـ ٢٦٥ ، والفصل الاول من الباب التاسع (البديع) في الاستعارة ص ٢٧٤ ـ ٢٩٧ ، ط : الثانية ـ عيسى الباب الحلبى .

(٣) الموازنة ج ١ ص ٢٥٩ ـ ٢٩٢ .

ويوضح هذه الحقيقة قوله (وإنما الاستعارة ، ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة ، فجعلت في مكان غيرها . وملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له ، للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ بالمعنى)(١) .

وقد اقتفى عبد القاهر ، أثر أبي الحسن الجرجاني في ذلك ، متخذاً من هذا التعريف تُكَأَةً اعتمد عليها في تحديد ماهية الاستعارة ، والتفرقة بينها وبين المجاز المرسل . على اعتبار أن المجاز أعم من الاستعارة . فكل لفظ استعمل في غير معناه الحقيقى ، يعد مجازاً لغوياً ، ولكن إذا كان الاستعمال المجازى لعلاقة المشابهة فهو استعارة (٢) .

فكأن الاستعارة على هذا النحو ، هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له ، لعلاقة المشابهة بين الأصل والفرع .

وبناء على ذلك ، فهى لون من ألوان المجاز (٣) .

وقد حاول عبد القاهر الجرجاني ، تبعاً لهذا ، أن يقرر حقيقة هامة ، وهي أنه لا تناقض بين قول بعض المتقدمين ، إن الاستعارة لون من ألوان البديع ، وقول بعض المتأخرين إنها لون من ألوان المجاز .

وذلك لأنها لا تعد من البديع ، إلا لأن لفظهما ، استعمل في غير معناه الأصلى إلى معنى مجازى ، لوجود شبه ما بين الأصل والفرع ، ولو لم يوجد هذا الشبه ، ما جاز لهم ، وصفها بأنها لون من ألوان البديع .

فهذا الشبه ، هو الذى يعطيها صفة الابداع ، ويدخلها في دائرة الفنون البديعية . يضاف إلى ذلك ، أن هذا الاختلاف ، في مفهوم الاستعارة ، وتحديد ماهيتها ، راجع كما يرى هذا الناقد ، إلى عدم التدقيق في تحديد المصطلحات البلاغية (٤) .

وهذا يقودنا إلى أمر هام ، يعد سمة واضحة في اتجاه هذا الناقد إلى دراسة الصورة

---

(١) الوساطة ص ٣٤ .

(٢) اسرار البلاغة ص ٣٥ ـ ٣٦ ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(٣) والى هذا الرأى ، يذهب بعض البلاغيين المتاخرين مثل ابن الاثير ، وحمزة العلوى ، وبعض شراح التلخيص كالخطيب القزوينى . انظر المثل السائر ج ٢ ص ٧٠ ـ ٧١ ، الطراز ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ ، الايضاح ص ١٥٨ .

(٤) اسار البلاغة ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

البيانية ، ونعنى بذلك دقته في تحديد المصطلحات البيانية ، التي كانت مضطربة في أذهان كثير من النقـــاد .

وقد بدى لنا هذا بشكل واضح ، من تحديده لماهية الاستعارة ، وتفرقته بينها وبين المجـــاز المرسل .

ويتضح هذا أيضاً ، من دراسته للتشبيه والتمثيل وتفرقته بينهما . على أساس أن التمثيل قسم من أقسام التشبيه ، فهو أخص والتشبيه أعم . فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلاً .

ومرد هذه التفرقة في رأيه ، إلى وجه الشبه ، فهو في التشبيه أمر واضح بين ، بينما هو في التمثيل ، غير واضح ، ويحتاج لضرب من التأول العقلى ، كى يتضح للأذهان .

يقول (اعلم أن الشيئين ، إذا شبه أحدهما بالآخر ، كان ذلك على ضربين :

أحدهما : أن يكون من جهة أمر بين ، لا يحتاج فيه إلى تأول .

والآخر : أن يكون الشبه محصولاً بضرب من التأول .

فمثال الأول : تشبيه الشيء بالشيء ، من جهة الصورة والشكل ، نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجه ، وبالحلقة في وجه آخر .

وكالتشبيه من جهة اللون ، كتشبيه الخد بالورد ، والشعر بالليل ، والوجه بالنهار ، وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين ، فيما يدخل تحت الحواس) (١) .

هذا عن النوع الأول من التشبيه ، أما عن النوع الثاني ، أى التمثيل .

فمن أمثلته قولنا « حجة كالشمس » فقد شبهت الحجة هنا في ظهورها ووضوحها بالشمس . والحجة أمر معنوى ، أما الشمس فشيء محسوس ، ووجه الشبه بين الحسى والمعنوى لا يدرك بسهولة ، لأنه لا يبدو واضحاً ملموساً ، ووضوحه في التشبيه بين المحسوسات وإنما يبدو أمراً خفياً ، يستعان على إدراكه بشيء من التصور الذهنى ، والتأول العقلى . (وذلك أن تقول حقيقة ظهور الشمس ، وغيرها من الأجسام ، ألا يكون دونها حجاب ونحوه ، مما يحول بين العين وبين رؤيتها ، ولذلك يظهر الشيء لك ، ولا يظهر لك ، إذا كنت من وراء حجاب ، أو إذا لم يكن بينك وبينه ذلك الحجاب .

(١) المرجع السابق ص ٢٤٢ ـ ٤٤٣ .

ثم نقول إن الشبهة نظير الحجاب ، فيما يدرك بالعقول ، لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه ، كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه .

فإذا ارتفعت الشبهة ، وحصل العلم بمعنى الكلام ، الذى هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم قيل هذا ظاهر كالشمس) (١) .

وعلى هذا ، يمكننا القول ، بأن الجرجاني يرى أن وجه الشبه في التشبيه حسى ، بينما هو في التمثيل عقلى .

وهو ينفرد بهذا الرأى ، عن آراء كثير من النقاد والبلاغيين ، الذين سبقوه ، والذين أتوا من بعده .

فبعضهم لم يفرق – بين التشبيه والتمثيل ، واعتبرهما فنا بلاغياً واحداً (٢) . على حين فرق بعضهم بينهما ، معتبراً التشبيه ، هو ما كان وجه الشبه فيه مفرداً ، سواء أكان عقلياً ، أم حسياً أما التمثيل ، فهو ما كان وجه الشبه فية منتزعاً من أمور متعددة (٣) وهذا على العكس مما يذهب إليه ناقدنا .

ومن مظاهر هذه الدقة كذلك ، ملاحظته أن التشبيه المنتزع من أمور متعددة ، لا يأتي على صورة واحدة ولكنه يأتي على صورتين متضادتين ، إحداهما مفرقة ، والأخرى مركبة . ويعني بذلك ، أن التشبيه في الصورة الأولى ، ينعقد على أمرين أو أكثر ، ليس بينهما امتزاج أو تشابك ، بحيث أننا لو جزءنا الصورة ، وفككنا عقدها ، لاستطعنا أن نستخرج منها عدة صور وتشبيهات منفصلة .

أما بالنسبة للصورة الثانية ، فيلاحظ أن التشبيه فيها يؤدى إلى امتزاج كل أجزائها وعناصرها ، مؤلفة معاً صورة متكاملة ، وتشبيهاً واحداً ، بحيث أننا لو حللنا هذه الصورة أو ذلك التشبيه ، لا نحصل على المعنى الذى أدته الصورة ككل ، ويصعب أن نجمع من شتاتها ، عدة صور ، أو تشبيهات مستقلة (٤) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٤ .

(٢) انظر الصناعتين للعسكرى ص ٢٤٩ ، والمثل السائر ج ٣ ص ١١٦ ، والطراز ج ١ ص ٣٦٣ – ٢٦٤ .

(٣) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٤١ ، الايضاح للقزوينى ص ١٤١ .

(٤) اسرار البلاغة ص ١١٣ – ١١٥ .

وتوضيحاً لهذا يذكر لنا بعض الأمثلة التطبيقية ، على كل نوع من هذين النوعين . فمن أمثلة النوع الأول ، قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشفُ البالي .

فقد صور امرؤ القيس ، قلوب الطير في صورتين متقابلتين ، صورة وهي رطبة بالعناب ، وصورة ، وهي جافة يابسة بالحشف البالي .

وكل صورة من هاتين ، تتضمن تشبيها مستقلاً ، ذا طرفين ، مشبه ومشبه به ، ووجه شبه يفهم من سياق المعنى .

وفي كل منها معنى ، يختلف عن المعنى ، الذى تتضمنه الصورة الأخرى . ومن ذلك أيضاً قول المتنبي :

بدت قمراً وماست خطوط بان وفاحت عنبراً ورنت غَزالا

فنحن هنا أمام عدة صور لا صورة واحدة .

ولو حللنا هذا التشبيه إلى عناصره الأولى ، لحصلنا منه على عدة تشبيهات(١) وصور مختلفة ، الصورة الأولى بدت كالقمر ، والثانية ماست كخطوط بان ، والثالثة فاحت كالعنبر ، والرابعة رنت كالغزال .

وواضح ، أن معنى كل صورة من هذه الصور الأربع ، مغاير لمعنى الصورة الأخرى . لأن كل واحدة منهن ، تصور ناحية جمالية في هذه المرأة ، كجمال الوجه ، أو القد ، أو العينين أو رائحة الفم .

ومن الأمثلة التي أوردها ، لتوضيح النوع الثاني ، أى التشبيه المركب .
قوله تعالى مصوراً موقف اليهود من التوراة « مثل الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٠ ــ ٢٢٣ .

(٢) اية رقم ٥ من سورة الجمعة .

فهذه صورة متكاملة ، تؤدى معنى واحداً ، ولو حاولنا فك عقدها ، واستخراج عدة صور منها ، تؤدى المعنى المطلوب لاستحال ذلك . فلو قلنا مثلاً : إن اليهود كالحمار ، والتوراة كالأسفار ، ما أدى بنا ذلك إلى المعنى المطلوب .

لأن الهدف من التشبيه هنا ، هو وصف حالة معينة لليهود ، وهي حملهم التوراة ، مع جهلهم التام لمعانيها (١) ، فهذه الحالة ، تشبهه حالة الحمار ، الذى يحمل الكتب ، ولا يفهم ما بداخلها من معان .

ومن الأمثلة الشعرية على هذا ، قول ابن المعتز :

كأنه وكأن الكأس في فمه ... هلال أول شهر غاب في شفق

فالصورة هنا مركبة ، وإذا حاولنا ، تجزءتها ، اختل المعنى ، اختلالاً كبيراً ، لأن ابن المعتز ، لا يقصد من وراء عقده لهذه الصورة ، أن يشبه الكأس على انفراد بالهلال ، والشفه بالشفق (٢) ، وإنما أراد وصف حالة معينة ، لا تتأتي إلا من ائتلاف جوانب هذه الصورة معاً ، وهي تشبيه منظر الكأس في الفم ، بمنظر هلال أو الشهر خلف الشفق الأحمر .

ومن ذلك قول ابن الرومى يمدح رجلاً ليس أهلاً للمديح :

إني وتزيني بمدحى معشراً ... كمعلق دُراً على خنزير (٣)

فهذه صورة مركبة من قبيل الصورة السابقة ، ويصعب علينا أن نجزأها إلى عدة صور لأن ذلك سيؤدى إلى تجزئة المعنى ، الذى يقصد إليه الشاعر ، من وراء عقده لهذه الصورة ،

والذى يمكن تلخيصه في قولنا ، إنه يشبه عدم جدوى مدحه لهذا الرجل ، الذى لا يغير المديح ، من طباعه وصفاته القبيحة ، بعدم جدوى وضع الدر على الخنزير ، لأن ذلك لن يغير أبداً من قبح صورة الخنزير ، وسوء طباعه .

ويرجع الفضل الأكبر ، إلى هذا الناقد في تفرقته الدقيقة ، بين هذين النوعين من التشبيه ، وإعطائه لكل منهما ، اسماً اصطلاحياً خاصاً به .

---

(١) أسرار البلاغة ص ١١٤ ـ ١١٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

وبذلك يضع حداً لهذا الخلط والاضطراب ، الذى وقع فيه كثير من النقاد قبله (١) ، وهم بصدد دراسة هذا اللون البياني ، وغيره من ألوان البيان الأخرى .

وإذا كانت هذه الدقة الاصطلاحية ، شيئاً تميز به اتجاه الجرجاني في دراسته للصورة البيانية ، وتفرد به عن غيره من النقاد ، فهل هناك من تعليل أو تفسير لذلك ؟ ؟

لقد حاول بعض أساتذة البحث الأدبي من معاصرينا ، تفسير ذلك في ضوء تأثر الثقافة العربية الإسلامية بالثقافة الهلينية .

وتصور بناءً على هذا ، تأثر الجرجاني ، بهذه الثقافة ، وبمنحى أرسطو بالذات في دراسته لهذه الظاهرة البيانية ، وغالى في هذا مغالاة شديدة ، فادعى أن عبد القاهر الجرجاني ، لم يكن إلا فيلسوفاً يجيد فهم أرسطو والتعليق عليه (٢) .

ونحن لا ننكر التأثير الأرسطى في الثقافة العربية الإسلامية ، وفي نشأة البيان العربي وتطوره ، وقد سبق أن دللنا على صحة ذلك (٣) .

ولكن الذى ننكره هنا ، هو عزو هذه الظاهرة المنهجية إلى هذا العامل وحده ، والمغالاة في تصوير تأثر الجرجاني بالثقافة الهلينية ، وأرسطو بوجه خاص .

وذلك لأن التأثير الهيني في الثقافة العربية ، قد حدث قبل الجرجاني بقرنين من الزمان على أقل تقدير ، باعتراف هذا العالم الباحث (٤) ، وكثير من أساتذة البحث الأدبي (٥) .

وقد حظى بعض النقاد العرب من هذا التأثير ، بأكثر ما حظى الجرجاني منه (٦) .

يضاف إلى ذلك ، حقيقة هامة ، وهي أنه قد وضح لنا ، أن منهج الجرجاني ، في دراسة الصورة البيانية ليس منهجياً أرسطياً ، يبدأ بالكليات ، محاولاً تطبيقها على الحالات الجزئية التي تندرج تحتها ، وإنما هو منهج استقرائي ، يبدأ بالجزء ثم ينتهى بالكل .

---

(١) وقد لوحظ هذا ايضا عند بعض المتاخرين - انظر المثل السائر ج ٣ ص ١١٦ ، والطراز ج ١ ص ٢٨٦ والايضاح للقزويني ص ١٤١ .

(٢) البيان العربى من الجاحظ الى عبد القاهر ص ١٤ .

(٣) التيارات الاجنبية في الشعر العربى ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٤) البيان العربى من الجاحظ الى عبد القاهر ص ١٠ - ٢٨ .

(٥) مثل : اوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ص ٢٢٩ ، ودى بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٥ ، ابراهيم سلامة : بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ٥٤ .

(٦) مثل قدامة بن جعفر في كتابيه نقد الشعر ، ونقد النثر .

والمتأمل الواعي ، لا تجاه هذا الناقد في دراسة الصورة البيانية ، يتضح له ، أن وراء هذه الدقة المنهجية ، سبباً أعمق من هذا التأثير الهليني ، وهو اتجاهه الديني والمذهبي ، فلو وعينا جيداً ، مفهومه للصورة البيانية ، واعتباره إياها لونا من ألوان المجاز ، وتحديده بناء على ذلك ، لماهية المجاز وأنواعه المختلفة ، لأدركنا حقيقة ذلك .

وتوضيحاً لهذا نقول ، إنه بدأ دراسته لهذا النوع البياني بالإشارة إلى أن المجاز ضد الحقيقة ، وقسمه بناء على ذلك إلى قسمين : لغوى وعقلى .

مشيراً إلى أن النوع الأول يختص بالمفرد ، أما النوع الثاني فيختص بالجملة . ويعني بالنوع الأول استخدام اللفظ في معنى غير معناه الحقيقى ، لملابسة بين الأصل والفرع ، أو لمشابهة بينهما(١).

وبناء على هذا : فالمجاز اللغوى ، ينقسم عنده إلى قسمين ، مجاز مرسل واستعارة . على اعتبار أن الأصل في المجاز المرسل ، هو وجود صلة أو علاقة ما بين المعنى الأصلى ، والمعنى الفرعى ، كعلاقة السبب بالمسبب ، أو الحال بالمحال ، أو الجزء بالكل ، أو العام بالخاص (٢) . . . ، أما الاستعارة ، فالعلاقة فيها بين الأصل والفرع قائمة على المشابهة .

ومن ثم ، فهو يعتبر التشبيه أصلاً في الاستعارة ، وسمة دالة عليها ، ومميزة لها عن ألوان المجاز الأخرى .

ويلاحظ أنه يلح الحاحاً شديداً على هذه التفرقة ، بين هذه المصطلحات البيانية ، ويبدو أن وراء ذلك الالحاح دافعاً دينياً قوياً .

فكما هو معروف ، أن دراسة المجاز ، كان الباعث على نشأتها وتطورها ، اختلاف بعض الفرق الإسلامية في فهم النص الديني وتأويله .

ويعزى إلى المعتزلة الفضل الأكبر في ذلك ، فقد اتخذوا من دعوتهم إلى التنزيه ، الذى يعد أحـــد أسس التوحيد عندهم (٣) مدخلاً لتأويل النص الدينى ، تأويلاً مجازياً ، وبخاصة تلك الآيات التي ياوح منها تشبيه أو تجسيم ، أو اثبات صفات لله .

---

(١) اسرار البلاغة ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨ .

(٢) انظر انواع هذه العلاقات في كتب بعض المتاخرين كالايضاح ص ١٥٥ ـ ١٥٨ .

(٣) عن اصول المعتزلة انظر ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢١ ـ ٢٢ .

وانتهى الأمر ببعضهم ، إلى اعتبار اللغة مجازاً ، وعدم التسليم بصحة المعنى الحقيقى (١) . ويبدو أن الأشاعرة ، وبعض أهل السنة ، اعتبروا الإ فراط في ذلك التأويل ، شططاً وخروجاً عن المعنى الحقيقى الذى يهدف إليه النص (٢) ، وتفاديا لهذا فقد سلموا بوجود المعنى الحقيقى والمجازى ، وحاولوا على ضوء ذلك ، تفسير بعض الآيات ، التي يلوح منها تشبيه أو تجسيم على أنها مجرد أمثلة لتقريب المعنى إلى الذهن .

ويظهر أن الجرجاني ، المفكر الأشعرى ، والفقيه السنى (٣) ، كان يعضد هذا الاتجاه ويبدو هذا بشكل واضح ، من تفسيره لبعض معاني الآيات القرآنية ، التي أولها المعتزلة ، تأويلاً مجازياً ، وغالوا في ذلك .

مثل قوله تعالى « والسماء مطويات بيمينه » وقوله « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة » . فالمعتزلة يرون أن اليمين هنا ، لا تعنى الجارحة المعروفة ، وإنما تعنى شيئاً معنوياً ، وهو القدرة ، وكذلك القبضة تعنى المعنى نفسه ، وهاتان اللفظتان في رأيهم قد تغير معناهما الحقيقيان إلى هذا المعنى المجازى ، وهما من حيث اللون البياني ، مجاز .

أما في رأى بعض الفرق الإ سلامية الأخرى ، فهما استعارة .

ولكن الجرجاني يقف من هذين الاتجاهين موقفاً معارضاً ، معبراً في ذلك عن اتجاه الأشاعرة وبعض أهل السنة .

ويتلخص موقفه في أنه لا يوافق على إعطاء كل لفظة من هاتين اللفظتين معنى مجازياً ، يحل محل المعنى الحقيقى ، لكل منهما ويلغيه تبعاً لهذا .

ثم إنه لا يوافق على اعتبارهما ، من قبيل الاستعارة ، لأن الاستعارة قائمة في الأصل على التشبيه ومحال أن يقال ، إن الله سبحانه ــ شبه نفسه بإنسان له يد أو قبضة .

وإنما يعتبر هذا كله من قبيل المثل . ويوضح ذلك قوله (وإذا تأملت علمت أنه على طريقة المثل ، وكما نعلم في صدر هذه الآية ، وهو قوله عز وجل ، والأرض جميعاً قبضته

(١) ويبدو هذا ، من منحى الزمخشرى في معجمه أساس البلاغة .

(٢) أسرار البلاغة ص ٤٣٥ ــ ٤٣٨ .

(٣) راجع ترجمته في بغية الوعاة ص ٣١٠ ط : بيروت وفوات الوفيات ط ص ٦١٢ ــ ٦١٣ ط : النهضة بمصر .

يوم القيامة ــ محصول المعنى ، على القدرة ، ثم لا نستجيز أن نجعل القبضة اسماً للقدرة ، بل نصير إلى القدرة من طريق التأويل والمثل ، فنقول : إن المعنى ــ والله أعلم ــ أن مثل الأرض في تصرفها تحت أمر الله وقدرته ، وأنه لا يشذ شيء مما فيها عن سلطانه عز وجل ، مثل الشيء يكون في قبضة الآخذ له منا ، والجامع يده عليه ، وكذلك حقنا أن نسلك بقوله مطويات بيمينه هذا المسلك) (١) .

والشيء نفسه نلحظه عليه في دراسته للمجاز العقلي .

الذى يعرفه ، بأنه إسناد الفعل أو معناه ، لشيء غير قادر على إحداث ذلك الفعل (٢) . كقولنا مثلاً « فعل الربيع النور » أو « أنبت الربيع الزرع » .

والمجاز هنا في إسناد الفعل للربيع ، لأنه غير قادر على إظهار النور ، أو إنبات الزرع . وإنما الفاعل حقيقة هو الله ، القادر على فعل ذلك .

يقول (وإثبات الفعل لغير القادر ، لا يصح في قضايا العقول ، إلا أن ذلك على سبيل التأول ، وعلى العرف الجارى بين الناس ، أن يجعلوا الشيء إذا كان سبباً ، أو كالسبب في وجود الفعل من فاعله كأنه فاعل ، فلما أجرى الله سبحانه وتعالى العادة ، وأنفذ القضية أن تورق الأشجار ، وتظهر الأنوار ، وتلبس الأرض ثوب شبابها ، في زمان الربيع ، صار يتوهم في ظاهر الأمر ومجرى العادة ، كأن لوجود هذه الأشياء حاجة إلى الربيع ، فأسند الفعل إليه ، على هذا التأويل) (٣) .

ثم يشير إلى أن هذا اللون من المجاز موجود في القرآن .

ويتضح هذا في مثـــل قوله تعالى « تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها (٤) » ، وقوله وإذا تليت عليه آياته زادتهم إيماناً « » (٥) ، وقوله « وأخرجت الأرض أثقالها » (٦) .

ويستطرد في ذكر شواهد قرآنية أخرى ، تدل على وجود هذه الظاهرة البيانية في النص الديني (٧) .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٤٠٤ ــ ص ٤٠٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٢١ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٣١ .
(٤) آية ٢٥ من سورة ابراهيم .
(٥) آية ٢ من سورة الأنفال .
(٦) آية ٢ من سورة الزلزلة .
(٧) أسرار البلاغة ص ٤٣١ .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى ما كان للباعث الديني ، من تأثير عليه في تحديده ، لمفاهيم المصطلحات البيانية .

يضاف إلى ذلك عامل هام ، لا ينبغي إغفاله هنا ، وهو ثقافة هذا النقاد العقلية والأدبية ، التي بدى أثرها واضحاً في دراسته لهذه الظاهرة البيانية ، وصياغته لمصطلحاتها الدقيقة ، وتدعيمه ذلك كله بالشواهد والنصوص الأدبية الغزيرة ، ويتجلى الأثر العقلي لهذه الثقافة في منهجه الذي انتهجه لدراسة هذه الظاهرة ، البيانية والذي يتسم كما أشرنا ، بالتحليل الدقيق ، لأجزاء هذه الظاهرة وعناصرها المختلفة مستهدفاً من وراء ذلك ، تحديد ماهيتها وخصائصها العـــامة .

كما يتجلى هذا أيضاً ، في تعبيره الأدبي ، الذي يفوح في كثير من الأحيان ، برائحة الجدل ، والمناقشة العقلية والمنطقية . التي يحاول من خلالها ، مخاطبة عقل القارىء أو السامع ، وإقناعه بما يثيره من قضايا وأحكام نقدية ، حول هذه الظاهرة البيانية ، وأنواعها المختلفة .

ومما يوضح ذلك ، إشارته إلى أن بعض ألوان الصورة البيانية ، كالتشبيه والاستعارة ، ضرب من القيـــاس العقلي .

يقول (أما الاستعارة فهي ضرب من التشبيه ، ونمط من التمثيل ، والتشبيه قياس ، يجرى فيما تعيه القلوب ، وتدركه العقول ، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان ، لا الأسماع والآذان) (١) .

ومما يوضح هذا أيضاً ، اهتمامه الزائد ، بتعليل وجود مثل هذه الظواهر البيانية ، في التعبير الأدبي تعليلاً عقلياً ، والكشف عن قيمها الفنية ، وأسرارها الجمالية . من ذلك مثلاً قوله عن أهمية التمثيل في التعبير الأدبي ، وقيمته الفنية :

(وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين ، حتى يختصر بعدما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المشْم والمعرق .

وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة في الجماد ، ويريك التئام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين) (٢) .

(١) المرجع السابق ص ٢٦ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .

وشبيه بهذا قوله عن أهمية الاستعارة ، وقيمتها الفنية (فإنك لترى بها الجمادَ حيّاً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية . وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها .

إن شئت أرتك المعاني اللطيفة ، التي هي من خبايا العقول ، كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفت الأوصاف الجثمانية ، حتى تعود روحانية خالصة ، لا تنالها إلا الظنون) (١) .

ومن ثم ، يكشف هذا الناقد النقاب، عن الأهمية الحقيقية للصورة البيانية في الفن التعبيرى التي لا تقتصر على توضيح المعنى ، وإبرازه في صورة حسية ، ولكنها تتعدى ذلك إلى تشخيص وإضفاء بعض الصفات الإ نسانية عليه ، أو تجريد الأوصاف المادية من صفاتها المادية والحسية ، حتى تصبح روحانية خالصة .

وعلى هذا ، فهي ليست أداة لنقل المعنى وحسب ، وإنما هي أيضاً ، أداة لنقل انفعال الأديب بالمعنى ، والكشف عن صلته الوثيقة بنفسه ووجدانه .

وعلى هذا يمكننا القول ، بأن مفهوم الصورة البيانية عند الجرجاني ، لا يقتصر على كونها معنى منمقاً في حلية أنيقة، ولكنه يتعدى ذلك ، إلى اعتبارها مجموعة من الاحساسات والمشاعر التي يضفيها الأديب على المعنى ، مصوراً ذلك كله ، في إطار فنى جميل ، يثير وجدان المتلقين له ، فتميل نفوسهم إليه ، وتنجذب أفئدتهم نحوه .

ويؤكد هذه الحقيقة قوله عن الأثر النفسى للتمثيل (واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت باختصار في معرضه ، كساها أبهة ، وضاعف قواها فيّ تحريك النفوس إليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً) (٢) .

وقد سبق الجرجاني بهذا الإ دراك الواعى ، للقيمة النفسية للصورة البيانية ، ما وصل إليه بعض النقـــاد الأوربيين المحدثين من نتائج في هذا الشأن (٣) ، وكذلك فلاسفة علمى النفس

(١) المرجع السابق ص ٥٠ ـ ٥١ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٩ .
(٣) مثل رتشارد ز الذى يعد ابا النقد الانجليزى انظر كتابه مبـــادىء النقد الادبى ص ٣١٠ الترجمة العربية .

والجمال (١) ، كما استطاع بذلك أن يضع في أيدينا مفتاحاً لحل مشكلة من أعقد المشاكل الفنية في دراسة الصورة البيانية ، عند شعراء البديع في العصر العباسى .

وهي تجاوزهم حدود الصياغة التعبيرية المألوفة للصورة البيانية ، وذلك لعدم مراعاتهم لحد المقاربة في التشبيه ، والملاءمة في الاستعارة .

من ذلك مثلاً قول أستاذهم بشار بن برد :

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا

وقول أبي نواس :

ما لرجل المال أمست تشتكى منك الكلالا

وقول مسلم :

تظلم المال والأعداء من يده لازال للمال والأعداء ظلاما

وقول أبي تمام :

لا تسقنى ماء الملا فإننى صب قد استعذبت ماء بُكائي

ويتخذ النقاد المحافظون ، من هذه الأبيات ، وما على شاكلتها ، شواهد على خروج هؤلاء الشعراء عن حدود الصياغة التعبيرية المألوفة للشعر العربي (٢) .

إذ ليس هناك وجه شبه واضح في بيت بشار بين رجع الحديث وقطع الرياض ، وليس هناك ملاءمة في استعارة للرجل للمال في بيت أبي نواس ، وكذا في استعارة التظلم للمال في بيت مسلم ، والماء للملام في بيت أبي تمام .

ولكن الجرجاني ، يرى هنا رأياً آخر ، يعد بمثابة مفتاح لحل هذه المشكلة .

وخلاصة هذا الرأى ، أن المقاربة في التشبيه ، والملاءمة في الاستعارة ، قد لا يلتمسان أحياناً في الواقع المادى الخارجى ، وإنما يلتمسان في الواقع النفسى الداخلى .

ويمثل لهذا بالمثال المشهور « كلام كالعسل » فليس هنا وجه شبه واضح بين الكلام

(١) من الوجهة النفسية ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ، والنقد الادبى الحديث لغنيمى هلال ص ٢٨٨ ـ ٢٩١ .
(٢) انظر الكامل للمبرد جـ ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٢ ، الموازنة جـ ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٥٣ الصناعتين ص ٣١١ ـ ٣١٣ والمثل السائر جـ ١ ص ١٥٤ ـ ١٥٦ ، الطراز ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

والعسل ، فالكلام شيء مسموع ، والعسل شراب مذوق ، ولكن هنا وجه شبه خفى بين طرفي هذا التشبيه . (وهو ما يجده الذائق في نفسه من اللذة ، التي تحصل في النفس ، إذا صادفت بحاسة الذوق ، ما يحيل إليه الطبع ، ويقع منه بالموافقة ، فلما كان كذلك ، احتيج لا محالة إذا شبه اللفظ بالعسل في الحلاوة ، أن يبين أن هذا التشبيه ، ليس من جهة الحلاوة نفسها وجنسها ، ولكن من مقتضى لها ، وصفة تتجدد في النفس لبسببها ، وأن القصد أن يخبر بأن السامع يجد عند وقوع هذا اللفظ في سمعه ، حالة في نفسه شبيهه بالحالة التي يجدها الذائق للحلاوة من العسل ، حتى لو تمثلت الحالاتان للعيون ، لكانتا تريان على صورة واحدة(١)

وهذا يكشف لنا بوضوح وجلاء ، عن صبغة أخرى ، اصطبغ بها اتجاه هذا الناقد ، في دراسته للصورة البانية ، علاوة على الصبغة العقلية ، وهي الصبغة النفسية ، التي يبدو أنها سمة غالبة على اتجاهه النقدى بوجه عام (٢) .

يؤازرها ذوق فنى رفيع ، يتجلى بوضوح في اختياره ، لكثير من الشواهد الأدبية ، التي انتقاها من عيون الشعر العربي .

ويعزى معظمها إلى ، فحول شعراء العصر العباسى ، الذين عنوا في أشعارهم عناية كبيرة ، بالتصوير الفنى ، وأحلوه أداة للتعبير ، محل اللفظ الفخم والتعبير الجزل ، الذى كان سمة غالبة على لغة الشعر القديم .

ويتجلى ذوقه الفنى كذلك ، في نقده وتحليله ، لهذه النصوص الفنية ، وألوانها البيانية .

ولاشك أن تذوقه الجمالي لهذه النصوص ، وتحليله الدقيق لها ، قد جعله يلحظ أدق الخصائص الفنية ، للألوان البيانية ، التي تميز كل لون منها عن الآخر ، وتبرز الفروق الفنية الدقيقة بين هذه الألوان .

فقد لاحظ مثـلاً ، من خلال هذا التذوق الجمالى ، أن بعض ألوان الصورة البيانية ، كالتشبيه إذا جاء في الهيئات كان أدق وأغرب من أى تشبيه آخر .

كما لاحظ كذلك ، أن هذا النوع الطريف من التشبيه ، لا يطرد في النصوص الأدبية

---

(١) اسرار البلاغة ص ١١١ .

(٢) من الوجهة النفسية ص ١٣٣ ـ ١٣٧ .

على صورة واحدة ، بل على صورتين ، إحداهما : مقترنة ببعض الأوصاف كالشكل واللون ، والأخرى مجردة من أي وصف عدا الهيئة ، التي قد تكون متحركة ، أو ساكنة (١).
ومن أمثلة النوع الأول قول بعض الرجاز :

والشمس كالمرآة في كف الأشـــل (٢) .

ومن أمثلة النوع الثاني ، قول ابن المعتز في وصف حركة البرق :

وكأن البرق مصحف قار فانطباقاً مرة وانفتاحا (٣) .

وهذا وصف لهيئة متحركة ، أما عن وصف الهيئة الساكنة ، فمن أمثلته ، قول المتنبي في وصف كلب :

يقعى جلوس البدوى المصطلى بأربعة مجدولة لم تجدل (٤) .

ومن المظاهر الدالة على صدق حسه الفنى ، ومقدرته الفائقة على التذوق الأدبي ، كشفه الدقيق ، للأسرار الجمالية ، وراء كل صورة من هذه الصور الفنية ، وتعليقه عليها .

ومما يوضح هذه الحقيقة قوله ، عن علة جمال الصورة الأولى من هذا التشبيه : (وذلك أن الهيئة ، التي تراها في حركة المرآة ، إذا كانت في كف الأشل ، مما ترى نادراً في الأقل ، فربما قضى الرجل دهره ، ولا يتفق له أن يرى مرآة في يد مرتعش . هذا وليس موضع الغرابة من التشبيه دوام حركة المرآة في يد الأشل فقط ، بل النكتة المقصودة ، فيما يتولد من دوام تلك الحركة من الالتماع وتموج الشعاع ، وكونه في صورة حركات من جوانب الدائرة إلى وسطها ، وهذه صفة ، لا تقوم في نفس المرآة الدائمة الاضطراب ، إلا أن يستأنف تأملاً ، وينظر مثبتا في نظره متمهلاً ، فكأن ها هنا هيئتين كلتاهما من هيئات الحركة ، إحداهما : حركة المرآة على الخصوص الذى يوجبه ارتعاش اليد ، والثانية حركة الشعاع ، واضطرابه الحادث من تلك الحركة) (٥) .

(١) اسرار البلاغة ص ٢٠٧ ـ ١٢٣ ·
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٧ ·
(٣) ديوان ابن المعتز ص ١٣٢ ط : الخياط ·
(٤) ديوان المتنبى ج ٣ ص ٣٢٠ ط : البرقوقى ·
(٥) اسرار البلاغة ص ٢١٢ ·

ومما يوضح ذلك أيضاً قوله ، تعليقاً على البيت الأول من الصورة الثانية « ألا ترى أن الهيئة التي اعتمدها في تشبيه البرق بالمصحف ، ليست تكون إلا في النادر من الأحوال وبعد عمد من الإنسان ، وخروج عن العادة ، ومقصد خاص ، وطبع غالب على النفس غير معتاد) (١) .

وقوله تعليقاً على بيت المتنبي (فقد اختص هيئة البدوى المصطلى ، في تشبيه هيئة سكون أعضاء الكلب ، ومواقعها فيها ، ولم ينل التشبيه حظاً من الحسن ، إلا بأن فيه تفصيلاً من حيث كان لكل عضو من الكلب في اقعائه موقع خاص ، وكان مجموع تلك الجهات في حكم أشكال مختلفة ، تؤلف فتجيء منها صورة خاصة) (٢) .

ومن لفتاته الفنية الدقيقة ، التي تنم عن أصالة ذوقه الأدبي ، ترجيحه أحيانا بعض ، الشواهد الشعرية ، على ما يماثلها في المعنى ، لأسباب تتعلق بحسن صياغتهما ، وإبداعها الفنى .

من ذلك مثلاً تعرضه ، وهو بصدد التفرقة بين التشبيه المتعدد والمركب ، إلى بيتين متقاربين في المعنى ، أحدهما لشاعر قديم ، وهو بكر بن النطاح ، والآخر لشاعر من متأخرى المحدثين ، وهو المتنبي ، ومحاولته المفاضلة بينهما ، وترجيح أحدهما على الآخر ، وهذان البيتـان هما :

قول المتنبي :

دون التعـانق ناحلـين كشكلـتى نَصب أدقهـا وضـم الشـاكل

وقول بكر بن النطاح :

إني رأيتك في نومـى تعـانقنى كما تعـانق لام الكاتب الألفا (٣)

ويرجع بيت المتنبي على بيت بكر ، لأن بكرا اقتصر في تشبيهه على الإطار الخارجى للصورة ، وهو وصف شكل العناق ، أو منظر العناق ، وذلك بمقارنته بشكل آخر ، وهو التقـاء لام الكاتب بألفه .

أما المتنبي ، فقد تعدى وصف هذا الشكل الخارجى للصورة ، إلى الكشف عن الحالة

(١) المرجع السابق والصحيفة ·
(٢) المرجع السابق ص ٢١٣ ·
(٣) أسرار البلاغة ص ٢٣٠ ط : المراغى ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ط : ريتر ·

النفسية ، للعاشقين ، وتعطش كل منهما للقاء الآخر وعناقه ، ثم محاولتهما تحقيق ذلك ، لولا يقظة أعين بعض الرقباء ، التي حرمتهما من ذلك ، وأثر هذا كله على حالة كل منهما الجسمانية ، وآية ذلك ، هذا النحول الذى بدى على كل منهما ، والذى لم يجد المتنبي شبها له ، سوى شكلي نصب أنحلهما قلم كاتب .

ومما يؤكد ذلك ، قول الجرجاني ، كاشفاً عن سر تفضيله لبيت المتنبي ، على بيت بكر : إنه – أى المتنبي – « لم يعرض لهيئة العناق ومخالفتها صورة الافتراق وإنما عمد إلى المبالغة في فرط النحول ، واقتصر من بيان المعانقة على ذكر الضم مطلقاً . والأول لم يعن بحديث الدقة والنحول ، وإنما عنى بأمر الهيئة التي تحصل في العناق خاصة ، من انعطاف أحد الشكلين على صاحبه ، والتفاف الحبيب بمحبه .

ولئن كان المتنبي قد زاد على الأول ، فليس تلك الزيادة من وضع الشبه على تركيب شكلين ، ولكن من جهة أخرى وهي الاغراق في الوصف بالنحول ، وجمع ذلك للخلين معاً ، ثم إصابة مثال له ونظير من الخط » (١) .

وهذا التذوق الجمالي والنفسي لمثل هذه النصوص الأدبية علاوة على الاتجاه العقلي ، في فهمهما وتعليلها يعد شيئاً جديداً وطريفاً ، على الدراسات النقدية العربية (٢) .

والذى يمنحها هذه الجدة وتلك الطرافة ، هو أن صاحبها قد استضاء في ذلك ، بما لديه من رصيد ثقافي ، استمده من ينابيع بعض العلوم والمعارف العقلية ، والأدبية ، ولذا فقد اصطبغت دراسته لهذه الظاهرة البيانية بصبغات مختلفة ، وتلونت بألوان عديدة ، منها ما هو عقلي ، ومنها ما هو نفسي ، ومنها ما هو ذوقي جمالي .

وقد امتزجت هذه الألوان معاً ، وتفاعل بعضها مع بعض ، مكوناً من ذلك كله صبغة واحدة ، لُحْمتها الذوق والوجدان وسَداها العقل والفكر ، ملقيةً بظلها على اتجاهه العام في دراسته لهذه الظاهرة البيانية .

الذى استطاع من خلاله ، أن يثير في المتلقين له ، متعة الاقناع العقلي ، ولذة الامتاع الوجداني والنفسي .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٠ – ٢٣١ .

(٢) من الوجهة النفسية ص ١٠٧ والبيان العربى بدوى طبانة ص ١٩٢ ط : دار العودة بيروت .

(مـراجع البحـث)

١ – أساس البلاغة / الزمخشرى / الناشر دار الشعب بمصر .

٢ – أسرار البلاغة / عبد القـاهر الجرجاني / تحقيق ريتر ، والمراغى .

٣ – الإيضاح / الخطيب القزوينى / الناشر : محمد صبيح بالقاهرة .

٤ – بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة / السيوطى ط : دار المعرفة – بيروت .

٥ – بلاغة أرسطو بين العرب واليونان / الدكتور إبراهيم سلامة ط : الأنجلو المصرية .

٦ – البيان والتبيين / الجاحظ / تحقيق عبد السلام هارون ط : الخانجى بمصر (الرابعة) .

٧ – البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر / الدكتور طه حسين / ترجمة : عبد الحميد العبادى « منشور ضمن كتاب نقد النثر لقدامة بن جعفر » الناشر : لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقـاهرة .

٨ – تاريخ الفلسفة في الإسلام / دى بور / ترجمة : الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة الناشر : المؤسسة المصرية العـامة للتأليف والترجمة والنشر .

٩ – تاريخ النقد العربي / الدكتور محمد زغلول سلام الناشر : دار المعـارف بمصر .

١٠ – التيارات الأجنبيـة في الشعر العربي / للدكتور عثمان موافي . الناشر : مؤسسة الثقـافة الجامعية بالإسكندرية .

١١ – الحيوان الجـاحظ / تحقيق عبد السلام هارون ط الثالثة – بيروت .

١٢ – دائرة المعـارف الإسلامية – الترجمة العربية .

١٣ – دلائل الإعجاز / عبد القاهر الجرجاني / ط : السادسة ، تحقيق رشيد رضا الناشر : محمد صبيح بالقاهرة .

١٤ – ديوان عبد الله بن المعتز ٪ تحقيق الخياط / الناشر : المكتبة العربية بدمشق .

١٥ – ديوان المتنبي تحقيق البرقوقي ط : الاستقامة بالقـاهرة .

١٦ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب / ابن العماد الأصفهاني ط : القدسى .

١٧ – ضحى الإسلام ٪ أحمد أمين / الناشر : النهضة المصرية .

١٨ – الطراز / حمزة العلوى / ط : المقتطف بمصر .

١٩ – فوات الوفيات / ابن شاكر الكتبي ، تحقيق محى الدين عبد الحميد . الناشر : السعادة بمصر .
٢٠ – الكامل في اللغة والأدب / المبرد / ط : بيروت .
٢١ – كتاب البديع / عبد الله بن المعتز / ط : كرتشقوفسكى ، ط : خفاجى .
٢٢ – كتاب الصناعتين / أبو هلال العسكرى / تحقيق على البجاوى ، محمد أبو الفضل إبراهيم / الناشر : عيسى البابي الحلبى .
٢٣ – مبادىء النقد الأدبي / تأليف : رتشاردز / ترجمة د . مصطفى بدوى . الناشر : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .
٢٤ – المثل السائر / ضياء الدين بن الأثير ط : نهضة مصر بالفجالة .
٢٥ – مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب / تأليف : أوليرى ترجمة دكتور تمام حسان الناشر : الأنجلو المصرية .
٢٦ – من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده / محمد خلف الله أحمد / الناشر : جامعة الدول العربية . ط : (الثانية) .
٢٧ – مناهج البحث عن مفكرى الإسلام / الدكتور على سامى النشار / ط : دار المعارف بمصر .
٢٨ – منهج النقد التاريخي الإسلامي / والمنهج الأوربي / الدكتور عثمان موافي الناشر : مؤسسة الثقافة الجامعية بالاسكندرية .
٢٩ – الموازنة بين الطائيين / الآمدى / تحقيق السيد صقر الناشر : دار المعارف بمصر .
٣٠ – نظرية المعنى / الدكتور مصطفى ناصف / دار العلم القاهرة .
٣١ – النقد الأدبي الحديث / الدكتور محمد غنيمى هلال / الناشر : دار نهضة مصر بالفجالة
٣٢ – نقد الشعر / قدامة بن جعفر / ط : المليجية بالقاهرة .
٣٣ – نقد النثر / قدامة بن جعفر / الناشر : لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر .
٣٤ –
The Meaning of Meaning by/OGden and Richards New York 1938.

حول قضية التوفيق بين الدين والفلسفة

دكتور محمد ابراهيم الفيومي
مدرس الفلسفة بكلية الانسانيات

حاولت المدرسة الفلسفية في الفكر الإسلامي عندما تبنت الفلسفة بالترجمة والشرح والتأليف أن تصبغ عليها صفة التقديس حينما درستها كغاية في ذاتها وأصبح الحكيمان في نظرها معصومين والمدرسة بذلك أخطأت الفهم الفلسفي لمعنى الفلسفة .

على أي حـــال ترتب على هذا الفهم المدرسي أن برزت الفلسفة في الجو الفكري الإسلامي ومعها مسوغات رفضها من قبل العقل الإنساني لأن الفكر البشرى غدا في مفهوم المدرسة معصوماً من الخطأ حينئذ قذف بها العقل وسخر منها .

وسوف نعرض نموذجاً تطبيقياً لمحاولات يائسة نحو توحيد الفكر البشري وجعله مساوقاً للوحي الإلهي .

١ — الدين والفلسفة في نظر الفارابي في كتابه تحصيل السعادة :

« الملة محاكية للفلسفة عندهم ، وهما تشتملان على موضوعات بأعيانها ، وكلاهما تعطي المبادئ القصوى للموجودات ، فإنهما يعطيان علم المبدأ الأول والسبب الأول للموجودات وتعطيان الغاية القصوى التي لإجلها كون الإنسان وهي السعادة القصوى والغـــاية القصوى في كل واحد من الموجودات الأخرى .

وكل ما تعطي الفلسفة فيه من البراهين اليقينية فإن الملة تعطي فيه الاقناعات والفلسفة تتقدم بالزمـــان الملة . » (١)

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق معاقبا : والفرق بين الدين والفلسفة عند الفارابي هو من جهة أن طرق الفلسفة يقينية أما طريق الدين فاقناعي ، ومن جهة أخرى تعطي الفلسفة حقائق الأشياء كما هي ولا يعطي الدين إلا تمثيلاً لهـــا وتخييلاً . وقد ذكر الفارابي ذلك في مواضع مختلفة من كتبه (٢) .

---

(١) ص ٤٠

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٧٩

٢ – رأى ابن سينا فيهما :

« مبدأ الحكمة العملية مستفاد من جهة الشريعة الإلهية وكمالات حدودها تتبين بها وتتصرف فيها بعد ذلك القوة النظرية من البشر بمعرفة القوانين واستعمال الجزئيات .

ومبادئ الحكمة النظرية مستفادة من أرباب الملة الإلهية على سبيل التنبية ومتصرف على تحصيلها بالكمال بالقوة العقلية على سبيل الحجة (١) » .

٣ – ويعلق الشهرستاني في كتابه الملل والنحل على قول ابن سينا فيقول : –

والأنبياء أيدوا بأمداد روحانية لتقرير القسم العملي وبطرف ما من القسم العلمي . والحكماء تعرضوا لأمداد عقلية تقرر للقسم العلمي وبطرف ما من القسم العملي . فغاية الحكيم هو أن يتجلى كل الكون ويتشبه بالآله الحق تعالى بغاية الإمكان . وغاية الدين أن يتجلى له نظام الكون فيقدر على ذلك مصالح العامة حتى يبقى نظام العالم وينتظم مصالح العباد وذلك لا يتأتي إلا بترغيب وترهيب وتشكيل وتخييل . فكل ما وردت به أصحاب الشرائع والملل مقدر على ما ذكرناه عند الفلاسفة إلا من أخذ علمه من مشكاة النبوة فإنه ربما بلغ إلى حد التعظيم لهم وحسن الاعتقاد في كمال درجتهم .

« والدين والحكمة عند هؤلاء الفلاسفة يفيض كلاهما عن واجب الوجود على عقول البشر بواسطة العقل الفعال إذ المعارف كلها صادرة عن واجب الوجود بواسطة العقل الفعال وحيا كانت المعرفة غير وحي فلا فرق بين الحكمة والدين من جهة غايتهما ولا من جهة مصدرهما وطريق وصولهما إلى الإنسان .

٤ – تعليقات مختلفة حول القضية : –

رأى يقول : إن في قضية الدين والفلسفة إتجاه فكرى جديد بل وبعض الفلاسفة الغربيين يجعلها مناط الابتكار في الفلسفة الإسلامية .

ورأى يذهب إلى غير ذلك تماماً ويجعلها سبباً لانقلاب فلاسفة الإسلام إلى مبشرين بالدين الإسلامي ودعاة له (٢) .

ويرى « جولد زيهر » : أن توفيق فلاسفة المسلمين بين الدين والفلسفة لا ينم عن قبولهم

(١) تسع رسائل في الحكمة ص ٢

(٢) التمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٧٨

النفسي للفلسفة الإغريقية ولا عن رجاحة العقل الإغريقي لديهم أو اقتناعهم بعصمة الحكمة الإغريقية بل ينم عن خشيتهم من جمهور المسلمين وعن محاولتهم تجنب سخط الرأي العام الإسلامي على الفاسفة والفلاسفة » .

بينما يرى الدكتور / محمد البهي غير ذلك فيقول : —

« على أن التوفيق بين الآراء الإغريقية من جهة وبين الإسلام من جهة أخرى إن كان يعتبر مظهر للتعبير عن قبول فلاسفة المسلمين لها فهو في الواقع أهم مظهر لهذا القبول . إذ محاولة دفعهم التعارض بين الجانبين ينبئ عن تمسكهم بالفلسفة تمسكاً لا يقل عن تمسكهم بالإسلام وعن وضعهم لها في صبغته ومنزلته .

ولو أنهم لم يحرصوا عليها شدة الحرص لضحوا برأى الذى يتعارض من مبادئ الإسلام ولم يلجأوا إلى الحد من هوة المعارضة أو إلى محاولة إزالتهـــا » (١) .

رأينا في قضية التوفيق بين الفلسفة والدين : —

أولاً : تعليق على التعليقات :

واضح من التعليقات السابقة أنها تتجه إتجاهين :

- إتجاه يبرزها بأنها محاولة يتجنب بها سخط الرأى العام الإسلامي ويعني هذا الرأى أن المدرسة الفلسفية لم تتخير القضية لذاتها وإنما حملت عليها خوف إثارة الرأى العام . هذا الاتجاه لا نقبله لأن المدرسة الفلسفية وجهت الفلسفة معنى وموضوعاً ومنهجاً لخدمة هذه الغاية وذلك عندما خصت الفلسفة بالربوبية ومعارفها وكان العلم الإلهي يسمى عندهم الفلسفة بالحقيقة والفلسفة الأولى والحكمة المطلقة فقضية الدين والفلسفة لم تكن ملقاً فكرياً وإن كان هذا معنى يلاحظ من ورائها إنما كانت القضية بالدرجة الأولى تطبيقاً عملياً من المدرسة لفهمها الفلسفي متبعة في ذلك مدرسة الإسكندرية وشراح اليهود مثل فيلون الإسكندرى
- أما الاتجاه الثـــاني فإنه يشايعهم في قيمة القضية ووزنها الفلسفي ويتخذ من ورائها موقفاً يؤيد به موضوع الأصالة في إتجاه المدرسة الفلسفية ويدفع به أيضاً الرأى القائل بأن موضوع التوفيق لا ثقل له إلا من حيث تجنب سخط الرأى العام الإسلامي هذا الاتجاه

(١) الجانب الالهي من التفكير الاسلامي ص ٢٨٨

الأخير أجد نفسي لا تشايعهم فيه كذلك لأننا لا نجد فيه أصالة فكرية ولا إتجاهاً أصيلاً في الفلسفة ولا في الدين إنما الأمر كان تقليداً كما قلنا لمسالك الافلوطينية في مدرسة الإسكندرية ومدرسة الإسكندرية عندما تبنت هذا الموضوع كانت تخدم به التوفيق بين مدرستين مضطهدتين مدرسة أثينا واليهودية والمسيحية على اختلاف مراحل الاضطهاد من الدولة الرومانية .

فكانت القضية قميصاً يلبسه المفكرون أمام الاضطهاد السياسي لهم .

ثانياً : عرض للقضية من جانبنا :

نلاحظ أن المدرسة الفلسفية أظهرت الفلسفة على أنها علم الربوبية وعلم السلوك الفاضل فأصبح من الطبيعي للمدرسة الفاسفية أن تربط بين الدين والفلسفة مادام موضوعهما واحد وهو البحث عن الحقيقة المطلقة وكما يقول ابن سينا والفارابي قبله أن كلاهما يبحث في السعادة . أداهم هذا الفرض إلى إقامة بنيان شامخ أجهدوا في سبيله العقل .

أجهدوه في إقامة وحدة فلسفية أخرجوها من بين شتات مبعثر من آراء غير واضحة النسبة لأصحابها أو من ترجمة عاجزة عن إبراز النص واضحاً . بالرغم من ذلك فإن عقل المدرسة الفلسفية قدم الفلسفة – في محاولة شاقة – في مظهر من الوحدة المتآلفة ليوائم بينها وبين الدين ويحقق بذلك هدفاً فكرياً للمدرسة ثم يجعل للفلسفة سيادة شرعية في جو المجتمع الإسلامي .

يعطي الموقف العام لخط سير المدرسة الفكرى أنها تسير في طريق صعب وغريب على الدين والفلسفة فليس في الفلسفة وحدة في الرأى وليس في الدين سلطة للعقل سوى التفسير ولقد رصدت المدرسة الفلسفية صعوبة الموضوع أو صعوبة تحقيق الوحدة المتجانسة بينهما من خلال تمايز الدين بأنه يقوم على الآدلة الإقناعية والفلسفة تقوم على الآدلة البرهانية والنبي يتصل بالعقل الفعال عن طريق المخيلة والفيلسوف يتصل به عن طريق العقل ، هذه الفروق – وهي في نظرنا خيالية وليدة خيال الفارابي – ، ترفض قضية التوحيد بينهما من أساسها لأنها فروق جوهرية في نظرهم كذلك كان الاضطراب نتائجها مسوغات كافية أمام الفكر الإسلامي ليكافحها ويناهضها ودعوة لينظر إلى القضية من جديد . وتحددت

أسباب مكافحة الفكر الإسلامي للمدرسة الفلسفية من حيث نتائجها الفلسفية وليس من حيث أنها تبحث في فلسفة وافدة فاتجاه المدرسة في حد ذاته كان أشد ضرراً على الفلسفة وعلى تحديد مستقبلها .

من هنا برز إتجاه رافض لقضية التوفيق في الفكر الإسلامي من خلال صياغة عقلية أكثر تحرراً من المدرسة الفلسفية التي ربطت العقل بين مقدسين في نظرها هى الفلسفة والدين . أما الفكر الإسلامي فقد أسند كلاً منهما إلى شرعية انتسابه فنسب الدين إلى الوحي والفلسفة إلى العقل وأصبحت الفروق كالآتي : —

- الدين مصدره الوحي والفلسفة مصدرها العقل .
- الدين طريقه نبي معصوم من الخطأ والفلسفة طريقها فيلسوف ليس له هذه العصمة ولا يرغب هو فيها .
- الدين قضاياه يقينية والفلسفة ليست قضاياها كذلك .

بذلك وجدت النظرة الرافضة حيثياتها .

ويبدو من وجهة نظرنا أن افتعال قضية الفلسفة والدين ومحاولات المدرسة نحو تحقيق الوحدة بينهما هي التي أظهرت الفلسفة أنها غير متآخيه مع الدين أمام الفكر الإسلامي ثم اصرار المدرسة على ذلك جعل العلاقة بين الاتجاه الموفق قائماً على التنابز في بعض الأحيان وفي غالبها على نبذ كل منهما محاولات الآخر . نتيجة ذلك تحولت قضايا الجدل إلى قضايا عقيمة لا تهم الدين ولا الفلسفة ولا المجتمع وذلك بسبب ضيق النظر والتعصب . واسبغ كل منهما على الآخر أوصافاً عملت حواجز منعوا بها مشورات الرأى ورؤية أبعاد الخلاف الفكرى بينهما .

ثالثاً : محاذير التوفيق ونتائجه : —

إن إقامة وحدة بين الدين والفلسفة محاولة صعبة وعسيرة على الدين والفلسفة من حيث الناحية الموضوعية لأننا إذا ساوينا بين الدين والفلسفة إذا أردنا أن نسوى ففي أى موضوع ؟ نريد أن نسير مع القضية متدرجين درجة درجة .

أولاً : مصدر الدين الوحي ومصدر الفلسفة العقل . إذا قبلنا من وجهة النظر النظرية وآمنا بقضية التسوية فمعنى ذلك أننا نساوى بين العقل والوحي أى أننا نساوى بين قضايا يقينية وقضايا جدلية وتصبح خصائص الوحي هي خصائص العقل وخصائص العقل هي خصائص الوحي وتلك نتائج تنفر منها الفلسفة ولا يرضى عنها الدين إذا القضية من حيث المصدر غير قابلة للمساواة فلو وافق الفليسوف على أنه سوف يأخذ مواصفات الوحي ستلغى الفلسفة ولو وافق النبي على أن يأخذ مواصفات الفيلسوف سيلغى الدين أى سوف نجد في النهاية أننا بين دين فقط أو فلسفة فقط .

ثانياً : نلاحظ أن جميع الأنبياء يعطون للعقل قيمته بيد أنهم يجعلونه في منزلة تالية للوحي أما الفلاسفة فإنهم على النقيض من ذلك فغالبيتهم تؤمن بالعقل بالدرجة الأولى حتى فلاسفة المدرسة الفلسفية في الفكر الإ سلامي ومعارف الوحي تالية له والبعض يؤمن بالعقل بالدرجة الأولى ولا شئ غيره ومعارف الوحي غير ثابتة له فينكرها أى بعض الفلاسفة يثبت الوحي وبعضهم لا يثبته وهذا الموقف في حد ذاته يمنع الشكل التوحيدى للقضية . فالفلسفة تحمل في نفسها هذه الآراء المتناقضة في الموضوع الواحد والنبوة منحة إلهية لا يمنح أياها إلا من كان ذو عقل فريد أى أن النبي مفكر وعاقل والنبي يعترف بالعقل غير أنه لا يعترف أنه مصدر الوحي وليس الوحي وليد تفكيره هذا فضلاً عن قضايا الإ يمـــان التي يؤمن بها النبي ويرى الفيلسوف فيها حرجاً فهو قد يؤمن بها وقد لا يؤمن :

* فالنبي يعترف بأن النواميس تجيئه من قبل الوحي .

والفيلسوف لا يرى ذلك إنما هو دائم البحث عنها وفيها وقد يوفق وقد لا يوفق .

* النبي يعترف ويعلن ذلك بأن صفة النبوة والوحي ومعجزاته سبيلها الله إذ الله في عرف النبي قضية مسلمة وليست قابلة للجدال والنقاش في نفسه لا في نفس قومه لأنه قد يجادل قومه لإ ثباتها لهم .

* والفيلسوف يرى أن قضاياه الفلسفية طريقها العقل والمنطق وهو مرتبط بنتائج فكره فقد يصل إلى مرتبة الاعتراف بالله وقد لا يصل وإذا وصل إلى مرتبة الاعتراف بالله فإنه قد لا يعترف للنبي بأنه نبي .

يقول الدكتور * عبد الحليم محمود : ثم أن هذا الاتجاه خطر على الدين نفسه : إنه انصراف عن النص الإلهي إلى العقل ومن جانب آخر إقامة مصدر لمعرفة الغيب غير النبوة وفي ذلك لا شك صرف للناس عن التأمل في النص المقدس كمصدر لمعرفة الإلهيات وفيه كذلك تقليل من شأن النبوة » (١) إذا هناك صعوبات تخرج العقل عن حد الاعتدال أن تشبث بالتوحيد بينهما وذلك كما حصل في المدرسة الفلسفية في الفكر الإسلامي . فالفلسفة مازالت ترى في نفسها عجزاً عن حل مشكلات ما وراء الطبيعة ومازالت ترى أن عالم الغيب مشكلة إن عجزت عن الوصول إليه وإن أرادت حله وصفته بأنه خرافة وبين الرأيين فرق : فالموقف الذى وصف نفسه بالعجز عن الوصول إلى عالم الغيب فيه خطوة إلى الإيمان والموقف الذى وصفه بالخرافة فيه تقهقر عن الإيمان وفي النهاية إذا وفقنا بين الفلسفة والدين فهذا معناه أن الفلاسفة يؤمنون بعالم الغيب ومشكلات ما بعد الطبيعة وتاريخهم لا يشهد لهم بذلك .

---

(١) ابي حامد الغزالي – الذكرى المئوية ، معرفة الغيب .

نظريات ابن جني في دلالة الألفاظ وموقف المحدثين

دكتور أمين محمد فاخر
استاذ مساعد بقسم اللغة العربية

لم تكن دراسة اللغة عند علمائنا العرب القدامى قاصرة على ذكر بعض القواعد في النحو والصرف والبلاغة وغيرها من العلوم اللغوية دون تعمق فيما تحويه العربية من أسرار وما تنطوى عليه دراستها من نتائج ، وإنما كان للمتقدمين في هذه الدراسات اللغوية نظريات مبتكرة أتاحت لمن يليهم من العلماء دراستها ، والتعمق فيها ، والإتيان بها على صورة مكتملة ، بحيث يمكن للباحثين من بعدهم تطبيق هذه النظريات في كثير من النواحى اللغوية .

فمن ينظر مثلاً إلى مؤلفات العالم العربي الكبير : الخليل بن أحمد (١٠٠ — ١٧٥ هـ) وأهمها كتاب العين ، أو إلى الكتاب لتلميذه إمام النحاة سيبويه ، أو إلى غيرها من مؤلفات أئمة اللغة المتقدمين من علماء العربية فإنه يستطيع استخراج كثير من هذه النظريات اللغوية الهامة .

ولقد فطن كثير من علماء اللغة في القرن الرابع الهجرى إلى ما أتى به هؤلاء الأئمة السابقون من عبارات ومسائل لغوية هامة ، وتعمقوا فى دراستها . واستطاعوا في النهاية أن يخرجوا لنا من هذه الدراسة الواعية المتعمقة كثيراً من النظريات اللغوية التي يمكن أن تتخذ أصلاً في كثير من نواحى اللغة ، وخاصة ما يتعلق منها بالألفاظ ودلالتها .

ومن أبرز علماء هذا القرن عالمان جليلان هما أحمد بن فارس الرازى (ت ٣٩٥ هـ) ، وأبو الفتح عثمان بن جنى (ت ٣٩٢ هـ) . وقد ألف كل منهما كتاباً يعد مفخرة من مفاخر التأليف في الدراسات اللغوية بوجه عام ، وفى فقه اللغة بوجه خاص . فأما ابن فارس فقد ألف كتابه : « الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها » وضمنه كثيراً من البحوث الجليلة فى فقه اللغة ، ووقف فيه على كثير من خصائص العربية ومميزاتها ، وأما ابن جنى

فقد ألف كتابه « الخصائص » الذى اشتمل على كثير مما تحويه العربية من أسرار ، وقد اتجه فيه اتجاهاً يختلف عمن سبقه من العلماء في دراساتهم اللغوية ، ويؤكد ابن جنى هذا حين يتحدث عن كتابه فيقول : « ليس غرضنا فيه الرفع ، والنصب ، والجر ، والجزم ، لأن هذا أمر فرغ فى أكثر الكتب المصنفة فيه منه ، وإنما هذا الكتاب مبنى على إثارة معادن المعانى ، وتقرير حال الأوضاع والمبادى ، وكيف سرت أحكامها في الأحنـاء والحواشى » (١) . ويقول في موضع آخر منه : « هذا الكتاب ليس مبنياً على حديث وجوه الإعراب ، وإنما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام ، وكيف بدىء وإلام نحى ، وهو كتاب يتساهم ذوو النظر من المتكلمين ، والفقهاء ، والمتفلسفين ، والنحاة ، والكتاب ، والمتأدبين التأمل له ، والبحث عن مستودعه ، فقد وجب أن يخاطب كل إنسان منهم بما يعتاده ، ويأنس به ، ليكون له سهم منه ، وحصة فيه » (٢) .

ومن أهم النظريات اللغوية التي أودعها ابن جنى هذا الكتاب تلك التي تبحث في العلاقة بين اللفظ والمعنى ، أو بين اللفظ وما يدل عليه . وسوف نذكر منها هنا أربع نظريات نتحدث عنها وعن آثارها في اللغة ، وموقف علماء اللغة المحدثين منها .

١ - النظرية الأولى : « تلاقى المعـاني على اختلاف الأُصول والمبـاني » :

وهذه التسمية لابن جنى ، وقد جعل ذلك باباً من أبواب كتابه الخصائص بدأه بقوله : « هذا فصل من العربية حسن كثير المنفعة ، قوى الدلالة على شرف هذه اللغة ، وذلك أن تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة فتبحث عن أصل كل اسم منها ، فتجده مفضى المعنى إلى معنى صاحبه » (٣) .

ويقصد ابن جنى بذلك الألفاظ المترادفة التي هي مختلفة في اللفظ ولكنها متحدة المعنى ، مثل العضب ، والحسام ، والباتر ، والصارم . . . فهذه ألفاظ مختلفة في مبناها وفي أصولها حيث إن حروف كل كلمة منها غير حروف الأخرى ، ومع ذلك فهي تدل على معنى واحد هو السيف المعروف .

---

(١) الخصائص ٢/٣٢ .
(٢) الخصائص ٢/٦٧ .
(٣) الخصائص ٢/١١٣ .

وتفيد النظرية اللغوية التي نحن بصدد الحديث عنها أن مثل هذه الألفاظ المختلفة ، والتي تدل على معنى عـــام واحد لو أرجعنا كل لفظ منها إلى معناه في أصل وضع اللغة لرأيناه قريباً من اللفظ الآخر في معناه ، أو مفضياً إليه ، أو متحداً معه في المعنى .

وقد ضرب ابن جني لذلك أمثلة مختلفة لتأكيد هذه النظرية . من ذلك :

الخليقة ، والطبيعة ، والنحيتة ، والغريزة ، والنقيبة ، والضريبة ، والنحيزة ، والسجية ، والطريقة ، والسجيحة ، والسليقة .

فهذة الكلمات من أصول مختلفة ، وأبنية متباينة ، ولكن معانيها متلاقية .

فالخليقة من (خ ل ق) . والطبيعة من (ط ب ع) . والنحيتة من (ن ح ت) ، والغريزة من (غ ر ز) ، والنقيبة من (ن ق ب) ، والضريبة من (ض ر ب) ، والنحيزة من (ن ح ز) ، والسجية من (س ج و) ، والطريقة من (ط ر ق) ، والسجيحة من (س ج ح) ، والسليقة من (س ل ق) .

ومن يرجع إلى المعاجم اللغوية يجد أن معاني هذه الكلمات أو هذه الأُصول متلاقية بعضها مع بعض . فكلمة (الخليقة) : فعيلة من خلق الإنسان الذى هو فُعُل من خلّقتُ الشيء ، أى ملّسته ، ومنه صخرة خلقاء للملساء ، أى بينة الخلق ليس فيها وصم ولا كسر(١) ، وخلق الإنسان سجيته ، لأن صاحبه قُدِّر عليه ، وفلان خليق بكذا ، وأخلق به ، أى ما أخلقه ، أى هو ممن يقدر منه ذلك (٢) .

و (الطبيعة) : من طبعت الشيء ، أى قررته على أمر ثبت عليه ، كما يطبع الشيء كالدرهم والدينار فتلزمه أشكاله ولا تفارقه . والطبع : السجية التي جبل عليها الإنسان ، والطبيعة مثله (٣) ، ومن ذلك أيضاً طبع السيف والدرهم (٤) .

و (النحيتة) : فعيلة من نحت الشيء ، أى ملّسته وقررته على ما أردته منه ، فهي كالخليقة . والنحيتة : الطبيعة ، يريدون الحالة التي نحت عليها الإنسان ، كالغريزة التي

---

(١) الصحاح للجوهرى ١/٣٦٦ .
(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٢/٢١٤ .
(٣) القاموس المحيط ٣/٦٠ .
(٤) لسان العرب ١٠/١٠٢ .

غرز عليها الإنسان (١) .

و (الغريزة) : فعيلة من غرزت ، ويقال لها طبيعة ، لأن طبع الدرهم ونحوه ضرب من وسمه وتغريزه بالآلة التي تثبت عليها الصورة ، وذلك استكراه له ، وغمز عليه كالطبع . والطبيعة غريزة ، كأنها شيء غرز في الإنسان (٢) .

و (النقيبة) : فعيلة من نقبت الشيء ، وهو يشبه الغريزة ، يقال : فلان ميمون النقيبة ، إذا كان مبارك النفس (٣) .

و (الضريبة) : فعيلة من ضربت الشيء أي صنعته ، يقال : هذا من ضرب فلان ، أي صيغته لأنه إذا صاغ شيئاً فقد ضربه ، ويقال : درهم ضرب (وصف بالمصدر) . والضريب : المثل ، كأنهما ضُرِبا ضرباً واحداً ، وصيغا صياغة واحدة . ويقال للسجية والطبيعة : الضريبة كأن الإنسان قد ضرب عليها ضرباً وصيغ صياغة ، تقول : فلان كريم الضريبة ولئيم الضريبة (٤) .

و (النحيزة) : فعيلة من نحزت الشيء ، أي دققته . والمنحاز : شيء يدق فيه الأشياء وهو الهاون . ويقولون : النحيزة : طبيعة الإنسان ، وهي على معنى التشبيه ، وإنما يراد بها الحال التي كأنه نسج عليها ، فيقولون : هو ضعيف النحيزة ، أي هذه الحال منه ضعيفة (٥) .

و (السجية) : فعيلة من سجا يسجو ، إذا سكن وأطبق ودام . يقال : سجا الليل ، إذا ادلهم وسكن ، ومنه قوله تعالى : (والليـــل إذا سجى) (٦) . والسجية : الخلق والطبيعة (٧) وذلك أن خلق الإنسان أمر قد سكن إليه واستقر عليه ، ألا تراهم يقولون في مدح الرجل : فلان يرجع إلى مروءة ، ويأوى إلى ثقة ، لأنه إنما يأوى إلى المحل والمنزل ونحوهما إذا أراد السكون (٨) .

و (الطريقة) : فعيلة من طرقت الشيء ، أي وطأته وذللته ، وهذا هو معنى ضربته

---

(١) تهذيب اللغة للازهرى ٤٤٢/٤ .
(٢) المقاييس ٤١٦/٤ .
(٣) الصحاح ٥٩٨/٢ .
(٤) انظر في ذلك الصحاح ٨/٢ والمقاييس ٣٩٨/٣ .
(٥) المقاييس ٤٠١/٥ .
(٦) الآية ٢ من سورة الضحى .
(٧) انظر الصحاح ٥٦٩/١ والمقاييس ١٣٧/٣ .
(٨) الخصائص ١١٥/٢ .

ونقبته وغرزته ونحته ، فهذه كلها قريبة في المعنى بعضها من بعض ، وهي كما قال ابن جني : رياضات وتدريب ، واعتمادات وتهذيب .

و (السجيحة) : فعيلة من سجح خلقه ، أي استقام ، ووجه أسجح ، أي مستقيم الصورة ، وهذا من قولهم : تنــح عن سجح الطريق ، أي عن جادته ومستقيمه (١) ، والسجيحة : الطبيعة ، يقال ـ بنى القوم بيوتهم على سجح واحد ، وعلى سجيحة واحدة ، أي على قدر واحد (٢) . يقول ابن جني في ذلك : « وذلك أن الطبيعة قــد قرت واطمأنت فسجحت وتذللت ، وليس على الإنسان من طبعه كلفة ، وإنما الكلفة فيما يتعاطاه ويتجشمه » (٣) .

و(السليقة) : بمعنى الطبيعة ، يقال : فلان يتكلم بالسليقة ، أي بطبعه لا عن تعلم (٤) ، ووضح ابن جني علاقتها بالنحيته حين ذكر أن « السليق » : ما تحات من صغار الشجر . . . وذلك أنه إذا تحات لان وزالت شدته ، والحت كالنحت ، وهما في غاية القرب ، ومنه قول الله سبحانه : « سلقوكم بألسنة حـــداد » (٥) ، أي نالوا منكم ، وهذا هو نفس المعنى في الشيء المنحوت المحتوت ، ألا تراهم يقولون : فلان كريم النجار والنّجْر ، أي الأصل. والنجر والنحت والحت والضرب والدق والنحز والطبع والخلق والغرز والسلق كله التمرين على الشيء وتليين القوى ليصحب وينجذب » (٦) .

فكل هذه المعاني الأصلية السابقة يؤدي بعضها إلى بعض ، أو يتلاقي بعضها مع بعض ، ولكن الألفاظ قد استعملت في معنى واحد أحيانا ــ كما رأينا ــ حتى اعتبرت من المترادفات.

وقد ضرب ابن جني أمثلة أخرى لهذه النظرية التي تكون فيها معاني الكلمات المترادفة في أصل وضعها مؤدية بعضها إلى بعض .

من ذلك (المِسْك) من الطيب ، و (الصوار) للقطعة من المسك . فالأول من (م س ك) والثاني من (ص و ر) الدالة على معنى الميل والانعطاف ، ومنــه قوله تعالى : « فخذ أربعة من الطـــير فصرهن إليك » (٧) ، أي وجههن . يقال : صر إليّ وصر وجهك إليّ ، أي أقبل عليّ (٨) ، و (صوار) فُعَال من صاره يصوره ، إذا أماله وعطفه وثناه ، وإنمـــا

(١) المقاييس ١٢٢/٣ .
(٢) لسان العرب ٣٠٤/٣ .
(٣) الخصائص ١١٦/٢ .
(٤) الصحاح ٦٠٥/١ .
(٥) آية ١٩ من سورة الأحزاب .
(٦) الخصائص ١١٧/٢ .
(٧) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .
(٨) الصحاح ٧٤٢/١ .

قيل له ذلك لأنه يجذب حاسة من يشمه إليه . وكذلك نجد أيضاً معنى المسك ، وذلك أنه (فِعْل) من أمسكت الشيء ، كأنه لطيب رائحته يمسك الحاسة عليه ، ولا يعدل بها صاحبها عنه . . . فقولهم إذا مسك يلاقي معناه معنى الصوار ، وإن كانا من أصلين مختلفين وبناءين متباينين(١) .

وينبغي هنا أن نلاحظ أن ابن جنى قد يكون مبالغاً في هذا المثال ، فقد لاحظت من الرجوع إلى المعاجم أمرين : أولهما أن كثيراً من المعاجم لم تذكر الصوار بمعنى القطعة من المسك كما ذكر ابن جنى ، وإنما ذكرت أن الصوار وعاء المسك(٢) ، أو أنه ريح المسك (٣) ، وليس المسك نفسه . وثانيهما أن بعض المعاجم التي تعنى بذكر المعرب قد ذكرت أن المسك من الطيب فارسي معرب ، وكانت العرب تسميه المشموم(٤) . وعلى هذا لا تصح المقارنة بين الكلمتين : (صوار ومسك) لأن إحداهما غير عربية أصيلة ، بل معربة .

ومما ذكره ابن جنى من الأمثلة على هذه النظرية قولهم : صبي ، وطفل ، وغلام ، وجارية . فتلك كلمات أصولها مختلفة : لأنها من (ص.ب.و) و (ط.ف.ل) و (غ.ل.م) و (ج.ر.ى) ، ومع هذا فتدل كلها على معنى عام واحد هو اللين والميل والانجذاب .

فالأول من صبا إلى الشيء يصبو ، إذا مال قلبه إليه (٥) . والصبا أيضاً من الشوق . يقال منه تصابى ، وصبا يصبو ، أى مال إلى الجهل والفتوة ، وأصبته الجارية (٦) .

والثاني من طفّل الليل ، إذا أقبل ظلامه ، وتطفيل الشمس : ميلها للغروب ، والطَّفَل بالتحريك : بعد العصر إذا طفلت الشمس للغروب ، يقال : أتيته طَفَلاً (٧) ، ولذلك قالوا طفيلي للذى يدخل وليمة لم يُدْع إليها ، وقد تطفل وذلك أنه يميل إلى الطعام .

والثالث من الغُلْمة وهي اللين وضعف العصمة .

والرابع جارية : فاعلة من جرى الماء وغيره ، ألا ترى أنهم يقولون : إنها غضّة بضّة

(١) الخصائص ١١٨/٢ .
(٢) انظر مثلا الصحاح ٧٤٢/١ .
(٣) انظر مثلا المقاييس ٣٢٠/٣ .
(٤) الصحاح ٤٩٦/٢ .
(٥) المقاييس ٣٣٢/٣ .
(٦) الصحاح ٧٠٤/١ .
(٧) تهذيب اللغة ٣٤٩/١٣ .

رطبة ، والمعنى الجامع لهذا كله كما ذكر ابن جنى « أن الطفل والصبي والغلام والجارية ليست لهم عصمة الشيوخ ولا جسأة الكهول » (١) .

ومما ذكره قولهم : جمل ، وناقة ، ودِبِّيج (في قولهم : ما بالدار دِبِّيج) ، والوشاء (في قولهم : تناسل عليه الوشاء) . فهذه ألفاظ متباينة أصولها إذ هي من (ج.م.ل) و (ن.و.ق) و (د.ب.ج) و (و.ش.ى) .

ولو رجعنا إلى المعاجم لوجدنا هذه الأُصول متقاربة في معانيها إذ تدور كلها حول التأنق والحسن والجمال .

فأما (ج م ل) فمنه الجمال وهو الحسن : ضد القبح (٢) ، و (جمل) فَعَل منه . قال الله تعالى : « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » (٣) .

وأما (ن وق) فمنه تنوق في الأمر ، أى بالغ فيه وتأنق ، وهم يشبهون الشيء بما يستحسنونه ، والناقة عندهم من حسن أموالهم ، فهي (فَعَلَة) من قولهم : تنوقت في الشيء ، إذا أحكمته وتخيرته (٤) .

وأما (د ب ج) فمنه الديباج معروف ، ودبّيج (فعِّيل) منه ، وذلك أن الناس يتم على أيديهم الأُنس وطيب الديار ، ويكون بهم العمارة وحسن الآثار ، ولذلك قيل لهم ناس ، لأنه في الأصل أناس ، فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، فهو (فعال) من الأنس :

وأما (و ش ى) فمنه الوشي من الثياب معروف ، والوشاء (فَعال) منه ، وذلك أن المال يشى الأرض ويحسنها . ثم يقول ابن جنى : « وعلى ذلك قالوا : الغنم ، لأنه من الغنيمة ، كما قالو لها : الخيل ، لأنها (فَعْل) من الاختيال ، وكل ذلك مستحب .

أفلا ترى إلى تتالى هذه المعاني وتلاحظها ، وتقابلها وتناظرها ، وهي التنوق ، والجمال والأُنس ، والديباج ، والوشى ، والغنيمة ، والاختيال » .

ومن ذلك : الفضة واللجين . فهما كلمتان بمعنى واحد حيث يطلقان على المعدن

---

(١) الخصائص ٢/١١٩ .
(٢) انظر مثلا الصحاح والمقاييس ولسان العرب (ج م ل) .
(٣) الآية ٦ من سورة النحل .
(٤) الخصائص ٢/١٢١ .

المعروف . وإذا رجعنا – في المعاجم – إلى معنى الأصلين (ف ض ض) و (ل ج ن) ، نجد أنهما يتلاقيان ويؤدى أحدهما إلى الآخر .

أما الأصل (ف ض ض) فهـــو يدل على تفريق وتجزئه (١) . من ذلك : فضضت الشيء ، إذا فرقته . وانفض القوم : تفرقوا ، قال الله سبحانه : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك (٢) » . والفضة سميت بـــذلك لانفضاض أجـــزائها وتفرقها في تراب معدنها ، وإن كانت فيما بعد قد تصفى وتسبك .

وأما الأصل الآخـــر (ل ج ن) فمنه : تلَجّن الشيء : تلـــزّج . وتلجن رأسه ، إذا غسله فلم ينق وسخه . واللّجين : الخبط ، وهـــو ما سقـــط من الورق عند الخبط . واللُّجَيْن : الفضة . جـــاء مصغراً مثل الثُّريّا والكميت . وإنما قيل للفضة لُجين ، لأنها مادامت في تراب معدنها فهي ملترقة في التراب متلجنة به (٤) .

فقد ظهرت العلاقة واضحة بين الفضة واللجين في أصل وضعها رغم تباين أُصولهما .

ويشبه ذلك ما بين الذهب والتبر – وهما بمعنى واحد – من تشابه في أصل وضعهما رغم تفرق أُصولهما ، فالأول من (ذ هـ ب) والثاني من (ت ب ر) .

فأما (ذهب) فمنه ذهاب الشيء : مضيه أو مروره ، وقد يكون فيه معنى الهلاك . ومنه الذهب ، لأنه مادام كذلك غير مصفى فهو كالذاهب ، لأن ما فيه من التراب – كما يقول ابن جنى – « كالمستهلك له ، أو لأنه لما قل في الدنيا فلم يوجد إلا عزيزاً صار كأنه مفقود ذاهب ، ألا ترى أن الشيء إذا قل قارب الانتفاء . . . فكذلك لما قل هذا الجوهر في الدنيا أخذوا له اسماً من الذهاب الذى هو الهلاك » (٥) .

وأما (ت ب ر) فمنه : التبار : الهلاك . وتبر الله عمل الكافر ، أى أهلكه وأبطله ، قال الله تعالى : « إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيـــه وباطل ما كانوا يعملون» (٦) ، أى مُكَسَّر مهلك . والتبر : ما كان من الذهب غير مضروب : وسموه بذلك لأنه (فِعْلٌ) من التبار . ولا يقال له تبر حتى يكون في تراب معدنه أو مكسوراً . ويؤكد ابن جنى ما سبق حين يستدل بألفاظ أخرى فيقول : « ويدلك على أنهم قد تصوروا هذا الموضع من امتزاجه

(١) انظر المقاييس (فض) ٤/٤٤٠ .
(٢) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .
(٣) الصحاح ٢/٤٣٤ .
(٤) الخصائص ٢/١٢٣ .
(٥) الخصائص ٢/١٢٤ .
(٦) الآية ١٣٩ من سورة الأعراف .

بتراب معدنه أنهم إذا صفّوْه وهذبوه أخذوا له اسما من ذلك المعنى ، فقالوا له : الخلاص ، والإبريز ، والعقيان . فالخلاص : فعال من تخلص ، والإبريز : إفعيل من برز يبرز . والعقيان : فعلان من عقى الصبي يعقى وهو أول ما ينجيه (١) عند سقوطه من بطـــن أمه قبل أن يأكل ، وهو العقى . فقيل ذلك لبروزه ، كما قيل له البراز » (٢) .

ثم يعقب ابن جنى على ذلك مؤكداً نظريته وأهميتها في الربط بين المعاني الأصلية لتلك الألفاظ التي قد يظن ترادفها بقوله :

« فالتأني والتلطف في جمع هذه الأشياء وضمها وملاءمة ذات بينها هو خاص اللغة وسرها وطلاوتها الرائقة وجوهرها ، فأما حفظها ساذجة ، وقمشها محطوبة هرجة فنعوذ بالله منه » (٣) .

وفي تعليقات ابن جنى على هذه النظرية ما يدل على شدة إعجابه بها ، وحرصه على حث الباحثين على دراستها وتكملتها وتتبعها في معاني الألفاظ في أصل وضعها ، فذلك يوقفنا على كثير من أسرار هذه اللغة العظيمة ، كما نبه إلى أن مجال البحث فيها واسع جداً قد لا يكفيه ألف ورقة إلا على اختصار ، يقول :

« فهذا ونحوه من خصائص هذه اللغة الشريفة اللطيفة . وإنما يسمع الناس هذه الألفاظ فتكون الفائدة عندهم منها إنما هي علم معنيّـاتها . فأما كيف ، ومن أين فهو ما نحن عليه » (٤) ويقـــول :

« وقد هممت — غير دفعة — أن أنشيء في ذلك كتاباً أتقصى فيه أكثرها ، والوقت يضيق دونه ، ولعله لو خرج لما أقنعه ألف ورقة إلا على اختصار وإيماء . . . وهذا باب إنما يجمع بين بعضه وبعض من طريق المعاني مجردة من الألفاظ ، وليس كالاشتقاق الذى هو من لفظ واحد . . . فهو أشرف الصنعتين وأعلى المأخذين . فتفطن له ، وتأن لجمعه ، فإنه يؤنقك ويفيء عليك ، ويبسط ما تجعد من خاطرك ، ويريك من حكم البارى — عز اسمه ما تقف تحته ، وتسلم لعظم الصنعة فيه ، وما أودعته أحضانه ونواحيه » (٥) .

---

(١) أى يخرجه من دبره .
(٢) الخصائص ٢/١٢٥ .
(٣) القمش : جمع الشيء من هاهنا وهاهنا من غير تحر للجيد ، ومحطوبة : من حطبت الشيء ، أى جمعته . ويقال لمن يتكلم بالغث والسمين : حاطب ليل لانه لا يبصر ما يجمع في حبله . وهرجة : من الهرج وهو الاختلاط ، يقال هرج الرجل في حديثه : خلط .
(٤) الخصائص ٢/١٢١ .
(٥) الخصائص ٢/١٣٣ .

ولعل هذه النظرية توضح لنا منشأ كثير من الألفاظ المترادفة في لغتنا العربية ، وتسهم إلى حد كبير في القضاء على الخلاف الموجود بين علماء اللغة في نشأة هذه الألفاظ ووجودها في العربية ، فالمعروف لدى الباحثين أن علماء اللغة قديماً وحديثاً قد اختلفوا في ذلك وتفرقوا مذاهب شتى ، فمنهم من أنكر وقوع الترادف في اللغة العربية ، وزعم أن كل ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات ، كما في الإنسان والبشر ، فإن الأول موضوع لـــه باعتبار النسيان ، أو باعتبار أنـــه يؤنس ، والثاني باعتبار أنه بادي البشرة وكذا الخندريس والعقار ، فإن الأول باعتبار العتق ، والثاني باعتبار عقر الدن لشدتها ، وتكلف لأكثر المترادفات بمثل هذا المقال العجيب (١) .

ومن علماء اللغة من ذهب إلى وجود الألفاظ المترادفة بكثرة في العربية ، ويرى بعضهم أن من جعلها مترادفة ينظر إلى إتحاد دلالتها على الذات ، ومن يمنع ينظر إلى اختصاص بعضها بمزيد معنى ، فهي تشبه المترادفة في الذات والمتباينة في الصفات » (٢) .

ويشترط بعضهم شروطاً لوقوع الترادف في اللغة ، وبعضهم لا يرى ضرورة هذه الشروط . وهكذا نجد مذاهب كثيرة واتجاهات مختلفة في وجود هذا النوع من الألفاظ في لغتنا العربية .

ولكن هذه النظرية قد تجعل من السهل إرجاع كثير من أصول الألفاظ المترادفة إلى معان يتلاقي بعضها مع بعض ، مما يؤكد أن وجود الترادف في العربية ليس عبثاً في اللغة ، ولكنه نشأ نتيجة تقارب المعاني بعضها مع بعض في أصل الوضع ، ثم تطورت هذه المعاني حتى تلاقت وأصبحت تستعمل بمعنى واحد في الكثير من الاستعمالات ، فمعروف لدى الباحثين المحدثين أن المعاني لا تبقى على حال واحدة بل هي دائمة التغير ، وإن كان تغيرها بطيئاً ، فكما تتغير بعض الألفاظ ، كذلك تتغير بعض المعاني لظروف لغوية خاصة ، وكما تحافظ بعض الكلمات على أصواتها ، كذلك قد تحافظ بعض الكلمات على معانيها (٣) .

وعلى علماء العربية المحدثين إكمال ما بدأه ابن جنى في هذه النظرية ، ومواصلة البحث عن هذه الألفاظ واستعمالاتها في أصل وضع اللغة وتطورها حتى وصلت إلى ما هي عليه

(١) المزهر للسيوطى ٤٠٣/١ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) انظر « في اللهجات العربية » د. ابراهيم انيس ص ١٩٥ .

الآن من مساواة في الدلالة ، وهذا مبحث مهم في اللغة ، حيث يوضح لنا العلاقة بين الألفاظ في نشأتها وتطورها ، وهذا ما نهدف إليه من دراستنا لفقه اللغة العربية بوجه عام ، وفي وضع المعاجم العربية الحديثة بوجه خاص .

٢ — ونظرية أخرى في العلاقة بين اللفظ والمعنى تسمى : « مناسبة الألفاظ للمعـــاني » .

وقد نبه إلى هذه النظرية من علماء العرب الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه وغيرهما من علماء اللغة الأقدمين ، وأكمل أصولها ابن جني .

وعبارة الخليل في ذلك : « كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً ، فقالوا : صرّ ، وتوهموا في صوت البازى تقطيعاً ، فقالوا : صرصر » (١) .

ويقول سيبويه في الكتاب : « ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك : النزوان والنقزان والقفزان ، وإنما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع . ومثله العسلان والرتكان . . . ومثل هذا الغليان لأنه زعزعة وتحرك . ومثله الغثيان ، لأنه تجيش نفسه وتثور ، ومثله الخطران واللمعان ، لأن هذا اضطراب وتحرك ، ومثل ذلك اللهبان واللهجان لأنه تحرك الحر وتثوره ، فإنما هو بمنزلة الغليان » (٢) .

وقد كان أمراً عادياً أن تقرأ هذه العبارات دون أن تحدث أثراً كبيراً أو تؤدى إلى إيجاد نظرية عامة في اللغة . ولكن ابن جني حين قرأها بتأمل وإمعان نظر فهم منها الكثير ، وأضاف إليها الكثير أيضاً ليبني على ذلك نظريته اللغوية في مناسبة الألفاظ لمعانيها . وكان متواضعاً — تواضع العلماء — حين أرجع الفضل إلى من سبقه من العلماء في الإشارة إلى هذه النظرية ، فذكر في أول حديثه عن هذا الباب أن الذى نبه على ذلك كله إنما هو الخليل وسيبويه ، وأن الجماعة تلقته بالقبول له والاعتراف بصحته . ثم يقول في موضع آخر منه : « فهذا على سمت الصنعة التي تقدمت في رأى الخليل وسيبويه ، إلا أن هذه أغمض من تلك غير أنها وإن كانت كذلك فهي منقولة عنها ومعقودة عليها » (٣) . ثم يؤكد ذلك مـــرة أخرى بقوله أثناء الحديث عن هذا الباب : « ومن وجد مقالاً قال به وإن لم يسبق إليه غيره فكيف به إذا تبع العلماء فيه ، وتلاهم على تمثيل معانيه » (٤) .

(١) انظر الخصائص لابن جنى ١٥٢/٢ .
(٢) الكتاب لسيبويه ٢١٨/٢ .
(٣) الخصائص ١٥٤/٢ .
(٤) الخصائص ١٥٥/٢ .

ولكننا نتساءل : ما الذى أضافه ابن جنى على كلام الخليل وسيبويه ؟

إنه – في الواقع – لم يكتف بإضافة بعض الأمثلة التي توالت فيها الحركات قياساً على ما ذكر ، كما فعل السيوطى في المزهر مثلاً (١) ، ولكنه أضاف عدة مسائل يمكن أن يجعل منها أصولا يقاس عليها ، وهي مبنية كلها على ما فهمه وتحقق لديه من أن هناك صلة ثابتة بين اللفظ والمعنى . وهو بهذا قد استطاع أن يكون نظرية جديدة في اللغة هي التي سماها : « امساس الألفاظ أشباه المعاني » أى (مناسبة الألفاظ للمعاني) ، وجعل منها باباً في كتابه الخصائص (٢) ، وفي ذلك يقول معقباً على كلام الخليل وسيبويه ومبيناً – بتواضعه – فضلهما وأنه تابع لهما في ذلك :

« ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حذياه ومنهاج ما مثلاه ، وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير . . . ووجدت أيضاً الفعلى في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة . . . الخ » (٣) .

وخلاصة ما ذكره ابن جنى في هذا الموضوع أن المناسبة بين اللفظ والمعنى إنما تتحقق وتظهر في الأمور الآتيــة :

١ – الألفاظ التي تدل على معنى التكرار أو الحركة والاضطراب ، فإنها كثيراً ما تأتي فيها الحروف مكررة أو متوالية الحركات ليناسب اللفظ معناه .

وقد أشار إلى التكرار قوله حكاية عن الخليل السابق : كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا : صرّ ، وتوهموا في صوت البازى تقطيعاً فقالوا : صرصر .

وأشار إلى توالى الحركات ما حكاه عن سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان من أنها تأتي للاضطراب والحركة نحو : النزوان والنقزان والقفزان (٤) . ومثــله العسلان

---

(١) ذكر السيوطى أمثلة كثيرة حكاها عن بعض علماء اللغة قبل ابن جنى وبعده . ومن هؤلاء : الكسائى وابن السكيت وأبو عمرو الشيبانى والأصمعى وابن دريد والفارابى والثعالبى . انظر المزهر ١/٥١ وما بعدها .

(٢) الخصائص ٢/١٥٢ .

(٣) المرجع السابق ٢/١٥٣ .

(٤) وكلها تدل على معنى الوثب والسرعة . انظر الصحاح في (نزا ، نقز ، قفز) .

والرتكان (١) ، ومثله الغليان ، لأنه زعزعزة واضطراب ، ومثله الغثيان ، لأنه تجيش نفسه وتثور ، ومثله الخطران واللمعان لأن هذا اضطراب وتحرك . ومثل ذلك اللهبان والوهجان لأنه تحرك الحر وتثوره .

وقد أضاف ابن جنى إلى كلام الخليل — أو قاس عليه — المصادر الرباعية المضعفة فإنها تأتي للتكرير نحو الزعزعة ، والقلقاة ، والصلصلة ، والقعقعة ، والصعصعة ، والجرجرة ، والقرقرة (٢) . وأضاف إلى كلام سيبويه — أو قاس عليه — (الفَعَلَى) في المصادر والصفات فإنها تأتي للسرعة نحو : البشكى ، والجمزى ، والولقى (٣) . فقد جعلوا اللفظ المكرر للمعنى المكرر ، واللفظ الذى توالت حركاته للمعاني أو الأفعال التي توالت الحركات فيها .

٢ — ومما ظهرت فيه المناسبة واضحة بين اللفظ والمعنى تلك الأفعال التي تصدر بحروف زائدة لتدل على معان زائدة عن معنى الفعل الأصلي وخاصة معنى الطلب الدال عليه (الألف والسين والتاء) في نحو استسقى واستطعم واستوهب واستمنح واستخرج ، فالأفعال الأصلية في هذا : سقى وطعم ووهب ومنح وخرج ، وهي تدل على أحداث وقعت ، وليس فيها دلالة تدل على طلب لها ، وحينما صاحبتها تلك الحروف الزائدة أصبحت تدل على معنى زائد عن المعنى الأصلي وهو الطلب .

وقد لاحظ ابن جنى في ذلك أمرين :

الأمر الأول هو أنه لما زادت الحروف في هذه الأفعال زاد المعنى الذى تدل عليه هذه الأفعال ، ولعل هذا يوافق ما قال به علماء اللغة الأقدمين من أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

والأمر الثاني هو وضع هذه الحروف الزائدة وموقعها من الكلمة فإنها تجيء في أولها ، وفي ذلك أيضاً مناسبة بين اللفظ ومعناه ، فإن المعنى الزائد بسبب زيادة هذه الحروف في أول

---

(١) العسلان : الخبب ، يقال عسل الذئب او الانسان عسلانا ، اذا أعنق وأسرع ، وعسل الرمح عسلانا : اهتز واضطرب . ورتكان البعير : مقاربة خطوه في رملانه (أى هرولته) .

(٢) صلصلة اللجام : صوته اذا ضوعف . والقعقعة : حكاية صوت السلاح ونحوه . والصعصعة : التفرق . والجرجرة : صوت يردده البعير في حنجرته . والقرقرة : نوع من الضحك ، وهى الهدير ايضا .

(٣) ناقة بشكى : خفيفة المشى والروح ، وحمار جمزى اى سريع ، وناقة ولقى : سريعة .

الكلمة إنما يجيء أيضاً متقدماً على المعنى الأصلي ، وفي ذلك يقول ابن جني : « . . . فجاءت الهمزة والسين والتاء زوائد ، ثم وردت بعدها الأُصول : الفاء ، والعين ، واللام . فهذا من اللفظ وفق المعنى الموجود هناك . وذلك أن الطلب للفعل والتماسه والسعى فيه والتأتي لوقوعه تقدمه ، ثم وقعت الإجابة إليه ، فتبع الفعل السؤال فيه والتسبب لوقوعه . فكما تبعت أفعال الإجابة أفعال الطلب ، كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي للالتماس والمسألة . وذلك نحو : استخرج واستوهب واستمنح واستعطى واستدني » (١) .

وبتواضع ابن جني وأمانته العلمية يذكر أن الفكرة في أصلها ترجع إلى بعض من سبقه من العلماء فيقول في نفس الموضع : « فهذا على سمت الصنعة التي تقدمت في رأى الخليل وسيبويه ، إلا أن هذه أغمض من تلك ، غير أنها وإن كانت كذلك فإنها منقولة عنها ومعقودة عليها » .

وقاس ابن جني على ما تقدم تكرير عين الفعل في نحو : قطّع وفتّح وغلّق ، فإنه يدل على تكرير المعنى أو تقويته كما في قوله تعالى : « وقطعن أيديهن » (٢) أى أكثرن من هذا الفعل ، وقوله تعالى : « وغلقت الأبواب » (٣) . وفي ذلك مناسبة بين اللفظ والمعنى . يوضح ذلك كلامه حين يقول : « فلما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها ، وجعلوه دليلاً على قوة المعنى المحدث به ، وهو تكرير الفعل ، كما جعلوا تقطيعه في نحو صرصر وحقحق (٤) دليلاً على تقطيعه . ولم يكونوا ليضعفوا الفاء ولا اللام لكراهية التضعيف في أول الكلمة . والاشفاق على الحرف المضعف أن يجيء في آخرها ، وهو مكان الحذف وموضع الإعلال ، وهم قد أرادوا تحصين الحرف الدال على قوة الفعل . فهذا أيضاً من مساوقة الصيغة للمعاني » (٥) .

٣ — وتظهر المناسبة واضحة فيما دل على الحدث من الألفاظ فلكل حدث لفظ يناسبه من ناحية القوة أو الضعف ، فيكون اللفظ قوياً إذا كان دالاً على حدث قوى ، ويكون

---

(١) الخصائص ٢/١٥٤ .

(٢) الآية ٣١ من سورة يوسف .

(٣) الآية ٢٣ من سورة يوسف .

(٤) الحقحقة : أرفع السير وأتعبه للظهر . ويقال شر السير الحقحقة .

(٥) الخصائص ٢/١٥٥ .

ضعيفاً إذا دل على حدث ضعيف . وتوضيح ذلك أن الأحداث كما تكون قوية وضعيفة ، توصف الألفاظ أو الحروف بالقوة أو الضعف كذلك . وقد وضع علماء الأصوات للحروف صفات (١) بعضها يدل على قوة الحرف ، والآخر يـــدل على ضعفه . فمن أهم صفات القوة للحرف خمسة : الجهر ، والشدة ، والاستعلاء ، والإطباق والإصمات . وعكسها من صفات الضعف : الهمس ، والرخاوة والاستفال ، والانفتاح ، والذلاقة . ولابد لكل حرف من أن يوصف بواحدة من هذه الصفات أو تلك ، فإما مجهور أو مهموس وإما مستعل أو مستفل ، وهكذا .

وحين نوازن بين حرفين من ناحية القوة أو الضعف فإننا ننظر إلى أيهما اشتمل على صفات قوة أكثر من غيره فيكون أقوى . فمثلاً القاف والخاء : نجد القاف أكثر قوة من الخاء ، وذلك لأن القاف صوت اجتمع فيه من صفات القوة أربع ، هي الجهر (على رأى الأقدمين) والشدة والاستعلاء والإصمات . ومن صفات الضعف ثلاث هي الهمس والرخاوة والانفتاح .

ومن أجل ذلك قالوا إن (خَضم) أضعف في اللفظ من (قضم) فاستعملوا الخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، واستعملوا القضم للصلب اليابس نحو : « قضمت الدابة شعيرها » ونحو ذلك . وروى عن الكسائي : القضم للفرس والخضم للإنسان (٢) . وفي الخــبر : « قد يدرك الخضم بالقضم » (٣) أى قد يدرك الرخاء بالشدة ، واللين بالشظف .

ويوضح ذلك ابن جنى حين يقول : « فاختاروا الخاء لرخاوتها للرّطب ، والقاف لصلابتها لليابس ، حــذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث » (٤) . ويشبه هذا ما حكاه السيوطى عن الثعالبي في فقه اللغة : « يقال : خذفه بالحصى ... وقذفه بالحجارة » (٥)

أما حين نوازن بين الخاء والحاء فإننا نجد الخاء أقوى (لأنه ليس للحاء من صفات القوة

---

(١) انظر في ذلك مثلا : التجويد والأصوات للدكتور ابراهيم نجا ص ٧٢ وما بعدها ، والأصوات اللغوية للدكتور ابراهيم أنيس ص ٤٤ وما بعدها .

(٢) المزهر ١/٥١ .

(٣) ذكره ابن جنى في الخصائص ٢/١٥٧ .

(٤) الخصائص ٢/١٥٨ .

(٥) المزهر ١/٥٥ وانظر فقه اللغة وسر العربية ص ١٣٢ .

سوى صفة الإصمات) . فكلمة النضخ مثلاً أقوى – لفظياً – من النضح ، ومن أجل ذلك استعملوا النضح لرش الماء وتسربه في ضعف وبطء ، والنضخ لشدة فورانه ، قال الله سبحانه وتعالى : « فيهما عينـــان نضاختان » (١) . وفي ذلك يقول ابن جني : « فجعلوا الحاء – لرقتها – للماء الضعيف ، والخاء – لغلظها – لما هو أقوى منه » .

وقد ذكر ابن جنى – في الخصائص – أمثلة أخرى في مناسبة الألفاظ للمعاني موازناً بين بعض الحروف القوية وما يشبهها في المخرج من الحروف الضعيفة وخاصة الصاد والسين . « ومن ذلك قولهم : الوسيلة ، والوصيلة . والصاد – كما ترى – أقوى صوتاً من السين لما فيها من الاستعلاء ، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة ، وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة ، بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء ومماسته له ، وكونه في أكثر الأحوال بعضاً له ، كاتصال الأعضاء بالإنسان ، وهي أبعاضه ، ونحو ذلك ، والتوسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسل جزءاً أو كالجزء من المتوسل إليه . وهذا واضح . فجعلوا الصاد لقوتها للمعنى الأقوى ، والسين لضعفها ، للمعنى الأضعف » .

« ومن ذلك القسم والقصم . فالقصم أقوى فعلاً من القسم ، لأن القصم يكون معه الدق ، وقد يقسم بين الشيئين فلا ينكأ أحدهما ، فلذلك خصت بالأقوى الصاد وبالأضعف السين » . ومن المسلم به عند علماء الأصوات أن الصاد أقوى من السين لأنها من حروف الاستعلاء وليست السين منها بل هي حرف مستفل ، والصاد كذلك من حروف الإطباق القوية ، وأما السين فحرف منفتح .

ولعل ما ذكره السيوطى في المزهر من أمثلة كثيرة لمناسبة الألفاظ للمعاني مما ذكر في كتب المتقدمين (٢) يرجع إلى هذا النوع . فقد نقل عن ابن دريد في الجمهرة قوله : « الأنيت أشد من الأنين ، والرنين أشد من الحنين » . ومن المعروف لدى علماء الأصوات أن التاء من حروف الشدة ، وأما النون فحرف متوسط بين الشدة والرخاوة ، وأيضا الراء من حروف الجهر ، وأما الحاء فحرف مهموس .

« وفي الإبدال لابن السكيت : يقال : القبصة أصغر من القبضة . قال في الجمهرة :

---

(١) الآية ٦٦ من سورة الرحمن .

(٢) المزهر ٤٧/١ في المسالة العاشرة .

القبص : الأخذ بأطراف الأنامل ، والقبض : الأخذ بالكف كلها » وعند علماء الأصوات أن الصاد أضعف من الضـــاد .

« وفي الغريب المصنف عن أبي عمرو : هذا صوغ هذا ، إذا كان على قدره ، وهذا سوغ هذا ، إذا ولد بعد ذاك على أثره » و (صوغ) من الناحية الصوتية أقوى من (سوغ) ، لأن الصاد أقوى من السين .

« وقال الأصمعي : الهتْل من المطر أصغر من الهطْل » . والتاء أضعف من الطاء ، فالطاء من حروف الاستعلاء والإطباق وليست التاء منها .

« وفي الجمهرة . . . الرفرفة – بالراء – : صوت أجنحة الطائر إذا حام ولم يبرح ، والزفزفة – بالزاى – : صوت حفيف الريح الشديدة الهبوب » . والراء أضعف من الزاى لأنها من حروف الذلاقة التي هي الخفة ، وأما الزاى فليست منها بل هي من حروف الإصمات

واقد أعجب السيوطى كثيراً بهذه الأمثلة وما فيها من المناسبة ، وبما حكاه قبل ذلك عن ابن جنى ، مما جعله يعلق على هذا الموضع ، فعلى الرغم من أن السيوطى يعتمد كثيراً في مؤلفاته على الجمع والنقل إلا أنه حين أغرم بهذا الموضع خالف منهجه فعلق عليه قائلا : « فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها ، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعنى ، فجعلت الحرف الأضعف منها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدني وأقل وأخف عملاً أو صوتاً ، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حساً . ومن ذلك المد والمط . فإن فعل المط أقوى ، لأنه مد وزيادة جذب ، فناسب الطاء التي هي أعلى من الدال » (١) .

ولم يكتف ابن جنى – في هذا الموضع – بالموازنة بين الأحداث من ناحية القوة أو الضعف وما يترتب على ذلك من قوة اللفظ الدال عليها أو ضعفه ، بل أضاف إلى ذلك ما لاحظه في ترتيب الحروف في الكلمة ، فإنهم يقدمون الحرف المناسب لأول الحدث فيضعونه أول اللفظ ، ويوسطون الحرف المناسب لأوسط الحدث . ويؤخرون ما يضاهي آخره ، وذلك – كما يقول – « سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود ، والغرض المطلوب».

ويأتي لذلك بأمثلة ، منها قولهم : بحث . فالباء صوت غليظ يشبه خفقة الكف على

(١) المرجع السابق .

الأرض ، والحاء لما فيها من بحة في الصوت تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض ، والثاء للنفث والبث للتراب .

« ومن ذلك قولهم : شد الحبل ونحوه ، فالشين بما فيها من التفشي تُشَبِّهُ بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ، ثم يليه إحكام الشد والجذب وتأريب العقد ، فيعبر عنه بالدال التي هي أقوى من الشين ، لاسيما وهي مدغمة . فهو أقوى لصنعتها ، وأدل على المعنى الذى أريد بها » (١) .

ومما يتصل بمناسبة اللفظ لمعناه ما لاحظه ابن جنى في بعض الألفاظ المشتملة على حرف الفاء إذا اقترنت بحروف معينة ، فإنها تدل على الضعف . يقول :

« ومن طريف ما مر بي . . . ازدحام الدال ، والتاء ، والطاء ، والراء ، واللام ، والنون ، إذا مازجتهن الفاء على التقديم والتأخير ، فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوهما » (٢) وضرب لذلك أمثلة :

« من ذلك : الدالف للشيخ الضعيف ، والشيء التالف . . . والطنف لما أشرف خارجاً عن البناء ، وهو إلى الضعف ، لأنه ليست له قوة الراكب الأساس والأصل . . . والدنف : المريض . . . ومنه التُّرفة ، لأنها إلى اللين والضعف ، وعليه قالوا : الطرف ، لأن طرف الشيء أضعف من قلبه وأوسطه . . . ومنه الفرد ، لأن المنفرد إلى الضعف والهلاك ما هو . . . ومنه الفتور للضعف ، والرفت للكسر . . . والرديف ، لأنه ليس له تمكن الأول ومنه الطفل للصبي لضعفه » . فكل هذه كلمات ثلاثية دلت على الضعف وقد اشتمل كل منها على حرف الفاء واكتمل بحرفين من الحروف الستة السابقة .

وهكذا يبحث ابن جنى في أسرار هذه اللغة ليستخرج لنا منها الكثير في هذه النظرية ، ذاهباً إلى أن ذلك لا يمكن أن يجيء في العربية عن طريق المصادفة ، أو أن يكون شيئاً اتفق وأمراً واقعاً في صورة المقصود من غير أن يعتقد ، لأنه يرى أن في ذلك « حكم بإبطال ما دلت عليه الدلالة من حكمة العرب التي تشهد بها العقول ، وتتناصر إليها أغراض ذوى التحصيل ، فما ورد على وجه يقبله القياس وتقتاد إليه دواعى النظر والإنصاف حمل عليها ،

(١) الخصائص ١٦٣/٢ .
(٢) الخصائص ١٦٦/٢ .

ونسبت الصنعة منه إليها ، وما تجاوز ذلك فخفى لم توءس النفس منه . . . وكان الأحرى أن يتهم الإنسان نظره ، ولا يخف إلى إدعاء النقص فيما قد ثبّت الله أطنابه ، وأحصف بالحكمة أسبابه » .

ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى حين يقول : « فإن أنت رأيت شيئاً من ذلك لا ينقاد لك فيما رسمناه ، ولا يتابعك على ما أوردناه ، فأحد أمرين : إما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه ، أو لأن لهذه اللغة أصولا وأوائل قد تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا — كما قال سيبويه — أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر » (١) .

وابن جني في هذه النظرية أقرب إلى الاعتدال من غيره من بعض علماء العربية المغالين في وجود المناسبة بين اللفظ والمعنى ، حيث يرى هؤلاء وعلى رأسهم عبّاد بن سليمان الصيمرى أن المناسبة بين اللفظ والمعنى ذاتية ، وكان هذا مذهبهم في نشأة اللغات بوجه عام ، وإن كان الجمهور من علماء اللغة لم يرتض هذا المذهب ، يوضح ذلك السيوطى حين يذكر أن أهل أصول الفقه نقلوا عن عباد رأيه في ذلك وهو « أن بين اللفظ ومداوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع . قال : وإلا لكان تخصيص الاسم المعين ترجيحاً من غير مرجح . وكان بعض من يرى رأيه يقول : إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها ، فسئل ما مسمى « أذغاغ » وهو بالفارسية الحجر ، فقال : أجد فيه يُبْساً شديداً ، وأراه الحجر .

« وأنكر الجمهور هذه المقالة ، وقال : لو ثبت ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة ، ولما صح وضع اللفظ للضدين كالقرء للحيض والطهر ، والجون للأبيض والأسود . وأجابوا عن دليله بأن التخصيص بإرادة الواضع المختار خصوصاً إذا قلنا : الواضع هو الله تعالى ، فإن ذلك كتخصيص وجود العالم دون وقت » (٢) .

ولقد تنبه السيوطى إلى ما في مذهب عباد — في المناسبة بين الألفاظ ومعانيها — من المبالغة والغلو فانتصر لرأى ابن جنى ، ذاهباً إلى أنه الرأى الذى ارتضاه علماء اللغة بوجه عام وعلماء العربية بوجه خاص . وفي هذا يقول موضحاً الفرق بين المذهبين :

« وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني ،

---

(١) الخصائص ١٦٤/٢ .
(٢) المزهر ٤٧/١ .

لكن الفرق بين مذهبهم ومذهب عباد أن عباداً يراها ذاتية موجبة ، بخلافهم . وهذا كما تقول المعتزلة بمراعاة الأصلح في أفعال الله تعالى وجوباً ، وأهل السنة لا يقولون بذلك ، مع قولهم إنه تعالى يفعل الأصلح ، لكن فضلاً منه ومنا لا وجوباً ، ولو شاء لم يفعله » (١) .

ونحن حين نوازن بين ما ذهب إليه ابن جني ومن وافقه من علمائنا العرب القدامى – في المناسبة بين اللفظ والمعنى – وبين ما ذهب إليه العلماء في الدراسات اللغوية الحديثة فإننا نجد هؤلاء قد اتبعوا الأقدمين في كثير مما ذهبوا إليه . فالمحدثون يرون أيضاً أن هناك – بلا شك – كثيراً من المجالات اللغوية التي يلحظ فيها وثوق الصلة بين الأصوات والمدلولات ويذكرون من ذلك : حين تكون أصوات الكلمة نتيجة تقليد مباشر لأصوات طبيعية صادرة عن الإنسان أو الحيوان أو الأشياء (٢) ، وهذا ما فطن إليه علماء العربية قديماً ، فقد ذكروا من أصوات الإنسان : القهقهة : حكاية قول الضاحك قَهْ قَهْ ، والنحنحة : حكاية قول المستأذن نح نح عند الاستئذان وغيره ، والعطعطة : حكاية صوت المجان إذا قالوا عند الغلبة عيط عيط . وذكروا من أصوات الحيوان : الصهيل : صوت الفرس في أكثر أحواله ، والضبح : صوت نَفَسه إذا عدا (وقد نطق به القرآن) ، والقبع : صوت يردده من منخره إلى حلقه إذا نفر من شيء أو كرهه ، والحمحمة : صوته إذا طلب العلف أو رأى صاحبه فاستأنس إليه . وقالوا في أصوات الماء ونحوه : الخرير : صوت الماء الجارى ، والعشيب : صوته تحت ورق أو قماش ، والفقيق : صوته إذا دخل في مضيق ، والبقبقة : صوت الجرة والكوز في الماء ، والقرقرة : حكاية صوت الآنية إذا استخرج منها الشراب ، والشخب : صوت اللبن عند الحلب . وقالوا في أصوات أخرى : هزيز الريح ، وهزيم الرعد وصرير الباب والقلم ، ونحو ذلك (٣) .

وقد ذكر المحدثون أن مما تظهر فيه المناسبة أيضاً حركات الإنسان وما ينشأ عنها من أصوات قد توحي بنوع من الكلمات وثيق الاتصال بين اللفظ ومدلوله . وفي أمثلة ابن جني وغيره من علماء العربية من ذلك الكثير مثل القضم والخضم ، والقطع والقطف والقطل والقطم .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) من أسرار اللغة ص ١٤٥ دكتور ابراهيم أنيس .

(٣) انظر فقه اللغة للثعالبي ص ١٤٠ .

كما ذكر المحدثون أيضاً أن طول الكلمة أو قصرها في الأصوات قد يوحي في اللغة بمعنى خاص (١) ، وهذا يوافق ما ذكرناه عن ابن جني في نظريته هذه من تضعيف عين الفعل ، وزيادة بعض الحروف ، وما ذكرناه مروياً عن الأقدمين من أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

ومن الغريب أننا نجد كثيراً من الباحثين المحدثين من غير علماء العرب هم الذين تأثروا كثيراً بهذه النظرية واستفادوا منها في بحوثهم في الربط بين الألفاظ ومعانيها . فها هو ذا « جسبرسن » كان ينتصر لأصحاب المناسبة بين اللفظ والمعنى ، ويرى أن هذه المناسبة تظهر في كثير من النواحى التي لا تخرج في جملتها عما ذكرناه في هذه النظرية (٢) ، ويرى كذلك ما أشار إليه ابن جني في دراسته للعربية من أن « كلمات اللغات تزداد مع الأيام إيحاء للدلالات وتكتسب الأيام بمرور الزمن قدراً أكبر من تلك الرمزية . ويتنبأ من أجل ذلك بتلك النبوءة المتفائلة التي كان يحلم بها فلاسفة اليونان من أن يأتي اليوم الذى تصبح فيه الصلة بين الألفاظ ودلالاتها أكثر وضوحاً وأوثق ربطاً مما عرف أجدادنا القدماء »(٣) .

٣ — النظرية الثالثة من نظريات ابن جني في دلالة الألفاظ ـ « تقارب الحروف لتقارب المعاني » .

وقد جعلها ضمن باب في كتابه الخصائص سماه : « باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني (٤) » وذكر أن هذا الباب قد غفل الناس عن البحث فيه ، وأنه لا يمكن الإحاطة به ، لأنه متشعب النواحى ، فهو على أربعة أضرب :

فمنه اقتراب الأصلين الثلاثيين ، مثل ضيّاط (٥) ، وضيطار ، فالأول من الأصل (ض ى ط) ، والثاني من الأصل (ض ط ر) .

ومنه اقتراب الأصلين ، ثلاثياً أحدهما ، ورباعياً صاحبه ، كحلق وحلقوم ، الأول من (ح ل ق) ، والثاني من (ح ل ق م) ، أو رباعياً أحدهما ، وخماسياً صاحبه ، كقولهم :

(١) انظر من أسرار اللغة ص ١٤٨ .
(٢) انظر دلالة الألفاظ د. أنيس ص ٧٠ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) الخصائص ٢/٤٥ .
(٥) الضياط : الرجل الغليظ . والضطار يقال لهذا وللئيم .

ضبغطى ، وضبغطرى(١) ، الأول من (ض ب غ ط) ، والثـاني من (ض ب غ ط ر) . وقد ذكر هذين النوعين في باب خاص سماه : « باب في تداخل الأصول الثلاثية والرباعية والخماسية » (٢) .

ومنه التقديم والتأخير في حروف الأصل الثلاثي ، ورجوع التقليبات إلى معنى عام يجمعها مثل : (ك ل م) ، (ك م ل) ، (م ك ل) ، (م ل ك) ، (ل ك م) ، (ل م ك) . والمستعمل منها أصول خمسة ، وأما (ل م ك) فمهمل ، والتقليبات المستعملة معناها الدلالة على القوة والشدة . وقد شرح ذلك أيضاً في باب خاص سماه : « باب في الاشتقاق الأكبر »(٣)

ومنه النوع الرابع الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وهو تقارب الحروف لتقارب المعاني .

وربما يقصد ابن جنى من تقارب المعاني أن يرتبط أحدها بالآخر ويبنى عليه ، أو أن يكون هناك معنى عام يجمعها . وأما تقارب الحروف فقد يكون المقصود منه الاتفاق في مخارجها من أعضاء النطق أو في صفاتها من الجهر والهمس أو الشدة والرخاوة أو نحو ذلك من صفات الحروف ، وإن كان ابن جنى لم يذكر في أمثلته إلا الحروف المتقاربه في المخرج.

ومن يتأمل كلام ابن جنى وأمثلته في هذه النظرية يجد أنه يمكن تقسيم هذا التقارب اللفظى إلى أنواع أربعة (٤) :

الأول : التقارب بين كلمتين في حرف واحد .

الثاني : التقارب بين كلمتين في حرفين .

الثالث : التقارب بين كلمتين في الأحرف الثلاثة .

الرابع : التقارب بين أكثر من كلمتين .

وسوف نحاول – بعد رجوعنا إلى المعاجم – في أمثلة ابن جنى أن نؤكد العلاقة المعنوية بينها ، ثم نبين أوجه التقارب في حروفها ، حتى يتحقق لنا صدق هذه النظرية ، وحينئذ يمكن للباحثين من علماء اللغة المحدثين أن يقيسوا عليها كثيراً من الألفاظ في لغتنا العربية .

---

(١) كلمتان يفزع بهما الصبيان .
(٢) الخصائص ٢/٤٤ .
(٣) الخصائص ٢/١٣٣ ويحتاج في شرحه الى بحث خاص .
(٤) ممن أشار الى هذا التقسيم الدكتور ابراهيم نجا في : فقه اللغة العربية ص ٤١ .

فمن أمثلة النوع الأول :

أز – هز : فقد اختلفا في حرف واحد هو الأول من كل منهما ، ولكنهما متقاربان إذ كل منهما حرف حلق ، وقد تقاربت الكلمتان في اللفظ لتقارب معنييهما ، إذ يمكن أن يجمع الأصلان تحت معنى عام واحد ، هو الحركة أو التحريك . فالأز : الحركة الشديدة ، وأزت القدر إذا اشتد غليانها (١) ، وفي (هز) يقال : هززت السيف ، وأخذت فلاناً هِزَّة ، إذا مدح فأخذته أريحية (٢) . وإن كان الأول يغلب عليه التحريك المعنوى . كما في قوله تعالى : « ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّاً (٣) » أى تغريهم على المعاصى (٤) ، أو تزعجهم إزعاجاً (٥) ، والثاني يغلب عليه التحريك الحسى ، كما في قوله تعالى : « وهزى إليكِ بجزع النخلة تساقط عليكِ رُطباً جنياً (٦) » . وقد يتحدان في الاستعمال ، كقولهم : أزتنا الريح ، أي ساقتنا (٧) ويقال : هزته الريح (٨) أيضاً .

عسف – أسف : الكلمتان متقاربتان في المعنى ، ويمكن جمعهما تحت معنى عام واحد هو الهزال والضعف والقهر والغضب . كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها . فالعسف أصله خبطك الطريق على غير هداية ، ثم كثر حتى قيل عسف فلان فلانا ، إذا ظلمه . والعسيف : الأجير ، وفي الحديث : « لا تقتلوا عسيفاً ولا أسيفاً » ، وفسروا الأسيف بالشيخ الفاني ، وقالوا : الأسيف : العبد (٩) . وقد يستعمل الأصلان في معنى واحد ، وحينئذ يمكن جعلها من باب الإبدال ، كما في تسميتهم التابع أسيفاً وعسيفاً ، فيقول بعض أهل اللغة إن الهمزة منقلبة عن عين (١٠) . ولما تقارب المعنيان تقارب اللفظان إذ الأول من كل منهما من حروف الحلق .

قرم – قلم : يجمع الأصلين معنى عام هو القطع أو الانتقاص من شيء ، فمن الأول قولهم : قرمت الشيء بأسناني ، إذا قطعته ، وما قطعته منه فهو قرامة . وفصيل قارم ، إذا تناول أطراف النبت بمقدم فيه قبل أن يستحكم (١١) . ومن الثاني : يقال : قلمت الظفر وقلّمته ، وفي هذا قطع . والقلامة : ما يسقط من الظفر إذا قلم ، ولذلك سمى القلم قلماً ، لأنه يقلم منه كما يقلم من الظفر (١٢) . فالمعنيان إذا متقاربان ، كما أن

(١) انظر الجمهرة ١٧/١ .
(٢) الجمهرة ٩٢/١ .
(٣) الآية ٨٣ من سورة مريم .
(٤) الصحاح ١٣/١ .
(٥) المقاييس ١٣/١ .
(٦) الآية ٢٥ من سورة مريم .
(٧) المقاييس ١٣/١ .
(٨) المقاييس ٩/٦ .
(٩) الجمهرة ٣٠/٣ .
(١٠) المقاييس ١٠٣/١ .
(١١) الجمهرة ٤٠٦/٢ .
(١٢) المقاييس ١٦/٥ .

اللفظين متقاربان فالراء واللام من مخرج واحد هو طرف اللسان مع اللثة العليا .

علم — عرم : أصلان متقاربان في المعنى إذ يدل كل منهما على أثر بالشيء يتميز به عن غيره ، فمن الأول : العلامة ، وهي معروفة . يقال : علمت على الشيء علامة ، والعلم : الراية ، والعلم : الجبل ، والعلم : الشق في الشفة العليا ، لأنه كالعلامة بالإنسان . ومن الثاني : يقال : شاة عرماء ، وكبش أعرم ، إذا كانت فيه نقط تخالف لونه ، وكذلك حية عرماء ، وهي الرقطاء بعينها (١) . ويقال : قطيع أعـــرم ، إذا كان فيه سوادوبياض ، وإذا وقع ذلك بأن أحد اللونين من صاحبه ، فكان كل واحد منهما علماً لصاحبه كما يقول ابن جنى (٢) ، بل إن ابن فارس لا يستبعد أن تكون الراء بـــدلا من اللام في مثل قولهم أفعى عرماء ، كأنهـــا علماء ، ويكون اللون كعلامة عليها (٣) . وأما التقارب اللفظى بين هذين الأصلين فلأن اللام والراء من مخرج واحد هو طرف اللسان مع اللثة العليا .

حمس — حبس : ذكرت المعاجم أن الحمس : التشدد في الأمر ، وحمس الشر ، إذا اشتد (٤) . كما يقـــال : حبست الشيء . ويلتمس ابن جنى للتقارب بينهما وجهاً هو أن الشيئين إذا حبس أحدهما صاحبه تمانعا وتعازّا ، فكان ذلك كالشر يقع بينهما ، ولعله في هذا قد ارتكب التكلف والغلو ليحقق نظريته . وأما التقارب اللفظى بين الأصلين فأمر واضح وهو أن الميم والباء حرفان شفويان .

علب — علم : كل منهما يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره ، وقد تقدم بيان ذلك في (ع ل م) ، أما (ع ل ب) فمنه علبْت الشيء ، إذا وسمته أو خدشته أو أثرت فيه ، والعلاب : وسم في طول العنق ، ومنه ناقة مُعَلَّبَة (٥) . وأما التقارب في اللفظ فالبـــاء أخت الميم .

قرد — قرت : قد يجمعهما معنى التجمع واللصوق . فالصوف القرد : المتلبد المتداخل بعضه في بعض من ذلك أخذ ، ويقال أقـــرد الرجل ، إذا لصق بالأرض من ذلك ، أوذل (٦)

(١) الجمهرة ٢/٣٨٨ .
(٢) الخصائص ٢/١٤٧ .
(٣) انظر المقاييس ٤/٢٩٣ .
(٤) الجمهرة ٢/١٥٦ .
(٥) الصحاح ٢/١٤٥ .
(٦) الجمهرة ٢/٢٥٣ .

كما يقال : قرت الدم ، إذا يبس بعضه على بعض (١) . والدال أخت التـاء ، إذهما من مخرج واحد هو طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا .

علز – علص : الأصلان متقاربان معنى يجمعهما القلق والطيش ، فمن الأول : العلز : خفة وهلع يصيب الإنسان (٢) والثاني أصل بنـاء العلوص ، وهو داء يصيب الإنسان في بطنه (٣) وقد يتفقان في الاستعمال ، فقد ذكرت المعاجم أن العلوز لغـة في العلّوص ، وأن العاوص: وجـع في البطن مثـل العِلّوز (٤) . والزاى والصاد من مخرج واحد هو طرف اللسان مع أطراف الثنايا السفلى إضافة إلى كونهما من حروف الصفير .

غرب – غرف : ذكر ابن جني أن التقارب بينهما من جهة أن الغرب : الداو العظيمة، ويغرف بها من الماء ، وربما يكون في هذا شيء من التكلف فليس الغرب خاصاً بالدلو وإنما غرب كل شيء : حـده ، وغرب الدمع : مسيله ، وغارب كل شيء أعلاه (٥) وهكذا . والباء أخت الفاء إذ هما شفويان .

أما التقارب في حرفين بين كلمتين فمن أمثلته :

سحل – صهل : يجمعهامعنى الصوت ، إذ كل منهما يدل عليه فالسحيل والسّحال : الصوت الذى يدور في صدر الحمار ، ولذلك يسمى الحمار مِسْحلاً . ويقال للخطيب : انسحل بالكلام ، إذا جرى بـه ، وركب مسحله ، إذا مضى في خطبته (٦) . وأما الثاني فمنه الصهيل : صوت الفرس والسين أخت الصاد فهما من مخرج واحد ، كما أن الحاء أخت الهاء فهما حرفان حلقيان .

سحل – زحر : يجمعهما أيضاً معنى الصوت ، وقد تقدم معنى (س ح ل) ، وأما (ز ح ر) فيقال منه : زحر يزحر زحيراً ، وهو صوت نفسه إذا تنفس بشدة ، وزحرت المرأة بولدها عنـد الولادة (٧) . وهما متقاربان لفظاً أيضاً ، فالسين أخت الزاى فهما من حروف الصفير ومن مخرج واحد ، واللام أخت الراء كما تقدم .

(١) الصحاح ٢/٢٨٩ .
(٢) الجمهرة ٣/٧ .
(٣) الجمهرة ٣/٧٧ .
(٤) الصحاح ٢/١٤٧ .
(٥) الجمهرة ١/٢٦٩ .
(٦) الصحاح ١/٥٧٢ .
(٧) المقاييس ٣/٤٩ .

جلف – جرم : متفقان معنى إذ يجمعهما معنى القطع . فيقال من الأول : جلف الشيء، إذا استأصله ، والجلفة : القطعة من الشيء ، والجلف : القطع (١) ، ومن الثاني : الجَرْم : القطع . ويقال لصرام النخل الجرام ، وجرمت صوف الشاة أى جززته (٢) . وأما تقاربهما في اللفظ فلأن اللام أخت الراء كما تقدم ، وكذلك الفاء أخت الميم إذ هما شفويان .

صال – سار : الأول من (ص و ل) ، والثاني من (س و ر) وهما متقاربان معنى ، إذ يجمعهما معنى العلو والارتفاع . فمن الأول : صال عليه . إذا استطال ، وصال عليه : وثب والمصاولة : المواثبة (٣) ، ورجل ذو صولة ، إذا كان ذا سلطان ، وصولة الخمر : سلطانها وحُمَيّاها (٤) . ومن الثاني : السورة : المنزلة ، والسورة من القرآن كأنها درجة أو منزلة يفضى منها إلى غيرها . ويقال : تَسَوَّر الحائط : تسلقه ، وسورة السلطان سطوته واعتداؤه ، وسورة الشراب : وثوبه في الرأس ، وسورة الخمر : حدتها (٥) ، وأما التقارب في اللفظ فلأن الصاد أخت السين كما تقدم ، واللام كذلك أخت الراء .

وأما النوع الثالث وهو التقارب بين الكلمتين في حروفها الثلاثة فمن أمثلته :

عصر – أزل : متقاربان في المعنى ، إذ يجمعهما أحياناً معنى عام واحد هو الحبس والمنع ففى (أزل) : الأزل : الحبس . يقال : أزالوا مالهم يأزاونه ، إذا حبسوه عن المرعى من خوف (٦) . وفي (ع ص ر) يقال : اعتصرت ماله ، إذا استخرجته من يده . وفي الحديث : « يعتصر الوالد على ولده في ماله » أى يمنعه إياه ويحبسه عنه (٧) . وأما التقارب في اللفظ فلأن العين أخت الهمزة إذ هما حلقيان ، والصاد أخت الزاى ، والراء أخت اللام كما تقدم .

عصب – أزم : متقاربان في المعنى ، فيجمعهما في بعض الاستعمالات معنى الشدة . ففى الأول (ع ص ب) يقال : رجل معصوب : صلب اللحم غير مسترخ ، ويوم عصيب : شديد في الشر خاصة ، والعصابة : العمامة ، وعصب الريق بفيه عصبا ، إذا يبس عليه من عطش أو غيره والمعصوب في لغة هذيل الجائع (٨) . ومن الثاني (أزم) : الأزمة : الشدة

(١) الجمهرة ١٠٦/٢ .
(٢) الصحاح ١٨٦/١ .
(٣) الصحاح ٧٤٧/١ .
(٤) الجمهرة ٢٣٩/٢ .
(٥) الصحاح ٦٢٧/١ والجمهرة ٣٣٩/٢ .
(٦) الصحاح ٢٣/١ .
(٧) الصحاح ١١٩/٢ .
(٨) الجمهرة ٢٩٧/١ .

والقحط ، يقال : أزم علينا الدهر ، أى اشتد وقل خيره (١) . والهمزة أخت العين ، والزاى أخت الصاد ، كما أن الميم أخت الراء .

غدر – ختل : فيهما معنى الخداع وعدم الوفاء . فمن الأول : الغدر : نقض العهد وترك الوفاء به (٢) . ومن الثاني : يقال : ختله وخاتله ، أى خدعه . والتخاتل : التخادع (٣) والغين أخت الخاء فهما حلقيان ، والدال أخت التاء ، والراء أخت اللام كما تقدم .

زأر – سعل : يجمعهما معنى عام هو الصوت ، فكل منهما يدل عليه ، فالزئير : صوت الأسد ، وهو من (زأر) والأصل الثاني (س ع ل) يدل على صخب وعلو صوت(٤). ويقال منه : استسعلت المرأة : صارت سعلاة ، إذا صارت صخابة . ومنه السعال .

والزاى أخت السين ، والهمزة أخت العين ، والراء أخت اللام .

عدن – أطر : أصلان يدل كل منهما على الإقامة ، فمن الأول يقال : عدن بالمكان ، إذا أقام به ، ومنه اشتقاق المعدن ، وجنة عدن ، أى دار مقام (٥) . ومن الثاني : تأطرت المرأة تأطّرا ، إذا أقامت في بيتها (٦) ، والتأطر : التمكث (٧) .

والعين أخت الهمزة ، كما أن الدال أخت الطاء ، فهما من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ، والنون أخت الراء .

صهل – زأر : كل منهما يدل على صوت . فمن الأول : الصهيل : صوت الفرس ، ومن الثاني الزئير : صوت الأسد كما تقدم ، فتقاربا في المعنى . والصاد أخت الزاى ، والهاء أخت الهمزة ، واللام أخت الراء ، فتقاربا في اللفظ .

ومن أمثلة ابن جنى أيضاً في ذلك : « قالوا : كلف به ، كما قالوا : تقرب منه » والأول من (ك ل ف) والثاني من (ق ر ب) فالكاف أخت القاف لأنهما من أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ، واللام أخت الراء ، والفاء أخت الباء .

---

(١) الصحاح ٢٤/١ .
(٢) المقاييس ٤١٣/٤ .
(٣) الصحاح ٣٣٠/١ .
(٤) المقاييس ٧٣/٣ .
(٥) الجمهرة ٢٨٣/٢ .
(٦) الصحاح ٣٣/١ .
(٧) المقاييس ١١٤/١ .

« وقالوا : تجعّد ، كما قالوا : شحط ، وذلك أن الشيء إذا تجعد وتقبض عن غيره شحط وبعد عنه . . . وذاك من تركيب (ج ع د) وهذا من تركيب (ش ح ط) فالجيم أخت الشين » لأنهما مخرج واحد هو وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ، والحاء أخت العين لأنهما من الحلق ، والطاء أخت الدال .

« وقالوا : أفــل ، كما قالوا : غبر ، والغابر غائب أيضاً » وهما من (أ ف ل) و(غ ب ر) وبالتأمل في المعاجم العربية نجد تقارباً بينهما في المعنى ، كما أن بينهما تقارباً من الناحية اللفظية ، فالألف أخت الغين ، والفاء أخت الباء ، واللام أخت الراء .

وأما النوع الرابع وهو التقارب بين أكثر من كلمتين فقد أشار إليه ابن جني أثناء حديثه عن الأنواع السابقة ، ومن أمثلته :

جبل – جبن – جبر : هذه أصول ثلاثة متقاربة في المعنى ، إذ يمكن جمعهما تحت معنى عام واحد هو الالتئام والتماسك . فمن الأول الذى هو (ج ب ل) : الجبل لشدته وقوته ، ويقال : أجبــل الشاعر ، إذا صعب عليه القول ، والجبلّ من الناس الجماعة (١) ، ومن الثاني الذى هو (ج ب ن) : جبن ، إذا استمسك وتوقف وتجمع ، ومنه الجبين جبين الإنسان ، له جبينــان يكتنفان جبهته (٢) . ومن الثالث الذى هو (ج ب ر) : جبرت العظم ونحوه ، أى قويته ، ومنه الجبارة : واحدة الجبائر ، وهو الخشب الذى يشد على العضو المكسور (٣) . والأصول الثلاثة متقاربة في اللفــظ فاللام والنون والراء أخوات ، إذ هما من مخرج واحد هو طرف اللسان مع اللثة العليا .

جرف – جلف – جنف : يدل ما ذكر في المعاجم من معاني هذه الأصول الثلاثة وجود تقارب بينهما في المعنى . فمن الأول : الجرف : الأخذ الكثير ، وجرفت الشيء : ذهبت به كله أو جله ، وجرفت الطين : كسحته . والجرف : أخذك الشيء عن وجه الأرض بالمجرفة . . . وفي الحديث : « ليس لابن آدم إلا بيت يكنه ، وثوب يواريه ، وجرف الخبز » أى كسره ، الواحدة جرفة ، ويروى باللام بــدل الراء (٤) . ومن الثاني : الجلف أجفى من الجرف وأشد استئصالاً ، والجلف مصدر جلفت ، أى قشرت : وجلف ظفره

---

(١) الجمهرة ٢١٢/١ .
(٢) الجمهرة ٢١٤/١ .
(٣) الجمهرة ٢٠٧/١ .
(٤) لسان العرب ٣٦٨/١٠ ، ٣٧٠ .

عن إصبعه : كشطه ، وجلف الطين عن رأس الدن : نزعه ، ، ورجل مجلّف قد جلفه الدهـــر ، وهو أيضاً مجرّف ، وزمان جالف وجارف(١) . ومن الثالث : الحنف وهو الميل . ويقول ابن جنى في التقارب بينه وبين الأصلين السابقين : « وإذا جلفت الشيء أو جرفته فقد أملتـــه عما كان عليه (٢) » . والأصول الثلاثة متقاربة لفظاً ، فالحرف المختلف فيها وهو الراء أو اللام أو النون يخرج من طرف اللسان مع اللثة العليا كما تقدم .

على أنه يمكن الجمع بين أكثر من أصلين — مما تقدم من الأمثلة في الأنواع السابقة — ليدل على معان متقاربة يمكن إدراجها تحت معنى عام واحد ، فيمكن مثلاً الجمع بين الأصول

سحل — صهل — زحر — زأر — سعل : فكلها تدل على صوت — وإن اختلف نوعه — كما تقدم . وهي من الناحية الصوتية متقاربة ، فالحرف الأول منها لا يخرج عن حروف الصفير التي تخرج كلها من طرف اللسان مع أطراف الثنايا السفلى ، والحرف الثاني لا يخرج عن حروف الحلق ، والثالث لا يخرج عن اللام أو الـــراء وهما أيضاً من مخرج واحد هو طرف اللسان مع اللثة العليا . وقد نبـــه ابن جنى أثناء عرضه لهذه الأمثلة أن ذلك موجود بكثرة في كلام العرب ، وحث الباحثين على تتبعه والبحث عنه فقال : « وهذا النحو من الصنعة موجود في أكثر الكلام وفرش اللغة ، وإنما بقى من يثيره ويبحث عن مكنونه ، بل من إذا أوضح له وكشفت عنده حقيقته طاع طبعه لها فوعاها وتقبلها ، وهيهات، ذلك مطلباً ، وعز فيهم مذهبا » (٣) .

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن هذه النظرية تشبه — في نظرنا — إلى حد كبير ما ذهب إليـــه ابن جنى أيضاً من القول بنظرية أخرى هي ما سماه بالاشتقاق الكبير أو الأكبر (٤) من جهة أن كلا منهما يؤدى إلى القول بدلالة أكثر من مادة على معنى عام واحد ، ولكنها تختلف عما ذهب إليه عالم لغوى معاصر لابن جنى هو ابن فارس من القول بدوران المادة حول معنى واحد ، تلك النظرية التي استطاع هذا العالم اللغوى أن يطبقها على أكثر مواد اللغة حتى أنه بنى عليها معجماً لغوياً كاملاً هو « مقاييس اللغة » . ذلك أن نظرية ابن جنى هذه

(١) اللسان ١٠/٣٧٤ ، ٣٧٦ .

(٢) الخصائص ٢/١٤٧ .

(٣) الخصائص ٢/١٥٢ .

(٤) ذكره ابن جنى في الخصائص ٢/١٣٣ . ومعناه أن تاخذ اصـــلا من الاصول الثلاثية فاذا قلبته على أوجهه المستعملة فان هذه التقاليب الستة كلها تجتمع على معنى عام واحد ، وهذا يحتاج وحده الى بحث خاص به .

أصعب في تطبيقها من الأخرى ، وربما يرجع ذلك إلى أنها أعم منها ، فبينما تؤدى إلى دلالة مادتين أو أكثر على معنى عام واحد نرى ابن فارس يذهب إلى القول بأن المادة الواحدة تدل على معنى عام واحد ، وأحياناً على معنيين عامين ، وأحياناً على أكثر من ذلك . فمثلاً في مادة (بسط) يقول :

« الباء والسين والطاء أصل واحد ، وهو امتداد الشيء في عِرَض أو غير عِرَض . فالبساط ما يُبسط ، والبَسَاط الأرض ، وهي البسيطة . يقال مكان بسيط وبَسَاط . . . ويد فلان بِسْطٌ ، إذا كان منفاقاً ، والبَسْطَةُ في كل شيء السَّعَة . وهو بسيط الجسم والباع والعلم . قال الله تعالى : « وزَادَهُ بَسْطَةً في العِلْم والجِسْم » (١) . ومن هذا الأصل وإليه يرجع ، قولهم للناقة التي خليت هي وولدها لا تمنع منه : بُسْط » (٢) فنراه يرجع هذه المعاني الجزئية إلى ذلك المعنى العام الذى ذكره في صدر المادة . وقد يرجعها إلى معنيين أو أكثر كما تقدم ، وكتاب المقاييس ملىء بذلك مما لا يحتمل هذا البحث أكثر من الإشارة إليه .

ومع هذا فإننا نرجع فنقول إن ما ذهب إليه ابن جنى — في نظريته هذه — من تقارب الألفاظ لتقارب المعاني قد يؤدى إلى القول بأن هذه المعاني في الأصل كانت عامة ثم تفرعت إلى معان جزئية ، وكانت قليلة ثم كثرت ، شأنها في ذلك شأن الألفاظ الدالة عليها . وهذا يوافق ما يذهب إليه علماء الدلالة في العصر الحديث من أن كثيراً من ألفاظ اللغات في العالم يصيبها ما يسمى بتخصيص الدلالة ، حيث يعمد الناس إلى بعض الدلالات العامة ويستعملونها استعمالاً خاصاً ، فإذا شاع هذا الاستعمال وذاع بين جمهور الناس تطورت دلالة اللفظ أيضاً من العموم إلى الخصوص (٣) .

٤ — ومما يتصل بدلالة الألفاظ في أبحاث ابن جنى ما ذكره في باب سماه : « باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية » (٤) .

ومؤدى هذه النظرية أن سياق الكلام وما يتصل به من ملابسات له أثر كبير في دلالة

---

(١) من الآية ٢٤٧ من سورة البقرة .
(٢) مقاييس اللغة ١ : ٢٤٧ .
(٣) انظر دلالة الألفاظ . دكتور ابراهيم انيس ص ١٥٤ .
(٤) الخصائص ٣/٢٤٥ .

الكلمة وما تؤديه من معان ، وليس المعنى المعجمي وحده هو الذى يؤدى معرفته إلى فهم المقصود من الألفاظ ودلالتها . فقد لاحظ ابن جنى أن خلافاً كبيراً وقع بين أصحاب الفرق الإسلامية في تفسير بعض ألفاظ وردت في القرآن الكريم بحيث ينظر كل فريق إلى الآخر على أنه ضال أو منحرف أو ملحد ، وأن معرفة الدلالة الصحيحة للكلمات من الناحية اللغوية قد تهدى إلى الرأى الصحيح ، وكان هذا دافعاً قوياً إلى عقد هذا الباب الذى استهله بقوله : « إعلم أن هذا الباب من أشرف أبواب هذا الكتاب ، وأن الانتفاع به ليس إلى غاية ، ولا وراءه من نهاية ، وذلك أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى إليها ، فإنما استهواه واستخف حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة . . . » .

وقد ذكر ابن جنى أمثلة لهذه الألفاظ التي يؤدى الخطأ في تفسيرها من قبل أهل الشريعة إلى الضلال عن القصد ، وذلك استعمال بعض الجوارح ونسبتها لله جل جلاله في مثل قوله تعالى : « يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله » (١) ، « لما خلقت بيدى (٢) » ، « مما عملت أيدينا » (٣) ، « ويبقى وجه ربك » (٤) ، « ولتصنع على عينى » (٥) ، « والسموات مطويات بيمينه » (٦) ، « يوم يكشف عن ساق » (٧) .

وخلاصة ما ذكره الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » (٨) عن هؤلاء أنهم فرقتان : فمنهم من أوله على وجه يحتمل اللفظ ذلك ، ومنهم من توقف في التأويل ، وقال : عرفنا بمقتضى العقل أن الله تعالى ليس كمثله شيء ، فلا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شيء منها ، وقطعنا بذلك ، إلا أنا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه . وقد قال هؤلاء في مثل قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

ولعل توقف هؤلاء في تفسير هذه الآيات وتأويلها يرجع إلى أمرين كما ذكر الشهرستاني . أحدهما : المنع الوارد في التنزيل في قوله تعالى : « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل

(١) من الآية ٥٦ من سورة الزمر .
(٢) من الآية ٧٥ من سورة ص .
(٣) من الآية ٧١ من سورة يس .
(٤) الآية ٢٧ من سورة الرحمن .
(٥) من الآية ٣٩ من سورة طه .
(٦) من الآية ٦٧ من سورة الزمر .
(٧) من الآية ٤٢ من سورة ن .
(٨) انظر جـ١ ص ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

من عند ربنا » (١) . والثاني : أن التأويل أمر مظنون بالاتفاق ، والقول في صفات البارى بالظن غير جائز ، فربما أولوا الآية — كما يقولون — على غير مراد البارى تعالى فوقعوا في الزيغ .

غير أن فرقة من الفرق الإسلامية وهم المشبهة يجرون ما ورد في التنزيل من الاستواء والوجه واليدين والجنب والمجيء والإتيان والفوقية وغير ذلك على ظاهره ، أى ما يفهم عند الإطلاق على الأجسام ، وكذلك ما ورد في الأخبار من الصورة وغيرها في قوله عليه السلام : « خلق آدم على صورة الرحمن » وقوله : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » وغير ذلك .

وقد بين ابن جنى أن الطريق إلى فهم ما تدل عليه هذه الألفاظ فهما صحيحاً هو إدراك أن هذه اللغة أكثرها جــار على المجاز ، وقلما يخرج الشيء منها على الحقيقة (٢) ، وأن خطاب الله تعالى للعرب الذين هم أعرف الناس بسعة مذاهبها بهذه الألفاظ قد جرى مجرى ما يألفونه ويعتادونه منها في كلامهم ، فقد كثر في خطابهم العادى مثل هذه الألفاظ ، مع أنها غير مقصودة بمعناها المعجمى أو معناها الحسى الظاهرى ، فورد في كلام العرب مثلاً يقولون : هذا الأمر يصغر في جنب هذا ، فليس معنى الجنب هنا معناه المعروف في المعاجم ، وإنما معنى هذه العبارة أنه أمر يصغر بالإضافة إليه وقرنه به ، وكذلك قوله تعالى : « يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله » أى فيما بيني وبين الله ، إذا أضفت تفريطى إلى أمره ونهيه إياى.

وكذلك ورد قولهم — على ما حكاه السيوطى في المزهر عن ابن برهان في كتابه الأصول — : استوى فلان على متن الطريق ، ولا متن لها ، وفلان على جناح السفر ولا جناح للسفر ، وقامت الحرب على ساق . وهذه كلها مجازات ، ومنكر المجاز في اللغة جاحد للضرورة ، ومبطل محاسن لغة العرب (٣) .

فالمعنى المعجمى إذا قد يكون قاصراً عن المعنى المقصود ، ولذلك وجدنا بعض أصحاب المعاجم قد اتجه في تأليف معجمه إلى الاهتمام بذكر المجاز ، والنص على هذه المعاني

---

(١) من الاية ٧ من سورة ال عمران .

(٢) للعلماء العرب في اقرار المجــاز في اللغة وانكاره مذاهب كثيرة انظر المزهر للسيوطي جـ١ ص ٣٥٥ وما بعدها .

(٣) انظر المزهر جـ١ ص ٣٦٤ .

المقصودة ، ومن هؤلاء الزمخشرى صاحب « أساس البلاغة » فقد ذكر مثلاً أن مما يستعمل في مادة (جنب) عبارات كثيرة منها : فرطت في جنب الله . أى في جانبه وفي حقه ، ورجل لين الجانب : سهل المعاملة سلس (١) وهكذا .

بل إن المجاز عنده قد يغلب على المعاني الحقيقية . ففى مادة (يدى) التي منها يد الواردة كثيراً في القرآن الكريم منسوبة إلى الخالق جل وعلا ، أورد تعبيرات مجازية كثيرة منها مثلاً : لفلان عندى يد ، وأيديت عنده ويديت ، إذا أنعمت . ومالك عليه يد : ولاية . وهذا ملك يده ويمينه . وهذه الدار في يده ، ولا أفعله يد الدهر : أبداً والأمر بيد الله . ويارب هذه ناصيتى بيدك . وجلست بين يديه . وسقط في يده : ندم . والقوم علىّ يد واحدة وساق واحدة ، إذا اجتمعوا على عداوته . وله يد عند الناس : جاه وقدْر (٢) .

وكذلك في (وجه) من المجاز في استعمالها : هذا وجه القوم ، وهؤلاء وجوه البلد ، وهو يبتغى بذلك وجه الله وهكذا .

وكلمة (يمين) المأخوذة من مادة (يمن) من المجاز في استعمالها : هو ملك يمينه ، وهو عنده باليمين : بمنزلة حسنة . وهكذا .

وكلمة (ساق) من مادة (سوق) من المجاز فيها : قامت الحرب على ساقها . وكشف الأمر عن ساقه ، وقام على ساق وعلى رجل في حاجتى ، إذا جد فيها .

فالعرب إذا قد استعملوا هذه الألفاظ وأرادوا منها غير ما وضعت له ، فإذا وردت في القرآن منسوبة إلى المولى جل وعلا فلماذا نحملها على ظاهرها مع أن المعنى المجازى هو الكثير في استعمالها .

على أن علماء اللغة المحدثين لا يختلفون مع ابن جنى بل يوافقونه على هذا الرأى حين يذهبون إلى أن معنى الكلام لا يمكن فصله بأى حال عن السياق الذى يعرض فيه ، وأنه لا يمكن فهم الكلمة أو العبارة بدون الوقوف على ظروف الكلام وملابساته (٣) .

وأمر آخر في فهم دلالة الكلمة على الوجه الصحيح نبه إليه ابن جنى ، وهو معرفة معاني

---

(١) أساس البلاغة ص ١٠٢ . (٢) ص ٧١١ ، ٧١٢ .

(٣) انظر مثلا دلالة الألفاظ د. ابراهيم انيس ص ٤٤ وما بعدها . وعلم اللغة (مقدمة للقارىء العربى) د. محمود السعران ص ١٨٨ ـ ١٩٠ ط سنة ١٩٦٢ .

صيغ الزوائد في العربية ، فمن المعروف مثلاً عند علماء الصرف أن صيغة (أفعل) تأتي في العربية لمعان كثيرة (١) منهـــا : التعدية ، وهي تصيير الفاعل بالهمزة مفعولا ، كأقمت زيداً ، وأقعدته ، وأقرأته . الأصل قام زيد ، وقعد ، وقرأ ، فلما دخلت عليه الهمزة صار زيد مقاماً مقعداً مقرءاً ، وأصبح الفعل متعدياً بعد أن كان لازماً . ومنها : مصادقة الشيء على صفة ، كأحمدت زيداً وأكرمته وأبخلته ، أي صادفته محموداً ، أو كريماً ، أو بخيلاً .

وعلى ذلك ففي قوله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » (٢) إما أن يكون (أغفلنا) هنا – كمـــا قال ابن جني – من باب أفعلت الشيء ، أي صادفته ووافقته كذلك ، وعلى هذا ورد الكثير من كلام العرب ، وقد حكى الكسائي قولهم : دخلت بلدة فأعمرتها . أي وجدتها عامرة ، ودخلت بلدة فأخربتها ، أي وجدتها خراباً ونحو ذلك . وإما أن يكون (أفعل) هنا للتعدية ، ويكون معنى أغفلنا قلبه منعنا وصددنا . وهنا يقول ابن جني : « نعوذ بالله من ذلك ، فلو كان الأمر على ما ذهبوا إليه منه لوجب أن يكون العطف عليه بالفاء دون الواو ، وأن يقال : ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه » .

ووجهة نظر ابن جني – كما يفهم من كلامه – أن اتباع الهوى ليس مسبباً عن الغفلة حتى تجيء الفاء ، وإنما هو معطوف عليها فهذا موضع الواو ، وفرق بينهما ، فإن المعنى على الواو : لا تطع من فعل كذا وفعل كذا .

ويعلق ابن جني على اقتناعه بهذا التفسير قائلاً : « ولولا ما تعطيه العربية صاحبها من قوة النفس ودربة الفكر ، لكان هذا الموضع ونحوه مجوزاً عليه غير مأبوه له » .

وبعد أن يوجه اللوم إلى بعض العلماء الذين لم ينبهوا على هذا الموضع يقول : « ولله قطرب فإنه قد أحرز عندي أجراً عظيماً فيما صنعه من كتابه الصغير في الرد على الملحدين ، وعليه عقد أبو علي – رحمه الله – كتابه في تفسير القرآن ، وإذا قرأته سقطت عنك الشبهة في ذلك الأمر » (٣) .

وما ذكره ابن جني في هذه المسألة هو ما عناه بعض المحدثين (٤) بالدلالة الصرفية .

---

(١) أوصلها بعضهم الى عشرة معان انظر شـذا العرف للشيخ أحمد الحملاوى ص ٤١ ط ١٩٧٢ .

(٢) الآية ٢٨ من سورة الكهف .

(٣) الخصائص ٣/٢٥٥ .

(٤) انظر مثلا : دلالة الألفاظ ، وأنواع الدلالة ص ٤٤ .

فلابد في فهم الدلالة من معرفة بنية الكلمة وما يتصل بها ، إذ يترتب على اختلاف بنية الكلمة اختلاف في دلالتها .

هذه بعض نظريات ابن جني في دلالة الألفاظ ، تلك التي أودعها كتابه الخصائص ، وهي تدل على أن علماء العربية الأقدمين قد سبقوا بها المحدثين من علماء الغرب الذين يدعون نسبتها إليهم ، وهم في الواقع قد أخذوها من علمائنا العرب القدامى .

ولقد كان ابن جني حريصاً على حث الباحثين على مواصلة هذه البحوث وإكمال ما بدأه منها هو وغيره من علماء اللغة الأقدمين ، وما ينبغى لباحث في العربية أن يهمل هذه النظريات أو يقلل من شأنها ، أو يكتفى بقراءتها ، بل عليه بعد دراستها والتعمق في فهمها أن يحاول إكمالها بإضافة ما يمكنه إضافته إليها من الأمثلة .

ولا يعنى ذلك أن هؤلاء العلماء قد قصروا في شرح هذه النظريات اللغوية ، أو استكمالها ، أو الإضافة إليها ، ولكنهم تركوا لنا ذلك لأسباب قد يكون من أهمها الخوف من الملل عند قراءة هذه الموضوعات التي وضعوها في كتبهم على منهج لا يستقيم معه التطويل .

ويفهم هذا من مثل قول ابن جنى بعد شرحه لأول نظرية عرضناها في هذا البحث : « وقد هممت غير دفعة أن أنشىء في ذلك كتاباً أتقصى فيه أكثرها ، والوقت يضيق دونه ، ولعله لو خرج لما أقنعه ألف ورقة إلا على اختصار وإيمــاء فتفطن له وتأن لجمعه . . . » (١) .

ويقول عقب الثانية : « الآن قد أنستك بمذاهب القوم فيما هذه حاله . ووقفتك على طريقه ، وأبديت لك عن مكنونه ، وبقى عليك أنت التنبيه لأمثاله ، وانعام الفحص عما هذه حاله ، فإننى إن زدت عن هذا مللت وأمللت ، ولو شئت لكتبت من مثله أو راقا مئين فأبه له ولاطفه (٢) . . . » .

وفي نهاية الثالثة يقول : « وهذا النحو من الصنعة موجود في أكثر الكلام وفرش اللغة ، وإنما بقى من يثيره ويبحث عن مكنونه . . . » (٣) .

ويقول في آخر ما عرضناه من النظريات : « لو أقام إنسان على خدمة هذا العلم ستين سنة حتى لا يحظى منه إلا بهذا الموضع لما كان مغبونا فيه ولا منتقص الحظ منه ولا السعادة به (٤)

جزى الله ابن جنى وأمثاله عن هذه اللغة خير ما يجزى به العلماء العاملين .

---

(١) جـ ٢ ص ١٣٣ .
(٢) جـ ٢ ص ١٦٨ .
(٣) ١٥٢/٢ .
(٤) ٢٥٣/٣ .

المفهوم العام للوثائق والتوثيق

دكتور محمد عباس حمودة

مدرس بقسم التاريخ والمكتبات

١ - علم الوثائق وتعريف الوثيقة :

يبحث علم الوثائق في الوثائق المكتوبة وتطلق على الوثيقة كلمة act أو deed والوثيقة المكتوبة هي الوثيقة المصدق عليها من جهة رسمية أو إذا كانت صادرة من فرد فلابد أن يكون موقعاً عليها ، والوثيقة المكتوبة أيضاً تحوى ما يسمى بالعمل القانوني أو تحوى و اقعة قانونية ولذلك وجب أن نعرف العمل القانوني الذى هو محتوى الوثائق المكتوبة .

العمل القانوني هو عمل إداري يراد به إحداث أو تعديل أو الغاء التزام ما ، ويمكن أن يفصل في هذا العمل أمام القضاء .

فالوثيقة إذا لها صفة قانونية إذ يمكن أن يلتجأ إليها أمام القضاء — ومن أمثلة الأعمال القانونية — البيع والهبة ، ومن ناحية السلطة التنفيذية قرارات التعيين .

كل هذا نطلق عليه وثيقة بالمعنى القانوني — وهذا العمل القانوني منفصل عن الوثيقة المكتوبة ، وإن كانت دائماً تحوى عمل قانوني إلا أنه يمكن تصور العمل القانوني دون الوثيقة المكتوبة فمثلاً يمكن للقضاء أن يكتفى بالشهادة الشفوية دون الاعتماد على الوثيقة المكتوبة — ولكننا لا يمكن أن نتصور وثيقة بالمعنى العلمي دون أن تحوى عملاً قانونياً فالوثيقة القانونية إذا هي الوثيقة المكتوبة التي يبحثها علم الوثائق .

وهناك نوع من الوثائق لا يحوى عملاً قانونياً أى عملاً إرادياً ولكنه يحوى واقعة قانونية يترتب عليها آثار ونتائج قانونية كالميلاد والزواج والوفاة ولكننا نطلق عليها وثائق قانونية ويدخل أيضاً في ما يبحثه علم الوثائق وهناك أمثلة أخرى للوثائق أقل أهمية للعلم من الالتماسات والتقارير والمشروعات والرسائل أو الخطابات فهذه لا نعدها وثائق لسبب هام وهو أنها لم توضع في قالب معين ولذلك كانت الصيغة المعينة والقالب المعين شرطاً هاماً من شروط الوثيقة بمعناها العلمي والقانوني .

ولدراسة الوثيقة يمكن أن ننظر إليها مثلاً من ناحية خطها لذلك نجد أنه يجب دراسة علم الكتابة أى علم القراءة للخطوط القديمة ودراسة تطورها ـ وننظر إلى الوثيقة من حيث لغتها وهذا يتطلب معرفة باللغة وفقه اللغة وننظر إليها أيضاً من حيث القالب الذى صيغت فيه أى ننظر إلى النص أو الصيغ القانونية الواردة فيها .

كما عرفت الوثيقة المكتوبة بأنها إعـلان مدون عن شيء له طبيعته القانونية صيغ في قالب أو شكل خاص مناسب للظروف .

وكلمة وثيقة في العربية كلمة عامة غير محدودة المعنى وتطلق على المستند قانونياً كان أو غير قـانوني .

ويجب أن نستعمل هنا لفظاً آخر هو الوثيقة الدبلوماتية « نسبة إلى علم الدبلوماتيك » وهو العلم الذى يعنى بدراسة وتحليل المكتوب الذى صيغ في قالب خاص أو شكل مناسب للظروف ويتضمن فعلاً قانونياً أو واقعة قانونية كما سبق أن ذكرت .

والوثيقة الدبلوماتية بهذا المعنى مصدر أصيل من مصادر التاريخ لأن كاتب الوثيقة لا يخضع للعوامل الشخصية والميول السياسية والاجتماعية التي قد يخضع لها كاتب التاريخ هذا فضلاً عن أنه يخضع لرقابة الديوان أو الهيئة التي تصدر عنها الوثيقة .

والوثيقة الدبلوماتية بهذا الوصف يدرسها علـم من العلوم المساعـدة للتاريخ هو علم الدبلوماتيك ، وعلم الدبلوماتيك هو العلم الـذى يتناول بالدراسة النقدية المصادر الأدبية الرسمية للتاريخ وعلى الأخص تلك المصادر التي تكتنفها الشكوك ويثار حول صحتها الجدل مثل المراسيم والإتفاقيات والوثائق الشرعية والمعاهدات ـ ويهتم بدراسة الـوثائق من حيث الشكل أى الخصائص الخارجية والداخلية ، والخصائص أو المميزات الخـارجية تشتمل على ما يتصل بالمادة التي كتبت عليها الوثيقة والحبر والخطوالتوقيعات والأختام وطريقة الاخراج

أما الخصائص والمميزات الداخلية فهي تشتمل على كل ما يتصل بلغة الوثيقة وصياغتها وما بها من وقائع وحقائق تاريخية أو قانونية .

ويمكن القول بأن المميزات الخارجية هي ما يمكن أن تدرس على الوثيقة الأصلية فقط

أما المميزات الداخلية فهي تدرس على الأصل وعلى الصورة أيضاً وعلم الوثائق يدرس الوثيقة من حيث : —

أولاً : الشكل للتعرف على صحتها الدبلوماتية أو زيفها (النقد والتحليل الدبلوماتي) .

ثانياً : المحتوى من أجل استخراج شاهد تاريخى منها — وتحديد قيمة هذا الشاهد كمصدر للتاريخ .

وللوثيقة حالتان رئيسيتان هما الأصل والصورة — وقد تكون الوثيقة على شكل صفحة أو قطعة Piece أو ملف Roll من عدة دروج موصلة أو كتاب Codex Farm من عدة أوراق مجمعة — ويحوى السجل Registre صور الوثائق — والوثائق كعلم مساعد للتاريخ تتبع المنهج التاريخى ومهمة الوثائق هي تمهيد السبيل للمؤرخ لكتابة بحوث مبتكرة .

وتحوى دور الوثائق التي تقوم بجمع الوثائق التي تتصل بتاريخ كل دولة في جميع العصور أنواعاً عديدة من الوثائق يمكن تقسيمها أو تصنيفها على النحو التالى : —

أولاً :

من حيث الغرض الذى يرمى إليه الفاعل القانوني (أى المتصرف) من كتابة الوثيقة وعلى هذا الأساس يمكن تقسيمها إلى نوعين : —

أ — وثائق يقصد بها أن تكون مستنداً أو دليلاً أمام القضاء ، يثبت بها الفعل أو التصرف القانوني الذى يتم بمجرد توافق الإ رادتين (مثال رقم ١) .

ب — وثائق ضرورية لقيام العمل القانوني ذاته مثل الهبة — التي لا يمكن أن تتم إلا بوثيقة مؤرخة موقع عليها من شهود ، وذلك فإن كتابة الوثيقة في هذه الحالة تعتبر ركناً أساسياً في نشأة العمل القانوني ، وعنصراً مهماً من العناصرالرسمية للوثيقة ، ولا يتم التصرف بدونه ، وهذا التقسيم مهم من وجهة نظر القانون ، فكلما زاد الاعتماد على الوثائق المكتوبة كان ذلك دليلاً على تقدم النظم القانونية والحضارة في الدولة وكما يقال(الكتابة تفوق الشهادة والكلام ينسى وتبقى الكتابة) .

ثانياً :

تقسيم يعتمد على مدى صحة الوثيقة وعلى مبلغ الاعتماد على هذه الصحة ، فتقسم الوثائق إلى نوعين هما : —

أ – نوع من الوثائق قام بتحريره وكتابته أو أشرف عليه وراجعه موظف رسمي مختص – الموثق ولا يجوز الطعن في مثل هذه الوثائق – وهو نوع غير مشكوك في صحته ، صحيح رسمي .

ب – نوع من الوثائق قام بتحريره وكتابته الأفراد ، دون الرجوع إلى موظف رسمي مختص أو غير مستمدة من جهة رسمية .

ثالثاً :

ينقسم النوع الثالث من الوثائق إلى عامة وخاصة :

أ – وثائق عامة : كالمناشير والفرمانات والمراسيم الأميرية أو الملكية والقرارات الجمهورية أو الوزارية والأوامر الإدارية – وهي صادرة عن جهة رسمية وتحوى أفعالاً تتعلق بالقانون العام .

ب – وثائق خاصة : مثل العقد غير الموثق وغير المسجل – لم تصدر عن جهة رسمية ، وتحوى أفعالاً تتعلق بالقانون الخاص (بيع – وقف – إيجار – استبدال – هبه – زواج) وهذا التقسيم ينبنى على الطبيعة القانونية للوثائق .

ويمكن القول بأن الوثائق التي حوت أفعالاً قانونية صادرة عن أفراد أو هيئات ومتعلقة بالقانون الخاص وثائق خاصة – سواء كانت هذه الوثائق مصدقاً عليها أو غير مصدق عليها – موثقة أو غير موثقة – وما عدا ذلك فهو من الوثائق العامة .

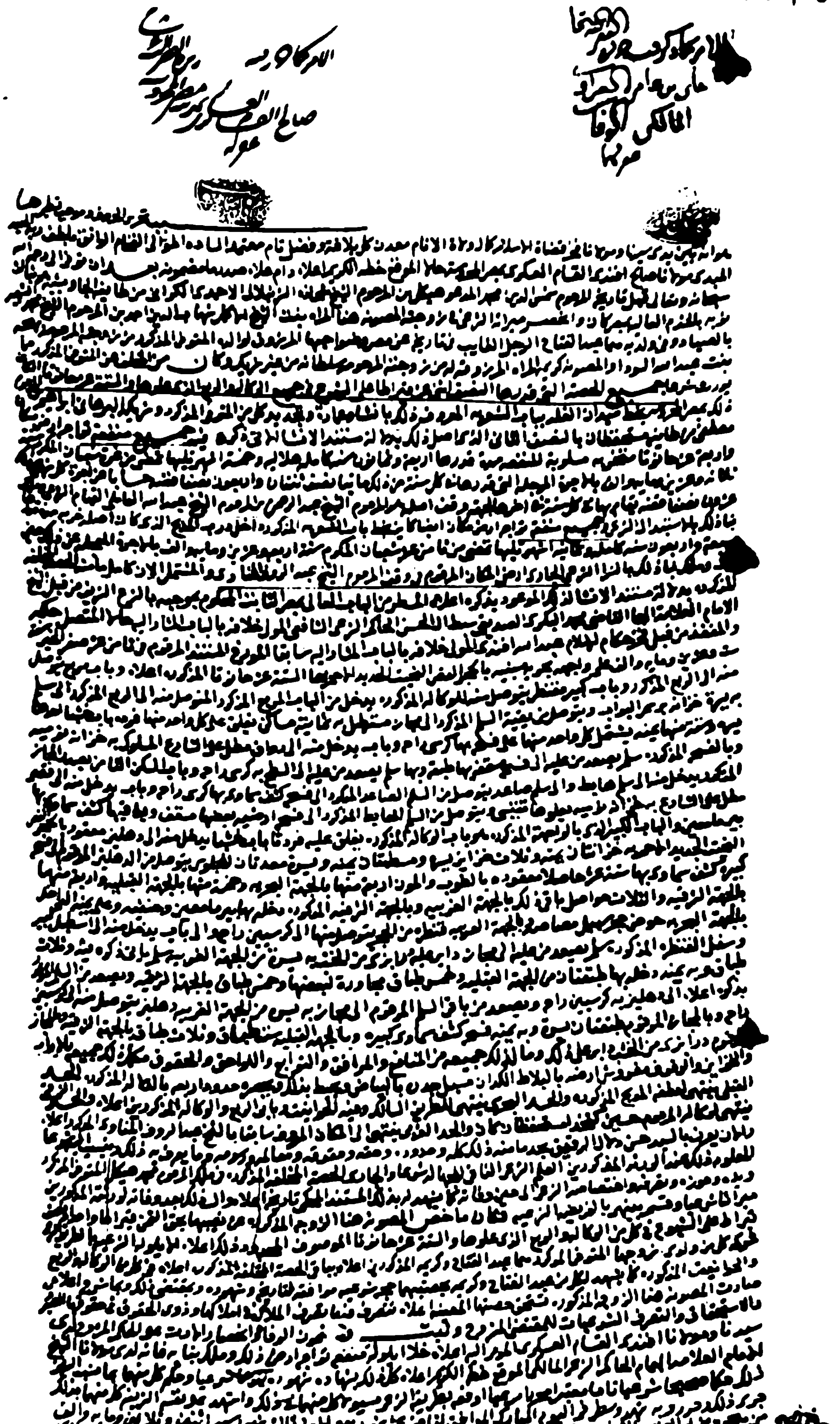
رابعاً :

وهناك تقسيم آخر من وجهة نظر المؤرخين وينقسم إلى : –

أ – وثائق ديوانية : – صادرة عن ديوان معين ، وتتبع قواعد ثابتة أو مرعية في صياغتها وطريقة اخراجها وشكلها مثل الوثائق الصادرة عن وزارة الخارجية أو وزارة الحربية أو وزارة العدل (التي تجمعت في أرشيفاتها من قبل) .

ب – وثائق غير ديوانية – لم تصدر عن هيئة أو مؤسسة أو ديوان لها صفات أو قواعد محددة من حيث الصياغة وطريقة الاخراج والشكل – ويمكن القول بأن كل الوثائق العامة ديوانية ، والكثير من الوثائق الخاصة غير ديوانية .

مثـــال رقم (١) :



وثيقة « ارث » وحصــر تركة صادرة من محكمة القســــمة العسكرية بالقاهرة « في العصر العثماني » بتاريخ ١٨ ربيع اول ١١٣٢هـ .

وهذه النوعيـــات من الوثائق تحفـــظ في دور الوثائق أو (دور المحفوظات) بجانب الأشرطة المسجلة والاسطوانات والأفلام والشرائح والأختام وكل ما يتصل بتاريخ الدولة أو الإقليم مما يعتبر الذاكـــرة الحية للدولة أو الإقليم ولوجود دور الوثائق في معظم بلدان بلدان العالم أهمية كبرى إذ أن البلاد التي ليست بها دور الوثائق أشبه بالمريض الذى يصاب بفقدان الذاكرة .

الوثائق الأرشـيفية :

إن كلمة أرشيف كلمة شائعة لا يسهل تحديدها أو تعريفها تعريفاً محدداً فهذه الكلمة مشتقة من كلمة يونانية Arche «آرخ» ومعناها وظيفة ــ والوظيفة هنا بمعنى العمل الإداري أو الحكومي ، كمـــا تدل هذه الكلمة على المناصب الرئيسية Magistracy . وقد أطلقت على مجموع الأوراق والمستندات التي تتجمع لدى الموظف أثناء عمله ، ومنذ العصر الوسيط بدأ يتحدد معنى الكلمة باطلاقها على الوثائق القديمة التي لها أهمية خاصة .

ثم نجد في بداية العصر الحـــديث أن بعض المؤرخين استخدموا كلمة أرشيف عنواناً لمؤلفاته التاريخية ، وقد أصبح الآن أكثر تحديداً عما كان من قبل ولو أنه لم يتم التعريف الموحد لهذه الكلمة حتى الآن ومنها : ــ

* ذكر البعض أن الأرشيف هو الوثائق التي تهم الدولة أو تهم حقوق الناس .
* عرف البعض الآخر الأرشيف بأنه « الوثائق المختلفة التي تهم الدولة أو إحدى الهيئات أو أحد الأفراد وأحسن التعاريف الحديثة للأرشيف هو التعريف الذى قال به الأستاذ شارل سامران Charles Samaran وكان أستاذاً بمدرسة الوثائق بباريس والذى أشرف على إنشاء المجلس الدولي للوثائق وهو :ــ
* الأرشيف هو كل الأوراق والوثائق المكتوبة الناتجة عن نشاط جماعى أو فردى بشرط أن تكون قد نظمت ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة إليهـــا في البحث ويشترط أن يكون قد أحسن حفظها في داخل منظمة واحدة » .

والوثائق الأرشيفية هي الوثائق التي انشئت أثناء تأدية عمل من أى نوع وكانت جزءاً من هذا العمل ــ لذلك حفظت لدى الأشخاص المسئولين عن تصريف هذه الأعمال للرجوع

إليها ولا تقتصر على الأعمال الحكومية ، بل قد تكـــون وثائق لجمعيات أو لأشخاص أو لهيئات غير حكومية ويمكن أن نقول أنهـــا الوثائق التي تتجمع بطريقة طبيعية أثناء تصريف أى عمل من الأعمال وهي أدلة مادية للعمل نفسه وهي جزء من هذه الأعمال وتشمل كل ما يحمل حدثاً أو خطاً أو أثراً .

ونلاحظ أن هذه الوثائق تتجمع طبيعياً ، فهي لا تتجمع لأن أحداً قد احضرها لكى يثبت فكرة ما أونظرية معينة . بل نمت بطريقة طبيعية ولها تكوينها الخاص – وهناك علاقة طبيعية بين أجزائها ، تلك العلاقة هي أساس أهميتها ، فوثيقة واحدة بمفردها قد لاتدل على شيء ما كما تدل وهي مع أقرانها ، ما سبقها وما لحقها .. وهذه العلاقة بين الوثائق هي التي تحدد القيمة العلمية لهـــا .

وقد اتضحت الأهمية الكبرى لأجهزة الأرشيف الإ داري والفني لتقديم المعلومات إلى جميع العاملين في أى جهاز من أجهزة الدولة أو الهيئات العلمية – وكلما أرتفعت كفاءة أجهزة الأرشيف كلما أمكن تقديم خدمة فعالة تظهر آثارها الطيبة في انجاز الأعمال في أقل وقت وبأقل جهد لذلك فإنه يمكن القول أن تنظيم البيانات والمعلومات بتنظيم الأوراق التي تحملها يساعد إلى حد كبير في دفع عجلة الإ نتاج وإنجاز الأعمال في الوقت المناسب فهي المصدر الأساسى لجميع المعلومات الرسمية وهي كآداة من الأدوات الأساسية لجميع الإ جراءات الفنية والإ دارية – وهذه المعلومات تصبح بمرور الزمن حقلاً خصباً لاستخراج المعلومات التي تفيد في رسم السياسة العامة لتفادى أخطاء الماضى والاستفادة بمجهودات ، السابقين .

ب – التوثيق وخدمات المعلومات :

منذ أن خلق الله آدم وأسكنه الأرض هو وذريته ، والإ نسان يمشى في مناكبها ويأكل من خيراتها رزقاً حلالاً طيباً ، وكل يوم يمر عليه يكتشف من حقائق الكون شيئاً جديداً ويتعلم من خبرات الحياة قبساً لم يكن معروفاً من قبل مستخدماً في ذلك ما وهبه الله من العقل الجبار والذاكرة الهائلة التي تستوعب خبرات الإ نسان ومعرفته .

وسرعان ما اكتشف الإ نسان أن واجبه لا يقف عند حد التعلم واكتساب الخبرات

لنفسه فقط بل يتعدى ذلك إلى ضرورة نقل خبراته ومعرفته إلى أبنائه وإلى الأجيال من بعده – لذلك كان لزاماً عليه أن يبتكر ما يعرف بالذاكرة الخارجية لأن ذاكرة الإنسان تنتهي بانتهائه ، فضلاً عن كونها تتأثر بما يعتريه ، أى الإنسان ، من انفعالات نفسية واضطرابات صحية وبيولوجية .

وتتمثل الذاكرة الخارجية فيما يستخدمه الإنسان من وسائط يسجل عليها معلوماته وبياناته التي يجمعها خلال مشاهداته اليومية والتي يحصل عليها من نتاج تفكيره الخلاق وتجاربه على مر الأيام ، ولقد وجد الإنسان نفسه مضطراً لكى يبتكر من وسائط التسجيل وأساليبه ما يكفل استيعاب الاضطراد المستمر في المعلومات والبيانات التي تتراكم مع كل لحظة يمر بها الإنسان أو التي تكفل حماية رصيد المعلومات من الضياع أو التلف – وتكفل أيضاً إمكانية استرجاع أى معلومة منها في الوقت المناسب وبالقدر المناسب وبالشكل المناسب وهذا ما يعنى به التوثيق .

التوثيق ومجالاته :

لقد جاء مصطلح التوثيق في الأصل من كلمة وثيقة وإذا كانت كلمة (وثيقة) استعملت أصلاً في معناها القانوني فقط أى كتابة الحقوق الشرعية وتحديدها في شكل قانوني فإن كلمة وثيقة قد استخدمت مؤخراً للدلالة على شيء مادى يحتوى على المعلومات الثابتة التي تنشر في مكان وزمان معينين ومن أجل الاستخدام في الممارسات الاجتماعية وأصبحت كلمة توثيق تعنى (وثائق متصلة ببعضها في المحتوى الموضوعى) .

ومن هنا جاءت مصطلحات (التوثيق العلمي والتوثيق الفني) .

وفي عام ١٩٠٥ استخدم (بول اوتليت) كلمة توثيق في المحاضرة التي ألقاها في المؤتمر الاقتصادي العالمى بمعنى تجميع وتجهيز واختزان وإعارة الوثائق .

وفي عام ١٩٢٠ استخدم المعهد الهولندى للتوثيق والتسجيل مصطلح التوثيق بمعنى مشابه . وحدد هايمان (Hymen) ذلك المصطلح بأنه يعـنى تجميع وتنظيم وبث كل أنواع البيانات ومن هنا فنحن نعنى بالتوثيق ، جعل المحتويات المتعلقة بالحقائق والبيانات في متناول يد الباحثين وكذلك تنظيم هذه الحقائق والبيانات لغرض استرجاعها وتقديمها أى أن نشاطات

التوثيق تتناول معالجة الوثائق من حيث تجميعها وتحليلها والاختيار منها بما يتلاءم مع متطلبات الباحثين والمستفيدين وتصنيفها وتكشيفها ثم جعل محتويات هذه الوثائق في متناول أيديهم — والتوثيق بالمعنى السابق يقصد به توصيل المعلومات لطالبيها وللباحثين وإذا لم تصل المعلومات للمستفيدين فسيبطل الغرض من التوثيق ومن هنا نصل إلى المصطلح الحديث والقريب من التوثيق .

« وهو توفير المعلومات والإعلام عنها بالأساليب العلمية — إذ تعتبر المعلومات ذات أهمية بالغة في إنجاز الأعمال التي يقوم بها الباحثون في الجامعات والهيئات العلمية — كما تعتبر المعلومات أساسية كذلك لمن أنيط بهم إتخاذ القرارات في المجالات الإدارية والاقتصادية والسياسية وغيرها ، أي أن هؤلاء في حاجة ماسة للمعلومات كما أصبحت خدمات المعلومات في العالم المتقدم جزءاً لا يتجزأ من خطة الدولة في التنمية الاجتماعية والاقتصادية ولقد عبرت عن ذلك الدراسات والتوصيات العديدة وخاصة التوصيات الواردة في تقرير اللجنة الاستشارية للأمم المتحدة حول تطبيق العلم والتكنولوجيا في التنمية .

ويجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن المشتركين في ندوة (تخطيط التوثيق في البلدان النامية) التي عقدتها لجنة البلدان النامية التابعة للاتحاد الدولي للتوثيق في باد جود سبيرج بجمهورية المانيا الاتحادية في عام ١٩٦٧ م قد طالبوا بوضوح بضرورة إدخال مشروعات المعلومات (المكتبات والتوثيق) ضمن الخطط القومية للتنمية ، هذا وقد تم التأكيد مراراً على مسئولية الدولة في إقامة نظام فعال للمعلومات في دراسة للمؤتمر الدولي لعام ١٩٧١ حول إقامة نظام عالمي للإعـــلام العلمي unisist وعلى ضرورة وجود وكالة حكومية مسئولة لها صلاحيات ومهام تطبيق سياسة الدولة في مجال المعلومات (المكتبات والتوثيق) فمن هنا ينبغي أن : —

١ — تتحمل الدولة مسئولية معينة بالنسبة لإنشاء وتشغيل النظام القطري للمعلومات في البلاد النامية ويجب أن تتحدد المسئوليات التي تتصل بصفة أساسية بعمليات الإدارة والتخطيط والتنسيق .

٢ — تتولى هيئة حكومية مركزية واحدة القيام بمسئولية الدولة في تنظيم نشاط التوثيق وخدمات الأرشيف والمكتبات على أن تكون الهيئة الحكومية المذكورة جزءاً من

وزارة – مختصة أو سلطة مركزية – والغرض من ذلك هو الإفادة من الترّكيز والمركزية وقد تكون هذه الهيئة المركزية هي نفسها المركز القطري للتوثيق أو المكتبة القطرية التي ستقوم بتوصيل ونقل المعلومات والمعرفة ، المتعلقين بخدمات التوثيق والمكتبات بحيث يتم ذلك بأسلوب علمي وسهل الفهم في نفس الوقت .

والمقصود بالمعلومات هنا سجلات المعرفة التي تستهدف نشرها أو نقلها أو تداولها ، وليس همنا هو أن نعالجها بوصفها شتاتاً لمفردات بل بوصفها تجمعات تنظم في نسق مدروس داخل مقر يحتويها بهدف تيسيرها للانتفاع .

١ – ففى المكتبات قد نسميها (المقتنيات) أو (المجموعات) أو (الأوعية) أو المواد .

٢ – وفي دور الوثائق تستقر الوثائق وسجلات الماضى ومحفوظاته .

٣ – وفي وسائل الإعلام نتلقاها يومياً يوماً بيوم على شكل صحف ودوريات منشورة أو إذاعة وتسجيلات صوتية أو مصورات ومرئيات ناطقة ومتحركة (أفلام وعروض تليفزيون) .

نخلص من ذلك إلى أن التوثيق هو مجموعة العمليات والأساليب الفنية اللازمة لتوفير أقصى استخدام ممكن للمعلومات المنشورة في المطبوعات العلمية والفنية القومية منها والعالمية حتّى لا ينفق الوقت والجهد والمال على بحوث سبق القيام بها في مكان ما على وجه الأرض وتشمل هذه العمليات تقويم وجمع ونسخ أو (تصوير) وتحليل وتنظيم وخزن واسترّجاع ونشر المعلومات العلمية والفنية وفق احتياجات العلماء والباحثين المختلفة .

وهناك عدة أنـــواع من مراكز التوثيق هي : –

١ – مراكز التوثيق العامة : public documentation centres

وتطلق هذه التسمية على المراكز التي أُنشئت من الأموال العامة وتعتمد على هذه المخصصات الى حد أنها تصبح غير مربحة ، وقد يكون في إمكان الجمهور العام أو لا يكون في إمكانه الاستفادة منها – وعادة ما يكون مجالها قاصراً على مجال معين من المعرفة كالهندسة مثلاً أو العلوم التطبيقية أو الطب أو أى فرع من هذه المجالات – وهناك خاصية أخرى لهذه المراكز وهي أن المواد التي تجمعها غالباً ما تكون قاصرة على المطبوعات – ففى العلوم

والتكنولوجيا تكون المواد المقتناه أساساً من مقالات الدوريات إلى جانب الكتب أيضاً وبراءات الاختراع وغيرها من المطبوعات وعادة ما تكون مراكز التوثيق العامة هذه ملحقة أو مدمجة في مكتبات متخصصة وعلى صلة وطيدة بمراكز الأرشيف .

٢ ـ مراكز التوثيق شبه العامة : Semi-public documentation centres

وهذه عبارة عن مراكز تابعة لجمعيات علمية أو مهنية أو مؤسسات تجارية توجد أساساً لخدمة أعضاء هذه الهيئات ولكنها في أغلب الأحيان ما تكون في متناول غير الأعضاء .

ويقتصر هذا النوع من المراكز شأنه في ذلك شأن النوع السابق ـ على مجالات معينة تتعلق بتخصيص الهيئات التي تتبعها كالتعدين أو البناء مثلاً .

٣ ـ مراكز التوثيق الخاصة : private documentation centres

وتشمل هذه المجموعة أساساً مراكز التوثيق الخاصة بالمشروعات المالية كالشركات الصناعية والتجارية والبنوك وشركات التأمين .

وتحرص هذه المراكز على تجميع جميع أنواع المطبوعات الملائمة لإدارة المشروع والعاملين به ـ أما فيما يتصل بالموضوعات التي تهتم بها فإن مجالها لا يقتصر على تخصص ضيق بعينه وإنما تهتم بكل ما من شأنه أن يؤثر في المشروع ككل .

وهكذا يمكن لمركز التوثيق في الشركة الصناعية أن يهتم لا بمنتجات الشركة فحسب ، وإنما يهتم أيضاً بالمسائل العامة المتصلة بالتصنيع والمبيعات والتخطيط والاقتصاد .

٤ ـ مراكز الاعلام الداخلية : Internal Information centres

ويتبع هذا النوع من المراكز إدارة المشروع الذى يخدمه وأهم وظائفه تجميع بيانات الهيئة غير المنشورة التي تشتمل عليها تقارير البحوث ومذكرات المعامل وغير ذلك من التقارير التي يقدمها العاملون بالشركة وتيسير استعمالها ـ ومن أهم واجبات هذا المركز تزويد إدارة المشروع بكل المعلومات التي يمكن أن تفيد في التخطيط ـ وإتخاذ القرارات ـ كما أن من واجبه أيضاً أن يقدم الوسيلة التي يمكن للإدارة أن توصل عن طريقها التوجيهات والأوامر العامة والخاصة إلى العاملين بالمشروع والتي با تتعلق بالتطوير والصناعات والمبيعات .

ويوجد هذا المركز أساساً لتدعيم المعرفة التجميعية للهيئة التي يخدمها وتيسير استعمال هذه المعلومات لتحقيق أغراض الهيئة ولكي يحقق ذلك يجب أن يكون في وضع يمكنه من الحصول على الخبرات العامة والفنية للأفراد والعاملين بالهيئة والتي لا تسمح الظروف بتسجيلها .

٥ ـ مراكز الاعلام المتخصصة : Specialized Information centres

يشمل هذا النوع من المراكز ـ مراكز الإعلام والاستشارة في المؤسسات التجارية والمشروعات التي تهتم بأنواع معينة من المنتجات كالنيكل أو البلاستك أو البترول وتنشأ هذه المراكز لغرض تزويد المستفيدين منها بالمعاومات أو النصائح المتعلقة بتناول هذه المنتجات واستعمالها وتوصيل المطبوعات والتوجيهات العملية اللازمة لهم .

وتهدف أجهزة خدمات المعلومات أى مراكز التوثيق دون نزاع إلى خزن واسترجاع المعلومات للإفادة القصوى منها ، وهذه المعلومات هي التي تحتويها حاملات مادية أو غير مادية وهذه الحاملات هي الوسائط المستخدمة لتسجيل وتخزين ونقل المعلومات كالورق وبطاقات الفهارس والبطاقات المثقبة والشرائط المثقبة والموجات الضوئية والأشرطة الممغنطة والأفلام والوثائق وهذه المصادر التي تنقل المعرفة والخبرة التي تهم الإعلام والتوثيق العلمي وعلى مراكز التوثيق أن توفر للمستفيدين المصادر الهامة للمعاومات المتعلقة بموضوعاتهم سواء من المصادر والمراكز المحلية أو من الخارج وأن يبثها للمستفيدين بإعتبارها معلومات مختارة ويمكن أن يحاط المستفيد علماً باستمرار بما يقدمه المركز من معلومات مختارة عن طريق فهرس أو قائمة المعاومات التي يقوم بإعدادها المركز أى أن فهرس المعلومات وخطة المعاومات المعتمدة على الموضوع هي أساس النشاطات التي يقوم بها مركز التوثيق والمعلومات .

ولقد أصبح العالم بفضل العلم متقارب الأطراف أى أن المسافات البعيدة لم تعد حقا بعيدة ، وأصبح انتقال المواد والناس والمعاومات يتم في سرعة متزايدة بفضل التكنولوجيا المعاصرة ولم تعد أى دولة تستطيع أن تكتفى ذاتياً بما تنتجه من المعلومات ـ ذلك لأن علماءها وباحثيها لابد أن يلموا بكل ما وصلت إليه المعرفة الإنسانية في أى مكان من العالم حتى يستطيعوا البدء من حيث انتهى الآخرون .

فهرس الحولية

الموضـــوع	الصفحة

LINGUISTICS, PURE AND APPLIED

by **Paul Christophersen**

One hears and sees the word **linguistics** so often nowadays that it is hard to imagine that there was a time, not all that long ago in fact, when it was not very commonly used.

The word was used in continental European languages a good deal earlier than in English. I remember being consulted in Denmark in the early 1930s about what word to use in English for the scientific study of language, because **linguistics** seemed to be rather a rare word. **Philology** was what the study of language was most often called in the English-speaking world up to the late 1930s. In 1938 a writer in the **Year's Work in English Studies** had a remark about 'Philology (which scholars tend more and more to call "linguistic science" or "linguistics").' It was thus in the course of the 1930s that **linguistics** began to be more commonly used among English-speaking scholars. Yet **philology** has not gone out of use, though many linguists would now make a distinction between the meanings of the two words — but more about this later.

The reason for the introduction of the word **linguistics** was that a new conception had arisen, a new idea about how language should be studied. In 1916 a book appeared in Paris with the title **Cours de linguistique générale.** It was allegedly by a Swiss professor of comparative grammar at Geneva, Ferdinand de Saussure, but in actual fact Saussure had been dead for some years when the book appeared. Three of his former students had been so impressed by his lectures that they felt that these ought to be preserved for posterity, and so on the basis of their lecture notes they produced this book. Their judgement regarding its value turned out to be well justified: it has become without doubt the most influential book in this century's linguistic literature.

Now **linguistique** had been in use in French, side by side with **philologie,** for a considerable period, and the tendency in French had been to reserve **linguistique** for work which was specifically concerned with language as such without any reference to cultural or literary values. It was thus a natural choice of a word for the title of Saussure's book. Nevertheless, Saussure managed to give **linguistique** a rather more specialized meaning by the novel ideas which he expressed about the linguist's work.

Saussure advocated a number of new points of view. The chief one was a distinction between, on the one hand, the historical study of language, the study of how language had developed and been modified from early times to the present day, and, on the other, the study of language as a system of communication existing and functioning at the present day, or at any other particular point in time, a system in which each item, each little detail, is justified not by having developed out of this or that earlier sound or word, but by performing a particular function in the contemporary system. To distinguish the two points

of view, Saussure coined the words **diachronic** (meaning 'through the ages', historical) and **synchronic** (meaning 'existing together at any one time').

To Saussure the primary object of linguistic study should be not the 'substance' of language, as he called it, that is, the sounds and words and inflexions — not these, but their relationship to each other, that relationship which constitutes the system of language. Language, Saussure said, is form, not substance. The essential element, in his view, was the abstract structure of the system, the rules which govern the use of the linguistic substance and without which there would be no system of communication.

Saussure's advocacy of the view of language as structure marks the birth of structural linguistics. Like all so-called new ideas it was not completely new, but Saussure was the first to voice it clearly and consistently. Since Saussure's time all linguists, of whatever theoretical persuasion, have been in a sense — and still are structuralists. There is a particular American school of linguists who call themselves 'structuralists'; but their opponents, the adherents of Chomsky's transformational-generative grammar, are also structuralists in the sense that they too are concerned with explaining the workings of the linguistic system, although they explain it in a different way, by a different theory.

Saussure's new ideas were taken up immediately after the war in various centres of linguistic studies on the Continent, especially Paris and Prague and also, a little later, my native Copenhagen, and the term **linguistics** (or rather **linguistique** and **Linguistik)** thus acquired the more specialized meaning that it now has, namely, the study of language as structure. It was mainly in the course of the 1930s, as I have said, that the term came into use in the English-speaking world. It was used by J. R. Firth in Britain and Leonard Bloomfield in America.

With the introduction of the new term and the novel ideas that went with it, the word **linguist** too acquired a new meaning. It used to mean one who is good at speaking foreign languages, and it still has that meaning, but rather more often, I think, it now means a person who is engaged in studying languages scientifically, whether or not he is able to use them in practice. Some people have attempted to introduce the term **linguistician** for the latter purpose, which would enable one to say that a linguistician is not necessarily a good linguist, although he ought to be; but the distinction has not caught on.

As I said earlier, the term **philology** has not gone out of use. In the first flush of structuralist fervour it was reserved for those stuffy old fellows who continued to concern themselves with historical investigation, which usually meant the study of old manuscripts, often imperfect and in need of textual emendation. And so philologists are often engaged in textual criticism, in comparing ancient manuscripts and deciding on their relationship and relative value, something which seems completely foreign to a linguist. Philologists will also in many cases be interested in the contents of the texts they study, their cultural and literary value. A philologist will sometimes edit an old manuscript and discuss not only the

condition of the text and its possible emendation, as well as the characteristics of the language of the text, but also its literary significance — again something which seems remote from a linguist's concern.

However, fifty years have gone by since the heady days of the dawn of linguistics. Tempers have cooled and minds have mellowed. The historical study of language, which at first seemed almost anathema to linguists, has not died — fortunately. Reinvigorated by some of Saussure's criticisms it has come back into a fair degree of prominence under the name of **historical linguistics.** Linguists have even in recent years begun to take an interest in literature in the sense that they have attempted to see a relationship between linguistic theory and literary interpretation. Nevertheless, not much headway has been made so far in this area, and I doubt if it ever will; the two activities are too disparate.

Looking at the situation as it exists now, how should we attempt to define the science of linguistics? There are still people who would say that the only, or at least the primary, concern of linguists is with language as structure and that everything else is peripheral. But a great deal of work — and, I am inclined to think, the most useful work — is being done on the periphery of the subject. A more satisfactory definition of linguistics would be 'the study of language in all its aspects'. By **language** I mean of course not one particular language, or at any rate not that alone, but language as a general human phenomenon. It is surely a remarkable thing, worth investigating, that by producing curious noises in the throat and mouth, or for that matter curious scribbles on paper or similar material, human beings are able to communicate. Linguistics, then, may be said to comprise all systematic knowledge about language in all its aspects. Language has indeed many aspects and the study of language has many branches and ancillary disciplines, such as anatomy, physiology, neurology, acoustics, psychology and sociology, not to mention political and social history. Some people would hold that phonetics, the study of speech sounds, is a separate science, though related to linguistics, and in recent years the terms **psycholinguistics** and **sociolinguistics** have been coined to indicate special areas of investigation, though hardly separate sciences.

The question is sometimes asked: to what group of sciences does linguistics belong? Is it a physical science or a biological or a social science? Linguistics must be said to be primarily a social science — primarily but not entirely, because, as I have just pointed out, linguistics spans a wide range of different divisions including such fringe areas as the physical and acoustic properties of speech sounds and the neurological aspect of speech production and perception. But most branches of linguistics, whether it be psycholinguistics or sociolinguistics or writing systems or semantic analysis, are in some way concerned with language as a medium of communication, as an activity engaged in by people living together as a community.

As I said before, there are still people who hold that the main concern of linguists should be with language as structure, with devising a theory — a model, as the term goes nowadays — which will explain the linguistic relationships known to us, the linguistic system. Indeed the line of division seems no longer to be between old-fashioned philologists and up-to-date structural linguists. The main

cleavage, nowadays, seems to me to be between those linguists who are mainly theory-oriented, whatever their particular theory may be, and those who are primarily interested in collecting data. The American linguist Einar Haugen calls them, respectively, Procrusteans and Heracleans. I should like to quote part of what he says, omitting some of his references to particular scholars: 'Procrusteans take delight in devising models and theories. If a bit of data sticks out here and there, they are not averse to lopping it off in the name of elegance... Bloomfield's behaviorism was such an approach, which compelled him and his followers to exclude data to fit their theories. The corrective furnished by Chomsky's generative approach is in danger of becoming another bed of Procrustes. What used to be called patterns is now called rules, and anything that cannot easily be formalized as a rule is trivial and uninteresting. Who are the Heracleans? They are the followers of Heracles, who had no theory other than that monsters should be liquidated when they appear and that Augean stables should be cleaned when the stench becomes unbearable. They can even gather the manure and make it yield a fertile crop, by putting the data into piles until some kind of pattern emerges.'[1]

The difference between these two groups is primarily one of temperament, and temperamentally, I have to confess, I am on the side of the Heracleans. I find it regrettable that in the eyes of the world it is the Procrusteans who seem to attract more notice, and not always the best kind of notice, to linguistics. But on either side of the great divide the approach is basically empirical, because even the most high-flown or ill-conceived ideas of linguistic theorists, and Chomsky's ideas are no exception, will ultimately stand or fall by whether they agree with the evidence of our senses. What linguistics is attempting to do is to conduct a rational enquiry into the nature of language; it collects factual data by systematic observation and, wherever possible, by experimentation, and it attempts to establish causal links between the observed facts and, in this manner, to set up a coherent body of knowledge.

Now, disinterested search for knowledge is in many ways an admirable thing. Although there is nothing shameful about searching for short-term material benefits, a clamour from the public or the financing authorities for tangible results has its dangers; it can lead to premature or exaggerated or downright dishonest claims. This is in part what has happened in linguistics. There is a great deal of talk nowadays about 'applied linguistics', a term that I am not happy about for various reasons. It arose in America during or just after the Second World War as a description of practical language teaching on lines designed or approved by linguists, teaching which placed the emphasis on speech and avoided the traditional grammar-and-translation method. So far so good; but some confusion arose because this method was proclaimed with loud fanfares as new and revolutionary, although the same or a very similar approach had been known and practised by many teachers on this side of the Atlantic since the 1880s and 1890s — long before structural linguistics had been thought of. Altogether, European countries, including Britain, have been, and are, ahead of the United States in language teaching — for fairly obvious reasons, since there is greater need for language teaching on this side of the Atlantic and much more opportunity to practise what one has learnt.

It is reported that one reason for the sudden rise of the term 'applied linguistics' in the United States was that American linguists had acquired a bad public image. As one of them, H. A. Gleason, confesses[2] linguists had come to be thought of as conspirators against the English language, against literature, and against all humanistic values. The need that arose in America during the war for intensive foreign-language teaching gave linguists their chance; they seized it and gained due recognition for their effort; and the advocacy of applied linguistics after the war was in part intended to maintain and boost the more favourable image that linguists had begun to acquire. A contributory factor may have been an inclination to look for quick solutions to problems in the form of 'breakthroughs'.[3] Applied linguistics seemed to provide just such a breakthrough, a supposedly new and scientific method which, it was believed, would ensure success in language learning without the usual hard labour and dull drudgery.

I may be a little unfair in saying or implying that there was nothing new in the teaching methods advocated by linguists after the war. But the novelty lay rather in the over-rigorous application of certain ideas which were there before — ideas about the grading of teaching materials according to difficulty, and about comparing the 'source' and 'target' languages, as they have come to be called, with a view to finding out where they differ in structure and where consequently, it was thought, the difficulties must lie. Logically, as it seemed to those who were pursuing this line of thought, the next step must be to drill linguistic patterns — or, if one follows a Chomskyan model, to do transformation exercises — and to do this over and over again, almost **ad nauseam,** often resulting in what a German language teacher has recently described as 'some of the most exceptionally boring and unimaginative courses.'[4] The point is that language learning is primarily a psychological process, a fact which linguists are inclined to forget when they offer what they would claim is 'expert' advice on how to teach languages. What the linguist is trained to do is to describe and analyse a language, but it does not follow that he is the best person to advise on how to teach it. I do not mean to imply that Schools of Applied Linguistics have nothing useful to offer the language learner or language teacher, but the value of the courses they provide lies less in their linguistic content than in what they contain of educational psychology and experience. The most tangible practical value of linguistic knowledge is in the sphere of pronunciation, where solid success has been achieved; nevertheless, there is an urgent need to emphasize that linguistics has no magic solution to the problem of teaching languages.

The difficulty about a great deal of 'applied linguistics' has been an over-optimistic belief in the efficacy of certain untried and unproved theoretical positions, linked at times with a curious lack of a sense of reality. One may see in this another example of a Procrustean attitude, to use Haugen's term, an attempt to make the facts fit the theory. As a self-confessed Heraclean I am of course particularly suspicious of Procrustean attitudes, and I should like to mention another example — this time not, or not particularly, from the field of foreign-language teaching.

Gleason says that some Americans in the post-war years came to look upon linguistics as 'a pseudo-science created to justify permissiveness in language'.[5]

I think I can understand how that idea arose, and I think linguists have largely themselves to blame for it. The point is that linguistics, like other sciences, is neutral in regard to questions of right and wrong. It is not the business of nuclear physicists to allow or prohibit nuclear weapons, though they can tell us how to make them if we decide we want to have them. Nor is it the business of linguists to tell us what is 'correct' or 'incorrect' in matters of usage. Linguists, like other scientists, may advise, but they cannot decide questions of policy. Nothing prevents individual linguists from having views about right and wrong in grammatical usage as in other mundane matters, but they hold those views as human beings and as ordinary users of language and not in their capacity as linguists.

The neutrality of linguistics is not always properly understood, not even by linguists. In their anxiety to emphasize that they are neutral some linguists go to the length of condemning authoritarian attitudes to usage, thus incurring the blame of encouraging permissiveness. Clearly this is just another way of being unneutral. It is customary in linguistic circles to distinguish between so-called prescriptive grammar, as found in books which attempt to lay down the law with regard to correct usage, and the scientific linguist's descriptive grammar, which merely records existing usage. This is undoubtedly a useful distinction: the two types of grammar are quite distinct in their aims, although in the popular mind they are sometimes confused. But there is nearly always an implied sneer in a linguist's use of the term 'prescriptive grammar', and this is unjustified. A prescriptive grammar-book attempts to teach, but questions of teaching, of educational policy, are outside the competence of linguists because education involves many other factors besides specialist knowledge of the subject to be taught.

I am not cavilling: this is an important point. I have no wish to defend pedantic insistence on worthless shibboleths, as found in some grammar-books, but I do maintain that linguists as such have no right to condemn prescriptive grammar, because to do so would involve them in matters of policy. It is their duty as social scientists to study not only usage as they observe it in practice, but also people's ideas about desirable usage, including the existence in some quarters of a desire for authoritarianism. In the great tussle between the forces of authoritarianism and permissiveness, between hawks and doves, linguists may bring their specialist knowledge to bear — they may help, for instance, with experiments to determine whether and to what extent and in what circumstances perscriptive grammar works, as it sometimes seems to do — but they cannot, or should not, as linguists lend their weight to either side, because the issues are much wider than linguistics, involving, among other things, psychology and educational philosophy and practice and, above all, ultimate aims and values.

In the past some linguists, wearing a linguist's hat, have supported what could be described as a degree of permissiveness on the plea that their knowledge of language taught them that man could do nothing to change the course of linguistic history. This position was part of a movement in linguistic thought, mainly in the 1930s and '40s and '50s, which assumed that change was inevitable and beyond man's control. The inevitability of change is still standard linguistic doctrine and is commonly regarded as proved by the facts of linguistic history;

but many would now concede that it is possible in some cases for man to influence the course of linguistic change, in other words to shape and modify a language to fit a particular community's needs. 'Language planning' is now a respectable activity and a legitimate form of applied linguistics.[6] Needless to say, the role of linguists in this kind of work will always be purely advisory.

Some linguists, however, are strangely uncertain with regard to language planning. To take an example from a rather different area: A.C. Baugh, in his important and learned book, **A History of the English Language,** expresses surprise that 'a number of men notable in various intellectual spheres in the late seventeenth and early eighteenth centuries should have been blind to the testimony of history and believed that by taking thought it would be possible to suspend the processes of growth and decay that characterize a living language'.[7] In Baugh's view these people were just wasting their time, thinking that they could plan and control the development of language. I think I ought to say not 'in Baugh's view' but 'in one of Baugh's views', because within one and the same chapter, he contrives to express mutually contradictory opinions about human interference with language. He dismisses rather airily the efforts of people who are unaware of what he calls 'the futility of trying to interfere with the natural course of linguistic history';[8]and yet he says that eighteenth-century grammarians, most of whom, he admits, were prescriptive in their attitude to usage, exerted 'a considerable influence, especially through the use of their books in the schools'.[9] In fact he enlarges on this influence and says 'we must admit that a considerable number of disputed points, rightly or wrongly, were settled and have since become established"[10] and he gives many examples of such points. But his phrase 'rightly or wrongly' seems to indicate some uneasiness about the matter. My guess is that Baugh, when he wrote his book, was trying to follow a trendy way of thinking among linguists, but was finding it hard to reconcile this view with what he as a scholar knew about the history of the English language. In Haugen's terminology, he was trying to be a Procrustean as well as a Heraclean.

It is not in fact difficult, by widening one's focus a little, to find examples from all parts of the world of large-scale and sometimes fairly successful language planning — in other words deliberate interference with the course of linguistic history. Curiously enough, it is by no means uncommon for one and the same person to sneer at prescriptive grammar because it means interfering with language and yet to engage in foreign-language teaching, although that too would seem to be a form of interference with the natural course of events.

After these strictures on linguistics as practised by some people, let me now adopt a more positive attitude. Obviously linguistics has something to offer the language learner and, in particular, the language teacher, even though it holds no magic key to success.

First of all linguistics may be said to offer a better — in the sense of a truer or sounder — perspective on language. It can help to eradicate popular misconceptions, for instance erroneous ideas about grammatical correctness, or about grammatical differences between languages, or about the relationship (or lack of it) between language and nationality and between language and race. Let me give an illustration.

Randolp Quirk in his book **The Use of English** has an amusing example of the kind of popular misconception that one sometimes finds expressed in letters to the press:

> If other nations wish to borrow or adopt our language it is up to them, but let it be understood that the language remains fundamentally ours.
>
> (Daily Telegraph, 1955.) 11

A language is not subject to copyright; there is no kind of ownership of a language which could be justified on either legal or biological grounds. An individual's language is not inherited biologically; it is learnt as he grows up, and many people in fact learn more than one language as they grow up. Language is a form of social behaviour — institutionalized behaviour, as sociologists call it — and it is learnt as part of the socialization process.

Nor is there any copyright in the **name** of a language; it is a purely conventional and traditional matter. The term **English** comes from the tribal name of the Angles, who left their continental home in the fifth century A.D. and settled in the Midlands and North of England. Are we to assume that it is only by kind permission of Northerners and Midlanders that a man from the South of England nowadays uses his language? Or rather, I suppose, we should not talk of 'his' language at all, since it seems that he is using a borrowed one. Or take another example. The term **French** is derived from the Franks, a tribe with a language similar to Old English who invaded ancient Gaul, established themselves as rulers, and gave their name to the country; but eventually they abandoned their original language and adopted that of the population they had conquered. The Franks gave their name to this language, but the language itself was that of the ancient Gauls — or rather: it was not really **their** language, but the language they had borrowed from the Romans when the latter had invaded Gaul some centuries earlier. And so it goes on: if we go into these matters sufficiently deeply, we shall find that language shifts have occurred so often in the course of human history, and prehistory, that we must all of us here, wherever we come from, be using a borrowed language. In other words, the idea of ownership of a language is absurd.

Perhaps you will say that I am tilting at windmills and that nobody really believes in personal or national ownership of a particular language. This is at variance with my own experience and also, as we saw, with Randolph Quirk's. Another thing that needs correction is the notion that we each of us as individuals have one language, which we acquired in the first four years of life and which will remain in a very special sense ours until we die. We are all inclined, quite instinctively, to distinguish between a person's 'native' language and any 'foreign' languages he may learn, but the theoretical basis for such a classification is doubtful. It may in practice be a useful distinction, which will hold good in the majority of cases, but we must not invest it with a mystique which is unjustified and which only serves to inhibit rational enquiry.

As we all know, some individuals have more than one language in the sense of being at home in more than one. Bilingualism and multilingualism are in

fact much more widespread than is commonly believed, and they seem to be on the increase in this modern world of ours. Now a bilingual person has not necessarily started his two languages at exactly the same time. One may be the language of his childhood home, and the other may not have been learnt until he went to school; and yet the school language will very likely be the one he can handle best later on in life, at least for most purposes. Because, contrary to common belief, a bilingual seldom, if ever, has exactly the same command of both his languages.

A great deal of research has been done on bilingualism, and some of it is relevant to second-language learning, because successful second-language learning leads to bilingualism. I can imagine some people shaking their heads in disbelief at this last remark of mine; yet I am sure I have my feet fairly firmly planted on the ground. What I said just now about the age at which a bilingual person is found to have started the second of his two languages is surely relevant: it shows that a second-learnt language may come to rival or even excel a first. I am not saying that the aim of language courses — here or anywhere else — ought to be native-like proficiency; this is a matter of policy, and, as I have said, a linguist **qua** linguist should not pronounce on such matters. But he should at least advise the policy-makers about what it is possible or not possible to achieve, and, furthermore, it does not require much understanding of educational psychology to see that if a learner is told that he can never achieve native-like proficiency, he clearly won't; while if he is told that the goal is within his reach, there is a chance that he may reach it, if he is sufficiently highly motivated.

And so we come to the question of motivation. The importance of motivation in educational matters is well known, and its importance is felt no less strongly in second-language learning. The question has been investigated experimentally by the psychologist W. E. Lambert at McGill University in Montreal. [12] He distinguishes various kinds of motivation and finds that the most effective kind for this purpose is what he calls 'integrative' motivation, the desire to gain inside knowledge of the community of target-language speakers, to become as it were, in imagination, a member of their community.

A person who has reached the stage of being able to act as if he were a member of the target-language community has of course acquired not only another language but another culture. This leads me to a further point that needs to be emphasized: the close and inseparable link between language and culture. The observation is an old one. About 200 years before our era, Ennius, the 'father of Roman poetry', is reported to have said that he had three hearts because he had three languages, Greek, Oscan and Latin [13] — and Latin, it appears, was not his first-learnt language. It may be possible, though I am not sure, to learn scientific or technical English without the need to learn any other than purely scientific or technical culture, which is of course to some extent international; but for a general-purpose knowledge of English or any other language some knowledge of the accompanying culture is necessary.

The cultural dimension creates a problem for the learner of a language like English. English is used by a number of different nations, English, Scots, Irish,

American, Australians, etc., each with a feeling of national identity, a feeling of having a culture of its own. This feeling is reflected in various ways in their use of English — mostly subtle ways, you might say, and ways which need not bother the beginner very much; yet relatively soon the learner has to make a choice of what model to follow, especially in his pronunciation. The kind of English that has been subjected to the most careful analysis and description is undoubtedly 'R.P.', B.B.C. English or whatever one chooses to call it, and that fact alone constitutes a strong argument for using this form of English for teaching purposes. Nevertheless, a case could be made, and has indeed been made,[14] for the choice of some other regional form — because even R.P. is regional in the sense that it belongs primarily to England.

There are further varieties within English; there is variation along such axes as the degree of education of the users, or the degree of intimacy between them, or the subject of their conversation. An individual will talk differently to a baby, to an old friend, or to a clergyman. However, these differences, which are ultimately differences in structure, are matters which a learner need not concern himself with for a long time, if ever. I mention them mainly to show what a long way we have come from Saussure's conception of each language as a kind of monolithic structure. There is almost endless variation in a number of ways, but for the learner it is mostly the regional variety that demands a conscious choice.

Finally, I should like to return for a brief moment to what Ennius said about having three hearts. For the majority of people the most they can hope to achieve is a high degree of proficiency in two languages — in other words having two hearts. Now being closely acquainted with two different communities, and having some emotional attachment to each, can give rise to personal difficulties, but it is also, as many people have testified, a source of enrichment in their lives. To a nation it is an enormous asset to have members who know another country well; they act as links not only for the purposes of trade and other material benefits: they can also help to promote international understanding and friendship.

Paul Christophersen

NOTES

1. **The Ecology of Language** (Stanford University Press, 1972), p. 312.

2. **Linguistics and English Grammar** (Holt, Rinehart and Winston, 1965), p. 24; cf. also p. 49.

4. H.—E. Piepho, in A. J. van Essen and J. P. Menting(eds.), **The Context of** Methodology'. IRAL, vol. 5 (1967), esp. pp. 17—19.

4. H.—E. Piepho, in A. J. van Essen and J. P. Menting eds.), **The Context of Foreign-Language Teaching** (Assen, Netherlands: Van Gorcum & Co., 1975), p. 133.

5. Op. cit., p. 23.

6. See E. Haugen, **Language Conflict and Language Planning** (Harvard University Press, 1966); V. Tauli, **Introduction to a Theory of Language Planning** (University of Uppsala, 1968); and J. A. Fishman, **Advances in Language Planning** (Mouton, 1974).

7. **A History of the English Language,** 2nd ed. (Routledge and Kegan Paul, 1959), p. 315.

8. Op. cit., p. 346

9. Op. cit., p. 331.

10. Op. cit., p. 344.

11. Randolph Quirk, **The Use of English,** 2nd ed. (Longmans, 1968), p. 5.

12. See e.g. W. E. Lambert **et al.,** 'A study of the roles of attitudes and motivation in second-language learning', in J. A. Fishman (ed.), **Readings in the Sociology of Language** (Mouton, 1968).

13. See P. K. Marshall (ed.), A. Gellii, **Noctes Atticae,** Vol. II (Oxford University Press, 1968), p. 526.

14. See e.g. D. Abercrombie, **Problems and Principles** (Longmans, 1956), chapter 4.

" 'Now might I do it pat' ": Hamlet's Failure of Reason, the 'Instant', and the 'Leap' "

by **A. M. Kinghorn**

One source of **Hamlet's** attraction is the mystery which occupies its centre. The enigmatic hero who for some reason is slow to take the apparently obvious action, who trusts no living person but puts his faith in what a Ghost tells him and dies saying "the rest is silence", without offering any convincing explanation for his eccentricities is of all dramatic creations the most fascinating, a never-to-be-exhausted source of questions. Twenty years ago Harry Levin particularly noted the number of questions which the play raises, in contrast to **King Lear,** which tends to make statements.[1] In **Hamlet** the hero acts as a starting-point for curiosity about himself and the material world about him, denoting a desire for information which infects other personae in the play and eventually the audience.

In the mid-1930's Dover Wilson, indulging a penchant for detective stories, described **Hamlet** as "a dramatic essay in mystery... so constructed that the more it is examined the more there is to discover"[2] However, Hamlet's enigma is not to be dissolved by following clues, nor by persistent obsession with minor difficulties which do not have to be overcome. Take, for instance, these awkward spots among many noted by critics:

Why is Horatio, a visitor, on guard before he sees Hamlet?

Why does Hamlet, a Dane, have to explain things Danish to Horatio, another Dane?

Why does Horatio turn up several weeks late for the funeral which he says he came to attend?

Did Ophelia commit suicide or was it an accident?

Is the Ghost seen by Hamlet in Act III (and which his mother the Queen does not see) the same Ghost as he and his followers saw in Act I? If so, why does the Queen not see it?

Why is Hamlet so reticent about the Ghost's message in Act I?

Is he really mad, or only "mad in craft"?

Does he love Ophelia?

Above all, the major question, which Olivier used to define his filmed (and thus rigidly fixed) interpretation of Hamlet as a man who could not make up his mind — why does he delay in taking revenge?

Henry Mackenzie, writing in 1780,[3] thought Hamlet a sweet prince with over-delicate feelings; Goethe, stating the sentimental view, described him as "a beautiful, pure, noble and most moral nature without the strength of nerve which forms a hero"[4] and who sinks under the burden which Fate has given him to bear. The Spaniard Salvador de Madariaga overbore most difficulties in a study published in 1948[5] by saying that Hamlet was a Renaissance hero, an egomaniac, indifferent to the concerns and desires of all others. Such a monolithic treatment, the autithesis of romantic "delicate-flower" explanations, attracted a great deal of attention at the time of publication because of the energy of its presentation. Madariaga's account rejected the romantic belief that a contemplative man cannot also be a man of action.

The text reveals that Hamlet has the Renaissance virtú, a dynamic combination of physical and mental abilities of which the English embodiment was Henry VIII, or, in Shakespeare's own lifetime, Sir Philip Sidney and Sir Walter Raleigh, the **uomo universale** described in Castiglione's **Book of the Courtier.** Such a polished individual stood in marked contrast to the old-style feudal knight. Hamlet never had a chance to be King, but we are told that he would probably have come up to public expectations. Spaced throughout the play are references to his skill and daring[6] and Ophelia's portrait of him as "a noble mind" in III,1,153f.

The courtier's, soldier's, scholar's, eye, tongue, sword,
Th'expectancy and rose of the fair state,
The glass of fashion, and the mould of form....

repeats the Ghost's word "noble" and extols Hamlet's natural gifts, while at the same time marking a change in him. He is now "quite, quite down" and "out of tune and harsh".

Certainly the change is noticeable. Both the King and the Queen have already detected Hamlet's transformation and the former assumes that Rosencrantz and Guilderstern have heard about it, so that it must be known throughout the Court. Hamlet himself mentions it to Rosencrantz and Guildenstern, saying (dishonestly) that he does not know why. The psycho-analytic school of Hamlet criticism[7] tries to make out that Hamlet was a neurotic, but Shakespeare's text indicates that he had been a sane and well-balanced man, who had changed. Moreover, we are shown by the context that the reason for this alteration lay in his mother's betrayal of his father, whom Hamlet loved, by an incestuous marriage a few weeks after his father's death.[8]

The idea that the theme of procrastination is central goes back to the early 18th century, when commentators on **Hamlet** thought that the hero's delay in taking revenge on the King was absurd.[9] This started a major trend in criticism of the play in terms of the Prince's character and motives, often divorced from close study of the text. Hamlet's first reference to delaying is itself delayed, until II, ii, 553f in fact, when he is left alone to condemn himself for lack of

passion in an ironically violent soliloquy, before reason asserts itself and he realises that he can say nothing. Enforced silence is the cause of his frustration and inability to act. His reason, claiming precedence over his passion, must grasp the truth, whatever it is. Is the Ghost a spirit sent to damn him? Is the King **really** guilty of murder or only of adultery and incest? The hero must have "grounds/More relative than this" (i.e. the Ghost) recalling his "But break my heart, for I must hold my tongue", which comes at the conclusion of his very first soliloquy, before he had even heard of his father's Ghost, let alone seen it. Hamlet takes time to find out about the King and while he is doing this, the nobility with which he is endowed in Act I is through his own actions gradually eroded.

Hamlet's mistakes mount up. He alienates his friends, both male and female, and his mother the Queen. He behaves outrageously in public and to cover up his real meanings he talks nonsense. Critics seeking an explanation for such conduct say that Hamlet is mad and it is true that the text contains many references to madness by both major and minor characters, including Hamlet himself.[10] However, these statements do not furnish an answer to the question of whether he was mad or merely pretended to be mad.

The first to suggest that Hamlet is actually mad is Polonius. The King sees fit to agree with him at the time but later (III,i,167) does not, although he eventually prefers to accept the "mad" theory since it fits in with his own plan to get Hamlet out of the country to England and summary execution, stated in soliloquy in IV, iii. The general public, represented in the play by the Gravedigger, believes that Hamlet went mad and on that account was sent to England. When questioned more closely on the reason for this strange madness the Gravedigger covers up his lack of information with a pun on "ground".

Hamlet himself always makes it clear that his madness is assumed. To his mother he says that he is "essentially" feigning his condition —

"not in madness,
But mad in craft" (III,iv,187-8).

He apologises to Laertes and blames his own madness (V,ii,230,235,237). But he makes his mother promise not to tell her husband that Hamlet is only pretending, though it is clear that she does not believe her son is sane, since in a short while she is telling Claudius how Polonius had been killed by Hamlet.

"Mad as the sea and wind when both contend
Which is the mightier" (IV,i,7-8).

Hamlet's tactic of madness, his "antic disposition", is germinated when Horatio mentions the possibility of his being driven mad by the Ghost (I,iv,73-4). This occurs before he has heard the Ghost's message. Thereafter Hamlet the truth-teller has to be distinguished from Hamlet the lie-teller, for he tells the truth to Horatio and the Queen, but lies to Laertes, Polonius, Claudius, Rosencrantz and Guildenstern. Some critics have followed Dover Wilson and com-

promised with the madness explanation, borrowing Hamlet's own account of himself as "but mad north-north-west" (II,ii,383), that is to say, from time to time, sometimes in his right senses, at other times not. Yet one may look in vain for textual and even common-sense evidence in support of such an explanation for there is nothing in Shakespeare's text to suggest that Hamlet is not rational from start to finish.

Next we come to that most important figure, or figment, the Ghost. Without the Ghost, there is no play. Dover Wilson, a Protestant, holds that the Ghost is Catholic, coming from Purgatory, which is mistaken. No Catholic could possibly accept a figure out of Purgatory (a purgation of sins) which is trying to promote the commission of another sin (revenge). A soul in Purgatory would know that God held the absolute monopoly of vengeance — "Vengeance is mine; I will repay, saith the Lord", wrote St. Paul to the Romans, telling them that they should not recompense evil for evil. However, revenge, as an Elizabethan stage-convention, is acceptable dramatically, so that a member of Shakespeare's first audience, watching Hamlet performed on the Globe stage in 1601/2,[11] would have taken the Ghost in one of three ways:

(i) As a figment of Hamlet's imagination.

(ii) As a soul permitted by God to return to earth for a specific purpose, in this instance, to seek revenge.

(iii) As the Devil intent upon deception.

Dealing with these in the above order, (i) is obviously not intended by Shakespeare. The Ghost is **not** an illusion. Others see it, including the sceptical Horatio, who discusses it with Marcellus and Bernardo in the very first scene of the play.[12]

(ii) and (iii) present greater difficulties. Horatio's challenge offends the Ghost and Marcellus says that "it stalks away" (I,i, 49-50). Its warning to Hamlet against the consequences of sin (I,v,10f) and his reference to it as "perturbéd spirit" (I,v,183) suggests that the Ghost is not the Devil impersonating the dead King.

(iii) is supported by the effects of the cock-crowing, as reported by Marcellus and Horatio (I,i,148f) and later repeated by the latter to Hamlet (I,ii,216-9) which recalls the scriptural associations of Peter's betrayal of Christ.

Hamlet himself fluctuates between (ii) and (iii). Immediately after he has heard the Ghost's message he is sure the vision is "honest", though this may be because its revelations about the murder confirmed the suspicions already in his mind, shown by his ejaculation "O, my prophetic soul!" But later he is not so sure, because he lacks evidence, as we have pointed out, and seizes on the play

device in the hope that Claudius may betray himself. Here Hamlet has to be thought of in Catholic terms and thus as subscribing to the doctrine that to kill an innocent Claudius is mortal sin. Hamlet is concerned about his own mortal soul and does not wish to risk eternal damnation. This is what his reason tells him. Reason and his nobility of character combine to stop him sweeping to immediate revenge, so he hatches a plot with the help of the Players and tells Horatio what he is up to (III,ii,73-85). The result of this scheme is that both Hamlet and the audience are convinced that the Ghost told the truth about the King. The Ghost is "honest" after all and so here and now, at the half-way mark of the drama, Hamlet may carry out his act of revenge, as he had promised the Ghost.

Yet he does not take the first opportunity which falls to him and kill Claudius as soon as he sees him alone. "Now might I do it pat, now a' is a-praying" he argues with himself. Today, a theologian might say that to make certain of the greatest possible revenge, Hamlet ought to have done it "pat" (i.e. at once), while the King was at prayer, troubled by his own sins for the second time.[13] Hamlet enters, undetected. This is the high point, the psychological climax of the drama (III,iii,73f).[14] The hero is so consumed by hatred that he wishes to send Claudius to Hell, so he postpones killing him. Later, in the same scene, he hears a noise behind the arras, thinks it is Claudius spying on him and runs his rapier through the source of the noise. He has killed the wrong man, for the eavesdropper is Polonius, whom he dismisses as "Thou wretched, rash, intruding fool", an interloper whose fate it is to be slaughtered in this fashion for interfering in matters which do not concern him. Fate has here treated Hamlet with irony — failing to kill the real King, the King that **is**, he has killed the King that **seems** — another example of the world's treachery, the subject of Hamlet's very first speech (I,ii,77-86), a paradox of description pervading the internal conflict of the play. Romantic critics found the unpleasantness of these scenes hard to explain in "delicate-flower" terms; Madariaga finds it shows up an essential quality in Hamlet, namely, his ruthlessness.

As stated by the Ghost, Hamlet has two aims, to kill the King and not to do harm to the Queen. By fulfilling the first aim, Hamlet ensures that the Queen's mortal sin of incest ends. The Ghost says that he wants the Queen, his former wife, left "to heaven" and before that to her own conscience. (I,v, 86-7). Revenge is to be directed solely against the King, whose death at young Hamlet's hands will benefit the Queen's spirit.

The Ghost's second visitation occurs in II, iv, in the Queen's presence, when it makes a short speech reminding Hamlet that he should pursue his revenge — "but to whet thy almost blunted purpose" (110). The Queen neither sees nor hears the Ghost and asks why he is looking at empty air. Hamlet's reply includes the lines —.

Do not look upon me,
Lest with this piteous action you convert
My stern effects, then what I have to do
Will want true colour, tears perchance for blood (126-30).

When Hamlet makes his first speech after his original meeting with the Ghost on the battlements he rejects all that is normal (which he calls "baser matter") and resolves that only revenge will occupy his mind from this time forth. His first and only object in life is to kill. He immediately judges the Queen ("O most pernicious woman")—a more violent statement of the "frailty, thy name is women" idea expressed in his first soliloquy (I,ii,146), but this is a direction in which the Ghost has only just forbidden him to go. So he transfers his hatred of womankind to the person of Ophelia, whom he thinks has rejected him.

Now he is again in the same emotional state at the ultimate expense of the Queen. The Ghost's second appearance, "this piteous action" has the immediate effect of reducing Hamlet's violent feelings of hatred which are apparently about to be concentrated once more on his mother. As he is abusing her, the Ghost enters the closet and Hamlet appeals to "you heavenly guards" to save him. Save him from what? The Ghost? Is he again not sure that he is not dealing with the Devil?

Not so. The context establishes Hamlet's sudden return to reason. He is asking to be saved from committing violence against his mother by "you heavenly guards." The phrase following — "What would your gracious figure?" indicates a change of tone. He fears the possible effects of his own uncontrolled rage, not the Ghost. Hamlet never really loses a grip on himself; his reason always wins the contest with his passions.

The play's dramatic crisis, which signals the start of Hamlet's rush to destruction, occurs at the moment he says "No" and deliberately postpones the killing of Claudius when he believes the King to be praying. (III,iii,87). This is Hamlet's sin and this is where his evil really lies. Now he is no better than Claudius for Claudius did not wish to bring down eternal damnation on the head of his brother or, if he did bring it down, it was not part of his intention. Young Hamlet has ignored the Ghost's warning and dispensed with human feelings. Killing the King is one thing, condemning him to Hell is an additional refinement. If Claudius is a usurper, Hamlet is King by right, and is therefore legally entitled to extract the death-penalty for his various crimes of regicide and high treason. The law's revenge is not a sin, and Hamlet has already referred to "the law's delay" (III,i,72), so that we cannot be surprised at the time taken by Hamlet to prove the guilt of the accused before finally condemning him to death.

What happens is that Hamlet (to continue the legal analogy) goes on to exceed the Ghost's brief of revenge. His reason is now adapted to justifying the ethic that ends are more important than means. He becomes more and more cruel, ruthlessly unconcerned with others from the crisis-point forward to

the very end of his life. Before he kills Claudius, he kills, without any real remorse, Polonius, ensures the deaths of Rosencrantz, Guildenstern and Laertes, and owns indirect responsibility for the death of Ophelia. His talk grows more and more passionate and he begins to see himself as the instrument of Heavenly vengeance; in the last scene, the stage is littered with corpses — "Such a sight as this. Becomes the field, but here shows much amiss," comments Horatio in the penultimate lines, distinguishing the disorder witnessed in the hall at Elsinore from the propriety of death in battle.

Finally, in this connection it should be noted that, theologically, to wish grave bodily evil, injury or death to a man constitutes a mortal sin, but to wish eternal damnation on him is the second gravest sin. [15] An Elizabethan audience would have been appalled at the prospect of a sudden death, "not shriving-time allowed." Sudden death was one of the most feared legacies of the plague-ridden later Middle Ages because it meant no confession and therefore the likelihood of eternal damnation. [16]

> No reck'ning made, but sent to my account
> With all my imperfections on my head.
> O, horrible! most horrible!

is how the Ghost describes his own quick translation from the world (I,v,78-80). Hamlet's meting-out of the same punishment to Claudius may be understood in the light of what had happened to his father, but no such excuse could be made for his attitude to his own contriving, at long range, of the abrupt demise of Rosencrantz and Guildenstern, two harmless pawns.

Ophelia is a negative figure, whose function is to believe uncritically everything which Polonius tells her. "I do not know, my lord, what I should think" (I,iii,104) sums her up as lacking in judgement. The same conversation marks her as lacking in passion, as does her talk with Hamlet, overheard by the King and Polonius with her own collaboration. Dover Wilson, whose interpretation of this scene (III,i) is excellent, [17] concludes that Ophelia fails Hamlet in understanding love when Hamlet most needs it. When he turns up dressed as a distracted lover she gives him no comfort but instead runs to tell Polonius everything she has seen (II,i,74f). Because Polonius told her to do it, she repelled Hamlet's letters and denied him access. His gestures and demeanour is a way of asking for explanation because he is desperate, but he gets nothing from her.

In III,i she actually accuses him of neglecting her. Hamlet has been hurt, and his replies, ribald only on the surface, show it. He consigns her to the category in which he has already set his mother, a symbol of frailty, like all women since Eve. His question (i.130) "Where's your father?" is answered with a lie for he (i.e. Polonius) is not "at home" but eavesdropping outside with the King — what the latter has called "lawful espials" (1.22).

This is her last chance and she cannot take it. Her appeal to heaven to restore Hamlet is a tragic irony since she alone had the power to draw him back. At once he begins to treat her like a prostitute.[18] In the play scene Hamlet indulges in one final cynical comment in response to her observation on the brevity of the Prologue :

> **Ophelia.** 'Tis brief, my Lord.
> **Hamlet.** As woman's love.
>
> (III,ii, 151-2)

but just after his graveyard struggle with Laertes and in the grip of strong emotion Hamlet reveals his feelings for her, now that she is dead:

> **Hamlet.** I loved Ophelia, forty thousand brothers
> Could not with all their quantity of love
> Make up my sum ...
>
> (V,i, 263-5).

Hamlet did not cast out love. Love seemed to have rejected him. When Ophelia dies, he admits no responsibility for by this time his conscience has been deadened also. It is Ophelia, as much if not more than Hamlet, who has contributed to the change in their relationship.

Hamlet dies unrepentant, telling Horatio that "the rest is silence". Critics are loath to let him go so easily, for it is tempting to claim that he was regenerated because he carried out the Ghost's commands in the end and died happily, leaving Horatio to tell his story to the world which he leaves, free of threats of hell and damnation, with flights of angels singing him to his rest. This last flicker of "sweet prince" romanticism is hard to square with evidence. The Ghost's account of Purgatory — practically indescribable in fact — indicates that Hell must be an utterly appalling place. Hamlet talks of the possible consequences of suicide in his most famous soliloquy (II,i, 78f) and his confidence that Claudius's soul can be sent to hell by a sudden thrust of his sword (II,iii,95) is evidence that for the dramatic purpose of the play Shakespeare wished his audience to believe in a punitive next world for the unshriven, and that Hamlet's theology was that of a 15th-century Catholic notwithstanding his Wittenberg education.

The critic inevitably comes to ask what was Hamlet's "tragic flaw" — is it his liability to fly to extremes, like many "normal" human beings? It is true that his passion and reason are not well enough harmonized but is this enough to make him a tragic hero? The "tragic flaw" **(hamartia)** was a stage convention inherited from the Greek form of tragedy but Shakespeare did not make Hamlet suit the convention. Rather, he made the convention suit Hamlet. The latter's description of the flawed man (I,iv, 23-36) is not a description of himself but instead of human responsibility for action. His own deficiency is an excess of passion, particularly of anger, but this is no accident, no "vicious mole of nature" or "fortune's star" peculiar to himself. In his own case such excess has its source in his own choice. Shakespeare does not ask his audience to share the general censure of the flawed man when his defect is part of his nature or his destiny. We are not intended to take Hamlet's statements literally, only logically, and to work out what possible meanings they could have.

For example, as we have previously noted, he sometimes tells lies. He tells Rosencrantz, one well-intentioned tool of Claudius, that he still loves him (III,ii, 337); he pretends that he expects to lose the fencing match to Laertes but admits to Horatio that he has been "in continual practice" and "shall win at the odds." (V,ii, 209). When he is not giving the lie direct, he is misleading his hearers, by puns, plays on words, euphuisms, inviting them to accept apparent confidences based on deceits, and by actions designed to perplex or embarrass. Yet no-one, not even Horatio, his one consistent friend, enjoys Hamlet's confidence.

His fluctuations become more and more extreme as the play proceeds[19] but Hamlet is aware of his own failings and is capable of standing outside himself and, so to speak, putting on the brake, a sign that he is sane:

> But I am very sorry, good Horatio,
> That to Laertes, I forgot myself;
> For by the image of my cause I see
> The portraiture of his; I'll court his favours:
> But sure the bravery of his grief did put me
> Into a towering passion
>
> (V,ii, 74-80).

His emotions fight with his passions He flares up into ectasy and subsides into depression. This is the change of mood most typical of romantic art, readily perceptible in 19th-century poetry and music and one of the main sources of Hamlet's attraction for his early critics. But even under the greatest strain he shows himself as pre-eminently a thinker; once he has survived the first explosion, he settles down to cogitate on the situation in hand, a working-out which sustains him until the next onslaught of passion. Shakespeare represents his hero as a man with a singular nature, a melancholy type, a contemplative, who says that he wants only to go back to Wittenberg to study philosophy and stays at Court only because his mother wants him to do so. He is fed up with life, sees other people enjoying themselves while he does not, and eventually thinks of suicide (but only in theory since not even that drastic act strikes him as

worthwhile). He covers up all this gloom by displaying a ready with and behaving with bright cynicism.

Suddenly, a call comes to him, delivered by the Ghost, and Hamlet has at once found a worthy mission. He is confirmed in his despondency because he now has a really sound reason for sadness. Something is indeed rotten in the state of Denmark and Hamlet, having sworn his friends to secrecy about the Ghost's visitation, makes his way alone. Nobody else seems to realise what a consummate rascal the King is, or if they do, they are glossing over it. Hamlet's task, which he does not relish, is to expose the corruption in high places but he has to keep his one-man vendetta quiet, otherwise the King and his agents will have him murdered. He thus conceives the scheme of having a dumb-show performed before the Court, representing his father's murder and the usurpation. "The play's the thing/Wherein I'll catch the conscience of the King" he tells himself at the end of Act II. Like Sherlock Holmes and the Baker Street Irregulars he gets the strolling players to do the job of detection for him. His device works and the King is unmasked.

Now comes the problem. Hamlet is still uncertain. Why is he uncertain? Certainly not because he lacks factual information. The Ghost and the play-within-the-play have together furnished him with plenty of that commodity. Nor is his mind hazy; on the contrary it is very clear and logical **ad absurdum.** Is his will weak? Far from it — Hamlet is strong-willed and ruthless when opposed. So why is he cast into an uncertainty? The answer is that he cannot **prove** the reality of the call which he has received, nor the reality of its object. His uncertainty lies in the means to, not the nature of, the end desired. Man must discover for himself the role he has to play in the drama of human existence, like the Players in the Dumb Show, who have no plot, lines or cues. We are all on the stage, play-acting from here to Eternity.

Hamlet is set in Denmark,[20] though Shakespeare, so far as we know, never visited that country. However, in spite of Dover Wilson's assertions to the contrary, the audience need not draw parallels with Elizabethan England, even though the "Denmark" in the play is an invented and unique world created to suit the purposes of the dramatist. Wilson gives the politics of Denmark undue prominence, referring to the Danish constitution which is described in **Hamlet** both directly and indirectly. The question is one of succession. Was Hamlet a hereditary claimant to Denmark's throne, or might Claudius have been elected according to the prevailing system? If Hamlet **was** the rightful heir, Claudius becomes subject to Hamlet's will, so that Hamlet's "revenge" is not revenge at all but legal justice instead.

In the Norwegian constitution as presented in **Hamlet** a similar situation is encountered. Fortinbras is passed over in favour of his uncle, "old Norway", yet he directs his hostilities against Poland and Denmark, not against his uncle, so plainly did not consider himself cheated. I,i,60 refers to Old Hamlet, "Norway" to the King of that country, who is the uncle of Young Fortinbras (cf I,ii, 28). This parallel, noted by A. C. Bradley, is clear.[21] **The open**

rivalry of Old Hamlet and Old Fortinbras contrasts with Claudius's secret rivalry to Old Hamlet. Young Fortinbras, who lost his father when Old Hamlet slew him in individual combat, (I,i, 80f), wants to take the law into his own hands and recover his father's former territories by force, but is compelled to delay as a result of negotiations between Claudius and "old Norway" (I,ii, 22f). In both Norway and Denmark, the political issue of the succession is the same. The Hamlet of Saxo Grammaticus and Belleforêt was the rightful monarch and Belleforêt calls Hamlet's father and uncle "kings", but Dover Wilson is incorrect in stating that an elective monarchy did not exist.[22] The Danish constitution is the one which Shakespeare defines in the play, an elective, not an hereditary constitution, though in this particular instance Claudius appears to have gained consent by sharp practice, judging by his remark in I, ii, 108-9).

> ... for let the world take note
> You are the most immediate to our throne

and there are many references to the succession in the course of the play's development.[23] They underline the constant frustration of Hamlet's logic, which tells him that he is the fitter candidate, though, unlike Macbeth, he is not lured into action by ambition to succeed.

However, it is not until the last scene that the audience is told directly that Claudius's methods of securing popular agreement are, to say the least, devious, but Shakespeare deliberately leaves the details of the election — means of voting and techniques of "rigging" — as vague as possible. Claudius is depicted as a "smooth operator" who starts to win his audience over in Act I,ii and it is not until the very end of the play that the whole scheme becomes clearer, though never completely clear. The suggestion is that Claudius's succession is of dubious legality and that the people have got to know of this. Throughout the plot the twin ideas of election and moral choice are held up to the audience and though the issues of constitutional election become clearer from one Act to the next they are not to be analysed as a succession of static situations or points of law. They are never laid bare and their purpose is to produce a certain atmosphere or dramatic mood of doubt and interference with due process for which the villain is cleverly responsible and which invokes sympathy for Hamlet's be wilderment.

The Danish philosopher Soren Kierkegaard[24], whose personal predicament in outline resembled that of Hamlet, published a brief Appendix to his autobiography, in which he had told the story of his own broken engagement to Regina Olsen. Its English title is "A Side-Glance at Shakespeare's **Hamlet**" and in it Kierkegaard regrets that the play was not a religious drama, on the ground that if Hamlet's scruples are not religious then he is no tragic hero but instead a near-comic procrastinator. If **Hamlet** had been religious, the hero's actions would have gained in interest, though they would have lost their purely dramatic quality. Internal conflicts involve religious scruples and the hero finds greatness only through suffering, not triumph.

Kierkegaard published a periodical called **The Instant**.[25] The idea of the Instant is one of the two concepts which fascinated him — the other being the

Leap. He said that the Instant was the time of faith, the contact of time and eternity, "the plenitude of time when the eternal decision is realised in the shifting occasion". What he referred to as the Instant was the characteristic movement of faith — irrational, instantaneous and concrete, a movement that has to be sure-footed or fail utterly. Exact timing is of paramount importance.

Transferring these metaphors to the play **Hamlet,** Kierkegaard's reference to it as a failed religious drama becomes clear, for it had all the necessary qualifications except the ambiguity of vocation. Shakespeare represented Hamlet as a man having a singular nature, a melancholy man, a contemplative. Suddenly, he gets a call — the Instant — and his aim is to know the truth. Kierkegaard himself was a religious man and therefore knew the truth immediately — this is the difference between religion and not-religion. Yet both Hamlet and Kierkegaard are cast into an uncertainty; Hamlet's has already been described and illustrated from the text.

Objective uncertainty implies a non-demonstrability of the object of one's conviction. It may be challenged, denied and shown to be pure imagination. Subjective uncertainty has to do with motives. Why am I doing this?, asks Hamlet. Is it my singular nature that is impelling me? Or is it some spirit outside myself? He fails to comprehend the nature of his drive and no ready-made system of logic can help:

> There are more things in heaven and earth, Horatio,
> Than are dreamt of in your philosophy,
> (I,v, 165-6)

he comments on his friend's scepticism, and later, at the beginning of the final scene, to the same, he remarks,

> There's a divinity that shapes our ends,
> Rough-hew them how we will—
> (V,ii, 10-11).

and in these two statements two important ideas are contained. Hamlet bases his action and takes his chances on something inside and outside of himself which is not to be explained in any way — it is the mystery of the play, to which initial reference has been made.

Hamlet, in the end, moves in a Leap — he leaps into the kill. Before that he leaps into Ophelia's grave with Laertes, a symbolic gesture. His leaping is impelled by passion, not logic — he leaps only because he is passionate. The man whom he, ironically, claims to admire, "the man who is not passion's slave", could not make the Leap. Logic must be eliminated — the very reason which Hamlet worships — and then, only then, can Hamlet act. Hamlet delays because of logic. His final leap fulfils his mission.

The natural man swings between contemplation and passion, but it is feeling that properly measures man's power. Kierkegaard extolled the Leap

as opposed to meditation. Hamlet "leaps" from each stage to another. Whenever reason baffles his intellect, his reason takes over and he is propelled into a Leap, his only release from perplexity. Hamlet, about to die, addresses Horatio for the last time, urging him to :

> ... report me and my cause aright
> To the unsatisfied.
>
> (V, ii, 336-7)

Why should Hamlet want the whole world to know what happened to him? Why should Horatio absent himself from felicity awhile to report the hero and his cause? — (even if he could, since he does not know even as much as the audience).It is this flat ending on Hamlet's part which makes Kierkegaard think that the play ought to have been religious since, as it stands, it merely defies necessary explanation. The hero had no religious doubts; he should have settled the whole thing immediately and not delayed.

Kierkegaard glorified the "Leap", thus setting feeling above meditation as the touchstone of human power. The hero, a super-man, leaps from one stage to the next, so that the frustration of his reason does not bar his progress. His passion propels him into a leap and releases him from intellectual confusion. Kierkegaard's well-known three stages of existence'[25] which he calls "aesthetic", "ethical" and "religious", concern respectively things, immanence, (concerning mental acts) and eternity. The aesthetic does not transform man's existence; the ethical produces action, the creative power of the individual, and the religious has to do with the paradox of reward and punishment unconnected with this world. Hamlet is victorious in the first stage and controls his earthly destiny; likewise in the second he questions his own guilt or innocence, leaping from the first to the second in a fury of passion when he cannot solve his problem by exercise of reason. The third stage brings the natural man to submission to eternal judgement, but, according to Kierkegaard, Hamlet fails to make this final leap — thus leaving his audience "up in the air". However, Hamlet's survival as a play depends upon the perplexity it leaves behind and while Kierkegaard's explanation in terms of what amounts to a dramatic falling-short is satisfactory to the existentialist because it draws on no rational justification, it tends to emphasise the mystery confronting non-Christian man who is unable to free himself in one bound, because he lacks that faith which generates the "spring".[26] Macbeth, a "physical" man, makes neither the first nor the second leap and scorns the third — he would like a chance "to jump the life to come" but the only energy he can at first discover in himself is rooted in the deadly sins of pride, avarice and envy:

> I have no spur
> To prick the sides of my intent, but only
> Vaulting ambition, which o'er-leaps itself and falls on the other.
>
> (**Macbeth,** I, vii, 25-8).

At the end, when all is revealed to him by his own slow comprehension, he

has no leap to make, but simply stands up and fights. "I will not yield", he cries and dies with an oath on his lips, a redoubtable warrior who finds his own code of values strictly earth-bound — and his own strength the only remaining object of faith. He is an "aesthetic" hero. For him the rest is not silence — he is not concerned with a "rest", only with the here and now:

> Lay on, Macduff,
> And damn'd be him that first cries, 'Hold, enough!'
> (**Macbeth,** V, vii, 62-3).

Both Hamlet and Macbeth share the same internal conflict. arising from the paradox of description. How can life be comprehended through the veil of distortion? Why does innocence seem like guilt, and vice-versa? Is it better to live or to die when nobody and nothing is to be trusted? Hamlet states the problem in his first speech — "Seems, madam! Nay, it is, I know not 'seems' " (I, ii, 76) and the only way out of his sceptical dilemma is to make the leap into action, which is the solution of the ethical, as distinct from the aesthetic, hero. The hero must act, not ponder, for meditation is shameful:

> Thus conscience doth make cowards of us all
> And thus the native hue of resolution
> Is sicklied o'er with the pale cast of thought,
> And enterprises of great pitch and moment
> With this regard their currents turn awry,
> And lose the name of action...
> (III, i, 83-8)

Previously Hamlet had spoken of the stage player's lack of concern:

> What's Hecuba to him, or he to Hecuba,
> That he should weep for her?
> What would he do,
> Had he the motive and the cue for passion
> That I have?
> (II, ii, 562-5)

Only on the stage may one have a **motive** for passion — only a play actor on the boards or in life could:

> ... drown the stage with tears,
> And cleave the general ear with horrid speech,
> Make mad the guilty and appal the free,
> Confound the ignorant, and amaze indeed
> The very faculties of eyes and ears; yet I
> A dull and muddy-mettled rascal, peak
> Like John-a-dreams, unpregnant of my cause,
> And can say nothing; no, not for a king,

Upon whose property and most dear life
A damned defeat was made: am I a coward?
(II, ii, 565-74)

His question emphasises his dilemma. Only passion can induce the leap, the reality as opposed to the appearance — the moral world as distinct from the material. Hamlet makes his leap, and vanishes into death and silence. Where does he go? What happens to him? Is he rewarded or punished? What are the answers to all the questions which he asks in the various soliloquies? Shakespeare does not provide them. Hamlet never leaves this world. To the very last, his worries are earth-bound:

... report me and my cause aright
To the unsatisfied.
(V, ii, 337-8)

and a political prediction, together with a vote:

But I do prophesy th'election lights
On Fortinbras, he has my dying voice.
idem, 354-5)

Fortinbras, a newcomer, has the final word, to the accompaniment of a "dead march" — Hamlet is borne off the stage amidst images of military ritual and "a peal of ordnance is shot off". The mystery is preserved because not soluble on the evidence given in the play. Kierkegaard's hypothetical "Instant" and "Leap" enable Hamlet to be studied as a metaphor of human inability to act meaningfully while relying upon reason alone — without the touch of revelation man can only twist and turn again, in and out of the mundane conflict. Hamlet cannot escape. The connection is never made and he has nowhere to go from here.

NOTES

1. H. Levin, **The Question of Hamlet** (1959).

2. J. Dover Wilson, **What Happens In Hamlet** (1935). All quotations from the play are taken from Wilson's text (2nd. edition: Cambridge 1936: reprinted 1977).

3. Essay in his journal **The Mirror,** 18th April, 1780. This "delicate-flower" description suggested some of the far-fetched theories which influenced 19th-century performances, e.g. that Hamlet was actually a woman in disguise, so that he could not have married Ophelia. Expressed in present-day language, this indicates that Hamlet was a transvestite, homosexual or hermaphrodite in process of sex-change. In 1899 the actress Sarah Bernhardt played the part of Hamlet in a French prose version, but made Hamlet dignified and masculine.

4. Quoted by A C. Bradley, **Shakespearean Tragedy** (1904), Lect III.

5. Madariaga, **On Hamlet** (1948). Both Goethe and Schlegel held this view and thought that Hamlet's fault was embodied in his delay. But the "delicate prince" is not Shakespeare's creation.

6. According to the text, Hamlet is an expert swordsman in good practice (V, ii, 209); he boarded the private ship alone (IV, vi, 19-20); he is not afraid to follow the Ghost (I, iv, 79f); the people of Denmark, a warlike, roistering nation, love him (IV, iii, 4 & IV, vii, 18); when he makes up his mind to kill, he does so in a flash (III, iv, 23f) & V, ii, 320).

7. The founder of this is Ernest Jones, who published **Essays in Applied Psycho-Analysis** (1923) and a Freudian interpretation, **Hamlet and Oedipus** (1949).

8. T. S. Eliot claimed in **The Sacred Wood** (1919) that Hamlet is dominated by an emotion which is inexpressible, because it is "in excess of the facts as they appear". He omits all mention of Hamlet's love and respect for his father and contrasting dislike of his uncle, something made clear in Hamlet's opening words (I, ii, 65), and several times more before he hears what the Ghost has to tell him (e.g. I, ii, 139-40; 151-3).

9. Sir Thomas Hanmer is credited with having made the statement in 1736 that "there appears no reason at all in nature why this young prince did not put the usurper to death as soon as possible".

10. E.g. I, v, 172: II, ii, 382 & c. by Hamlet: II, i, 82 & 107: II, ii, 49 & c. by Polonius: II, ii, 5; III, i, 192; III, iii, 2; V, i, 266 & c. by Claudius: III, iv, 105; V, i, 278 & c. by Gertrude: III, i, 153 by Ophelia: III, i, 8 by Guildenstern: V, i, 144f by the Gravedigger.

11. It is possible that the play was composed much earlier and performed in the University towns as early as 1593.

12. cf. I, iv, 40-4 & 64-8.

13. The first being in the play scene.

14. Hanmer (cf. n. 9 **supra)** perceived the unpleasantness of this scene which the romantics (starting with William Richardson in 1784) minimised.

15. **i.e.** next to **odium inimicitiae Dei,** which is hatred of God's person as distinct from hatred of one of his attributes.

16. Other plays of Shakespeare make the same point, e.g. Othello makes sure that Desdemona is prepared for death — "I would not kill thy unprepared spirit", he tells her (V, ii, 32) and in **Pericles,** Leontes, about to kill Marina: "If you require/A little space for prayer,/I grant it" (IV, i, 67-8). But Hamlet is different — he acquiesces in the King's denial of "shriving-time" to them though he has no evidence of their complicity. Ten lines further on in the same scene he is telling Horatio that he equates conscience with his revenge and damnation with mercy (V, ii, 67-70). He is even ready to kill the man for something he has not yet, done to which re refers as he refers as "further evil". His friend Horatio is clearly taken a back and makes no comment. His remark "So Rosencrantz and Guildenstern go to't" (idem, 56) stands as "normal" reaction to Hamlet's abnormal ferocity here.

17. In **What Happens in Hamlet.**

18. cf. II, ii, 174 where he calls Polonius "a fishmonger" (procurer). "Get thee to a nunnery" (III, i, 121) means "go to a brothel". Later (150f) he extends his anger to include all women.

19. e.g. I, iv, 85: II, ii, 55; III, i; III, ii (esp. III, ii, 72f); III iv, the closet scene when he is close to killing his mother; V, i, 251, when he fights Laertes in the grave; V, ii, 320 etc. Gielgud's performance (1930 and subsequently) showed by these successive climaxes that Hamlet is not mad.

20. For information on Shakespeare's Danish connections see Cay Dollerup, **Denmark, Hamlet, and Shakespeare** (Salzburg 1975), 1-2.

21. Quoted by A. C. Bradley, **Shakespearean Tragedy** (1904), Lcct. III.

22. Kingship by consent is clear in Belleforêt (the oration of the young prince (Amleth) so moved the hearts of the Danes that all with onc consent proclaimed him king of Jutie and Chersonnese, at this present the proper country of Denmark).

23. **e.g.** esp. in Acts II & III. The closing speech of the play, by Fortinbras, touches on Hamlet's suitability (V. ii, 396-7).

24. W. H. Auden's introduction to **Selections From Kierkegaard's Works** (1955) and Denis de Rougemont's essay "Kierkegaard and Hamlet; Two Danish Princes" (**Anchor Review,** 1955) are both useful pointers to the nature of Hamlet's psychology, the "Protestant" conscience at its most sensitive.

25. **Øieblikket** (1856) ran for 10 issues, to which he was the sole contributor, and concluded with his death in the same year. It constituted part of his last attack on the Danish established church. "Øieblikket" (the Instant or moment) and "Springet" (the Leap) were fundamental to Kierkegaard, whose strongest influences came from Luther.

26. For Luther, faith was the remedy for the anguished conscience, the only means of communication with God. Luther stressed the capital importance of what Kierkegaard called "inwardness" (**egentlig beskaffenhed**) the uniquencess of the individual conscience and Self.

"THE PULSE OF COLOUR" IN VIRGINIA WOOLF'S 'TO THE LIGHTHOUSE'

by **Shaun McCarthy**

...First, the pulse of colour flooded the bay with blue, and the heart expanded with it and the body swam, only the next instant to be checked and chilled by the prickly blackness on the ruffled waves. Then, up behind the great black rock, almost every evening spurted irregularly, so that one had to watch for it and it was a delight when it came, a fountain of white water; and then, while one waited for that, one watched, on the pale semi-circular beach, wave after wave shedding again and again smoothly a film of mother-of-pearl.....

Virginia Woolf's novels are commonly held to be in almost an exemplary sense the product of a refined theoretical intelligence and, as such, in a high degree revelatory of an individual, if not idiosyncratic, critical philosophy. This is, of course, a pompous way of putting it — but appropriate enough in the present context, since the suggestion comes as a frequent corollary that the critical philosophy in question tends to outweigh the narrative dynamic of her fiction, lending it a quality of pretentiousness that many readers find unacceptable, loading the description of quotidian events and scenes with a depth of significance that it may seem unreasonable they should bear. As will be seen, I do not dismiss this suggestion at the outset as merely Philistine, nor do I deny the truth of the proposition upon which it rests; indeed, it seems to me fully applicable to her criticism as well, and notably so when she deals with authors whose remoteness from the Woolfian aesthetic canon may seem apparent — such as Chaucer, Montaigne and Joseph Conrad. As an example I might cite her comment on one of Conrad's most successful character creations:—

.... Nor did Marlow live entirely wreathed in the smoke of his own cigars. He had a habit of opening his eyes suddenly and looking — at a rubbish heap, at a port, at a shop counter — and then complete in its burning ring of light that thing is flashed bright upon the mysterious background. Introspective and analytical, Marlow was aware of this peculiarity. He said the power came to him suddenly. He might, for instance, overhear a French officer murmur, "Mon Dieu, how the time passes!......" (1)

She continues by quoting Marlow/Conrad directly:—

"Nothing could have been more commonplace than this remark; but its utterance coincided for me with a moment of vision. It's extraordinary how we go through life with eyes half shut, with dull ears, with dormant thoughts...... Nevertheless, there can be but few of us who had never known one of these rare moments of awakening, when we see, hear, understand, ever so much — every-

(1) "Joseph Conrad," **The Common Reader,** (1925), pp. 286—7.

thing — in a flash, before we fall back again into our agreeable somnolence. I raised my eyes when he spoke, and I saw him as though I had never seen him before......"

There is much in this passage, and in Woolf's comment upon it, that is relevant to some of the chief preoccupations of "modernist" authors — to the Joycean epiphany, to Eliot's "one end, which is always present," to D. H. Lawrence's monotony of exasperation; much also that is relevant to the tenets of the Impressionist painters; but above all there is much that is even more obviously and directly relevant to the narrative techniques of Virginia Woolf herself, which relate notoriously to the description and depiction of just such "moments of awakening" — this to the extent, indeed, of often involving the nigh-total abandonment of traditional narrative methods, as commonly categorised. We may be reminded, however, of the usage that we now regard as characteristically Proustian — that of mining an incalculable wealth of implication from just such "commonplace remarks" as that of Conrad's French officer — "Mon Dieu, how the time passes!", from just such everyday sights as those which Woolf remarks; "a rubbish heap, a port, a shop counter." And certainly we may wonder if her observations may not be tinged with a certain subjectivity — whether Marlow is indeed as "subtle, refined and fastidious" as Woolf finds him, or whether — as so often happens — she detects these qualities in him because her modernistic theoretical arguments necessitate their presence. If so, she will again, and in a different sense, be investing statements with a significance that they should not bear.

In Marlow, however, these characteristically feminine virtues are (if present) qualified by what she calls the Conradian "double vision," which is levelled at distinctively masculine qualities, those of the Whalleys and Singletons: "To praise their silence one must possess a voice. To appreciate their endurance one must be sensitive to fatigue." Within the masculine/feminine dichotomy she in this way uncovers a profound structural paradox, clearly affecting our response to such "virile" writers as Faulkner, Hemingway and Mailer and affecting, in reverse, our response to Woolf herself, since it will disable us from viewing her novels as a characteristically feminist contribution to modern literature — however other of her writings may encourage such a judgement.

We should rather, I think, accept the sense, if not the wording, of Thomas Vogler's assessment, wherein he maintains that Woolf-.

......explores both the masculine and the feminine with a profound sense of their interdependence in the economy of mental as well as biological existence...... (1)

But bearing in mind also the more detailed observation of Jean Guiguet:—

(1) T. A. Vogler, intro. to **To The Lighthouse: 20th Century Interpretations,** ed. Vogler, (1970), p. 19.

No doubt Virginia Woolf would be the first to protest against the artificial element in the traditional oppositions between men's and women's natures. Yet she usually respects their broad lines, and in **To The Lighthouse** she stresses the opposition and exploits it...... (2)

Thus it is that "the passage to that fabled land" calls upon qualities that we may think of as characteristically Conradian or Faulknerian, "courage, truth, and the power to endure," "endurance and justice, foresight, devotion, skill...... Qualities that would have saved a ship's company exposed on a broiling sea with six biscuits and a flask of water," all invoked not altogether ironically tō Mr. Ramsay's aid but also to that of Mrs. Ramsay herself :—

......In pity for him, life being now strong enough to bear her on again, she began all this business, as a sailor not without weariness sees the wind fill his sail and yet hardly wants to be off again and thinks how, had the ship sunk, he would have whirled round and round and found rest on the floor of the seas...... (3)

Movement is constantly contrasted to rest, the impulse of the sea-voyage to the static rhythms of the painting, the male dynamic to the female kinetic, yet always with "a profound sense of the inter-dependence" of these binary poles.

Certainly no characters may seem to be further removed than those of Woolf from that struggle against the elemental and unrelenting forces of nature that dignities the creations of Conrad, Hardy, Giono and Faulkner; yet these references, like her comments on Marlow, testify in some measure to a common interest, a shared approach, and such considerations may lead us to suppose that natural forces, or a natural force, indeed create those points of structural tension, of conflict and of ultimate reconciliation, upon which the integrity of the Woolfian narrative depends. Firbank's concern has been said to be "the preservation of impeccable surfaces" at a time of acute spiritual and material crisis, and Woolf's novels and stories may seem to reflect, in a very different way, this same concern; yet the whole point of the Firbankian philosophy is that such a preservation is impossible — "the centre cannot hold," the agents of destruction make their due appearance, like the murderers in **Macbeth.** The enemies of Firbank are the enemies of the homosexually-inclined aesthete — old age, ugliness, death; similarly, the enemy to Virginia Woolf is the eternal enemy of femininity, as duly recognised by Shakespeare — **time** is the natural force against which the Woolfian heroine struggles, as desperately as may the Conradian mariner against the encroaching sea.

......They could not all be drowned. And again she felt alone in the presence of her old antagonist, life...... (1)

---

(2) Jean Guiguet, "To The Lighthouse," in **To The Lighthouse: Casebook,** ed. Beja, (1970), p. 239.

(3) **To The Lighthouse,** p. 97. (Page references in this article are to the Penguin edition).

(1) **To The Lighthouse,** p. 91.

"Life," for Mrs. Ramsay, is temporal reality; the "moment of awakening" that at various points she experiences is, for her creator as for Proust, a moment of refuge; yet refuge of a peculiarly non-passive kind, in that the possibility of refuge from the omnipotent action of temporality is taken to be a clear indication of the further possibility of final transcendence. In this sense, neither Proust nor Woolf are as pessimistic as they have sometimes been held to be.

Such a refuge from the unending ebb-and-flow of the life force may be encountered in the static patterns of the atemporal art forms; we may say in Lily Briscoe's paintings, precisely, but also in those many scenic descriptions designed as formal compositions and thus echoing, so to speak, visual perspectives on the printed page:—

......But here, the houses falling away on both sides, they came out on the quay, and the whole bay spread before them and Mrs. Ramsay could not help exclaiming, "Oh, how beautiful!" For the great plateful of blue water was before her; the hoary Lighthouse, distant, austere, in the midst; and on the right, as far as the eye could see, fading and falling, in soft low pleats, the green sand dunes with the wild flowing grasses on them, which always seemed to be running away into some moon country, uninhabited by men.

That was the view, she said, stopping, growing greyer-eyed, that her husband loved...... (1)

The device through which this scene is at once invested with an illusory sense of movement — "falling," "wild," "flowing," "running away," — and simultaneously held up to our inspection as if within the confines of a picture-frame — a "view" — is characteristic. And in passages where the movement may take the more violent form of conflict (that, for example, between waves and shore, sea and land, in the citation heading this article) the violence may be held in check by the invocation of more static dichotomies — darkness and light, black and white, "black rock," "white water"; and the starkness of this contrast further modified by the introduction of "the pulse of colour" — blue, green, purple, others more subtle — which again impose on the inner struggle the external staticity of a painting. In this act of subjugation the ordered complexity of Woolf's stylistic, with its inversions and multiplicity of parentheses, plays a very evident part. The flux of language itself is related to colour and hence both released and restrained:—

......Slowly those words they had said at dinner, 'the China rose is all abloom and buzzing with the honey bee,' began washing from side to side of her mind rhythmically, and as they washed, words, like little shaded lights, one red, one blue, one yellow, lit up in the dark of her mind, and seemed leaving their perches up there to fly across and across, or to cry out and to be echoed; so she turned and felt on the table beside her for a book...... (2)

---

(1) **To The Lighthouse,** p. 16.

(2) ibid., p. 136.

Furthermore, there is a constant underlying suggestion — conveyed, as I think, chiefly through our sense of the enormous resources of "words" — that the world revealed to the painter's eye, as to our own, is a world of appearances only, of "apparitions": "Our apparitions, the things you know us by, are simply childish. Beneath it is all dark, it is all spreading, it is unfathomably deep; but now and again we rise to the surface and that is what you see us by......" (1) Joyce, of course, makes an identical point in the opening paragraph of **The Portrait of an Artist;** and we will further be aware of the Conradian analogies when Mrs. Ramsay elsewhere speaks of her own inner being as a "wedge-shaped core of darkness, invisible to others" — invoking here, perhaps, the interlocking cones of Cusanus. (2) This is to say that in **To The Lighthouse** the description of character, like that of the natural scenery, seeks to descend constantly below the level of externals; Woolf's characters have, in consequence, a quality quite other than that which "characterisation," in the normal sense, reveals.

We feel them, rather than see them...... In fact, we remember the characters less than their aura. Their faces glow with an internal light, their essence radiates outwards from them like that mysterious halo carried by Minta Doyle. They live...... but the life they reveal is different from the kind of life that novelists usually represent...... (3)

Character, to Woolf, is essentially an extra-temporal phenomenon; this indeed is the crucial point of the essay that Guiguet rightly calls "pivotal," **Mr. Bennett and Mrs. Brown.** The meaning of character is, to Woolf, inseparable from the meaning of episodic narration; we may say of her as she says of Marlow.

......To him the meaning of an episode was not inside like a kernel but outside, enveloping the tale which brought it out only as a glow brings out a haze, in the likeness of one of those misty halos that sometimes are made visible by the spectral illumination of moonshine......(4)

— which reflection must bring us back again to our point of departure, to the Woolfian "epiphany," the "rare moment of awakening" wherein ordinary objects and ordinary people are invested — as in the great Impressionist paintings — with a transcendental profundity. So it is with Lily's famous "kitchen

---

(1) **To The Lighthouse,** p. 73.

(2) In this passage Mrs. Ramsay's "wedge-shaped core" is contrasted to the cone of light, "the long steady stroke," emanating from the lighthouse; a Yin-and-Yang principle is again invoked. On the light/darkness dichotomy, vd. McNichol, **To The Lighthouse,** (1971), pp. 48—52.

(3) Blocker, op. cit., p. 103.

(4) "Joseph Conrad," ante cit.

table," symbolising "subject and object and the nature of reality"...... "Think of a kitchen table...... when you're not there." Thus also in human terms is Lily's experience of "staying with the Ramsays" conveyed:—

Directly one looked up and saw them, what she called "being in love" flooded them. They became part of that unreal but penetrating and exciting universe which is the world seen through the eyes of love. The sky stuck to them; the birds sang through them. And, what was even more exciting, she felt, too, as she saw Mr. Ramsay bearing down and retreating, and Mrs. Ramsay sitting with James in the window and the cloud moving and the tree bending, how life, from being made up of little separate incidents which one lived one by one, became curled and whole like a wave which bore one up with it and threw one down with it, there, with a dash on the beach...... (1)

"Curled and whole like a wave......" To say that the sea in **To The Lighthouse** "symbolises" temporal reality is of course to make far too facile an identification; similarly, to speak of Woolf's apprehension of reality as "mystical" (2) or to perceive in it "a mystical centre of some kind, momentary in duration and ecstatic in quality" (3) is to say little more (though certainly it is to say **something** more) than that in her fiction the characteristics of time are shown to be other than merely sequential. The inner conflicts and resolutions of her characters, their altered attitudes and "changes of mind," are not established as the results of an anisotropic, chronologically-patterned series of events, as traditionally "narrated," but seek to reflect instead,in Woolf's own well-known phrase, "the pattern, however disconnected and incoherent in appearance, which each sight or incident scores upon the consciousness." (4)

Thus while engaged in the re-writing of **To The Lighthouse** we find her noting in her diary:—

......I have no idea yet of any other to follow it: which may mean that I have made my method perfect and it will now stay like this and serve whatever use I wish to put it to...... Yet I am now and then haunted by some semi-mystic very profound life of a woman, which shall all be told on one occasion; and time shall be utterly obliterated; future shall somehow blossom out of the past. One incident — say the fall of a flower — might contain it. My theory being that the actual event practically does not exist — nor time either...... (5)

---

(1) **To The Lighthouse,** p. 55.
(2) See on this topic Morris Beja, "Matches Struck in the Dark; Virginia Woolf's Moments of Vision," **To The Lighthouse; A Casebook,** pp. 210—30.
(3) S. P. Rosenbaum, "The Philosophical Realism of Virginia Woolf," **English Literature and British Philosophy,** ed. Rosenbaum, (1971), p. 332.
(4) Virginia Woolf, **Collected Essays,** vol. 2, p. 106.
(5) Entry for Tuesday, 23rd November, 1926, **A Writer's Diary,** ed. Leonard Woolf, (1953).

The "method," or more precisely technique, is that of allowing — again in Woolf's own words — "one thing (to) open out of another" (1);

Memory is the seamstress, and a capricious one at that. Memory runs her needle in and out, up and down, hither and thither. We know not what comes next, or what follows after. Thus, the most ordinary movement in the world, such as sitting down at a table and pulling the inkstand towards one, may agitate a thousand odd, disconnected fragments, now bright, now dim...... (2)

In essence intuitive, we may nevertheless perceive an underlying structural balance, and hence the basis of a firm discipline, in the very invocation of temporal movement **through** staticity; it is, after all, only in terms of movement that staticity can be defined. Woolf thus appears to exploit, in literary terms, the Einsteinian paradox that, while the speed of light must be given a constant value, such a value can only be established in terms of time (e.g., miles per second) — which relativity theory, no less of necessity, must hold to be subjectively established and hence a variable. If light be equated with modes of perception, the parallel is remarkably exact; in the Woolfian "moment of perception," is it the "moment" or the "perception" that constitutes the constant? The above-quoted diary entry unequivocally suggests, neither; Woolf here clearly forestalls Sartre's argument that the Jamesian "privileged observer" can have no place in any post-Einsteinian 'univers romanesque:'

......La theorie de la relativité s'applique integralement á l'univers romanesque...... Dans un vrai roman, pas plus que dans le monde d'Einstein, il n'y a pas de place pour un observateur priviligié...... Dans un systéme romanesque, pas plus que dans un systéme physique, il n'existe d'experience permettant de décèler si ce systéme est en mouvement ou en repos...... (3)

The diary entry previously quoted, however obscure, establishes beyond all doubt Woolf's awareness of having evolved, in the writing of **To The Lighthouse,** a particular and distinctive method and that this in itself constituted some kind of achievement; from the phrasing of the diary entry, as from the other references cited, we may certainly conclude that the "method" relates to the means of representing in fictional terms this rather disconcerting "vision" of reality, and not to the mere selection and modulation of subject-matter, but this is not to say that we can be completely sure of what Woolf supposed her "method" to consist and we must feel that she herself would have had great difficulty in further defining it. The kind of structural balance achieved, however, in **To The Lighthouse** between "subject" and "object" may indicate that the Woolfian "method" ultimately rests on the ambiguity that results when these concepts are

(1) op. cit., p. 23.
(2) Virginia Woolf, **Orlando,** (1928), p. 46.
(3) cit. Maurice Nadeau, **Le Roman Français depuis la Guerre,** (1970), p. 241, q.v.

thus — so to speak — relativistically viewed; to describe this ambiguity, critics have coined such phrases as "double vision" (1) and "modulation of perspective" (2) and these, no doubt, are all very well — it is significant that it is to properties of **vision** that these phrases usually refer, and Hafley's coinage is fortunate at least in its implication that it is precisely variations in perspective, rather than a Huxleyan multiplicity of viewpoint, that creates the Woolfian enigma (to which the "problem" of Velazquez's **Las Meninas** offers a surprisingly exact analogy). (3)

If we turn, as now we must, to particular cases, we have already noted that while Mr. and Mrs. Ramsay may be held to represent opposing masculine and feminine principles, these oppositions are in no sense clear-cut; we see, for example, that Mrs. Ramsay, though from one "perspective" very evidently demonstrating — like Molly Bloom or Rosie Gann — a specifically feminine and affirmative vital force, is basically pessimistic — life is "her old antagonist"; while Mr. Ramsay, bluntly illustrative throughout of the "hostility, the sterility of men" (4) is nevertheless, like old Mr. Emerson, at bottom and incorrigibly an optimist. (And we will further notice that, having formulated the matter thus, we will immediately wish to protest at the gross over-simplifications involved). It is not — and herein lies the difficulty — that our concept of Mrs. Ramsay is changed as we see her "through the eyes" of the other characters in the book; such a "method" would be fictionally perfectly traditional, and would imply the possibility of fixed observation platforms from which accurate sightings, however briefly, might be obtained. This possibility Woolf seems to deny as emphatically as does Einstein; it is as though we are forced to rely on the reports of a dozen Jamesian observers, all of whom are themselves constantly shifting their positions.

One of the persistent features of these images is that they do not last; they give way in the minds of the characters to a flux where there is no possibility of a clarifying image, of a formal link with the world outside of mind...... (5)

Even the commentators are trapped into unintended paradox — the idea of a "persistent" feature of an image that "does not last" can be in no way easy to grasp. But then neither is the position of Bernard in **The Waves**:—

I am not one person: I am many people: I do not know who I am — Jimmy, Susan, Neville, Rhoda or Lewis: or how to distinguish my life from theirs......

---

(1) Norman Friedman, "Double Vision in **To The Lighthouse," Casebook,** pp. 149—68.
(2) James Hafley, "The Creative Modulation of Perspective," op. cit., pp. 133—48.
(3) Vd. for discussion Antonio Buero Vallejo, **Tres Maestros ante el Publico,** (1965).
(4) **To The Lighthouse,** p. 96.
(5) Thomas A. Vogler, **20th Century Interpretations,** p. 29.

"Here's **Bernard!**" **How differently different people say that!** There are many rooms — many Bernards. There was the charming, but weak; the strong, but supercilious; the brilliant, but remorseless; the very good fellow, but, I make no doubt, the awful bore; the sympathetic, but cold; the shabby, but — go into the next room — the foppish, worldly, and too well dressed. What I was to myself was different; was none of these...... (1)

As a second example, the reference to Bernard's "many rooms" may remind us of Woolf's often-observed fondness for "room and window symbolism" and the connection established, in **To The Lighthouse,** between the window and the painting. Arguably the latter, when framed and as normally hung, mimics the window in offering us, in many cases, an exterior view or, in many others, an interior scene; in the second instance, the effect may well be that of looking from one room into another, and this effect may be exploited (as in **Las Meninas)** in terms of mirror-images to create a kind of puzzle or riddle in which the relationships of viewer and of viewed, of "subject" and of "object", (the pet field of study, of course, of Mr. Ramsay), can be called into question. The literary devices of the "book within the book" and the "play within the play" (as variously demonstrated by, e.g. **Les Faux-Monnayeurs** (2) and **Hamlet)** offer a sufficiently precise parallel to the "room within the room"; as Gaetan Picon observes of Proust's usage,

Histoire d'une vie, **A la recherche du temps perdu** est aussi l'histoire d'un livre. On voit quelqu'un — le héros — avançer dans l'existence, recherchant ce qui est de l'ordre de l'existence: un bonheur, le Souverain Bien...... En même temps, on voit le héros — que est aussi le narrateur — chercher le sujet d'un livre qu'il veut écrire. Ce sujet se découvre á la fin de l'oeuvre: au moment ou cesse la narration de la vie. Lorsque le second mouvement...... reçoit son objet, il annule le premier mouvement...... ou plutót il en inverse le sens: de progressif, ce mouvement devient regressif...... Ainsi, l'oeuvre trouve son élan et son unité dans la perspective qui fait du mouvement progressif un mouvement illusoire...... (3)

We may say that Woolf, in **To The Lighthouse,** offers a subtle and effective variant to this device by perceiving an analogue between the novelist's and the painter's art. "In this mode, the "life" character...... lives or represents the human reality, and the narrator or observer...... tries to get at the form and essence of the story through art." (4) But this, again, is an over-simplification; Lily Briscoe's position in the novel is comparable to that of the painter in (and of) **Las Meninas,** the writer in (and of) **La Recherche** — observer or observed, the presenter or the presented?...... Very obviously, both. Does the novel conclude when her painting is completed, or is her painting complete when the novel is concluded?...... Again, and no less obviously, both; each movement annuls the other; **il en inverse le sens.** Of course it is not precisely a painting that Lily Briscoe executes, but several — here also the perspectives are subject to constant modulation— yet in the end,

(1) **The Waves,** p. 223.
(2) And, on a more superficial level, by **Cakes and Ale, A Room with a View** and **Those Barren Leaves.**
(3) Gaetan Picon, **Lecture de Proust,** (1963), p. 7.
(4) Thomas Vogler, loc. cit., p. 7.

......It was done: it was finished. Yes, she thought, laying down her brush in extreme fatigue, I have had my vision...... (1)

In the painter's "vision," as in the author's — both generally and in this specific case — the unity of the various is achieved. Cézanne's paintings present many different objects and are executed in several different styles, yet all are "Cézannes" — we attribute to the painter a singularity of "vision" that no one work of his will reveal. We are asked to accept Woolf's many-perspectived "vision" as possessing a comparable integrity, and to accept her novelistic structure as securely based upon it. To say that **To The Lighthouse** has some of the qualities of a painting is to offer a valuable interpretative clue; Woolf insists on the inter-relationship of all contemporary arts, and sometimes memorably.

Even if all modern painting were to be destroyed, a twenty-fifth century critic could deduce the existence of a Matisse, a Derain, a Cézanne, a Picasso, from the evidence of the prose of Marcel Proust...... (2)

It should not, of course, be forgotten that Virginia Woolf, by virtue of her family and social connections, is of all modern writers almost certainly the best-informed (3) about the artistic movements and critical theories of her time. The Post-Impressionist — like all painters — faced at the outset the problem of the resolution of movement and stasis — the representation of the former in terms of the latter; as with the great Impressionists, perception is for him primarily achieved in terms of the qualities of light, and, in consequence, the structure that is recognisable as such at a certain distance may become, when closer viewed, a chaos of confusing and at times conflicting blobs and flecks of colour.

So much depends then, thought Lily Briscoe, looking at the sea which had scarcely a stain on it, which was so soft that the sails and the clouds seemed set in its blue, so much depends, she thought, upon distance...... (4)

---

(1) **To The Lighthouse**, p. 237. These are the sentences with which the book in fact concludes.

(2) Gunter Blocker, **Die Neuen Wirklichkeiten**, (1961), p. 107, for further discussion of this point.

(3) With the possible exception of Zola. Like most Bloomsburians Woolf seems, on the other hand, to have taken very little interest in music, the most temporal of all artistic modes.

(4) **To The Lighthouse**, p. 217.

It is this hidden internal clash and swirl of complementaries that gives the best Impressionist painting its remarkable fugitive quality, grants to the viewer the sense of glimpsing a scene forever on the point of change, about to disappear, to become transmuted.

......But the wind had freshened, and, as the sky changed slightly and the sea changed slightly and the boats altered their positions, the view, which a moment before had seemed miraculously fixed, was now unsatisfactory...... (1)

The characteristic Woolfian scene possesses this same quality, and to an unprecedented degree; it is achieved — allowing for the vast differences between the word and the brushstroke as media of communication — through a somewhat similar means, a kind of **pointillisme** in prose through which many different complementaries, symbolic polarities — male/female, light/darkness, land/sea, life/death — are drawn into "Virginia's web" of ambiguity and constant flux.

Thus the initial interpretation of the Briscoe-Woolfian model may seem at first to be Huxleyan, offering the presentation of familiar objects from an unusual and perplexing point of view:—

Taking out a penknife, Mr. Bankes tapped the canvas with the bone handle. What did she wish to indicate by the triangular purple shape, "just there?" he asked.

It was Mrs. Ramsay reading to James, she said. She knew his objection — that no one could tell it for a human shape. But she had made no attempt at likeness, she said. For what reason had she introduced them then? he asked. Why indeed? — except that if there, in that corner, it was bright, here, in this, she felt the need for darkness. Simple, obvious, commonplace, as it was, Mr Bankes was interested. Mother and child then — objects of universal veneration, and in this case the mother was famous for her beauty — might be reduced, he pondered, to a purple shadow without irreverence...... (2)

Mr. Bankes, though a sympathetic observer, would clearly be in literature an adherent to the Wells-Bennett fictional school. "The largest picture in his drawing-room, which painters had praised, and valued at a higher price than he had given for it, was of the cherry trees in blossom on the banks of the Kennet." (3) The comment is of course ironic and the irony might be called Forsterian, were it not so characteristically subdued; how indeed is the non-expert to judge, other than in terms of size, of material value, or by accepting the opinion of those who are experts? Lily's "method" is self-confessedly intuitional; she "feels the need" for darkness as a complementary polarity; when Bankes asks for further enlightenment, she finds more detailed explanation impossible.

(1) op. cit., p. 219.
(2) **To The Lighthouse**, p. 61.
(3) op. cit., p. 62.

What then did she wish to make of it? And he indicated the scene before them. She looked. She could not show him what she wished to make of it, could not see it even herself, without a brush in her hand. She took up once more her old painting position with the dim eyes and the absent-minded manner, subduing all her impressions as a woman to something much more general: becoming once more under the power of that vision she had seen clearly once and must now grope for among hedges and houses and mothers and children — her picture. It was a question, she remembered, of how to connect this mass on the right hand with that on the left...... (1)

Lest we should suppose that it is merely the painter's traditional inability to express himself verbally that Woolf is here invoking, let us consider the account given of her working methods in her diary, again as **To The Lighthouse** nears completion:—

The novel is now easily within sight of the end, but this, mysteriously, comes no nearer. I am doing Lily on the lawn: but whether it's her last lap, I don't know. Nor am I sure of the quality; the only certainty seems to be that after tapping my antennae in the air vaguely for an hour every morning I generally write with heat and ease until 12.30; and thus do my two pages. So it will be done, written over, that is, in 3 weeks, I forecast, from today. What emerges? At this moment I'm casting about for an end. The problem is how to bring Lily and Mr. R. together and make a combination of interest at the end. I am feathering about with various ideas...... (2)

"How to bring Lily and Mr. Ramsay together"...... "How to connect this mass on the right hand with that on the left"...... In what sense I have described the Woolfian "method" as **intuitional** with complete justice may emerge yet more clearly when we compare with the foregoing an equally revalatory (and equally puzzling) statement by the Spanish novelist Gabriel Miró:

There are emotions that are not fully such until invested with the lyric force of the word — the true, exact word. A clearing with a single tree in it remains merely part of the landscape, divorced from myself, until I say to myself: "Warm earth, fresh green tree." Once a bird was singing on a still, bright afternoon; I grasped, I possessed that song completely when someone said, "Clarity." It was as if the bird was transformed into a luminous glass, vibrating light from a great distance...... (3)

What Miró here stresses, and through a remarkably Woolfian imagery, is the primitive, incantatory role of language as a means of establishing a dominance over external reality; the aim of all literary method is to "grasp," to "possess," to impose order through linguistic structures. The reality that Woolf faces is often dangerously inimical — "terrible, hostile, and quick to pounce on

(1) **To The Lighthouse,** p. 62.
(2) **A Writer's Diary,** entry for Friday, 3rd September, 1926.
(3) Miro, cit. Jorge Guillen, **Lenguaje y Poesia,** (1956), p. 146, q.v.

you" (1) — like Blake's tiger; and, like Blake, she seeks to encompass its fearful symmetry in a network of balanced polarities. She records in her diary an experience somewhat analagous to that of Miró:—

Many scenes have come and gone unwritten, since it is today 4th September. A cold grey blowy day, made memorable by the sight of a kingfisher and by my sense, waking early, of being again visited by 'the spirit of delight.' "Rarely, rarely, comest thou, spirit of delight." That was I singing this time last year; and sang so poignantly that I have never forgotten it, or my vision of a fin rising on a wide blank sea. No biographer could possibly guess this important fact about my life in the late summer of 1926. Yet biographers pretend they know people....... (2)

Coupled here with the image of the kingfisher, the "spirit of delight," "vibrating light from a great distance," is the "vision" of the dark triangular fin, the shark, the tiger, "a signal of disaster...... One of her recurrent images...... Possibly," (according to Quentin Bell), "these recollections are associated with another diary entry headed "A State of Mind" which she made on 15th September, 1926:

Woke up perhaps at 3. Oh it's beginning, it's coming — the horror — physically like a painful wave swelling about the heart — tossing me up. I am unhappy, unhappy! Down — God, I wish I were dead. Pause. But why am I feeling this? Let me watch the wave rise. I watch. Vanessa. Children. Failure. Yes; I detect that. Failure, failure. (The wave rises). Oh they laughed at my taste in green paint! Wave crashes. I wish I were dead! I've only a few years to live, I hope. I can't face this horror any more....... (3)

It must, I think, be at once conceded that this inner recording of the frightening effects of manic depression is quite inconfundible with that "measurement of emotional temperature" that Huxley attributes to Mary Thriplow; it is of Blake, of Holderlin, of Hopkins, of Rimbaud that one is rather reminded, and it is Virginia Woolf's unusual, though not unique, distinction that she seeks to dominate her vision through the rhythms of prose, the structures of narrative, rather than through those of poetry. The kind of struggle for "authenticity" that the work of James and Forster reveals takes on a new and even more vital importance when the struggle, in fact, is for that kind of integrity of the personality to which we give the name of sanity; Woolf's "possession" of her visions through fictional structure has to be accounted such an enterprise.

---

(1) **To The Lighthouse,** p. 70.

(2) cit. Quentin Bell, **Virginia Woolf,** (1972), II. 109.

(3) Bell, op. cit., p. 110.

Here in the few minutes that remain, I must reoord, heaven be praised, the end of **The Waves.** I wrote the words O Death fifteen minutes ago, having reeled across the last ten pages with some moments of such intensity and intoxication that I seemed only to stumble after my own voice, or almost, after some sort of speaker (as when I was mad). I was almost afraid, remembering the voices that used to fly ahead. Anyhow, it is done...... Whether good or bad, it's done; and, as I certainly felt it the end, not merely finished, but rounded off, completed, the thing stated — how hastily, how fragmentarily I know; but I mean that I have netted that fin in the waste of water which appeared to me over the marshes out of my window at Rodmell when I was coming to an end of **To The Lighthouse**...... (1)

---

(1) Diary entry for 7th February, 1931, cit. Bell. op. cit., p. 157.

MONETARY AND FINANCIAL ASPECTS OF THE NEW INTERNATIONAL ECONOMIC ORDER

A Lecture Delivered by
Visiting Professor to the University of Qatar
Dr. Moinuddin Baqai
Special Secretary
Planning and Economic Affairs
Planning and Development Division
Ministry of Finance
Islamabad, Pakistan
on
2nd December, 1978

I

The significance of economic development as a crucial international issue in the post-colonial era was recognized quite early. It figures prominently in all post world war discussions on economic issues. In fact, the focal point of attention during the past three decades has been the problems associated with development and growth of national economies. The results of a long period of debate, discussion and practical effort at national and international levels are, however, in many ways, disappointing.

There has been substantial economic growth and expansion. In many ways, it is unprecedented. However, there are two crucial tests on which this growth experience appears highly disappointing. Firstly, according to the latest estimates given in the World Development Report 1978, there are some 800 million individuals trapped in absolute poverty. These are people living at the very margin of existence — with inadequate food, shelter, education and health care. Secondly, despite impressive growth in the developing countries as a group, the disparity in per capita incomes between the developed and developing countries has been growing. The disparity has also been growing among the poorer and relatively better-off developing countries.

The average performance of developing countries has been impressive during the 25 years period 1950-75. According to the data compiled by the World Bank, income per person has increased by 3% a year, with the annual growth rate accelerating from about 2% in the 1950s to 3.6% in the 1960s. Most of those countries which are now regarded as developed, maintained a growth rate of less than 2% per annum over the 100 years of industrialization beginning in the mid-Nineteenth Century. These averages compared for entirely different periods are highly misleading. This average for the developing countries during the past 25 years has been largely influenced by the performance of countries which constitute special cases in many ways.

The main cases of high growth are those of some oil-producing countries (Libya, Iraq and Iran) or those which have special defence, trade and financial relations with the United States' market (Taiwan, Korea, Jamaica, Hong Kong, Israel). The export-led growth of these countries has been possible because of investment by multi-national corporations and because of acceptance of their exports in the developed countries which would not be possible if a larger number of countries were taking the same road. Comparison with the corresponding growth experience of developed countries since the 1850s is also not appropriate. An average of growth over the century would be lower than the high growth rates attained by various countries in the period of their respective take-off.

In any case, for the most populous countries, excluding China, growth rates have been low. For 28 countries, accounting for 49% of the population of 72 developing countries studied, the rate of growth in per capita incomes has been less than 2% per annum. At this rate, half a century would be required to obtain a doubling of per capita incomes — the minimum necessary to seek eradication of poverty. Even with certain bold assumptions for accelerating growth in low income developing countries, the World Bank projections show that 600 million people would remain trapped in absolute poverty.

The complexity and the immensity of the magnitude of the task is only now becoming apparent. This was not fully realized either by the developed or developing countries. The developed countries believed that they would be called upon only to provide technical assistance and concessional loans. Capital is the scarce factor. By providing capital, a process of rapid expansion could be initiated in the developing countries.

They did not bargain for fundamental changes in the world economic relations which are bound to take place with the economic rise of a large number of countries. This is why one sees the curious phenomenon of industrial nations providing concessional loans to a developing country, while taking strong measures to shut out exports from that country which could reduce its "aid" requirements. The developing countries themselves misconceived the process as simply involving capital formation financed by domestic and foreign savings resulting in growth through the magic of compound interest tables applying fixed capital-output ratios. Fundamental changes in society to receive and apply technology to production processes and the overall transformation of relations on a societal plane are only now beginning to be grasped. The naiveté of both views is becoming obvious.

There is an attempt to apportion responsibility for the results. The demand for New International Economic Order is at times presented as if changes in international economic relations are the only obstacle in the development process. An improvement there would be sufficient to change the entire picture. On the other hand, the emphasis on basic human needs strategy is followed by some developed countries with almost a fanatical religious zeal, signifying a belief that the only problem with development has been the maldistribution

of the gains in income and production. Changes in internal economic order are presented as substitutes for required changes in international economic order.

There are examples of countries which have achieved high rates of economic growth through their own effort and internal reform. Also there are examples of rapid development in countries which did not carry out sizeable programmes specifically designed to meet basic needs. There has not been a sufficient study and analysis of successful cases to identify common factors determining their progress. It must, however, be realized that many more basic changes are necessary in developing countries than have so far been undertaken for the full transition of these societies to a high level of development. However, for an orderly transition and smooth adjustment, it would be necessary that these should be in the context of a fundamental change in international relations.

International Economic System includes a set of relationships which determine trade and financial flows among nations. The basic elements which should be considered are the following:

(i) ownership and control of natural resources;

(ii) terms for sharing and using technology;

(iii) terms on which trade takes place between those who produce manufactured goods and those who export primary raw materials;

(iv) a monetary system including settlement for trade and financial transfers among countries.

The essential ingredients are resources, finance and technology. In theory, the system is based on free market conditions and competitive determination of price. However, in practice, both technology and finance are managed under monopolistic conditions. Power derived from technological advance is reflected in control of finance. Natural resources as distributed among nations, provide a much larger base for the developed nations, mainly because large new continents were occupied by migration of the population from Europe. Further control of natural resources is acquired in the developing countries through an extension of technology and finance.

The ability of OPEC in 1974 to raise oil prices provided a major opening in this tight system. It encouraged the view that a change is possible and provided dramatic evidence that the price relationship between raw materials and manufactured goods can be altered. The industrial nations sought to present the energy price as adversely affecting all the non-oil-exporting countries. The developing countries remained united and formulated demands for more fundamental changes in the system. At the Sixth Special Session of the United Nations General Assembly, Resolution No. 3202 adopted a programme of action on the establishment of a New International Economic Order. This, together with the Charter of Rights and Duties of States, has become the main reference document embodying the list of changes considered necessary by the developing countries and partly accepted by the developed countries. At the

Seventh Special Session, there was some progress towards getting a certain convergence of views on some of the issues. Actual negotiations shifted to Paris where North-South Dialogue continued in a smaller group of 27 for one year and ended with virtually no tangible progress. The year 1977 saw the failure of the Paris Conference. This was followed by protracted, but until recently, fruitless, discussions on the Common Fund for Integrated Commodity Programme, and some progress on the debt problem of the poorest countries which has yet to be translated into action by larger countries. There was a decline in transfer of resources to developing countries in 1977 in real terms. Multilateral Trade Negotiations have increasingly been confined to bargaining among the developed countries. Protectionist tendencies have grown in the developed countries specifically affecting the trade prospects of the developing countries. The new protocol of Multi-Fibre Arrangement, covering the period through 1981, permits the imposition of more severe restrictions on clothing and textiles. Under this, the European Common Market has reduced 1978 quotas for three countries beneath actual 1976 levels. Australia, Canada, France, the U.K. and U.S.A. and Sweden have imposed new quotas and so-called "orderly marketing arrangements" on the developing countries' export of footwear. The European Community and the United States have introduced special protective measures regarding steel which pose serious difficulties for those developing countries which are now emerging as exporters. The United Kingdom has imposed quotas on television sets from two developing countries and similar action is threatened by the United States.

There is a stalemate on proposals regarding transfer of technology and adjustment in world industrial production.

On the question of monetary and financial arrangements, despite the persistence of crisis in exchange relations in the world, there is no serious discussion on monetary reform directed towards creating a new monetary system.

There is a long agenda, and substantive progress on various issues may not be anything but painfully slow. Frustrated by this slow progress in North-South Dialogue, the developing countries have moved to fostering greater co-operation among themselves. Economic confederation among developing countries (ECDC) is the new approach. It has pitfalls of its own, but indicates one avenue of progress in an otherwise entirely disappointing picture.

II

In continuing the pressure for change, the developing countries need to determine priorities. Instead of pressing for a number of items simultaneously, it may be possible to make progress in selected areas. Monetary reform and seeking to create a new monetary system or order appears an obvious priority. It is one of the key elements in establishing new international economic order. It provides possibilities of bringing to light common areas of interest. It is not a field where the division is straight on the basis of North and South. The surplus and deficit countries cut across the traditional division among developed and developing countries.

The most significant point about the present monetary system in the world is the absence of elements which are necessary for calling it a system. Exchange rates are determined neither by fixed parity relations determined by longer-term relative economic strength, nor by fluctuating pattern determined by open market conditions. Speculation is as important as basic economic considerations. Creation of foreign exchange reserves and the level of liquidity is dependent upon the size of the U.S. balance of payments deficit. There is no way to check a rise in world inflation fueled by an indiscriminate creation of international money. One national currency constitutes international money and the internal economic policies of one country can decide to plunge the entire world in a deep recession or powerful inflation. There is no assurance that the real value of foreign exchange reserves can be maintained. In fact, there is reasonable expectation that such value would keep declining.

The developing countries suffer under these conditions because they are entirely helpless. As one U.S. expert put it, laws in a society are designed to protect the weak. Absence of laws in international economic relations restricting the freedom of "strong" currencies (in the sense of those being able to retain independence of action), must hurt the interest of weak or dependent currencies.

It is important from the point of view of the developing countries to take up the question of reordering international monetary system with fundamental reforms. Minor changes being examined at the annual IMF meetings only tend to give acceptability to the present vacuum, making it workable in the short run through improvisation. This may suit some of the developed countries, as it may enable them to avoid basic changes which would inevitably affect their dominant position. However, a number of developed industrial nations and much of the intellectual opinion in advanced countries would be willing to join this pressure for creating a new monetary order.

OPEC countries have a fundamental stake in the system. It would be desirable for them to seek changes in the system instead of only seeking to correct the ill effects by periodically reviewing the price of oil. Why should inflation and erosion of purchasing power be accepted as a normal phenomenon which is sought to be matched by a change in oil price? This is unavoidable so long as the system is not functioning. But with a more stable system, much of the drama requiring focus on price change can be avoided.

In 1944, the international monetary system created at Bretton Woods was decided essentially by arguments between U.K. and U.S.A. through the famous argument between Keynes and White. The U.S.A. expected to continue to be a surplus country and the U.K. a major deficit country. Rules were decided between them. It was decided that the currency of the surplus country would be used as international currency to avoid inflation. It was also decided that the burden of corrective policy would be mainly on the deficit country. On stable exchange rates, there was a fundamental agreement.

In August 1971, the basic element of the system, i.e., convertibility of the dollar into gold, was suspended. Since then, the currency of the country with the largest balance of payments is the unit of account and world currency. The fluctuating exchange rates can be used for quite some time as a substitute for domestic policy action. The dollar is a reserve currency without accepting the costs and limitations on policy required from a reserve currency. This situation cannot go on for a long period. It would be better for the world community to think out the new monetary order instead of stumbling into one through improvisation. It may be desirable to begin where the deliberations on the subject were overtaken by events. The Committee of 20 set up to deal with the question of Reform of International Monetary System in 1972, forwarded the First Outline of Reform in 1973 to the Board of Governors.

It contained a general agreement that there is need for a reformed world monetary order, based on co-operation and consultation within the framework of a strengthened International Monetary Fund that will encourage the growth of world trade and employment, promote economic development, and help to avoid both inflation and deflation.

The main features of the system included:

(i) that the exchange rate should be based on stable and adjustable exchange rates, while floating exchange rates could be used only in special situations;

(ii) co-operation in dealing with large capital flows which create inequilibrium in exchange markets;

(iii) the introduction of some degree of convertibility for the settlement of imbalances;

(iv) management of the world-wide creation of foreign exchange reserves with the Special Drawing Rights (SDR) becoming the principal reserve asset, and the role of gold and of reserve currencies being reduced;

(v) the promotion of the flow of real resources to developing countries.

It is obvious that we have moved considerably away from this line. The steps taken towards demonetization of gold perhaps cannot be reversed. The convertibility question cannot therefore be taken up at this stage, though it cannot be ruled out in the long run if there is not an adequate progress towards creating a better alternative system. It would be important to focus on organizing a system in which reliance is not placed on a national currency for creation of international reserves. A number of proposals have been advanced which adopt different routes for reaching essentially the same goal. One obvious line is to begin with the existing institutions. Progressively the International Monetary Fund will have to be converted into a central banking institution for the world. Just as national monetary authorities have the responsibility of nationally regulating domestic money supply and maintaining its value, an international monetary authority would be required to do the same. The present Special Drawing Rights — which is popularly, though now erroneously, termed as paper

gold — could be converted into a world currency. For a transitional period the dollar and S.D.R. could co-exist as international currencies. However, the surplus countries have a right to insist that at least future surpluses, if not the past accumulated surpluses, should be expressed in a more stable unit of account. The S.D.R. represents not the gold value but an average value of a currency basket. It would not thus decline because of weakness of one currency. Some currencies will decline and others will go up. The average would show some stability. But even this arrangement does not provide a protection against inflation if it is taking place at the same rate throughout the world.

The S.D.R. supply can also be regulated. It does not depend upon the balance of payments of any one country.

This would be backed by the collective credit-worthiness of all countries of the world and would be much more acceptable. The rate of interest paid on it would be useful for both surplus and deficit countries. But institutional progress from the present system which is similar to primitive money-lending, would represent an advance for all parties. The deficit countries would be required to carry out an adjustment process within a reasonable period and would be allowed to accumulate deficits during this period. For key currencies, the adjustment period could be longer, to avoid adverse impact on world trade and growths in world economy.

III

In this new monetary order, one question has proved highly vexing. This is the question of a "link" between the creation of an international reserve and the transfer of real resources to the developing countries. In many ways, the particular formulation of the question has given rise to apprehensions and rigid positions. At present, the reserve creation is done by countries with reserve currency status. A balance of payments deficit for the United States is necessary to provide dollars in the hands of monetary agencies in other countries, otherwise their reserves would not grow and therefore world trade would not grow, just as volume of transactions cannot grow in individual countries if the money supply is not changing. It implies that the world, in order to meet its requirements of international money, must provide loans to U.S.A. In the long run, this is not good for U.S.A. as it weakens the dollar. It also leads to a maldistribution of credit in the world. The U.S. money market must in turn lend to other countries in need of funds. Such lending cannot be for long periods and therefore when lent for a medium period to developing countries creates an unhealthy situation. The question therefore comes back to the point that the new monetary order would not be fully functional unless it also provides for meeting the developmental finance needs of the developing countries. There is an unavoidable link between the money market and the capital market. This link has to be recognised. If the new liquidity is created by an international institution but provided to developed countries in bulk, it would not change the existing system. It would allow the deficit countries to continue with the deficits and to finance them. For them the need is to force some corrective action. New money should be used to increase their exports and improve their balance of payments.

However, if it is agreed that new money should only be used to avoid recession and to use the idle industrial capacity in the world, it should initially be given to countries whose efforts to maintain demand for capital goods are essential to induce a higher level of activity in the industrial nations. This could help the balance of payments of deficit developed countries.

It appears necessary for the developing countries to move from an aid relationship to an institutional development approach. Setting up targets of 0.7% of G.N.P. would not help. Since the target was set up, actual performance has come down from 0.6% to 0.3%. One should not criticise the developed countries. Governments are responsible to their electorates and must act in their interest. Foreign assistance developed out of a particular phase in the foreign policy of the United States. Others were persuaded to join either with a feeling of sharing the cost of what was essential for the defence of the western global policy, or for commercial considerations. There is a growing element of genuine desire to help developing countries among smaller European countries but this cannot be enough to change the picture. Even the quantitative aspect is altered by qualitative restrictions. The high cost of aid-tying is obvious and well-known. However, holding back aid in a naked attempt to force developing countries to accept dictated policies is becoming obvious. Selection of countries for providing aid is in many cases an extension of national interest. For instance, in 1976 Israel received $643 million as net flow of official Development Assistance from OECD countries and multi-lateral agencies. This represented an increase from $186 million in 1973. With the large repayment due on post aid, this must have involved a large increase in aid to a country which would not qualify for aid on accepted criteria. Similarly, Reunion Island (a dependency) got $308 million which was more than any other country got in Africa with the exception of Egypt. A certain part of the aid budget should be charged to foreign policy and defence. Another element should be regarded as subsidy to inefficient suppliers from the aid-giving countries. The real content of aid is definitely much less than nominal. It is clearly a case where the burden on tax-payers is more than the benefit to the receivers. Bilateral assistance where a variety of considerations subtract from the real quantum of aid in an unpredictable manner can hardly be regared as an efficient mechanism for helping a steady process of world economic development. More of this might help — though there are not firm quantified grounds to be sure of it — but at the risk of increasing the real cost.

The World Bank and regional banks have been able to provide concessional loans by borrowing on commercial terms. The record of developing countries is excellent, as there has been no problem of repayment. The cost has been low as the world community only provided guarantees. There has been a use of private funds. Interest rates have been low and the repayment period is reasonable. This trend should be encouraged. More institutions should develop. From the point of view of lenders, loans expressed in their own currency are safer and interest rates are attractive. With the surplus available within developing countries, such institutional lending should grow on the basis of mutuality of interest. There would still remain the problem that some poorer developing countries cannot rely entirely on non-concessional loans. The need for concessional lending in their case can be reduced by rescheduling their past

concessional loans. Also it would be necessary to move towards the concept that a programme for meeting basic human needs which has to be conceived widely to include development related to meeting such needs, should be financed through international grants as well as elements of international taxation.

IV

To sum up, creation of a monetary system in place of a chaotic situation is a necessary step in the interest of developed industrial nations, OPEC and the poorer developing countries.

The reform should be by expanding the use of Special Drawing Rights as a truly international unit of account as well as a currency for settling accounts.

This should be combined with an attempt to provide development finance to the developing countries. This would diversify the assets from the point of the surplus countries. The deficit industrial countries would gain because the money would be spent on buying capital goods. It would not be put into banks. Production would increase as well as exports. Their balance of payments would decline.

The developing countries will not have to depend on aid arrangements of a bilateral nature, the real benefit from which was affected in the past by high cost purchases based on tied aid, political pressures and distribution of aid to countries where it was not really related to development.

There should be an increased flow of funds through international institutions on commercial lines.

In these institutions, greater voice should be given to developing countries along with surplus OPEC countries.

Finally, for poorer developing countries, there may be a need to finance basic human needs through international taxation and international grants.

SOME THEORETICAL ASPECTS OF THE READING PROCESS

David J. A. Walton

Since Huey, in his classic work of 1910, noted that reading "as a psycho-physiological process, is almost as good as a miracle"[1] the definitions of the process have multiplied; but our real understanding of that process has advanced little.

Stauffer reviewed numerous descriptions of the reading process and reported universal agreement among authorities on only one point: that comprehension is an invariant condition of reading.[2]

Stauffer himself considers reading a form of problem solving — an active cognitive process of "seeking relationship to, differentiating from and reconciling with"[3] existing ideas. The efficient reader will read with a purpose, abstracting information, testing its value, and then accepting or rejecting his hypothesis.

This type of description is popular at the present time with both educational psychologists and psycholinguists.

For Goodman, reading is a psycholinguistic guessing game. The reader, a user of language, interacts with the graphic input as he endeavours to reconstruct a message encoded by the writer. Language cues are selected from the perceptual input on the basis of the reader's expectations. This information is processed and tentative decisions are made to be confirmed, rejected or refined as the reading progresses.

Holmes, using factor-analysis techniques, attempted to isolate the significant elements of the reading process. The resulting definition is daunting.

> "Reading is an audio-visual verbal-processing skill of symbolic reasoning, sustained by the interfacilitations of an intricate hierarchy of substrata factors that have been mobilized as a psychological working system and pressed into service in accordance with the purposes of the reader."[4]

---

1. Huey, E., **The Psychology and Pedagogy of Reading,** Macmillan, New York, 1910, p. 5.

2. Reported in Robeck, M. and Wilson, J., **Psychology of Reading: Foundations of Instruction,** Wiley & Sons, New York, 1974, p. 31.

3. Ibid., p. 33.

4. Ibid., p. 34.

In an attempted simplification of this definition one of Holmes' associates produced.

> "In reading along a particular sentence a reader must retrieve and mobilize systems for recognizing words and phrases, next link the recognized words or phrases to their corresponding meanings, and subsequently utilize various cognitive processes for inferring, interpreting, and inductively or deductively arriving at conclusions or solutions to problems." [5]

The linguists have not done much better. They may have supplied simpler definitions — but definitions which do not provide any real answers. Take for example Fries.'

> "One can read in so far as he can respond to the language skills represented by graphic shapes as fully as he has learned to respond to the same language signals of his code represented by patterns of auditory shape." [6]

And for Carroll reading is —

> "the activity of reconstructing a reasonable spoken message from a printed text, and making meaning responses to the reconstructed message that would parallel those that would be made to the spoken message." [7]

No wonder those concerned with teaching reading have been very cautious.

> "The analysis of reading skills has been very detailed, but we seem to be a long way from understanding the manner in which different features of the skill relate to form one process." [8]

A clear definition of reading is essential for the planning of instructional. programmes and yet textbooks giving attention to the definition of reading are the exception rather than the rule. Few systematic attempts to define reading have been made and no satisfactory definition exists at this time. Part of the problem no doubt is the number of areas that seem to be involved in the reading process — perception, educational psychology, linguistics, social psychology, psycholinguistics and language learning.

---

5. Robeck and Wilson, op. cit., p. 34.

6. In Clymer, T., "What is Reading? Some Current Concepts," in Melnik, A. and Merritt, J., **Reading Today and Tomorrow,** U.L.P., London, 1974, p. 48.

7. In Allen, J. & Pit Corder, S. (eds.), **Techniques in Applied Linguistics,** O.U.P., 1974, p. 157.

8. Ibid., p. 155.

Jenkinson sums it up thus:

> "...future models should not attempt, at least in the beginning, to be all inclusive. We need a series of models of various aspects of reading which may ultimately be capable of being integrated. But a model which deals with the reading process as such, which includes the cognitive interactions, the import of language and linguistic considerations in the affective as well as the cognitive domain, and will then attempt to relate these reading operations to other aspects of thinking, is perhaps the most urgently needed."[9]

For the practising teacher a good working definition might be that reading is is a process of selectively sampling the pool of graphic, semantic and syntactic cues and arriving at a reasonable reading based on the information provided by these cues.

What does seem clear is that reading exists on at least two levels, that of decoding the graphic symbols of the printed page and that of 'understanding' or comprehension. This dichotomy is clearly indicated in the reported remark of a child "Oh, I read all right, it's just the words that bother me."[10]

One area in the study of the reading process that we now better understand is that of eye movement during reading. The first such observations were published by Javal in 1878. It used to be thought that the eye moved smoothly along each line of print, in the case of English, from left to right. The development in the 1950s of eye movement photography has enabled us to measure the various dynamics of eye movements during reading and has shown that the eye movement in reading is a "jumpy, irregular, spasmodic, but surprisingly accurate leap from one position to another."[11] These jerky eye movements are known as saccadic movements. The eye movement photography technique is simply the reflection of a beam of light from the cornea of the eye onto a piece of moving film.

Reading is, of course, a form of visual information processing and the processing occurs during the fixations rather than during the transition from one fixation to the next. As Smith puts it, "The leaping eye is practically blind." [12] The fixation pauses are the periods of clear vision during which perception occurs.

The average fixation time is 250 milliseconds. Of that time it seems that only some 50 milliseconds is concerned with actual input and that will occur at the beginning of a fixation. The other 200 milliseconds constitute the time necessary for the processing of the input and to enable the oculomotor and visual

9. Jenkinson, M., "Sources of Knowledge for Theories of Reading" in Melnik, A. and Merritt, J., op. cit., p. 103.
10. Clymer, T., op. cit., p. 48.
11. Smith, F., **Understanding Reading,** Holt, Rinehart & Winston, N.Y., 1971, p. 98.
12. Ibid., p. 99.

systems to process position information in order to calculate where on the line the eye will move next. This 200 milliseconds is the minimum oculomotor time between saccadic movements and places a limitation in the rate at which fixations are made during reading.

The saccadic movement may be forward along the line of print or it may be a regression — when the reader wants to check something back along the line of print. Regressions may result from faulty comprehension, a lapse of concentration, the misreading of a word or a misprint. Regressions were once thought of as a good measure between 'good' and 'bad' readers but we now know that the number of regressions are an indication more of the difficulty of the text than of the skill of the reader. All readers make regressions and a regression may be just as productive an eye movement as a saccade in a forward direction.

One parameter that can be adjusted is the number of fixations. Research among American college students reports that for a line of print of ten words there were on average nine fixations. 'Speed reading' programmes have laid much emphasis on the fact that it is relatively easy to reduce the number of fixations for such a line to three.

What is also apparent is that there is no necessary serial sequence to a rapid reader's fixations. Figure 1 shows in sequence the fixation loci of a rapid reader.

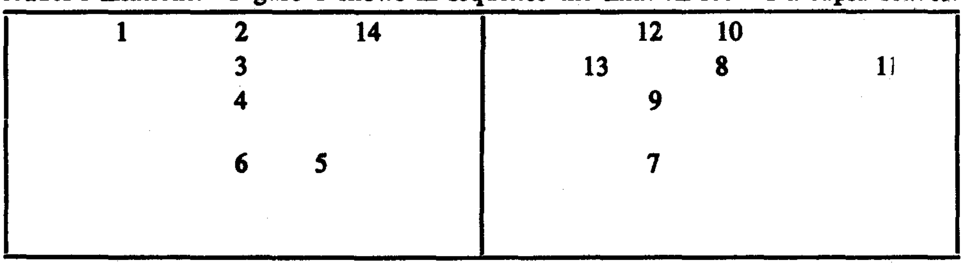


Figure 1[13]

The same person was variable from page to page with relation to eye movements and other readers of similar speed scanned the same page in different ways. The reader represented in Figure 1 made no fixations in the bottom third of either page. What is evident is a number of fixations in a particular region.

Here we can pose the question, is reading a second language any different in the area of eye movements?

Oller and Tullius,[14] using eye movement photography, studied the following parameters—

1. number of fixations per one hundred words,
2. number of regressions per one hundred words,
3. average duration of fixation,
4. average number of words read per minute, and
5. average number of words taken in per fixation, known as the span of recognition.

13. Kolers, P., "Reading is Only Incidentally Visual," in Goodman, K. and Fleming, J. (eds.), **Psycholinguistics and the Teaching of Reading,** I.R.A., Neward, 1969, p. 14.
14. Oller, J., Tullius, J., "Reading Skills of Non-Native Speakers of English," in **IRAL,** Vol. 11, 1973, pp. 69-80.

In this research, as indeed in all work considered in this discussion, the reading had to be with a minimum of 70% comprehension determined by a multiple choice test on the material read.

The subjects in this research were fifty non-native speakers at the University of California. Their performance was compared with the norms for native speakers established on the data for twelve thousand subjects over various grade levels. The results are shown in Figure 2.

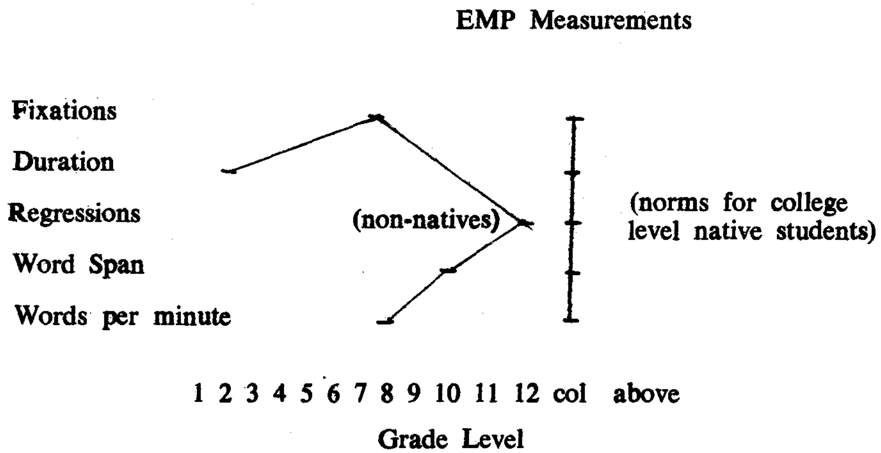


Figure 2 [15]

On a number of the measures the differences are not statistically significant. Perhaps the most important feature to emerge was that the average number of regressions for non-native subjects is insignificantly different from college level native speakers. It had always been assumed that non-native speakers would make more regressions than a native speaker, e.g., "linguistic difficulties....are the main cause of slow reading in foreign students and of the accompanying habits of vocalisation and regression to which they are prone." [16]

However, it must be pointed out that the sample used was rather small and, perhaps more importantly, the authors do not supply a breakdown on the L 1 backgrounds of their subjects. This latter point is of considerable importance in view of findings by Gray that the average number of regressions varied widely between languages. [17] Gray's study was based upon fourteen languages with the subjects each reading in his own native language. His English subjects on

---

15. Oller, J., in **TES01 Quarterly,** Vol. 6, No. 4, 1972, p. 315.

16. Macmillan, M., **Efficiency in Reading,** CILT, 1965, p. 18.

17. Gray, W., **The Teaching of Reading and Writing,** UNESCO, Paris, 1969, p. 59.

average had one regression for each 10.7 words read. More frequent regressions were found with, for example, Arabic — one regression per 8.7 words read and Hebrew — one regression per 7.7 words read. In the other direction, French speakers had one regression per 13.9 words read and Hindi speakers only one regression per 20.4 words read. The figures for all fourteen languages are given in Table 1. It may be that the bulk of the subjects in the Oller and Tullius research were from L 1 backgrounds having regression rates similar to English. They may have transferred their regression rate to their reading of English. If, on the other hand, it was shown that they came from L 1 backgrounds where the regression rates were dissimilar to the English rate and that they were now 'adapting' to the English native speaker's rate, a case could be made for saying that there is something in the syntactic nature of each language that is a contributing factor to regression rate.

Language Read	No. of sub-jects	Words per Fixation		Duration of Fixation		Words per Regression	
		Oral	Silent	Oral	Silent	Oral	Silent
Arabic	6	1.3	1.4	16.8	13.1	8.7	10.0
Burmese	2	2.5	2.4	15.7	10.6	38.6	32.7
Chinese	7	2.5	2.5	16.5	11.0	36.5	59.8
English	7	1.3	1.6	12.9	9.1	10.7	14.5
French	5	1.3	1.6	14.1	10.8	13.9	20.3
Hebrew	6	1.3	1.3	17.9	10.6	7.7	15.9
Hindi	6	1.6	1.5	17.5	11.7	20.4	21.6
Japanese	7	1.0	0.9	17.3	10.4	16.1	17.4
Korean	7	1.2	1.0	16.4	11.5	40.9	31.6
Navaho	2	0.7	0.7	16.9	15.4	7.2	9.4
Spanish	5	1.4	1.5	15.0	10.0	14.3	25.1
Thai	6	1.6	1.6	17.9	10.5	25.0	27.2
Urdu	7	1.6	1.7	16.0	11.6	14.2	24.9
Yoruba	5	1.4	1.4	15.8	12.7	9.2	16.8
Averages*		1.5	1.6	16.1	11.0	19.3	24.7

*Averages based on sums of all individual records, excluding records for the Navaho language. Because the groups were small and a typical group, standard deviations or similar measures were not used.

Table 1[18]

18. Gray, W., op. cit., p. 59.

However, once again the smallness of the Gray sample, 78 subjects over the fourteen languages with, for example, only two subjects for Navaho, invites us to treat the results with caution.

In fact, both the above pieces of research highlight the lack of rigorous experimental design which characterizes so much 'research' work in foreign language teaching. Often a teacher carries out some work on a current class to test some idea or hunch. His results are published in one or other of the growing number of journals dealing, exclusively or among other fields, with foreign language teaching. This in itself is no bad thing, as it may aid another teacher elsewhere in clarifying or understanding his own difficulties, may indeed solve some of his problems or may prompt him to try some research of his own. The danger however lies in accepting the results of such 'research.' They may have no validity outside the subject class.

Gray's work implied that the general nature of the reading act is essentially the same among readers regardless of the type of script used by a language, (alphabetic, syllabic, etc.) Oller and Tullius showed that there will be changes in some aspects of the reading act when reading in the L2. In addition to the findings on regressions discussed above there was evidence that the duration of fixations was significantly longer for the non-native speaker (see Figure 2). This may indicate that the non-native speaker requires significantly longer for the short-term memory processing which is occurring during the fixation. This contrast in performance in the speed of processing verbal information implies that the reading problem for the non-native speaker is one of central processing rather than of the mechanical skills of eye movement.

Of course, for teaching, the implications of eye movement research will depend on whether the teacher sees eye movements as reflecting reading efficiency or producing reading efficiency. Those who hold the former view will see little to gain by attempting to change eye movements themselves. Taylor[19] has questioned the reader's ability to consciously control eye movement — movements that are occurring at the rate of three to five per second.

It may be that the non-native speaker's longer duration of fixation is due to his 'seeing' too much, i.e., paying too much attention to the graphic display presented to him. There is some evidence to support such a view. Hatch, Polin and Part presented native and non-native speakers with written texts and asked them to read through the texts and cross out every occurrence of a particular letter.[20] They found that non-native speakers were more successful at the task than the native speakers. An analysis of where the native speakers failed to notice the letter showed that they tended not to 'see' them in function words, e.g., articles and conjunctions. Again, while they noticed the letter when it occurred in a stressed syllable they did not notice it in unstressed syllables, e.g., if asked

19. Reported in Macmillan, M., op. cit., p. 7

20. Hatch, E., "Research on Reading a Second Language," in **Journal of Reading Behaviour,** Vol. 6, No. 1, 1974, p. 56.

to cross out the letter 'a' they would do so in the case of the first 'a' in **vocabulary** but not the second 'a.'

Thus it may be that the non-native reader is paying more attention to the graphic information than is actually needed for successful reading. This would account for the longer duration of fixation found by Oller and Tullius.

An alternative explanation of the non-native speaker's longer fixation is that he takes longer to make predictions about the location of the next fixation point. This could be caused by his lack of knowledge about what is and what is not informative in the peripheral vision during each fixation.

Would the fact that an Arabic speaker had learned to read from right to left result in interference when he comes to read from left to right? The eye movements are obviously overlearned habits and may be difficult to adjust. Mishkin and Forgays studied the tachistoscopic perception of single words presented to the right and left of the fixation point for readers of English and Yiddish (like Arabic, read from right to left).[21] English readers found English words more easily recognized when presented on the right while Yiddish readers found those presented on the left more easily recognizable. This implies that experience somehow sensitizes the section of the visual system that plays an anticipatory role in the reading process.

Under the influence of syntactic and sentence methods of reading instruction, emphasis is now usually laid on reading in groups of words:

> "...the student must be taught to read in word groups. Fundamentally this means thinking in word groups. The student must be trained to look ahead and recognize sections of thought as it develops."[22]

This does not mean 'seeing' the word group at a single fixation as a number of writers have assumed. Elliot has spoken of students being taught to read "at least four words at a glance."[23] Plaister talks of training students to read "structures with one fixation of the eyes."[24] But as we have noted earlier the average number of words per fixation for American college level students is 1.11. And non-native readers showed no significant difference on this measure. Grey[25] gives a figure of 2.5 words per fixation for Chinese readers but gives no explanation of what a 'word' is in a non-alphabetic script like Chinese.

What can be taken in during a single fixation — the span of apprehension — varies according to the material; four or five unrelated letters, seven letters in nonsense syllables, three to five unrelated words and four to six words in sentences. What this reflects of course, is more the measure of verbal memory. A subject will do better if he is merely asked, How many? letters or words,

---

21. Reported in Neisser, U., **Cognitive Psychology,** Appleton-Century-Crofts, N.Y., 1967, p. 37.
22. Rivers, W., **Teaching Foreign Language Skills,** Univ. of Chicago, Chicago, 1971, p. 22.
23. In Oller and Tullius, op. cit., p. 70.
24. Plaister, T., "Reading Instruction for College Level Foreign Students," in **TESOL Quarterly,** Vol. 2, 1968, pp. 164-69.
25. Grey, W., op. cit., p. 59.

rather than having to identify as many as possible. The groups of words then should be seen as the unit of comprehension, a unit perhaps requiring several fixations

When talking of reading in groups of words Rivers is dealing with oral reading and this raises another research problem. The bulk of the research on reading has been within experimental designs that made use of reading aloud. Results have then been extrapolated to cover silent reading as well. It is now realized that this may give misleading results. For example, errors in reading aloud may represent encoding difficulties when the subject comes to respond rather than errors in decoding of the actual text. Silent reading and reading aloud should thus be viewed as distinctive skills although there obviously will be large areas of overlap.

It has been clearly demonstrated that in reading aloud the subject reads ahead, reading in groups of words, in order to acquire meaning. During oral reading the eye will be ahead of the voice by up to five words (and several fixations). The extent to which the eye is ahead of the voice is known as the 'eye-voice span.' It is easily demonstrated by simply turning off the light by which the subject is reading. He will utter a number of words even though he has been deprived of visual information. The critical question is whether this eye-voice span is in any way related to the unit of decoding. Secondly, is the eye-voice span related to the syntactic constituents of the text being read?

Extensive experimentation in this field has been conducted by Schlesinger. [26] His experiments were designed to test the hypothesis that the last word in the eye-voice span tends to be the last word in a constituent or 'would be' constituent. A 'would be' constituent is exemplified by **The woman** in the sentence, **The woman teacher, who taught him Latin, was very pleased.** In other words the subject may well believe that **the woman** is a constituent of the sentence he is about to read. As the subject read the light was turned off leaving a varied number of words to the end of the constituent. The results are shown in Table 2.

---

26. Schlesinger, I., **Sentence Structure and the Reading Process,** Mouton, The Hague, 1968, p. 34.

Length of EVS (no. of words)	No. of trials for 10 subjects	No. of trials in which	
		U is a V	U is a non-V
0	8	8	0
1	29	15	14
2	83	60	23
3	132	91	41
4	91	59	32
5	22	13	9
6	20	20	0
7	4	3	1
8	1	0	1
Total	390	269	121

TABLE 2

U = Last word in the eye-voice span.
V = A constituent or 'would be' constituent.

For each of the subjects tested more often than not the last word in the eye-voice span was the last word in a constituent or 'would be' constituent. The difference was a highly significant, p = 001. In Schlesinger's initial experiment the variable of word length was not controlled. A subsequent experiment with word length controlled showed similar results. Thus it seems clear that the syntactic constituent has psychological reality for the reader. It may be that the division of the line of print into syntactic units would aid the reading process. Some experimental work along these lines has been reported but the results are as yet uncertain. One kind of error that occurred is worth mentioning. In several trials the subjects changed the form of the last word they reported in their eye-voice span in such a way that it became a constituent — indicating a tendency to perceive a syntactic constituent.

There is additional support for the notion of the psychological reality of the syntactic constituent in the area of auditory perception. Ladefoged and Broadbent [27] superimposed clicks on a tape-recorded sentence. Subjects were asked to judge where in the speech sequence the click had occurred. It was found that subjects often erred by hundreds of milliseconds and several phonemes, suggesting that they are processing the input in 'chunks' that are difficult to interrupt.

The idea of 'chunking' had first been proposed by Miller who proposed a cognitive unit of about three words. For him the input is seen as a code that contains many chunks with a few bits per chunk. The listener or reader records the input into another code that contains fewer chunks but with more bits per

27. Reported in Neisser, U., op. cit., p. 187.

chunk. The span of immediate memory imposes severe limitations on the amount of information that we are able to receive, process and remember — by organization into chunks we can break or stretch this informational bottleneck. 28

Fodor and Bever developed the Ladefoged and Broadbent 'click' experiment to test the hypothesis that the constituent itself was the unit of speech perception. This suggested that the click should tend to be heard at the major grammatical break of the sentence. The test sentences were —

(1) As a direct result of their new invention's
INFLUENCE THE COMPANY WAS GIVEN AN AWARD.

(2) The retiring chairman whose methods still greatly
INFLUENCE THE COMPANY WAS GIVEN AN AWARD.

To ensure that vocal gesture gave no cue, the similar portions of the sentences were reproduced from the same strip of recording tape. The results supported the hypothesis. A click simultaneous with the first syllable of **company** was heard much earlier in sentence (1) than in sentence (2), that is, near the deepest grammatical break in each case.[29]

As Neisser says:

> "This result demonstrates that grammatical structure **alone** can be enough to determine where interruptions are heard, and presumably how sentences are segmented. The segments are not necessarily divided by any marker in the stimulus. They depend on a constructive process in the listener, and a grammar-dependent process at that." [30]

Given that the syntactic constituent is a unit of decoding in speech perception and in reading aloud there is a strong presumption that it will be a unit of decoding in silent reading.

One of the difficulties in this area of research however, is that syntactic units are to a large extent identical with units of meaning. It may be that the decoding is in semantic rather than syntactic units — or of course, a combination of both.

Schlesinger [31] has proposed a combined semantic-syntactic decoding process. This supposes that both semantic and syntactic units play a part but that in certain circumsances the syntactic structure will be largely redundant — a sentence being understandable if only the content words are supplied. Use will

28. For a fuller account of Miller's pioneering work see Miller, G., "The Magical Number Seven, Plus or Minus Two," in **Psychological Review,** No. 63, pp. 81-97.
29. A full report of this and a number of other relevant experiments will be found in Neisser, U., op. cit, Ch. 7.
30. Neisser, U., op. cit., p. 188.
31. Schlesinger, I., op. cit., Ch. 6.

be made of this syntactic redundancy if the sentence is very complex, e.g., has a high degree of embedding. The syntactic information will be filtered out thus reducing the overload on the decoding system.

Thus in the two sentences[32]

(1) **This is the boy, that the man, whom the lady, which our friend saw, knows, hit.**
(2) **This is the hole, that the rat, which our cat, whom the dog bit, caught, made.**

the high degree of embedding will lead to a breakdown of the 'order information' but in the case of sentence (2) the semantic cues will enable us to 'understand' the sentence. That is, we expect cats to catch rats and dogs to bite cats, etc., but no such semantic cues are given by **boy, man, saw, knows,** etc., in sentence (1).

In the experiment to test this hypothesis all subjects successfully rendered the content of sentence (2) within three readings. In contrast none of the subjects were able to render correctly the content of sentence (1) after four readings. The results were significant, $p = .004$, and indicate that semantic cues contained in a sentence clearly affect ease of decoding.

Furthermore, when presented with sentence (3) —

(3) **This is the hole, that the rat, which our cat, whom the dog bit, made, caught.**

all subjects but one gave its content as the same as sentence (2) — that is they relied on semantic cues. The sentence is in fact nonsense as its syntactic structure states that the cat made the rat.

While such experiments may provide insights into the reading process, they must be viewed with caution. Sentences like those above occur rarely, if ever, outside the laboratory. Much more classroom-based research is needed with the 'real' language that our students are likely to be required to read.

The question of syntactic complexity raises the whole issue of readability — a field in which much research is being conducted at the present time with the consequent development of a number of complex formulae for the establishment

32. Schlesinger, I., op. cit., pp. 130-31.

of a measure of readability. Readability research which originally concerned itself with vocabulary level and density and with sentence length has in recent times moved to consideration of issues such as syntactic complexity, discourse features and cohesiveness.

In the area of syntactic complexity most of the research has been conducted within a transformational framework. The evidence at this point is far from clear. A number of experiments have shown that transformed sentences take up more 'storage space' in the memory than kernel sentences and that transformation times were additional, i.e., a sentence with two transformations would take the summed times for the two transformations when they occurred individually.

Savin and Perchonock [33] asked subjects to repeat a sentence followed by a number of unrelated words. The number of unrelated words remembered fell away as the complexity of the sentence (in terms of transformations) was increased, e.g., kernel — passive — passive negative.

The explanation may be that subjects analyze the sentence syntactically and encode it as a kernel sentence plus the appropriate transformation. As Neisser puts it,

> "...as the syntactic structure becomes more complicated, along dimensions which are still controversial, it becomes a burden in its own right, and performance suffers accordingly." [34]

However, Schlesinger [35] found that embedded clauses had little effect on the reading rate and comprehension level of adult readers. A number of studies on embedding in speech perception have been conducted but as the recall of a sentence requires encoding as well as decoding it is hard to determine at which point the difficulty lies.

Pearson [36] asked subjects to give their preferences with regard to the relative clarity and simplicity of a number of forms, e.g., Why did John sleep all day?

(1) Because John was lazy he slept all day.
(2) John was lazy. So he slept all day.
(3) John was lazy and he slept all day.
(4) John was lazy. He slept all day.

There was a clear trend to select the more heavily embedded forms. The reason may well be that embedded forms have a lower 'inferential burden.' Thus, **Because the chain broke the machine stopped,** will be 'easier' than **The chain broke. The machine stopped.**

---

33. Reported in Neisser, U., op. cit., p. 272.
34. Neisser, U., op. cit., p. 275.
35. Schlesinger, I., op. cit., p. 106.
36. Pearson, P., "The Effects of Grammatical Complexity on Children's Comprehension, Recall and Conception of Certain Semantic Relations," in **Reading Research Quarterly,** Vol. 10, No. 2, 1974-75, p. 167.

Schlesinger subjects also reported difficulty with reading short sentences.[37] They felt them to be 'cut up.' No studies have been attempted on the optimum length of sentences but it seems clear that sentences can be too short just as they can be too long.

In the area of auditory perception Bransford and Franks[38] asked subjects to state whether or not they had actually heard certain components and to rate the confidence they had in their judgements. Larger components were given higher recognition scores and higher confidence ratings. They felt more confident about **The rock which rolled down the mountain crushed the hut** than they did about **The hut was tiny.** Listening habits may be a factor here — we are more used to hearing the longer type of sentence. The short sentence gives the impression of being out of place.

Studies that do show correlation between sentence length and comprehension difficulty may indicate that rather than grammatical complexity being the problem, the longer sentences are communicating more complex semantic relations.

---

37. Schlesinger, I., op. cit., p. 79.

38. In Pearson, P., op. cit., p. 166.